عبد الكريم الفيلالي

التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير

الجزء الخامس

إن الأمة التي لا تعرف ماضيها تتمزق في حاضرها
وتعرف الذل والتحقير والبخس والإهانة في مستقبلها
المؤلف

التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير

عبد الكريم الفيلالي

الطبعة الأولى
20 اغسطس 2006

الجزء الخامس

رقم الإيداع القانوني
2006/1287
5 يونيو 2006

الترقيم الدولي
(ردمك) 2-0-8702-9954

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المطبعة
شركة أباس للطباعة
23 ش رشدي - عابدين - القاهرة
هاتف: 002023925376

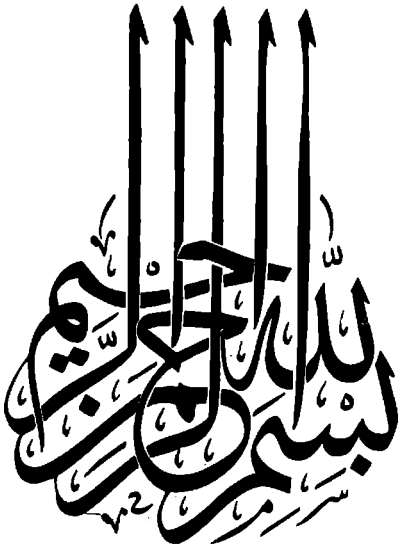
بسم الله الرحمن الرحيم

تتمة الباب الخامس عشر

الفصل الثامن والأربعون بعد المائة

درقاوة (344) ومقاومة فساد الولاة بالجزائر

انتهت الجزائر إلى ما انتهت إليه من ضعف بعدما كانت المنطلق لقوات هائلة أرعبت كل من حاول الاعتداء، لاعلى الجزائر بل على دول شمال إفريقيا التي أصبحت مستهدفة منذ مطلع القرن 19 بعدما كانت قبل ذلك وليس ببعيد كثير من دول أوروبا تدفع الجزية للجزائر، لكن سرعان ما تحول هذا القطر المسلم العربي من قوة إلى ضعف بسبب تصرفات الدايات الذين استبدوا بكل شيء، وفي كل شيء، مقابل أن يحققوا لأنفسهم الثروة التي كانوا يستشعرون الحاجة إليها حتى يركزوا أنفسهم لدى السلاطين وما حولهم من رجالات الدولة الذين كانت شهيتهم متفتحة بشكل أدى أخيرا إلى التخمة القاتلة وإلى الضعف والهزال الذي لم يقتصر على إقليم دون آخر من الأقاليم التي كانت خاضعة للدولة العثمانية والذي عبر عنه بعض الجزائريين وقتها قائلا في وصف تلمسان تحت حكم الأتراك.

«شاء الله أن تحين ساعة تلمسان ألم يهيء كل شيء لهذه الخاتمة التي لاترد، فقد انقضت أيام تلمسان المجيدة، ونزلت بها أيام البؤس والشقاء لقد لعبت بها يد البلا وهلكت وذهب الاستبداد بريحها وخيم عليها الحزن، ولحقها العار واستأصل الشر فضائلها، ولم يغب عن الناس مالاقاه أهلها من مظالم على يد الترك في القرون الثلاثة التي حكموا فيها تلمسان وقد خلفوا إلى جانب ذلك جنسا له خطره في تلمسان وهو

---

(344) راجع الإسلامية 455/9. وفيها جاء وصف أتباع هذه الطريقة الدرقاوية بالأعداء للإستعمار وكما سنرى مقاومتهم له بروح عالية وبعنف عنيف في المغرب وفي أرض توات بتوجيه من الشيخ محمد العربي الهاشمي وصاحبه أحمد بن لحسن السبعي رحم الله الجميع، ومثلها الطريقة القادرية التي كان يمثلها أحد العلويين بالأطلس المتوسط مصطفى بن الحنفي العلوي رحمه الله.

المعروف باسم « الكرغلي»(345) وهم المولودون من غير الترك، مثل لكريت واليونان والصرب والإسبان ونسائهم من غير نساء هذا الإقليم، والذين كانوا وقتها سنة 1215هـ 1800م يكونون نسبة 25٪ من مجموع سكان تلمسان، وقد كانوا هم أشد وبالا على البلاد من كل شر بحكم تصرفهم الشاذ وقسوتهم الجامحة ضد الأهالي كما سجل التاريخ، ومارداعهم وقضى على شرورهم غير جماعة درقاوة الذين كانت لهم رابطة دين قوية، جمعت بين شتاتهم ووحدت صفوفهم، بل هم الذين حكموا غرب الجزائر سنوات، وبلغ قتالهم ضد الأتراك واستبدادهم إلى قسنطينة، كما سنرى، ولولا تدخل المولى سليمان ضدهم لما استمر حكم الدايات والبايات، خصوصا وأنهم - أي درقاوة - شاركوا في حروب مصر ضد نابليون بقيادة ابن الأحرش الدرقاوي ولم يعودوا منها إلا بعد انهزام نابليون وفراره حقيرا من الانجليز في أبوقير، وذلك مادفع محمد علي حاكم مصر وقتها أن يوحي إلى نابليون أن من الخير له التوجه لإحتلال الجزائر. حتى تفصل عن آل عثمان كما فعل بمصر وحتى لا يبقى مهددا من الخلف ببقاء الأقاليم الثلاثة طرابلس وتونس والجزائر تابعة للباب العالي وسلطة آل عثمان التي انفصل عنها محمد علي.

لكن من هم درقاوة؟ ومن مؤسس طريقتهم؟ وكيف انتهوا إلى القوة التي انتهوا إ إليها في الجزائر ؟ قبل أن نتعرف على هذه الطائفة والمؤسس لها نريد أن نتعرف على معنى درقاوة، ومن أين استمدوا هده التسمية؟

لقد استمدوها من : الدرقة التي يعطش المغاربة قافها ، وهي الترس(346) الذي يحمله المقاتل في ذراعه اليسرى وهو يقاتل بالسيف أو الحربة، وكان الذي اشتهر بأبي درقة الجد الثامن عشر لمؤسس الطريقة، وهو محمد دفين وادي قبال بقبيلة بني مسكين

---

(345) راجع مادة الانكشارية « بدائرة المعارف الإسلامية جـ 3/.76 - 81. وهؤلاء الكرغلية الذين عرفهم المجتمع الجزائري كمرتزقة في الجيش عاشوا وسطه بمركب سيء وكأنهم ليسوا منه وقد بقيت تلك الوراثة فيهم أجيالا متعاقبة، حتى !الذين تخلفوا من أعقابهم في أقطار المغرب لم يفقدوا ما كان لآبائهم من روح إنفصالية وسوء مقاصد في سلوكهم مع الآخرين حتى لكأنهم ليسوا من المجتمع الذي يتواجدون بين أهله، الأمر الذي جر على الشعب الجزائر الكثير من المتاعب زمنا غير قصير.

(346) أصلها من اليونان أخذها عنهم الرومان ، ثم أصبحت أيضا مر سلاح العرب، إلي أن ظهر البارود، وقتها اختفت في المغرب كبقية البلاد الأخرى.

قرب وادي أم الربيع، والمعروف في مجال التصوف، وقد كان له من الأولاد أربعة هم: محمد وأحمد ، ويحيى، وعبد الله، ومن هذا الأخير الذي استوطنت ذريته أرض سوس قبل قدومهم إلى قرية بني عبد الله ببني زروال الجبل، حيث يعرفون ب السوالين وفيهم ولد الشيخ العربي 1159هـ(347)وهو المؤسس للطريقة إن لم نقل المجدد لها، ذلكم هو أصل التسمية، أما التأسيس لهذه الطائفة التي وإن عرفت تطورا لايتفق مع الغاية من تأسيسها والتي تستمد جذورها مما لأبي الحسن الشاذلي في مجال التصوف، إلا أن الاتجاه السياسي الذي نهجته في الجزائر كان لابد منه للمسلم في أرض الإسلام، خصوصا وقد انتهت حالة الحاكم في الجزائر إلى ما انتهت إليه من رذيلة وإنسياق، وراء إغراء اليهود وتلاعبهم بمصالح العامة، مما أصبح معه لزاما على كل ذي قدرة أن يدافع ضد ذلك الاتجاه المؤدي إلى خراب، فكان على جماعة درقاوة وقد توفر لهم النصاب أن يهبوا للجهاد امتثالا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « من لم يهتم بشؤون المسلمين فليس منهم».

لقد ظهرت الطائفة أول ما ظهرت في عهد السلطان عبد الله بن إسماعيل، وكان صاحب الدعوة إليها أحد الرجالات الذين نفروا من فساد الوضع وشدة المظالم وقتها، وهو الشريف العمراني الإدريسي علي بن عبد الرحمن المعروف ب «الجمل: لصبره في العبادة، والمتوفى سنة 1193هـ 1779م . وهو من العمرانيين القاطنين بقبيلة بني حسن(348) وقد كان علي بن عبد الرحمن هذا ضمن دائرة السلطان المعروف ب محمد ولد عربية،

(347) هو من سلالة الأدارسة الحسنيين، فهو العربي، بن أحمد، بن الحسين ، بن علي، بن محمد، بن يوسف، بن أحمد، بن علي، بن محمد ، بن علي ، بن محمد، بن علي، بن الحسين، بن أحمد، بن الحسين، بن سعيد، بن إسماعيل، بن عبد الله، الملقب بأبي زرقطون، بن محمد الملقب بأبي درقة – وهو الذي قدم من سوس إلى بني زروال حيث نزل قبل بعيون زناتة بقبيلة شراكة – بن يوسف، بن جنون، بن عمران ، بن عبد الرحمن، بن سليمان بن الحسن، بن عمران، بن محمد ، بن أحمد بن جنون، بن أحمد بن جنون ، بن أحمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل ، بن الحسن المثني، بن الحسن السبط بن علي راجع جـ الأول من هذا الكتاب موضوع الأدارسة وبعض فرقهم ذات الشأن.

(348) قدمت هذه القبيلة من صعيد مصر حيث لايزال منها بقية هناك وقت قدوم الهلاليين قبل منتصف القرن الخامس للهجرة 430هـ وقدأشرنا إلى ذلك قبل.

وهو ولد المولى إسماعيل الذي بويع من طرف أهل فاس ضد أخيه عبد الله يوم 15 جمادى الأولى1150هـ 1737م، وكان الذين أغروه لما أقدم عليه كما سبق هم أولاد الشامي(349) إلا أنه انتهى ومعه عامله على فاس، والشامي المذكور إلى انهزام، ثم قيدوه بالأغلال ووضعوه تحت الحراسة يوم 14 صفر 1151هـ 1738م وقتها فر علي بن عبد الرحمن الجمل من المغرب متوجها شرقا حيث مر بتلمسان والجزائر وقسنطيطنة وبجاية وغيرها من المدن التي تعرف فيها على كثير من رجالات العلم والتصوف في كل من ضريح بومدين بتلمسان وعبد الرحمن الثعالبي، وغيرهما، إلى أن حط الرحال في تونس شرقا، والتي عاش فيها مدة سنتين مثال الاستقامة والدين والخلق، ورغم التكريم الذي لقيه بتونس فإنه لم يتحمل الغربة، فقرر العودة إلى موطنه بني حسن، حيث العمرانيين من قومه، وحتى يضمن الاستقرار وعدم تدخل السلطة في شؤونه توجه إلى الشيخ الطيب بوزان، والذي دفعه برفق فعاد إلى مدينة فاس التي وجد بها ضالته بالقرب من شيخ الجماعة وقتها، محمد بن قاسم بن محمد جسوس 1089/1182 هـ/ 1678 – 1768م، وهو صاحب كتاب مبادئ التصوف، وهوادي التعرف(350)ولربما هو الذي وجهه وقد لمس فيه الرغبة الملحة نحو التصوف، إلى طائفة العربي بن عبد الله بن معن الأندلسي، لما انطوت عليه من اهتمام بمذهب الشاذلي، وقد رافقه العمراني المعروف بالجمل زمنا طويلا قيل ست عشرة سنة، إلى أن مات ابن معن ثم شيد العمراني الجمل زاوية الرميلة بفاس، واستمر بها وحوله كثير من الاتباع، منهم الشريف الزروالي العربي بن أحمد الدرقاوي، وتقول الرواية إن عليا الجمل العمراني الحسناوي عاش كثيرا، فقد جاوز المائة بعقد أو ما يقرب منه، إذ توفي سنة 1193هـ 1779م وبعضهم يؤرخ موته قبل سنة حيث دفن بزاويته المذكورة بالرميلة من مدينة فاس.

كان الجمل الحسناوي بل العمراني الإدريسي(351) قبل أن يسلم الأمانة إلى من بعده من التلاميذ الذين كان في مقدمتهم العربي الزروالي الحسني، قد ألح عليهم كثيرا

---

(349) راجع حرب الوراثة بعد السلطان إسماعيل.

(350) مخطوط خزانتنا رقم 35.

(351) نلاحظ إلى أن هناك العمرانيين الجوطيين وهؤلاء بفاس والجبل وهناك من عرفوا بالعمرانيين وليسوا من الأشراف الأدارسة. راجع خ>ع 1475ك.

في عدم الإقبال على ذوي السلطان والبعد عنهم، وكأنه في ذلك إنما كان ينفق من تجاربه وما عاش، بل أكثر عليهم موجها لهم نحو التمسك بالدين والإقبال عليه، والبعد عن كل ما يشغلهم عنه، وفعلا كان العربي في المستوى إلى درجة أنه استطاع بواسطة رسائله التوجيهية(352) أن يغزو كثيرا من الجهات التي فتحت فيها زوايا لم يكن أحد قبل يظن أنها ستفتح بها، والتي أصبحت وقد بلغ عددها رقما عاليا بعد زمن محمد العربي الهاشمي العلوي وقد بلغت في مجموع المغرب 132 زاوية تابعة للزروالي ماعدا زوايا سوس التابعة لعلي السوسي، وتادلة لإبراهيم، وهما من تلاميذته كذلك، بل كلها تتجه نحو زواية « بويب الريح» ببني زروال، والتي أسست هي الأخرى كذلك سنة 1201هـ/ 1786م، كما انتشرت الزوايا باسم الدرقاوي في الجزائر شمالا وجنوبا، إلى قسنطينة ثم تونس حيث الأدارسة أولاد خريف وابن القاضي. كما ستعرف بعد في ليبيا والسودان كما سنرى.

كان الشيخ العربي الدرقاوي في العقد الخامس إن لم يتجاوزه يوم أصبح الخليفة المفضل بعد سلفه الجمل، إذ هو من مواليد 1159هـ/ 1737م، وكان على جانب مهم من السلوك الذي تزينه الكفاءة، لولا أنه سلك بالطريقة سلوكا لم يكن قبل في حياة المؤسس، بحيث انحرف بها جانب السلبية(353) وميزها بلبس المرقعة، وهو عبارة عن رداء من خرق صوف بالية متميزة بالنظافة، والسبحة ذات الحبات الغليظة التي كان المريد يضعها في

(352) ط حجر 1318. 1334 وقد قدم لها الفقيه أحمد بن الخياط الزكروي وهي كذلك في خ ع 3665، 1856د «في مجموع من ورقة 1/ب إلى 99/أ. وقد ذكرها بروكلمان في الملحق جـ 181/2 وفي سلوة الأنفاس 177/1 ثم رسائل موجهة للمريدين من أهل تطوان خ.ع 3666 «1856د» في مجموع من 128 – إلى 136/ ب ثم 3667 – (1436د) وعن المذاكرة القلبية في الطريقة الحقية راجع فهرس المخطوطات العربية ق3 جـ 1 عمل محمد الهادي لمنوني الحسني ط الأوقاف 1973، ومؤرخو الشرفاء 246 تعريب عبد القادر الخلدي ط 1977 الرباط، وقد ترجم له في سلوة الأنفاس 361/1. ونشير إلى أنه كان من خلفه قبل العربي الرشيد بن عبد الهادي بن عبد النبي الدرقاوي الحسني نقيب الأشراف الأدارسة على عهد السلطان محمد بن عبد الله، الذي أسندت إليه تلك الخطة بظهير مؤرخ في 7 ج2 عام 1201 هـ راجع ابن زيدان العز والصولة جـ 109/2 – 110 – إلى 13.

(353) ولعل هذا من أسباب حملة الزياني عليه في الترجمانة، وتحفة النبهاء، والتاج، والإكليل أنه وبما كان الزياني مدفوعا لذلك بما تحقق للرجل من مكانة ظهر له أن فيها عدم لياقة مع السلطان، مما أدى بهذا الأخير إلى سجنه كما سنرى وكما نجد حملة الزياني علي التجاني وفيها اتهام له بتزوير النقود والفرار من تلمسان خوفا من الباي حيث دخل مدينة فاس 1211هـ 1796م راجع التحفة 125/1 ففيها محمد ولد أحمد التيجيني قتل وقطعت رأسه بيد حسين باي وهران ثم علقت بباب الجزائر المدينة 1240.

عنقه، ثم العصى والنعلين إلى جانب التزام الصوف هروبا من جموح الجسم إلى شهوات الدنيا مع ذكر خاص ومرتب في اليوم و الليلة.

وإذا ما علمنا التاريخ أنه حينما يشتد الظلم في بلد الإسلام وغيرها يلجأ الناس إلى الدين، فإن ذلك ما حصل في كثير من جهات المغرب الذي عرف ولاة ظالمين مستبدين عندما ضعفت قبضة السلطان واقتصرت على بعض الحواضر سواء في المغرب أو الجزائر التي ظهر فيها ذلك بطريقة أكثر، مما أدى إلى انتشار الطائفة الدرقاوية مع وعيها حتى انتهت إلى حدود قسنطينة شرقا، بل لعل من أسباب انتشارها كذلك في تلك الجهات هو ما كان بها للمؤسس علي بن عبد الرحمن الجمل من معارف وقت رحلته إلى تونس، وما أصبح له من المواسم، وإذا كان أتباع الطريقة قد بلغ تعدادهم حوالي أربعين ألف في المغرب، فإنهم تجاوزوا ذلك العدد أضعافا في الجزائر، كما أن قوة الشيخ العربي وسلطانه الأدبي أصبح له اعتبار حتى في نظر رجالات الدولة، ونلاحظ ذلك في مراسلة عبد السلام بن محمد بن عبد الله صنو المولى سليمان إلى الشيخ العربي لإثارة مسلمة صنو السلطان سليمان بأرض الهبط ضد أخيه، حيث كتب إلى الشيخ بتاريخ 22 ربيع الثاني 1212هـ/1797(354). وذلك حتى يدفع بمسلمة كي يعود إلى صوابه ويطلب العفو من أخيه، وقد فعل.

ولعل هذا الموقف الذي أصبح الشيخ فيه مرشحا للوساطة بين أمير عالم هو عبد السلام وبين أمير وسلطان عالم كذلك، مما رفع اسم الشيخ العربي الدرقاوي. ثم دفع به إلى الاتصال بالسياسة التي جرته إلى الاتصال بالسلطان وبذلك حسب تقديرنا تم الربط بينه وبين بعض قواد البربر الذين أقبلوا عليه، أمثال ابن الغازي الزموري، وأبو بكر أمهاوش(355) ثم واعزيز الذي كان السبب قبل في تولية المولى سليمان ولسوف يجر عليه

---

(354) كان الذي حمل الرسالة من الأمير إلى الشيخ هو ابن الهاشمي كاتب الأمير راجع الروضة السليمانية م خ ع مصدر سابق.

(355) هو الذي تزعم الحرب التي أعلنتها قبيلة أيت شخمان الصنهاجية من أيت يسري مؤدية بقبائل أيت أمالوا ضد المولى سليمان قبل، وقد قيل بعد وعندما حصلت الأزمة أنه ما قام إلا بأمر شيخه، مع أننا سنرى أن ال أمهاوش سيقومون بعمل جد قاس ضد السلطان المولى الحسن بعد، وذلك عام 1305 عندما يرسل اليهم عمه سرور بن عبد الرحمن من أجل الخراج، ومعه خمسة وخمسون فيقتلونه ومن معه إلخ كما سنرى ذلك مفصلا بعد في عهد المولى الحسن بن محمد بن عبد الرحمن.

ذلك الاتصال أخطر المهالك.

كانت الجزائر قد عرفت انتشار الطريقة الدرقاوية بشكل قوي منذ عهد مؤسسها علي الجمل حتى أصبح البايات في ضيق مع رجالها الذين تكاثرت أعدادهم وتعددت زعاماتهم في الشرق والغرب، ولقد اشتد النزاع بينهم وبين الكرغليين المتحللين من أية وطنية بشكل جد خطير ومزعج، إلى درجة استوجبت تنظيما خاصا ومحكما لجماعة درقاوة في مجموع التراب الجزائري حتى انتهى بهم الأمر إلى التفكير في حماية أنفسهم بالسلاح ضد سلطان البايات الذين أصبحوا مثال الظلم والفساد والاستبداد، بشكل انتهى بهم إلى أنهم أصبحوا تحت رحمة اليهود الذين نهجوا طريق نفتالي بوشناق، ويشو بقرى، الأمر الذي أدى بدرقاوة إلى التفكير في التخلص كلية من حكم الأتراك، خصوصا في الجهات النائية ولو بالالتفاف حول مشايخهم ومقدميهم، خصوصا ذوي المكانة، وذلك ما حصل في عين الحوت حيث الشريف محمد بن علي السليماني مما أدى بالباي في وهران حسجي خليل*، المتوفي 1195هـ/1780م إلى التضايق مما سمع ورأى، فاشتد النزاع بينه وبين شريف عين الحوت، إلى أن فرق بينهم الموت، وبدأت بالفعل تظهر آثار الانتقادات التي كانت عامة ومركزة من درقاوة وعامة الشعب ضد رجال السلطة، ولم يقتصر نشاطهم على غرب الجزائر بل انتقل كذلك إلى الشمال الشرقي للمغرب، حيث قام بالثورة زيطان الخمسي من سنة 1208 إلى 1209هـ/1793 – 1794م، والذي لم تستطع قوات صنو السلطان وخليفته المولى الطيب إخمادها، مما اضطر السلطان إلى الخروج إليه بنفسه وقواد جيشه، عندما انضمت إليه قبيلتا بني يدر وبني كرفط، فخرج السلطان من طنجة متجها بجيشه نحو بني كرفط الذين أطلق فيهم يد الجند الذين أحرقوا دورهم و نهبوا أموالهم ثم تركوهم مشردين، فالتجأ زيطان إلى طلب العفو الذي ناله مع الولاية على قومه، ووقتها اكتشف المولى سليمان، أثر تدخل ولاة الجزائر في تلك الثورة الفاشلة كرد فعل منهم لما انتشر من أن درقاوة لم يقدموا على ما

* كان هذا الباي قيل من أصل ألباني غير شرير بالقدر الذي يقطع دابر أهله ويسيء الى خلفه ولذلك بقي خلفه في مدينة تلمسان وبهذا الإسم يعرفون حتى اليوم وقد عرفنا منهم بعض الوطنيين الذين أبلوا البلاء الحسن أيام نضال حزب الشعب بقيادة مصالي الحاج وجمعية العلماء بقيادة الشيخ البشير الإبراهيمي رحم الله الجميع.

أقدموا عليه دون إذن من شيخهم الكبير ساكن «بويب الريح» الذي هو العربي بن أحمد الدرقاوي والذي كان حقا يتمتع بعطف مشهور من السلطان ، بل إن درقاوة الشمال الشرقي، والجنوب الشرقي للمغرب ساهموا مع إخوانهم في الجزائر ضد فساد الولاة، حتى إن الكثير منهم وجدوا بعين الحوت، وفي تلمسان، ووهران، بل وقسنطينة مما أكد عند ولاة الأتراك ما قيل في حق الشيخ العربي الذي نسبوا له ولمقدميه الكثير من الكرامات في قتالهم مع الكرغليين(356) ولئن كان الأتراك قد استولوا على مدينة وجدة قبل فإن المولى سليمان قد وجدها فرصة حيث استردها منهم سنة 1211هـ / 1796م.

لقد اشتعلت الثورة شرقاً سنة 1220هـ 1800م يقول أبو القاسم الزياني، وأنها قبل إندلاعها في جهات مختلفة أخذت زمنا غير قصير لنشر الدعوى لها، والإثارة ضد اليهودي نفتالي وفساد الداي والبايات في مختلف الجهات، وكان زعيم الثورة شرقا أحد أنصار الشريف محمد بن الأعرج المعروف بودلة، يتقدمهم المدعوا الزبوشي الذي انتصر وجماعته على الباي عبد الله بن إسماعيل الذي عاد فانتصر عليهم بمساعدة آل المقراني أهل مجانة وخلفاء الأتراك في الغرب على النجاد جنوب بلاد القبائل الكبرى، لقد انتصروا على بودلة وأنصاره، لكن الانتصار كلف الكثير، حيث دامت الحرب إلى 1223هـ/1805م لكنهم ما كادوا يخمدون ثورة بودلة حتى قامت ثورات أخرى قام بها رجال قبائل أولاد نايل الذين ضيقوا الخناق على لمدية بعد أن وثبوا على صور الغزلان، وهو حصن تركي يعرف ب « أومال » مما نفس على بودلة الذي عاد فظهر بشرق الجزائر، وقد اشتد أزره وأزركل الذي قاموا مثله في جهات أخرى عندما ظهر في الميدان محمد بن عبد القادر بن الشريف(357) كبير مقدمي زوايا درقاوة بالجزائر الذي استولى على

---

(356) راجع تحفة الزائر 1/115 – 17 – 21.

(357) سماه صاحب تحفة الزائر ص 115 ط 1964 محمد وهو عند الزياني كما ذكرناه مكررا أكثر من مرة. والظاهر انه محمد عبد القادر أصله من الكسانة« قبيلة من البربر بوادي العبد يقول صاحب تحفة الزائر قبيلة «غريس» درس على الشيخ محيى الدين والد الأمير عبد القادر في مدرسته بالقيطنة، ثم رحل إلى المغرب الأقصى فأخذ عن علماء فاس، ولقي الشيخ العربي الدرقاوي وسلك طريقته، ولربما رجع إلى القيطنة مرة ثانية، لكنه اختلف مع الشيخ محيي الدين ، فرحل إلى قبائل احميان النوافع، وهنالك اجتمع عليه أنصار من درقاوة، حيث كانت انطلاقته الأولى سنة 1217هـ وقد دامت ثورته إلى سنة 1226هـ/ 1811م حيث لجأ إلى بني يزناتن وبها توفي فرجعت أسرته إلى القيطنة، وربما عنه نقل ابن الأعرج السليماني في كتابة اللسان المعرب «عن تهافت الأجنبي حول المغرب ص 102 – 103ط 1971 بالرباط.

ناحية تلمسان حيث أخذ يطارد الكرغيلة ويعلن قرب النهاية لحكم الأتراك في الجزائر خصوصا وقد انتظم في سلطانهم من شلف إلى حدود المغرب، بل وتعرض باي وهران مصطفى لحصار شديد بمعسكره في عين فرطاسة، ولم يمنعه إلا الفرار إلى مدينة وهران التي أغلقت أبوابها ثم بقي محاصرا فيها، ومثله فعل مع أهل تلمسان من الكرغليين الذين انقلب عليهم الحضر والحوزية، ووقتها أعلنت البيعة للمولى سليمان كما أخبره بذلك الشيخ العربي الدرقاوي في كتاب على لسان بن عبد القادر بن الشريف الذي سلم إليه البيعة المذكورة عندما توجه إليه، وكان اتصاله مما زاد في حماس أنصاره حتى انتصروا على الباي مصطفى، مما أدى بالداي إلى تعويضه بالمقلش محمد، والذي زوده بقوات كبيرة جدا، استطاع المقلش بواسطتها مقاومة ابن الشريف وتحويله شرقا حتى لايستمد من درقاوة المغرب، خصوصا أهل الريف وبني يزناتن، على أن قوات المقلش استولت على بسكرة وأسرت الكثير من آل بن عبد القادر بن الشريف، اذ انتقل الى زاوية محمد بن عودة، لكنه انهزم بعد قتال عنيف وقتل 600 من درقاوة وزعيمهم فإنه لم يستمع بذلك، إذ سرعان ما تعرض إلى حسد حاشية الداي ورجال ديوانه الذين دبروا له مكيدة ساهم فيها اليهود الذين تحسسوا انتقادات الجنود وقيادتهم التي رددت: أن شوكة اليهود أخذت تظهر من جديد رغم قتل نفتالي بوشناق على يد أحد الجنود يحيى أغا قبل سنتين، وفي هذه المرة وقع الهجوم على ملاح اليهود، حيث قتل الكثير منهم، وصودرت أموالهم، فأدى ذلك إلى الزج بالمقلش في السجن، ثم قتل ليحل محله الباي مصطفى السابق الذي عجز عن مقاومة درقاوة، فكان ذلك في صالح هؤلاء بسبب الدعاية التي انتشرت ضد المنتصر القتيل وأن الله انتقم لدرقاوة منه ومن الداي الذي وصفه بعدم الوفاء، فكان مصير مصطفى في هذا الجو الفشل مما عرضه للعزل ليحل مكانه الباي أبو كابوس، سنة 1223هـ/1809م وكان هذا مثل المقلش، حيث طارد بن عبد القادر بن الشريف الذي كان قد توجه إلى عين ماضي حيث أخذ ينظم قواته من جديد، فلجأ إلى بني يزناتن حيث تجمعت له قوات درقاوة التي هاجم بها

سنة1226هـ /1811م إلى جانب صهره زوج ابنته بوترفاس(358) بأنجاد خصوصا قبيلة ترارة، لكنهم كذلك تعرضوا لمطاردة أبي كابوس الذي وإن انتصر عليهم، فإنه تعرض وجنوده لمحنة شديدة،تسببت عنها الثلوج، فأخذ درقاوة يرددون في الناس قوله تعالى: «إن الله يدافع عن الذين آمنوا» وعزل أبو كابوس ليحل محله علي الكرغلي، الذي كان بمازونة، كما توجه عمر أغا ناحية ندرومة، وقد استطاع إعادة الأمور إلى ماكانت عليه حيث ركن درقاوة إلى الراحة والانتظار، كما تحول عملهم الحربي إلى حرب الدعاية، ولم يظهروا ثانية، وبنفس الزعامة إلا عندما هاجم الانجليز مدينة الجزائر 1232هـ/1816م، لكن هذه المرحلة الطويلة التي بقيت فيها قوات الداي بدون حرب مكنها بمساعدة قوات البايات من مطاردة جموع درقاوة الذين اتجهوا ناحية فجيج، حيث كانت لهم زاوية لها شأن في المنطقة، وقد بقيت محافظة على روح النضال والجهاد في سبيل الله ضد الفرنسيين كذلك زمن الشيخ محمد العربي الدرقاوي ساكن مدغرة وصاحب قصر، كاوز(359) كما سنرى، بعد.

---

(358) انتهت هذه الأسرة بعد الاحتلال الفرنسي إلى الفرار من المنطقة والتوجه لقصر «أبو عام» بتافيلالت حيث لايزال أفرادها يعرفون بهذا القصر الذي جمع الكثير من عائلات المجاهدين إلى جانب الأشراف المحمديين من العلويين. وقد بقي أولاد الترفاس محافظين على روح الجهاد ولم يتخلفوا عنها حتى في موطنهم الجديد تافيلات. الذي استوطنوه بدل أنجاد، حيث قبيلة ترارة التي لها وجود في إقليم تافيلالت منذ عهد الحسن الداخل والتي قلب بعضهم اسم المترارى « أم ازار» كما بينا قبل.

(359) راجع دائرة المعارف جـ 9 مادة درقاوة، حيث أصبحت لهم مكانة اقتصادية عامة.

الفصل التاسع والأربعون بعد المائة

المولى سليمان يساعد الأتراك ويرفض بيعة أهل تلمسان

بعد كل هذه الجولات مع درقاوة في الجزائر ضد الداي والبايات، وما حققوه ضدهم من انتصارات شرقا وغربا ماذا كان موقف السلطان المولى سليمان الذي تعرضت له بعض مصادر التاريخ وأنه كان من المحرضين لهم تحقيقا لأهداف سياسية هي الاستيلاء على غرب الجزائر(360) ومثله سيتهم المولى عبد الرحمن، إلى غير ذلك من الأقوال التي لاشك كان مصدرها روايات متسيسة ومشوشة لا ترقى إلى رواية أبي القاسم الزياني الذي كان وقتها قد تفرغ لتدوين التاريخ، ثم هو بالقرب من السلطان وفي إمكانه التعرف على كل التحركات وقد تكونت له قبل علاقة ود مع داي الجزائر، وباي قسنطينة، وهران، وأهل تلمسان، عندما عين عاملا على الناحية الشرقية « وجدة» زمن السيبة في هذه المنطقة ثم طارده الأعراب ومن معه من الجنود، فلجأ إلى الجزائر التي كان قد تعرف عليها قبل، بل والذي وإن تحامل على العربي الدرقاوي بدافع موقف السلطان منه بعد العودة من المامورية التي كلف السلطان بها الشيخ محمد العربي في الجزائر أولا، ثم بدافع عاطفة الزياني التي لم يخفيها نحو آل عثمان، والتي ستدفع به إلى مهاجمة فكرة محمد بن عبد الوهاب لأنها ضد سلوكهم، ثم هي انتزعت منهم أرض الحجاز، رغم ذلك فرواية الزياني حول قضية المولى سليمان ودرقاوة الجزائر تزيل ما عرف حولها من غموض وتشويه، لأنها رواية يبدو عليها الصدق وسلامة القصد، ثم هي تمكننا من استنتاج كثير من الحقائق التي لا نتوفر عليها عند غير الزياني في الروضة

(360) راجع دائرة المعارف الإسلامية جـ9/199 – 200–201 وما فيها من المصادر ص 206، وتحفة الزائر المصدر السابق.

السليمانية(361) التي يقول فيها: «في عام عشرين ومائتين وألف « 1805م» وقعت الفتنة بين الترك والعرب أهل الواسطة، بسبب قتل الباي لبعض فقراء درقارة، أصحاب المرقعات، وأمر بالقبض على مقدمهم عبد القادر بن الشريف خليفة شيخهم العربي الدرقاوي، ففر عبد القادر ولم يتمكن منه الباي، فاجتمع عليه طائفة درقاوة بحلة الأحرار، وامتعضوا لمن قتل منهم ولخروج شيخهم عن وطنه وانتصر لهم عشائرهم من قبائل العرب وقاموا لحرب الترك وقتلهم أينما وجدوهم، وفي فصل الربيع قامت محلة الترك من الجزائر على الباي فقصدوهم ووقعت الحرب فانهزم الترك ونهب العرب محلتهم وفروا لوهران فحاصروهم بها، فكتب الباي للسلطان «يقصد المولي سليمان» يعرف بشأن درقاوة ويطلبه أن يوجع لشيخهم العربي الردقاوي، فوجه له ثم أمره أن يكفهم ويردهم عنه، ووجه معه الحاج الطاهر بادو عينا(362) عليه، فكأنه أغراه بهم، ولما بلغ محلة ابن الشريف التي على وهران واجتمع بطائفته، آستأسد المرابط وظهر منه العجب، وصار يقول للعرب ولطائفته إن الترك أدبرت أيامهم، وأن الله ملككم أرضهم وأموالهم، ولا تقوم لهم قائمة، ويتصلح على العرب(363) فلما سمعوا منه ذلك لم يشكوا أن الظفر لهم، واجتمعوا لحرب الترك وتضافرواعليه، فلما بلغ أهل وهران مقالته بلغوها للباي، فاتهم السلطان بذلك، لأنه كان ينتظر الفرج على يده ويترجى رقع هذا الخرق من جهته، فخفق سعيه في الدرقاوي وفي السلطان، فركب مدافعه لناحيتهم وفرق جمعهم بالكور والضوبلي، فانهزموا وأبعدوا عنه ، ظهر للعرب خلاف ماظنوا وظهر للقوم كذب الدوقاوي وبطلان زعمه فتلافي أمره بالرجوع عن وهران لتلمسان، فنزلوا عليها وضيقوا بأهلها، وخدعهم العربي الدرقاوي وقال لهم

(361) راجع م.خ.ع 257ك ص 89.288–90 وهي التي نقل عنها أكنسوس عشرات الصفحات حرفيا في «جيشه» بل أحيانا حتى ما أورده الزياني في حديث جرى بينه وبين المولي سليمان نقله أكنسوس بالحرف وبغباء، وكأنه حصل له هو، راجع م.خ.ع 2275د ص 160 وكما كتبه عن الدرقاوي ثم قارن وهو عمل يحط من قدر التجاني طريقة أكنسوس والذي ربما لجأ لذلك في أخريات عمره وزمن شيخوخته، وبدافع ظروف خاصة يحتاج الكشف عنها إلى بحث وتنقيب ثم راجع مخطوط الحسام المشرفي في الرد عن ... العجرفي أكنسوس وهو للعربي المشرفي رد به على تهجم أكنسوس التيجاني طريقة على الدرقاوي خ . ع 2275د ص 160، ثم قارن مع الروضة السليمانية المصدر السابق.

(362) وردت في الأصل بدون واو. وقد بقيت هذه الأسرة معروفة بالإسم في مدينة مكناس ولعلها نسبة إلى جبل بادو بالأطلس المتوسط حيث قبائل ايت حديدو المجاهدة.

(363) يقصد يتظاهر بالصلاح.

إننا فعلنا هذا بأمر السلطان ، فدخلوا في حربه واختلفوا مع الترك والكرغلية، وأدخلوا عبد القادر بن الشريف ودرقاوة، وخطبوا بالسلطان سليمان، وكتبوا بيعتهم له، وكتب عبد القادر بن الشريف بيعته، ووجه وفده وهديته للسلطان مع العربي الدرقاوي، وتقدم بن الشريف والحضر لحرب الترك والكرغلية... بالمشور ونواحيه، لم يبق لهم شك بأن ذلك بأمر سلطان المغرب، كتبوا ذلك للباي وللدولاتني، واستمر الحرب بينهم في وسط المدينة، وقدم العربي الدرقاوي على السلطان بوفد أهل تلمسان، ووفود العرب، وهدية ابن الشريف وبيعته، ظنا منه أن السلطان يقبل ذلك ويثيبه عليه، ولما اجتمع مع السلطان لبّس عليه الأمر وزين له القول وقال له: إن العالم مقبل عليك، وكل الناس متشوقون لطلعتك، وابن الشريف أغا هو خديمك وخليفتك، وهذه بيعته وهديته، ولما خرج من عند السلطان بعث السلطان للأمين «بادو» الذي وجهه معه عينا عليه، وسأله عن الحال فأخبره بأقواله وأفعاله ومانسب له، وأن الترك لم يبق عندهم شك أن ذلك بإغرائك وأمرك ومنسوب إليك، فرد السلطان على أهل تلمسان بيعتهم وطرد العرب من بابه، وقال لهم: ارجعوا لبلادكم فلا حاجة لي بولايتكم، وتوبوا إلى الله من فعلكم وعلى قدر بلوغكم لأبوابي أكاتب الباي أن يسامحكم ويتجاوز عن خطيئاتكم، وهذا ما تسمعون مني» وقال لأهل تلمسان مثل ذلك، وتلافى أمره بأن وجه القائد عياد لتلمسان وأوصاه أن يخادع ابن الشريف بالولاية والمعاضدة لأمره إلى أن يدخل في يده فيقبضه، وكتب للباي بما أزال الشك وأبطل ما سمع، ووجه له هدية وتوجه عياد لتلمسان، فلما سمع بقدومه ابن الشريف فرعنها ولم يجتمع بعياد ولا واجهه، وأقام عياد حاجزا بين الحضر والترك والكرغلية، إلى أن قدم الباي لتلمسان ومكنه من بلاده ورعيته ورجع فلم يتم للباي أمر، ولابلغ غرضه من أجل القحط الذي وقع بتلك الناحية حتى عدمت الأقوات بها، وفر أهل تلمسان للغرب، وكذلك العربان كلها خرجت عن أوطانها وكذلك قبائل الجبال، ولم يبق للباي مع من يتكلم، فصار يكتب هو والدولاتني للسلطان أن يرد أهل تلمسان والعرب لبلادهم فكلمهم السلطان في الرجوع فأبوا وقالوا نتوجه لبر النصارى ولا نقابل الترك والجوع والقتل، فلم يقدر على دفعهم وجبرهم، وصار السلطان يعينهم بالصدقات والعطاء المدة بعد المدة، وكان عطاؤه لهم كالراتب، وعالج داءهم من الترك، ومع الجوع الى أن خصبت بلادهم ورخصت

أسعارها فتراجعوا لأوطانهم، وكتب السلطان للباي في شأنهم بالعدل وحسن السيرة، فعمل برأيه وأقصر من الجور عليهم، وكفوا عنهم أيدي الكرغلية، ولم يبق منهم بالمغرب إلا من عليه دين للترك ولم يقدر على الرجوع، لأن أرباب الديون لايقيمون لهم وزنا، ولا يعملون لهم شرعا، وفي عام واحد وعشرين ومائتين وألف (1221هـ/ 1806م) وجه السلطان عامله لإقليم فجيج وجبى ماله واسترجع قصر المخزن الذي غصبوه للعبيد الذين كانوا به من أيام السلطان إسماعيل(364).

وهكذا نلاحظ من خلال رواية الزياني التي حاول بها إبعاد التهمة التي وجهها الداي وديوانه السياسي بلاشك إلى السلطان سليمان بسبب تصرفات العربي الدرقاوي وجماعة ابن الشريف، نلاحظ كذلك أن المولى سليمان إلى جانب أنه تدخل صراحة ودون ما حق في شؤون التلمسانيين والأعراب حين أرسل قائده عياد الى تلمسان ثم أمره بإلقاء القبض على ابن الشريف بعدما يطمئن إليه كما رأينا، كما أن النص يمدنا بفكرة أن المولى سليمان بذلك استطاع أن يتخلص من الحرب التي كان لابد منها مع الأتراك وقتها، وبسبب تطاولهم على فجيج وغيره، كما أن ما آل إليه درقاوة من تفكك خلصه كذلك من الثورة التي ربما كانت ستحدث في المغرب بسبب انتصارات درقاوة في الجزائر التي كانت سوف لا تقتصر عليها، وإنما تصدر إلى المغرب حيث يوجد الشيخ المستجد في السياسة، والذي له من الزوايا ما يمكن للثوار الذين تكاثروا في تلك المرحلة أن يتخذوا منها معسكرات دينية، ومن مقدميها قادة جند ورجال ثورات، خصوصا إذا ما عرفنا نظرة أتراك الجزائر إلى المغرب بعد موت محمد بن عبد الله، وكما صرح بذلك محمد بن عثمان باي وهران للزياني قبل، ولربما كان ذلك الرأي قد انتهى إلى المولى سليمان بطريقة أو بأخرى، وخصوصا إذا كان راويه هو أبو القاسم الزياني، وما عرف به من صدق لهجة وصراحة تدفع المولى سليمان إلى أن يكون عند حسن ظن الذين كانوا على علاقة طيبة مع والده، ومن ذلك التراجع في علاقته مع الشيخ العربي الدرقاوي، حتى إن ذلك التراجع دفع بالشيخ بعد وعندما حانت الفرصة وقام أهل فاس الذين اقترضوا

---

(364) الروضة السليمانية لأبي القاسم الزياني م.خ.ع 2275د ص 288 – 290.

من بيت المال، ثم إن السلطان أمن بعضهم على ما كان عنده من مال قبل خروجه غازيا إلى قبائل أيت أمالوا كما سبق، وقتها بايعوا غيره وهو إبراهيم بن اليزيد بن السلطان محمد بن عبد الله المشار إليه قبل، ووقتها طلب أهل فاس إلى الشيخ العربي الدرقاوي أن يجلب مؤازرة جيش الودايا تاييدا لمؤامرة أهل فاس، ولما توجه إليهم ألقوا عليه القبض ثم أودعوه السجن ، ولما عاد السلطان منصورا بسلاح القبائل التي هزمته، وطلب إليه تسريح الشيخ رفض قائلا لم أسجنه حتى أسرحه.

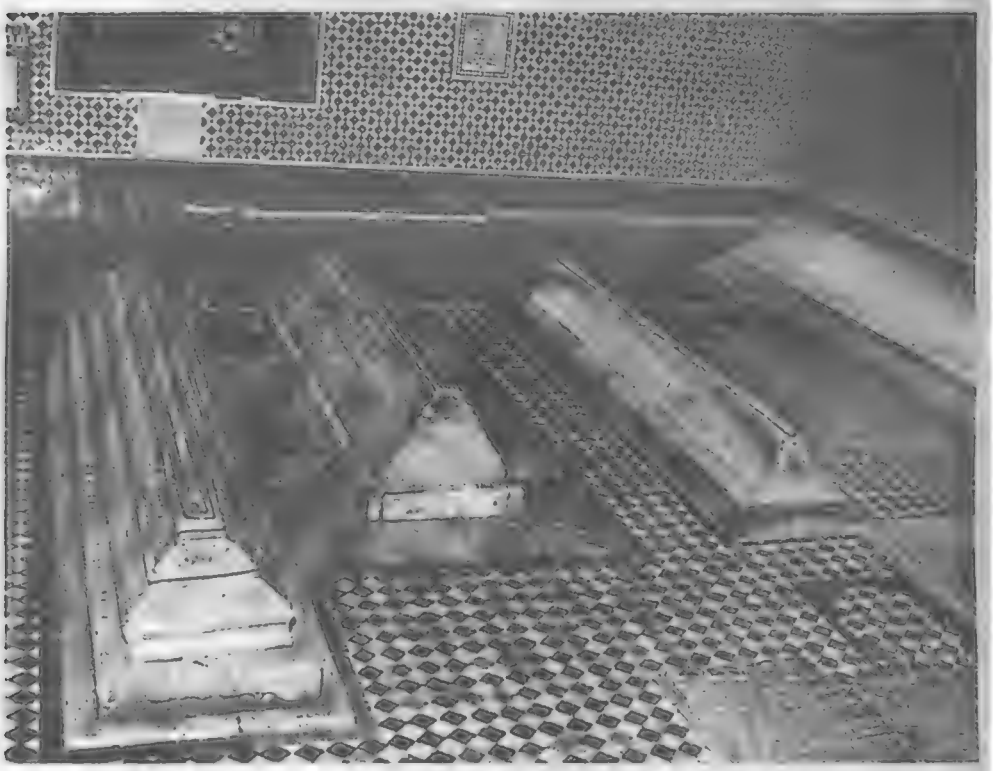

ضريح المولى علي الشريف بباب غيلانة بمراكش وبه مدفن الملكين المولى سليمان بن محمد في الوسط ثم قبر السلطان محمد بن عبد الرحمن والحاجب أحمد بن موسى

القبطان أنطوان بوريل الذي أرسله نابليون سفيرا الى المولى سليمان حتى يقطع العلاقة مع الاسبان والانجليز، وقد هدده بغزو المغرب. وأخيرا عرض عليه جوزيف اخ نابليون مقابل الاعتراف به أن يسلمه مدينتي سبتة ومليلية(1) ثم راجع هامش نفي محمد الخامس الى كورسيكا عام 1953.

(1) راجع المسألة المغربية ص 102 ط1961 .

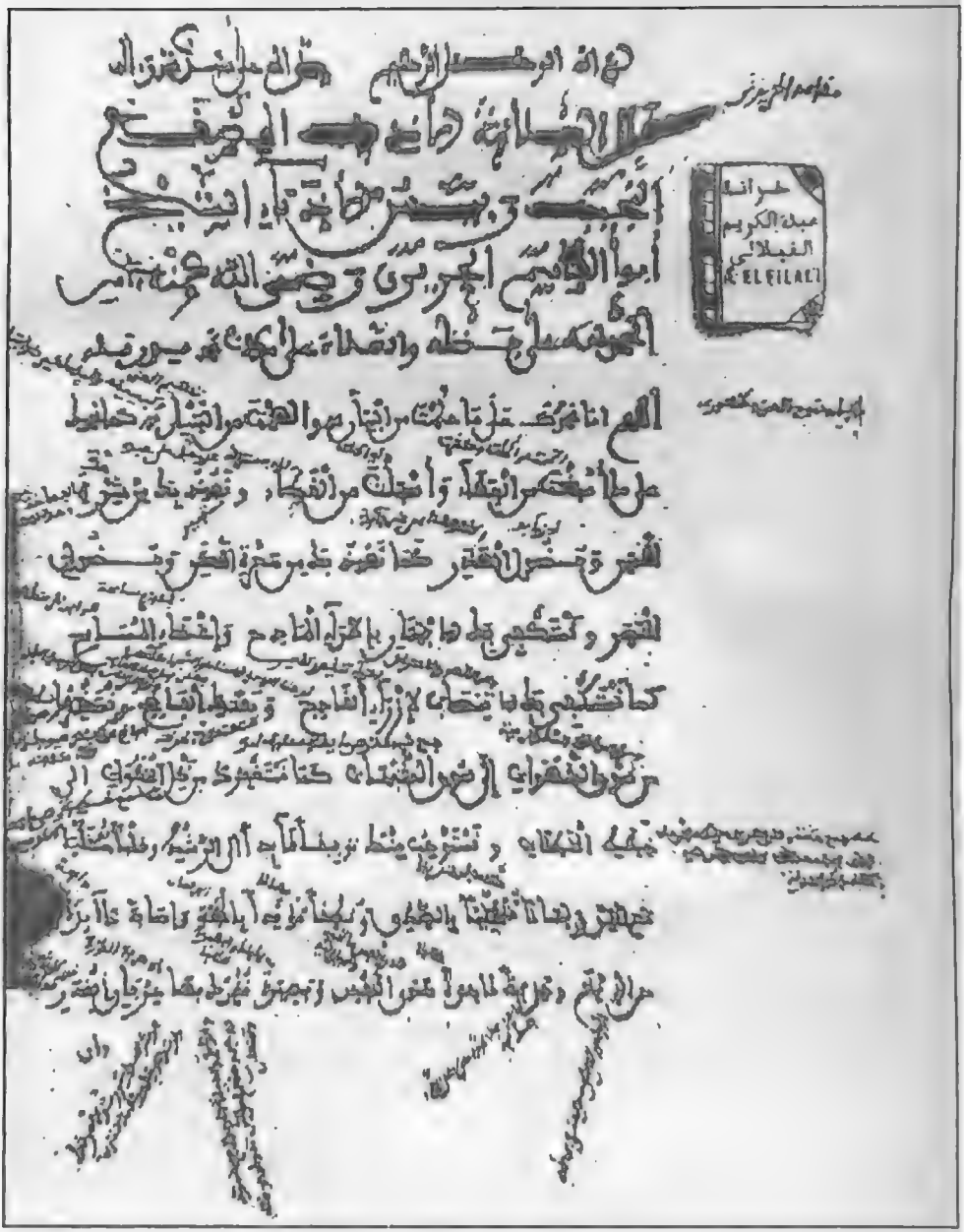

شرح مقامات الحريري بخط السلطان المولى سليمان

شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني للأمير عمر بن السلطان المولى سليمان

تابع شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني للأمير عمر بن السلطان المولى سليمان

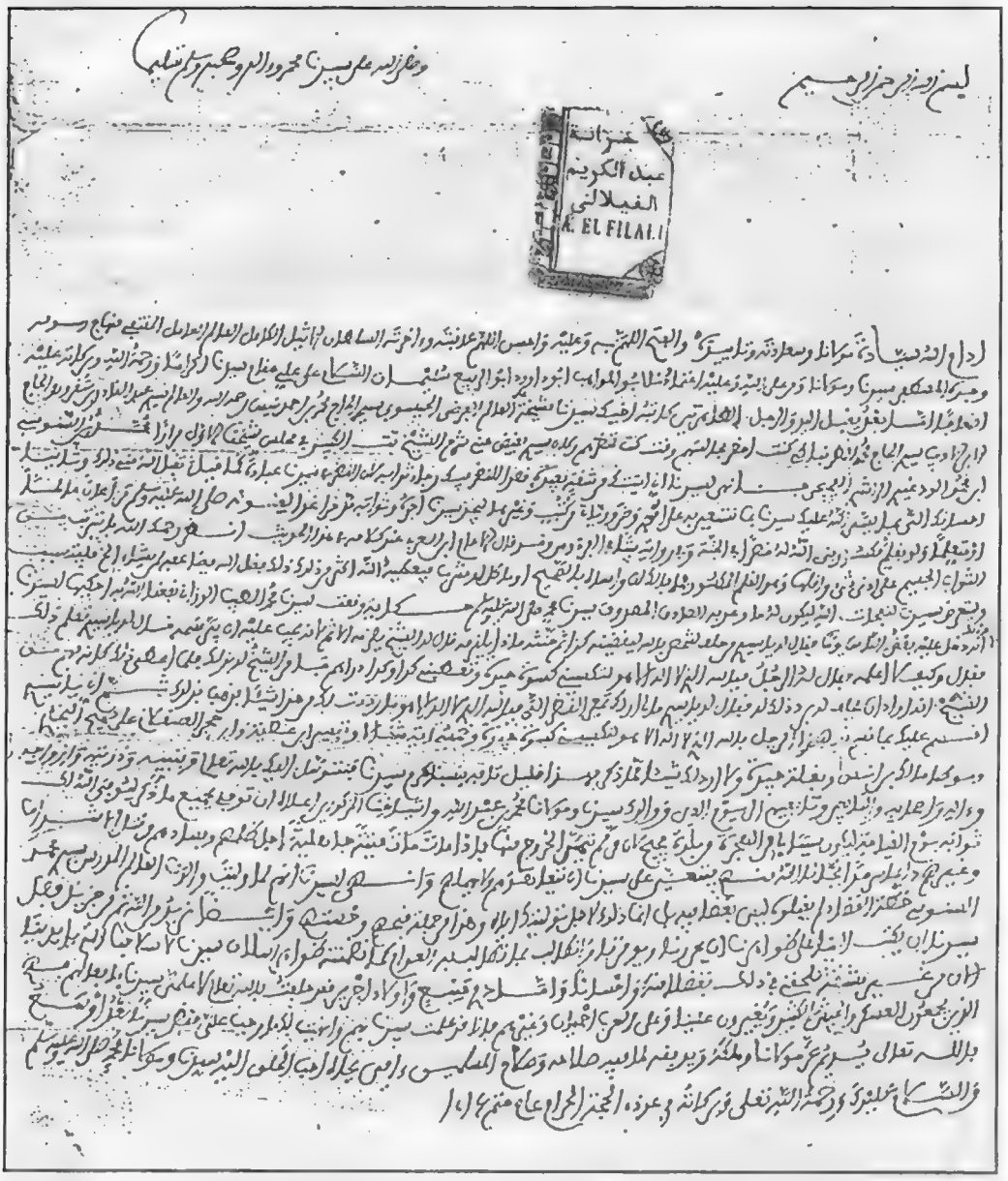

كتاب من أحد الرشيديين الى المولى سليمان يذكره بما مضى لهما كزميلين
زمن الدراسة. ويطلب مساعدته . تاريخها 1214هـ/1799م

ما كتبه عبد الملك التاجموعتي من ضلال مفتريا على سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم زاعما به الرد على ابي علي اليوسي رحمه الله . ومن هذه المفتريات انتشرت البدع التي قاومها عهد المولى سليمان

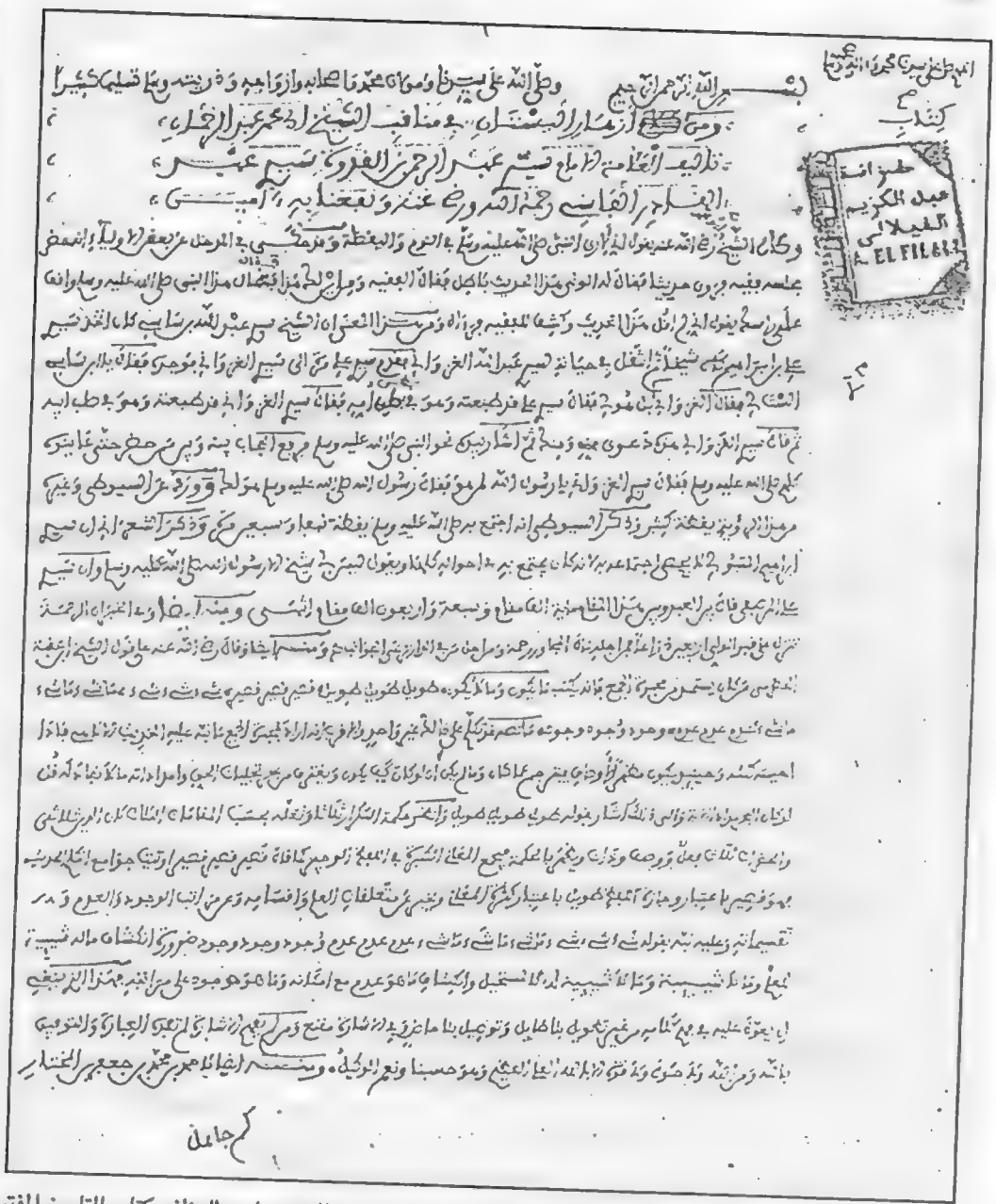

من مفتريات آل الفاسي على الدين الحنيف مما كان له أكبر الاثر في نشر البدع. راجع للمؤلف كتاب التاريخ المفتري عليه في المغرب ط 1969.

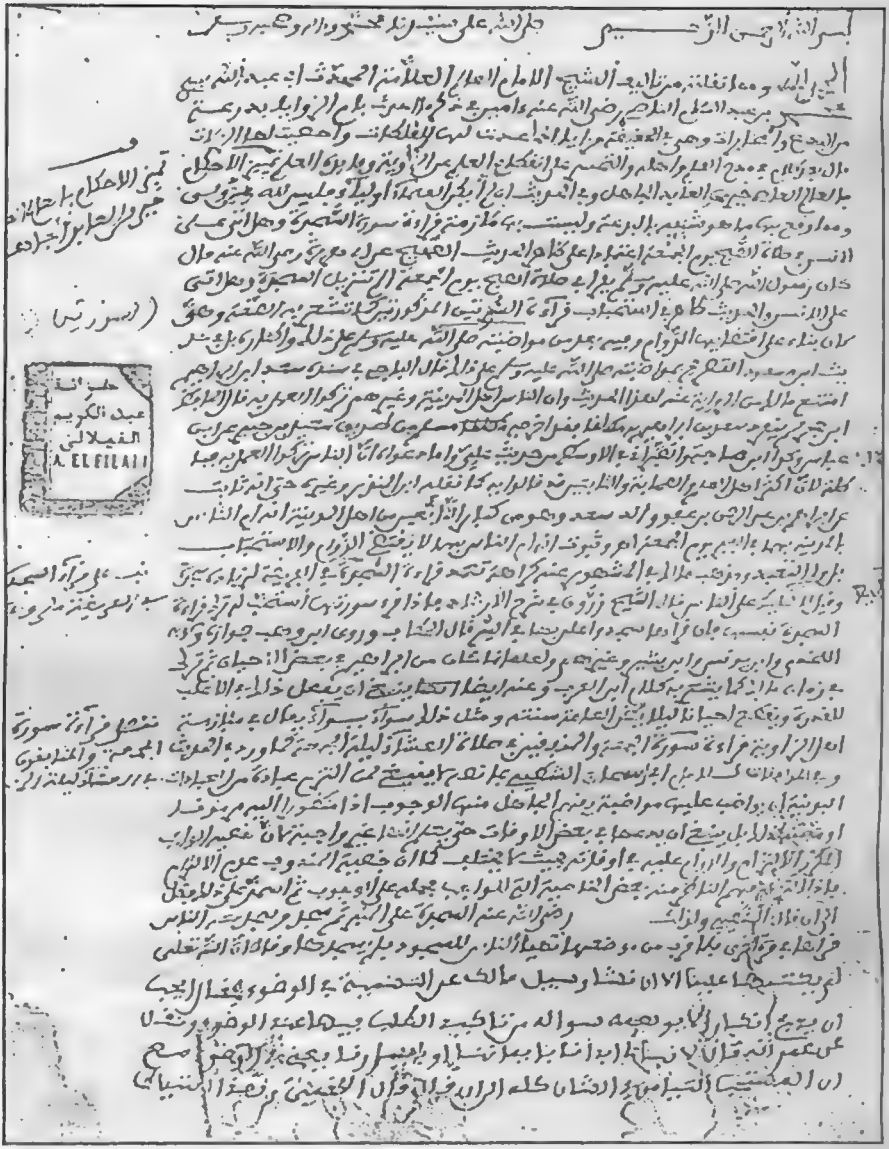

"كتاب المزايا فيما حدث من البدع في ام الزوايا" يقصد الزاوية الناصرية بتامجروت وهو لمحمد بن عبد السلام الناصري المؤرخ 1233هـ/1823 ترجم له التعارجي في اعلامه والكايتاني في فهرس الفهارس 2/219-23 إنه من مذكرات الدين المفتري عليه في المغرب والتي تنبه لها المولف رحمه الله. لكن كيف والعهد عهد أعظم الملوك العلويين علما وعملا وهو المولى سليمان 1206-1239هـ/1791-1823م.

رسالة من المولى عبد الرحمن بن هشلم الذي فضله المولى سليمان على أولاده فأوصى له بالملك من بعده وذلك للأسباب التي ذكرها في نص الوصية والتي اتصف بها المولى عبد الرحمن راجع الوصية بخط المولى سليمان ضمن وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية

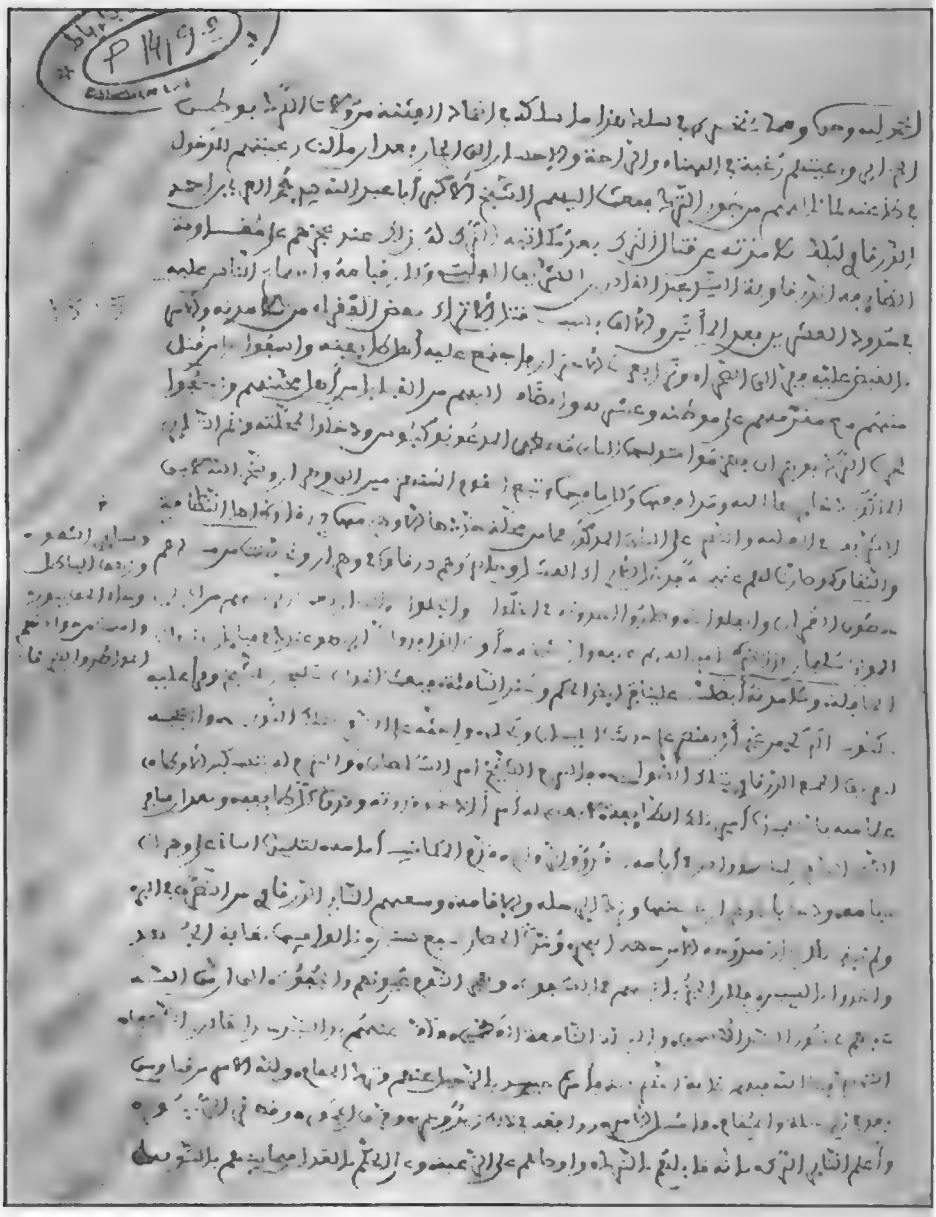

رسالة تقص ما حصل بين درقاوة وولاة الترك بالجزائر. وتدخل المولى سليمان الذي استنجد به الاتراك ثم رفضه لبيعة أهل تلمسان الذين قدموا عليه بها.

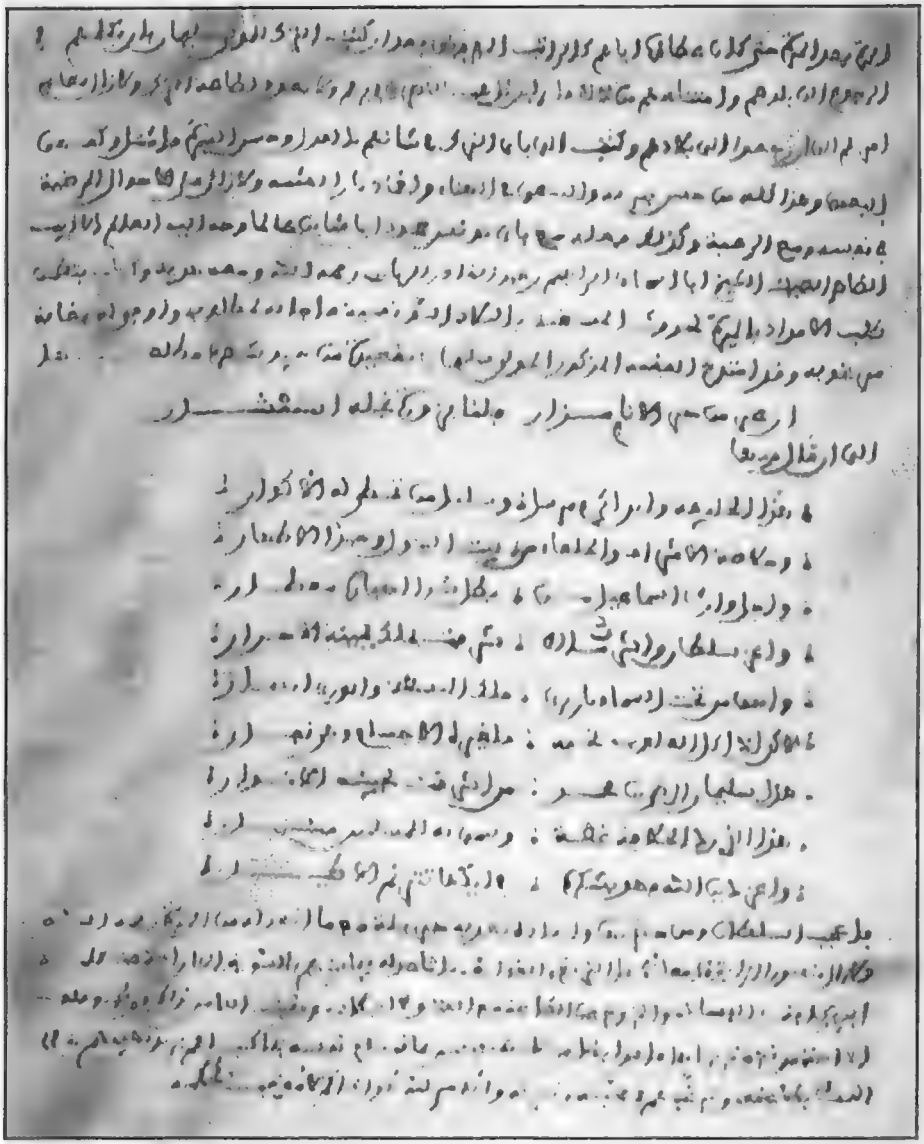

تابع الرسالة قبل

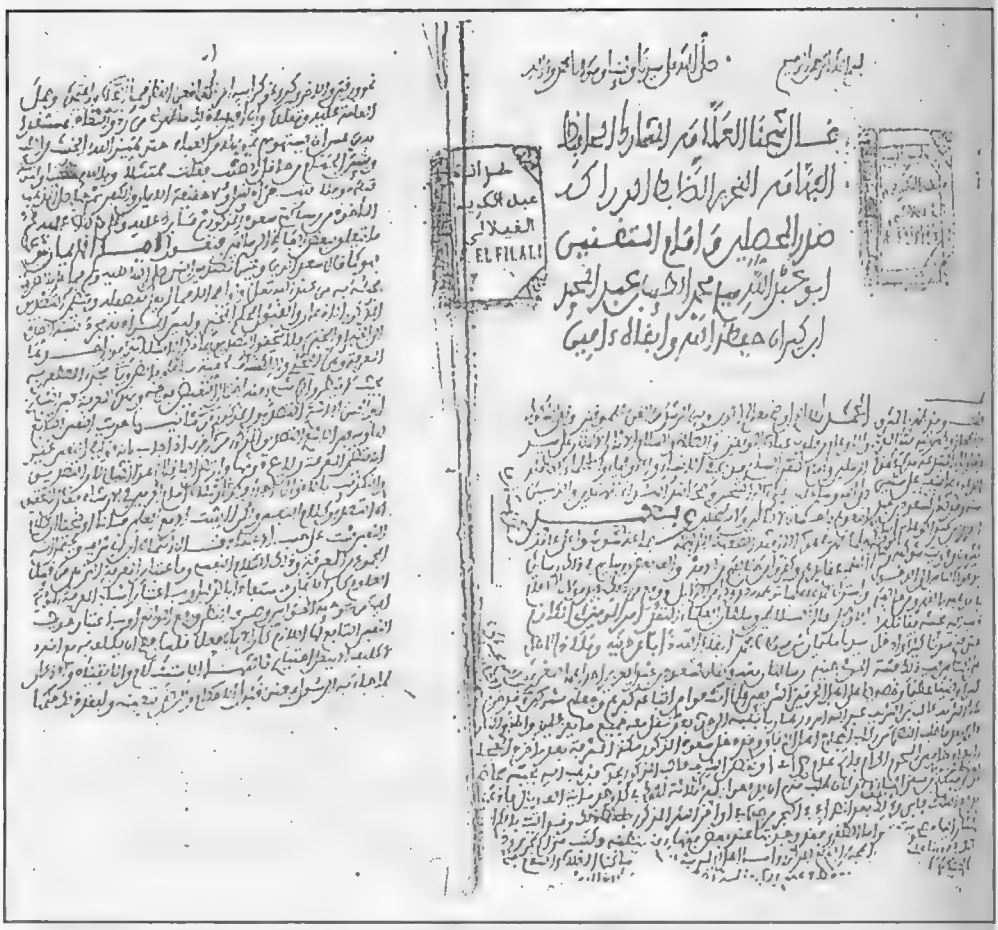

من أثر شيخ الجماعة محمد الطيب بن كيران وقد أمره المولى سليمان بالتعليق على ما كتبه بعضهم حول رسالة ابن سعود التي وردت على المولى سليمان. ناهيك وأن الشيخ محمد الطيب بن عبد المجيد إبن كيران عاش ورأى ما كان عليه جماعة محمد بن عبد الوهاب الذين كانت غايتهم القضاء على البدع والتمكين للكتاب والسنة الأمر الذي دفع المولى سليمان الى الانتصار لما جاء به محمد بن عبد الوهاب من محاربة للبدع الخ

الفصل الخمسون بعد المائة
نابليون والجزائر وأوروبا

عرفنا مكانة الجزائر قبل في حوض الأبيض المتوسط، وما حققه مؤسسوه الدولة الحديثة فيها، وعلى رأسهم أوروج وأخيه خير الدين، وإذا ما عرفت دول أوروبا ذلك، ثم هي دانت لها زمنا غير قصير، ثم دفعت لها(365) الجزية مقابل أمنها في البحر، فإنها بعد ذلك وعندما تحركت أوروبا الصليبية لمحاربة بلاد الإسلام كانت الجزائر في مقدمة البلاد التي تعرضت لذلك بشدة وعنف عنيف وتركيز، ذلك لأنها تمثل الوسط بالنسبة للمغرب الكبير، من استولى عليها سهل عليه الإستيلاء على بقية القطرين تونس والمغرب، وهذا ما دفع بفرنسا منذ عهد صولة نابليون الذي فشل أثناءها في تحقيق حلمه باحتلال مصر، إلى التخطيط لاحتلال الجزائر التي اكتشفت إمكاناتها التي أنقذت فرنسا أيام ثورتها وحروبها بعد الثورة.

وهكذا إذا نحن راجعنا تاريخ محاولات الغزو الأوروبي لبلاد الإسلام بعد الحروب الصليبية، نجده ركز أكثر على أقطار شمال إفريقيا طيلة القرون الثلاثة، بدءا من السادس عشر، وكانت الجزائر أكثر من غيرها عرضة للهجوم من دول أوروبا التي هي إسبانيا والبرتغال وفرنسا، وبريطانيا، والدانمارك، وهولاندا، والولايات المتحدة، فمنذ عهد الوطاسيين وبداية تمكن السعديين زمن فرانسوا الأول الذي استنجد بالسلطان سليمان العثماني، عندما كان شبه سجين تحت رحمة الاسبان وبالضبط سنة 940هـ/1533م حيث قدمت للمغرب بعثة فرنسية قصد الحصول على سوق للتجارة، لكن الظروف لم تساعدها وعادت كما قدمت إلى عهد السعديين ومحاولة عبد الملك التي لم تخرج للوجود، والتي قيل عنها إنه كان يود الإرتباط مع فرنسا برباط يكيد أعداءه الذين هم الاسبان والأتراك، لكن

(365) راجع ما كانت تؤديه تلك الدول للجزائر في كتاب تحفة الزائر 126/80.

شيئا من ذلك لم يتم، إلى أن حصلت جريمة اللصوصية الفرنسية بالسطو من مؤتمن فرنسي هو القنصل "جان فيليب كاستيلا" الذي سرق محتويات الباخرة التي نقلت ممتلكات زيدان السعدي، والتي انتزعها منه الاسبان في الطريق، وفيها الكتب التي حاول المولى إسماعيل استرجعها من الإسكوريال، ثم ما حصل زمن المولى الرشيد وصنوه إسماعيل من علاقة مع فرنسا كما سبق في عهد لويس14، وما بعده، وحتى هذا العهد لم يكن في فرنسا من يزعم التطاول على حوض الأبيض المتوسط الذي كانت الجزائر بعد المغرب زمن الموحدين وبني مرين من ذوي السيادة على غربه برجالها وقواتها البحرية، لكن ذلك زال وتبدلت الأيام فأصبحت شواطئ المغرب الكبير عرضة للهجوم الذي تكرر، خصوصا على الجزائر من مختلف دول أوروبا التي كان هجومها كما يلي:

اسبانيا	915هـ –1509م	**الأنجليز**	1031هـ –1622م
	916هـ –1510م		1057هـ –1647م
	922هـ –1516م		1065هـ –1655م
	925هـ –1519م		1082هـ –1672م
	948هـ –1541م		1232هـ –1815م
	975هـ –1567م		1239هـ –1823م
	1189هـ–1775م		1240هـ–1825م
	1197هـ–1783م		

فرنسا	1071هـ –1661م	**الدانمارك**	1184هـ–1770م
	1075هـ –1665م	**هولاندا**	1232هـ–1816م
	1094هـ –1682م	**الحلفاء**	1232هـ–1816م(366)
	1095هـ –1683م		
	1099هـ –1688م		
13 محرم	1246هـ –1830م		

(366) راجع د. الإسلامية 6/381–88 والتاريخ السياسي لعثمان سلطان ص:331 إلى 363 والتاريخ العام لفليب شان نس المذكور ص: 416–426 ط 1912/1 ود. فريد وجدي 3/91–95 والبستاني 6/449–455. وخلاصة تاريخ العرب لسيديو 286–298 ط 1309هـ. والأسر الحاكمة لزامباور جـ/128–129 ط الجامعة المصرية1951. ونلاحظ هنا ان الإسم الذي تعرف به الجزائر في كتب التاريخ هو المغرب الأوسط. ولم تعرف باسم الجزائر الا سنة1871م، وإن كانت كذلك قبل تعرف عند بعضهم بجزائر بني مزغناي. =

وبالتالي ذلكم هو واقع الجزائر في الماضي وتلك هي الهجومات التي عرفتها الجزائر وشعبها المسلم من دول أوربا التي كانت وقتها مدفوعة بروح الصليبية قبل روح الاقتصاد والتوسع والاستعمار الرسمي الذي دفع الشعب الجزائري الكثير من الدماء في سبيل المحافظة على دينه وحريته، لكن بعد ذلك الغزو المكرر من دول أوروبا والذي كان آخره بتحالف بعضها انتهى إلى تنازل الكل لفرنسا التي وضعت دول أوروبا أمام الأمر الواقع والتي كانت محاولاتها جادة في الاستلاء على الجزائر منذ عهد بعيد، وقد عرفنا ذلك فيما سبق.

ولعل في دراستنا لتاريخ نابليون وتطلعه نحو الاستعمار بعد فشله في الشرق ما يكفي لمعرفة ما آلت إليه فرنسا الثورة، لا في عهد نابليون الذي هو عهد الضحايا من البشر بلا حساب، بل وبعد نهاية نابليون وما عرفت أوروبا كما أشرنا من مؤتمرات لتصفية الحساب فيما بينها، حتى تتفرغ لتحقيق فكرة الاستعمار والتوسع خارج القارة الأوروبية.

كانت فرنسا في عهد لويس 16 قد تلقت اقتراحا من قنصلها بالجزائر "دوكورسي"

= واما ما كانت تدفعه دول أوروبا للجزائر من أتاوة مقابل أمنها في البحر . فمثلا بريطانيا كانت تؤدي لها سنويا 6.000 جنيه وعند باردون" أن بريطانيا كلما كانت تغير قنصلها كانت تدفع 600 جنيه زيادة على الهدايا للداي. والدانمارك كانت تدفع 4000 ريال وهولاندا 600 جنيه، ومملكة سيسيليا 24000 ريال وهدايا 4000 ومملكة سردينيا 6000 والولايات المتحدة2500000 ومعدات 4000 وكذلك البرتغال وأسوج، والنرويج، وهنوفر، وبريم من ألمانيا، ثم إسبانيا وفرنسا التي كانت هي الأخرى تقدم الهدايا المناسبة كلما عينت قنصلا جديدا بالجزائر وأما السويد والدانمارك، فقد كانت تدفع ضريبة سنوية أو أتاوة قدرها 6400 قرش جزائري فضة، وكان القرش يساوي 13.2 فرنك ومثلها صقلية والبرتغال كانت تدفع 24000 قرش مضافا اليها الهدايا كل سنة، لأن اضطراب الأبيض المتوسط وسلامته كان للاسطول الجزائري فيه دخل كبير وقتها، بالإضافة إلى حماية الأسطول وكما رأينا قبل أساطيل جبل طارق وإسبانيا ومالقة وغيرها. ذلك أنه كان يتوفر على سفن خفيفة ومسطحة تسير بالمجذاف أو بالشراع وتصعب رؤيتها عن بعد، ثم هي مزودة بمدافع بعيدة المدى ويختلف عدد بحارتها. مابين 40–120 رجلا كانوا يتوفرون على مهارة التسلق وغزولسفن العدو والمنازلة على سطحها حتى إن عدد ما كان يتوفر عليه الأسطول الجزائري من هؤلاء الرجال نحو الستة آلاف. كما كانت سفن الأسطول تتوفر على 582 مدفعا، إذ كانت الجزائر المدينة تتوفر على دور لصناعة السفن لم يتوقف عملها الا بعد الاحتلال الفرنسي، حيث كانت تستمد ما يلزمها من الأخشاب من غابات بني عمروس.

أما سبب الهجومات التي كانت من الدول الأوروبية المشار اليها على الجزائر فقد كانت بسبب القوة المسيطرة التي كانت تتوفر عليها الجزائر والتي بها فرضت على تلك الدول ما عرفنا من أرقام الاتاوة.

يحثها فيه على مهاجمة الجزائر والاستيلاء عليها، لكن ظروف فرنسا في عهد ملكها الضحية الذي انشغل بصنع الاقفال والصيد عن مشاكل الدولة التي عمقها رجال بلاطه، لم تكن مواتية لتنفيذ اقتراح القنصل المذكور، وإن كانت فرنسا وقتها قد هاجمت الدار البيضاء(367) إثر موت السلطان محمد بن عبد الله 1204هـ/1789م، لكن ما حصل بعد عهد نابليون كان غير ما عرف قبل من تبادل الهجوم بدافع القرصنة، بل كان من أجل الإحتلال، وإذا كانت بريطانيا أقوى دولة في البحر وقتها، قد تحققت من أهداف فرنسا وأنها أي بريطانيا لم تحقق الغرض من تعدد هجومها على الجزائر فلا أقل تثير انتباه الداي بها إلى أهداف فرنسا حتى لا تستولي عليها من ورائها، وبلغوا ذلك إلى الداي وديوانه، وكان الحاكم وقتها "بابا حسن باشا" المتوفى 1212هـ/1797م، لكنه لم يصدق الأنجليز، وحسب ذلك منهم مكيدة، خصوصا وأن معاملته مع الفرنسيين كانت جد طيبة، وعلاقته بهم أحسن بسبب وساطة اليهود، ولذلك عكس الإتجاه وزاد أكثر في التودد للفرنسيين الذين مكنهم من كل ما يريدون منه، خصوصا تجارة القمح التي فتح لهم أبوابها في جميع الموانئ وأثناء هذه المرحلة التي بلغت فيها العلاقة أعلى درجات التحسن بين الدولتين، إلى درجة أن الداي أقرض فرنسا مبلغ مليون وربع، لشراء ما تريد من القمح في بلاده أيام حربها، وقتها حصل حادث تافه أدى للقطيعة والنفور، ذلك أن أحد الفرنسيين التجأ الى الداي طالبا منه التدخل لدى حكومة فرنسا، ذات النهج الثوري الجديد، والتي حكمت عليه بالحرمان من الحقوق المدنية، بسبب تعامله مع الأنجليز ضد بلاده، طالبا له العفو، فكان الجواب بالرفض، وكان على الداي أن يدرك أن العهد لا يسمح بذلك، خصوصا في عهد الثورة التي تحاول التجديد في كل شيء على أساس مبادئ مثالية يعتبر عدم الالتزام لها نوع من الخيانة التي لاتغتفر، وهنا انقلب الداي مقابل هذا الموقف حربا على فرنسا إلى درجة أنها لم تجد وسيلة للقيام ببعض ما كان لها من مصالح اقتصادية بالجزائر، إلا عن طريق اليهود، وفي مقدمتهم بقرى بوشناق(368)، وقد استمر الوضع بقية حياة بابا حسن إلى أن تولى مكانه "مصطفى

(367) راجع تاريخ الضعيفي السوسي، الرباطي الموطن م.خ.ع 660 د والمخطوط خ خاص ص98.
(368) راجع التحفة 1/111-114 وتاريخ القرن 19 ص 81-139 ط1924.

الخزنجي" 1212هـ/1797م وفي السنة التالية لتوليته كان هجوم نابليون على مصر، فصدرت الأوامر إليه من الباب العالي كي يعلن الحرب على فرنسا باسم الجزائر حتى يشغلها عن مصر، وفعلا قام الداي بعمل جنوني فيه غباء وجهل مركب حيث أحضر الداي قنصل فرنسا العام بالجزائر، وأبدى له سخطه وكراهيته لما قامت به فرنسا إزاء الدولة العلية في مصر، ثم قيده بالحديد وألقى به في السجن، كما فعل ذلك مع جميع ممثلي فرنسا في بلاده، لكنه بعد عودة رسول السلطان أطلق سراحهم، ولربما كان ذلك بتدخل من اليهود الذين كانت لهم علاقات مالية كبيرة مع فرنسا، وضمنها أموال الداي، بل عادت العلاقة مع الفرنسيين إلى التحسن المصطنع حيث بادرت حكومة القنصلية إلى عقد معاهدة صلح دائم مع الجزائر، 1215هـ/1800م ومثلها مع تونس، في الوقت الذي هي فيه على طرفي نقيض مع الباب العالي، وذلك في الوقت الذي بدل فيه الأنجليز قصارى جهدهم حتى لا يتم ذلك وتصبح العلاقة سيئة كما يودون لها، وإذا كانت فرنسا تبادل الأنجليز نفس الشعور في المنطقة التي لهم فيها قوة ونفوذ بفضل قاعدتي جبل طارق ومالطة، فإنهم كذلك كانوا يعلمون أن الدولة في الجزائر تحمل نفس الشعور للأنجليز الذين طالما تصادم أسطولهم مع قرصان الجزائر، وبالتالي طالما تكرر هجومهم على الجزائر كذلك، سبع مرات من 1231 إلى 1240هـ/1815– 1825م إلا أن الداي بالإضافة إلى انصياعه لتدبير اليهود ذوي المصالح المتشعبة مع فرنسا، كان يدرك أن قنصلها العام لا يتورع عن مهاجمة الجزائر ولو ضد آل عثمان، لذلك كان يعمل بكل ماكان لديه من الوسائل حتى يشعر نابليون أن سياسة الجزائر غير مستمدة من أوامر الباب العالي، وكل ما يحصل من عدم توافق إنما هو لأسباب قاهرة، وكانت هذه الخطة من الباي السابق واللاحق بادية النفاق ظاهرة الإفتعال، وأن مصدرها اليهودي(369) نفتالي بوشناق الذي كان بلا شك يحذر من الصدام الذي لا تقدر عليه الجزائر مع فرنسا التي فعلت ما فعلت بالمماليك في مصر، ورغم ذلك فإن نابليون المحموم وقتها بحمة الغزو، ساوره التفكير في غزو الجزائر، وكان يتربص الدوائر للداي، وسيجدها فرصة عندما

(369) راجع فصل الجزائر شعب ودولة قبل في هذا الكتاب.

يطالب هذا الأخير برد الدين الذي كان له على فرنسا وهو ثمن الحبوب التي صدرها اليهودي المشار إليه، فكان الجواب الرفض، مما أدى بالباي إلى حجز سفينتين فرنسيتين، فكان جواب نابليون المتربص إرسال أسطول فرنسا الذي كان راسيا بطولون، وذلك بعد قطع العلاقة التي لم تعد إلا في شهر أوت عام 1802م/1217هـ وذلك بعدما كانت فرنسا قد أبرمت معاهدة الصلح الدائم مع الجزائر قبل سنتين، ثم مع تونس قبل سنة، وفي الوقت نفسه كان قد حاول تهديد المغرب حتى يتفرغ لتنفيذ خطته ضد الجزائر، لكن تحركات الأنجليز، وحكمة الداي كذلك وقتها فوتت عليه الفرصة، حين عاد بطريقة فيها نوع من الدبلوماسية لتصفية الجو مع فرنسا حيث دام ذلك الصفاء مدة ست سنوات إلى سنة 1808م/1223هـ ومع ذلك كان هدف نابليون هو احتلال الجزائر حسب المخطط الذي وضعه، إذ في نفس السنة اتفق مع روسيا على انفراد فرنسا بالجزائر، فبعدما كانت روسيا قبل ضد مثل تلك المواقف من فرنسا على عهد فريدريك جيوم الذي كان يضمر العداء لفرنسا عادت في عهد نقولا(370) فوافقت لفرنسا حتى تفوز بالسبق ضد الأنجليز الذين كانت لهم مطامع كذلك في الجزائر، وكان موقف الروس هذا نتيجة اتفاقية سرية أبرموها مع نابليون الذي اندفع بحكم ما حقق من انتصارات قارية سيظهر له بعد عدم جدواها، فيتخلى عنها سنة 1226هـ/1811م، بل يتحول عنها إلى البحث في تجاه آخر لتكوين امبراطورية شبيهة بالتي للأنجليز، وظهر له أن بدايتها تكمن في التحرش بالجزائر أقرب، خصوصا وقد ظهر أنها ذات محصول ممتاز وثروة طائلة في مجال الفلاحة، وأنها التي أنقذت فرنسا بعد ثورتها، وفي حربها مع الأنجليز، وازداد نابليون اعتقادا في إمكان تحقيقه لمخططه حين زينت له ظنونه أنه أخطأ في التوجه قبل نحو الشرق تاركا البلد الذي لا يفصل عنه بحرا بغير المسافة التي بين طولون ووهران، كما وأن الشرق أمكن للدولة العثمانية فيه إلى جانب مزاحمة الأنجليز أن تستنفر للجهاد باسم الإسلام، أما في الجزائر فإن الربط بين طولون ووهران يربك قاعدتي الأنجليز في

---

(370) كان ذلك بعد الصلح وضمن معاهدة تالست التي تمت بين الدولتين، كانت ثمة معاهدة سرية تم فيها الإتفاق على توزيع ممتلكات الدولة العثمانية، وبسبب ذلك وجه نابليون المهندس الفرنسي بوتان 1808م للقيام بمهمة وضع خريطة تفصيلية مع خطة حربية لغزو الجزائر، التاريخ السياسي عثمان سلطان 474/1. ط 1925 دمشق.

مالطة وجبل طارق، ثم بعد ذلك في استطاعته أن يحول المعارك من البحر إلى البر وفيها لا يكون لبريطانيا ما كان لها في أبي قير والاسكندرية بمصر، لكن شيئا مما خططه نابليون لم يحصل، وكان الزمان أسرع حين أدبرت أيام نابليون كما رأينا، لكن مخططه بقي قائما، وبقيت فرنسا رغم ذلك تعتبر نابليون وهو نصف الرجل، والذي أذلته، أعظم عندها من الإسكندر المقدوني، وربما من كل الأبطال غير الفرنسيين، حسبما عرف الفرنسيون من غلو عاطفي، ونسي الفرنسيون أنه الذي ساق فقط إلى روسيا قصد محاربتها 400.000 جندي فقد منهم 200.000 بين قتيل وجريح، وسقط 130.000 بالأسر، وفر من الجيش نحو خمسين ألف، ولما مر وجنوده على بلاد لبروس، كانوا يسخرون منهم ويصيحون فيهم "ها قد جاءكم الروس يطاردونكم" وأحيانا يتنكرون بزي الجنود القوازق، ويهاجمونهم، وأمثال ذلك من الأعمال الدالة على مبلغ حقد لبروس وبغضهم للفرنسيين، ولقد كان حقد الأوروبيين الكاثوليك، يزداد قوة، وعنفا ضد الشعب الجزائري المسلم، بسبب كتابات الناقمين منهم منذ القرن الرابع عشر، ففي سنة 1307م كان قد عبر إلى الجزائر أحد المبشرين المسيحيين وهو القطلوني رامون الذي قبض عليه في بجاية، وإذا هو تخلص من سجنه بواسطة جهود القطلونيين والجنويين، فإنه لم يتراجع عن فكرة التبشير، وعاد إلى بجاية مرة ثانية، لكن هذه المرة لم تسلم الجرة، وتعرض لرجم المواطنين الذين قتلوه بالحجارة عام 716هـ/1316 فأصبح في نظر أبناء جلدته من شهداء الواجب في أرض الجزائر، التي من وقتها أصبحت مستهدفة من طرف القراصنة الكاثوليك، مما أدى إلى الصراع الذي اشتد بينهم وبين رجالات الأسطول الجزائري قرونا حتى انتهي إلى ما سبق أن أشرنا إليه قبل وبعد مؤتمر ڤينا.

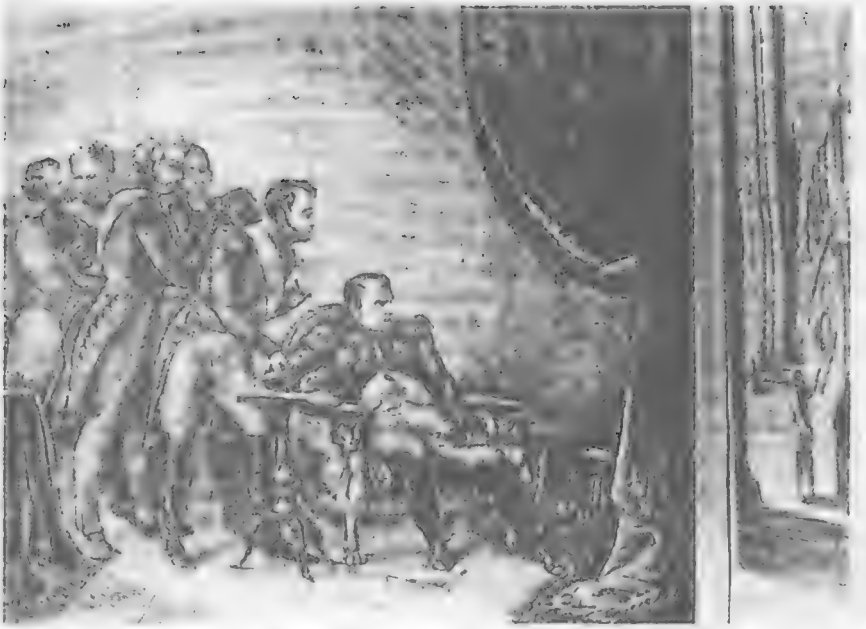

نابليون بونابارت في ذلة على ظهر سفينته وقت احراق الأنجليز للسفن الفرنسية بالاسكندرية، مما جعله يفكر في تحويل فشله بالمشرق الى غزو للمغرب بتوجيه من محمد علي حاكم مصر فكان التخطيط لاستعمار الجزائر الذي تم بعده عام 1827م راجع مجلة لويستري "الشعاع" رقم 204 ص 156 بتاريخ :1862/4/17

نابليون 3
من بعيد شبى ومن قريب لا شيء

الفصل الواحد والخمسون بعد المائة

الجزائر بين الإهمال التركي والغزو الفرنسي وعمالة محمد على والي مصر للفرنسيين

لقد صرفت فرنسا الكثير من الجهد سرا وجهرا زمنا غير قصير من أجل إقناع الدول الكبرى وقتها كي توافق لها على احتلال الجزائر، وإذا هي واجهت صراعا حادا من الأنجليز، فإنها اتخذت لتنفيذ خطتها طريقا ملتويا حيث استعملت قنصلها بالجزائر «دي فال» الذي عايش كل الظروف التي سبقت، وما عرف حول مشكل القرض، لأن تعيينه كان منذ 1231هـ/1815م بل إنه ساهم عن قصد في تعقيد الأمور مع الداي حسين الذي طلب القنصل منه مبلغ مليونين رشوة إن هو أراد استخلاص ديونه من فرنسا، ولما أرسل الداي إلى الحكومة الفرنسية ولم يصله الجواب، واستفسر القنصل أجابه هذا الأخير يوم التقائه به بمناسبة العيد: إن الملك لا يجيب على المراسلة التي تكون من مثل الداي، بل على مراسلة من ملك مثله، وهنا حصلت ضربة المنشة أو بالأحرى الإشارة بها على وجه القنصل النصاب قليل الأدب، ليخرج مطرود إلى حال سبيله، ولست في حاجة إلى ترديد ما قيل حول هذا الموقف، سواء من مؤرخي العرب أو الأوروبيين بما فيهم الفرنسيون الذين وصف بعضهم وبكل تجرد تصرف دي فال بما يليق به من الوقاحة وسوء القصد، ويكفي أن نعرف أنه طلب من الداي مليونين رشوة مقابل حصول هذا الأخير على أمواله التي كانت له كدين لليهودي المتصرف فيها على فرنسا، ومامشكلة القنصل التي اختلقها بقولة طائشة، إلا تعلة اتخذتها فرنسا التي فشلت في التفاوض مع الداي، خصوصا إذا نحن نظرنا إليها كجزئية لما كان عليه مستوى العلاقات البشرية وقتها، حتى إن القنصل السابق بالجزائر، والذي كان بها وقت هجوم نابليون على مصر تعرض بعد القيد بالحديد للسجن. ومن معه من قناصل فرنسا بالجزائر، ولم يحصل من

أجل ذلك بعض ما حصل بسبب التهيب بالمنشة التي اتخذتها فرنسا وسيلة تحقيق أهدافها الاستعمارية رغم ما حصل بعد من محاولات ووساطات ومراسلات، بل وترضيات منها خصم 70٪ من الدين الذي كان وقتها قد بلغ أربعا وعشرين مليونا تحول إلى سبعة ملايين(371) لكن الدافع الحقيقي والذي كان مدبرا بليل حال دون التوصل إلى تفاهم، بل الذي حصل هو العودة إلي مخطط نابليون الذي كان من ضمنه مخطط المهندس بوتان الذي وضعه سنة 1223هـ/1808م، والذي رجعت إليه حكومة مارتينياك حتى تخرج بالمشاكل التي ظهرت بحدة في عهد لويس 18، والتي عقدها شارل10 حتى خلقت في البلاد ارتباكا دفع إلي البحث عن مجال أبعد لشغل الأحزاب عن الملك الذي قيل إن الحرب في الجزائر تجر له التأييد والنصر...؟

وهكذا قبل أن تقدم فرنسا على الغزو بطريقة مركزة، وقبل أن تتجه نحو الاستعداد لذلك حسب رغبة الوزير المذكور، قامت بتجربة اختبار لأحوال دول المغرب ومدى استعدادها وتضامنها، وهل لا تزال في القطرين(372) الجارين بقية من أثر روح الجهاد مع الجزائر إذا لم تنجدها الدولة العثمانية المنشغلة بحربها مع الروس، والمدبر لها هي الأخرى من المؤامرات ما يكفي، بل عندما استهدفت الجزائر للمؤامرة كانت وقتها قد انتهت إلى ضعف وتفكك كسائر جل الأقاليم التابعة لآل عثمان شرقا وغربا، والتي تعرضت إلى استنزاف منذ عهد بعيد بسبب السلطة شبه المطلقة التي كانت للدايات والبايات، وإذا علمنا أن أكثر الولاة كانوا في مختلف الأقاليم من العسكريين الذين ظهرت مهارتهم وأحيانا يكونون من آباء متوسطي الحالة أو من الذين هم أصلا من

---

(371) كان ذلك بواسطة لجنة اتفق عليها قصد إيجاد حل لمشكلة الديون سنة 1819م لكن اقتراحها الذي وافق عليه الداي لم يجد قبولا من الحكومة الفرنسية، ولا من البرلمان، عندما عرض الاقتراح على مجلس النواب الذي وافق فقط على دفع مليونين ونصف من المبلغ المذكور، وذلك كان نصيب اليهوديين نفتالي وبوشناق، وأما الباقي فقد وقع عليه الحجز حتى تحكم المحاكم الفرنسية في الخلاف الذي وقع بين اليهوديين والداي، والذي بلا شك صنع هو الآخر صنعا لأنهما أصلا من الرعايا الجزائريين الذين ما كان لفرنسا وهي تعلم ذلك قبل، أن تتدخل في الموضوع لولا أن في الأمر خلة أوجدها بلا شك القنصل ذي ڤال.

(372) في هذه المرحلة كان المغرب قد دخل في خلاف مع النمسا، ومن أجل ذلك كتب الباب العالي رسالة بتاريخ 15 ربيع الأول 1245هـ/1827م لحكام الجزائر، وتونس، وطرابلس الغرب، يأمر هم بعدم التدخل في الخلاف المذكور، راجع التحفة الحليمية لإبراهيم بك حليم ص 231 ط 1905 مطبعة عموم الأوقاف مصر.

الطبقة المسحوقة بآسيا الصغرى. أو من الذين دخلوا وآباؤهم في الإسلام رجاء حصولهم على نفس الإمتيازات التي كان يتمتع بها المواطن العثماني المسلم، من هذه الأصناف كان جل العسكريين الذين تظهر براعتهم ثم يرتقون إلى درجة ولات الأقاليم، وإذا كان الوالي قبل لا يبدل بغيره إلا إذا بلغ سن العجز، وأحيانا يخلفه ولده أو من يقدمه هو أو من يقترحه على الباب العالي، فإنهم أصبحوا بعد ومنذ تحددت مدة إقامة الوالي بالإقليم قصدا بسنتين أو ثلاث، يرحل بعدها ليحل محله آخر يختار من السلطان بتأثير ممن حوله، ولهذا السبب أصبح الوالي في كل إقليم يعمل في سباق مع الزمان حتى يجمع له من الثروة ما يروي منه النهم والشره(373) وما يقدم لسيده الذي يولي ويعزل حتى لا يهمله، ولحاشيته حتى تذكره عنده، وبهذا آلت جميع الأقاليم التابعة لآل عثمان إلى فقر ومسغبة صنعهما الولاة، ومن ذلك إقليم الجزئر التي كانت وقتها غنية بطبيعتها فقيرة وضعيفة بتسيير إدارتها، والتي لم تحكم قط بأبنائها منذ حررها خير الدين بربروس وأخيه أوروج من يد الاسبان آخر عهد بني عبد الواد، فكانت عرضة للتمزيق والضياع، لم تجد من يدافع عنها غير الحامية التي كانت لا يتعدى وجودها مدينة الجزائر، ومثلها في تلمسان، أو قسنطينة، أو بجاية، أو بعض المراكز ذات الاعتبار المالي، حتى إن الجزائر أخيرا ومن شدة إهمال الباب العالي أصبح عزل وتولية الولاة فيها بيد ضباطها وأغواتها(374) كما لم يعد للشعب من الرجال المتصدرين من يقوده للذود عن حماه في ميدان الوغى.

لقد كان الشعب الجزائري وفي مختلف مناطقه من تلمسان إلى قسنطينة يتوفر على رجالات ذوي شأن في مجال العلوم والمعارف، خلافا لما قال العبدري في رحلته، لكن الجزائر قط ومنذ ما قبل الحسن الحفصي شرقا، وبني عبد الواد غربا، لم تتوفر على حكومة وطنية أو فيها عناصر وطنية صالحة، بل ولا على ولاة لهم رغبة صادقة في بناء

(373) ثم راجع إتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف جـ 3/163–169ط تونس 1963م حول احتلال الجزائر وأسبابه، ومن هو حسين باشا الذي انتهى بها إلى الكارثة بطمعه وعجرفته وما هو الا ابن غسال الأموات ص168 ثم راجع تاريخ الدولة العلية لمحمد بك فريد ص: 232، وإن كان صاحب تحفة الزائر قد ترجم له بطريقة فيها تصنع، نظرا للظروف التي وجد فيها بالنسبة لوضعه وأسرته في دائرة نفوذ الأتراك راجع ص:134–45.

(374) راجع الفصل السابق الجزائر شعب ودولة.

الجزائر والتمكين لحضارتها والعناية بشؤون شعبها ماديا وأدبيا، وحتى لا يتجنى على تاريخ دولة آل عثمان قديما كما فعل بضع كتاب الغرب الذين لم يقدروا اتساع الرقعة أولا وانعدام الأطر ثانية، وجب أن نتعرف أن هذه الدولة كانت في عهد قوتها تمثل الغيرة على الإسلام بالمعنى الصحيح والمفهوم للعصر، وفي هذا العهد الذي نحن بصدده أصبحت تتعرض لأعنف الطعنات الغادرة من الداخل والخارج، سواء بتطاحن سلاطينها وتنازعهم مع الإخوة والأقارب أو بانغماسهم في ملذاتهم التي كدرت عليهم الصفو، كما أجمعت كل دول أوروبا على عدائها والكيد لها بشكل حاد ومزعج، خصوصا في الفترة ما بين 1223–1325هـ/1808–1907م ففي هذه المرحلة من التاريخ المعاصر أخذت الرأسمالية تضع الأسس للبناء الجديد الذي سيقوم على استعباد الشعوب، بل حتى المسيحية السمحاء، وقسيسيها ورهبانها حولتهم سياسة نابليون إلى دعاة ومبشرين لفائدة الإستعمار والتمكين لرؤوس المال، باستعباد الأمم وإذلال الشعوب، حيث كانت مصالح الأفراد الخاصة تملي عليهم وعلى المستعمرين السياسة التي كانوا من المبشرين بها، ولم تكن غير رغبة دوي السندات فيما أسس وقتها من شركات ولم يكن لمؤسسيها من هدف غير تحقيق مصالحهم بالحروب والفتوحات، بل إن رجال دول أوروبا تنكروا في هذه الفترة للدين الذي لم يعد يصلح في نظرهم إلا أن يكون وسيلة الاستعمار، ففي سنة1814م قام الإسكندر الأول، إمبراطور روسيا بالدعوة لوضع حلف مقدس يجمع دول أوروبا بعدما تنفست الصعداء من حروب نابليون، وكان يرمي من ورائه إلى التمسك بالدين المسيحي كوسيلة للربط بين تلك الشعوب والدول، لكن الحلف ولد ميتا، بل كان محل سخرية بعضهم مثل ممثل بريطانيا اللورد كاسلريه الذي قال في حقه: إنه خليط من اللغو والتصوف، وقد كان فعلا فشل ذلك الحلف عبارة عن فشل للمسيحية التي ذهب رجالاتها الى حد أنهم بعد ظهور نظرية "دروين" أخذوا يبررون الدعوة إلى الحرب ويبشرون بها، ثم قالوا إنها وسيلة تحقيق البقاء للاصلح، بل هي في نظر بعضهم من صور الكفاح الذي يقع بين عناصر الطبيعة في سبيل البقاء، وانقاد الأوروبيون وراء تلك النظريات إنقياد الأعمى، حتى تحولت أوروبا، إلي بؤرة ساخنة نتنة، تتطاحن فيها المبادئ والثورات التي حولتها من قارتها إلى قارات الدول التي آلت إلى الضعف والجهل

والتي اتفقت على استعمارها، وكان ذلك منذ أواخر عهد السلطان سليم خان الثالث1203–1222هـ/1788–1807م واستقلال محمد علي بمصر، الى أن خلع عبد الحميد ونصب مكانه محمد رشاد الذي سمي "محمد الخامس"(375) إذ في هذه الفترة بدأت الدولة تنحدر نحو الهاوية التي ستتردى فيها أخيرا، فبعدما صارعت تقريبا كل دول أوروبا شرقا وغربا من روسيا عدوها التقليدي إلى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ونفاق النصاب غليوم ألمانيا كما سنرى، إلى جانب المرتزقة من جنود إنكشاريتها الذين أصبحوا ولاة الأقاليم النائية، ثم غدروا أمثال محمد علي القولي الذي استقل بمصر بعدما جر عليها المتاعب والتمزيق، وإن كان قد استغل وجود الأنجليز وصراعهم مع الفرنسيين، ثم كان السبب في تحريرها من هؤلاء الذين حرروها بدورهم من المماليك، وإذا ما استمر حكم محمد على لمصر مستقلا ما يقرب من العشرين سنة، فإن فرنسا رأت أن تتخذ منه مخلبا ورأس حربة تجرب بها تمزيق أوصال الدولة العثمانية في المغرب وأقطاره الثلاث التي هي طرابلس وتونس والجزائر التي انتهى الصراع مع الداي بها إلى ضرب الحصار عليها والبحث عن وسيلة القضاء على حريتها واستقلالها، ولقد تطوع للإسهام في ذلك محمد على حاكم مصر الذي كاد يصبح العميل الأول لفائدة الاستعمار الفرنسي وقتها حيث قاد سياسته وحروبه من سماه سليمان باشا الفرنساوي ولولا خلاف حصل على الثمن وكيفية الأداء، فقد فكر الفرنسيون وقت حصارهم للجزائر أن يقوم محمد علي بالهجوم من الشرق كي يستولي على طرابلس وتونس ثم الجزائر وعندما تفصل بيده عن الدولة العثمانية كما حصل لمصر يسهل توزيعها متفرقة، إلا إذا حصل تنافس بين دول حوض الأبيض المتوسط، وبالأخص مع بريطانيا، وفي سبيل أن يقوم

(375) راجع تاريخ الدولة العلية 192–412 ط 1912م ولعل محمد علي وقتها وقد كان على اتصال بما يجري داخل قصور آل عثمان: إيلدرم، وبلدز، وضولة بغجة، حيث كن المحظيات من كل جنس تقمن بالأدوار التي عجلت بالانهيار، فكان والي مصر على علم بذلك مما مكنه من اختيار الوقت المناسب، وأما حقيقة محمد علي القولي فقد كتب حولها الشيخ الإمام محمد عبده الذي وصفه أصدق وصف يستدل منه على خرافة محمد علي حيث كتب ما نشر في مجلة المنار عام 1902م، ثم نشره الشيخ رشيد رضا في الجزء الثاني من تاريخ الشيخ الإمام... في المنشآت التي جمعها كما اقتطف منه الدكتور عثمان أمين ما نشره في كتابه عن الشيخ الإمام محمد عبده، بعنوان رائد الفكر المصري، ص:243–47 ط مصر 1955.

محمد على بالدور المطلوب منه، حصل التفاوض بينه وبين المقترح وهو القنصل الفرنسي "دروفتي" الذي كان يري أن في صراع محمد علي للداي المحاصر أكبر مكسب لفرنسا، حيث ستصبح الجزائر ممهدة للفرنسيين الذين أكثروا على محمد علي من الإغراآت، وكذلك على الباب العالي وأن الأول سيدفع للسلطان "جزية" سنوية ذات اعتبار مقابل إستيلائه على أقطار شمال إفريقيا، وإذا لم يوافق السلطان محمود خان الثاني، فإن الاتفاق كذلك لم يتم مع محمد على الذي قبل المهمة، لكنه لم يتفق على كيفية وتقديم الثمن المشروط من الفرنسيين فيما يرجع للقوات التي ستساند محمد علي على القيام بالمهمة، ذلك أنه اشترط: أن تسلم إليه الأموال المتفق عليها وهي عشرة ملايين، وكذا المعدات الحربية بدل أن تبقى بيد الفرنسيين الذين اختاروا أن يكون لهم دور في البحر إلى أن يتم احتلال الأقطار المذكورة حتى يستأثروا بالامتياز، وأن لا يقحم الباب العالي في الموضوع، لكن "بولنياك" الذي كان قد سبق له الاتصال بالباب العالي من طريق السفير الفرنسي "جييمينو" حتى يعرض الموضوع على السلطان محمود خان بطريقة فيها تهديد، وأنه بعدم قبولهم التنازل لمحمد علي والموافقة على دوره في المهمة، فإن فرنسا ستستخلص اعتبارها من الجزائر، ووقتها لم يعد للدولة، العثمانية عليها أي سلطان، وفعلا أصدر السلطان محمود خان الثاني أمرا عاليا بإسناد السلطة في الأقاليم الثلاثة في شمال إفريقيا إلى محمد علي حاكم مصر، لكن شيئا من ذلك لم يتم، وتعرض التخطيط للإجهاض بسبب عدم تبادل الثقة بين الفرنسيين ومحمد علي، مما يستدل به على ما كان يبيت من الفرنسيين، كما عرض التخطيط للتمزيق ما حصل بينهم وبين الانجليز، الذين تحركوا بطريقتهم وأسلوبهم عندما علموا بما رشح له محمد علي، مما أدى إلى صراع كاد يكرر ما حصل قبل سنة 1824م من صدام نتج أساسا على أوهى العلل لتهديد مدينة الجزائر، حين وجهوا إليها السير "هاري نيل" الذي وجه إليها ضربات التهديد بدعوى سجن الداي لبعض خدام قنصل الأنجليز، إلا أنه لم يصب هدفا ورحل، وكان واضحا من ذلك الوقت أن الأنجليز إنما يعرقلون تطلع الفرنسيين لاحتلال الجزائر، كما فعلوا ذلك سابقا زمن نابليون 1802م سياسيا وبدون سلاح، لكنهم هذه المرة لم يكونوا متحمسين وقد لاحظوا أن الاسبان الكاثوليك في الشاطئ القريب والمقابل أبدوا

استعدادهم لكل مساعدة تمكن الأسطول الفرنسي من أداء مهمته ولو بحرب من أجل استعمار الجزائر، مما عقد الأمور بين المغاربة والاسبان بتحريض من الأنجليز بلا شك، لأن المغرب وقتها كان قد تخلص من أسطوله ولا وسيلة لديه يخوض بها المعارك حتى لو أراد، وكل الذي كان يهم الأنجليز بجبل طارق هو إثارة العداوة التقليدية بين المغرب والاسبان حتى تستمر في نفس الحرارة ولا يطمئن الأنجليز الذين سيتميزون في المغرب إلا إذا قامت الحرب بين الدولتين كما سنرى 1276هـ/1859م.

أشير باشا الضابط الفرنسي الذي صمم لدخول مدينة الدرعية ضمن جيوش ابراهيم، باشا ولد محمد علي القولي حاكم مصر وهو الذي زين لنابليون استعمار الجزائر بعدما طرده الانجليز من ابي قير بمصر. وقد كان هذا الاحتلال. مما دفع عبد الله بن سعود للتفاوض مع ابراهيم باشا ابن محمد علي حاكم مصر بطلب منه في 7 ذي القعدة 1233هـ = 1818/9/9 قصد إيقاف القتال ثم ختمت المفاوضات بتسليم الدرعية بشرط تأمين الأهالي مقابل سفر بن سعود الى الآستانة وتسليمه الكوكب الدري وما بقي من المجوهرات والتحف التي أخذها الوهابيون حين استلائهم على المدينة المنورة عام1220هـ وفعلا سافر ابن سعود عن طريق القاهرة التي وصلها يوم 19 محرم 1234هـ ومنها الى سلطان الترك الذي غدر به ثم قتله ظلما. راجع تاريخ الدولة العلية لمحمد بك فريد ص205 مطبعة التقدم 1912.

الفصل الثاني والخمسون بعد المائة
الشعب والمقاومة في الجزائر

كانت الجزائر بعد مصر أول بلد إسلامي في حوض الأبيض المتوسط، وقت تنظيم الاستعمار الأوروبي تعرض للغزو من دولة أوروبية، بل كان غزو الجزائر أكبر عامل دفع دول الإستعمار التي بدأت تخطط لذلك منذ مؤتمر ڤينا 1231هـ-1815م إلى التنافس والتكالب، بل وما كان استعمار الجزائر ولا غزوها بتلك الطريقة يتم لولا تأكيد الأمل، من طرف فرنسا في الوصول إلى اتفاق مع تلك الدول ولو بعد صراع، خصوصا وأن التي كانت تقف في طريقها أكثر إنما هي بريطانيا وأنّ هذه الأخيرة ما أقدمت على ما أقدمت عليه زمن نابليون في مصر، وما تخططه لانهيار الدولة العثمانية، إلا من أجل تحقيق مقاصدها في الشرق الأوسط الذي ارتبطت في مختلف مناطقه بارتباطات ستكشف عنها الأيام، بل وما كانت الجزائر بعد لتسقط عاصمتها بتلك الطريقة أمام الفرنسيين رغم كل قواتهم لو كانت تتوفر على حكومة قوية توحد شعبها المستعد للبذل، وتمكن لسلطانها كما حصل حين ظهرت إمارة الأمير عبد القادر التي جاءت متأخرة، بيد أن إدارتها وقت تجربة الغزو الفرنسي كانت مفككة بسبب تصرف الداي ورجالات الديوان، ثم هي عبارة عن أشتات وتجمعات عسكرية شكلا وغريبة عن الشعب، لا تربط بينها مقومات باستثناء الأوراس موطن القبائل البربرية التي اعتمدت العصبية المريضة زمنا من أجل الدفاع عن النفس في نطاق ضيق، لكن سرعان ما تفككت ثم انقلبت بعد ظهور ثورة الشعب ضدها إلى قوة في جانب الاستعمار الفرنسي الذي مهد بها -بعد احتلال الجزائر- بقية قطري شمال إفريقيا تونس والمغرب، فكان معظم السباهي "سبايس" منهم ومن أهل جربة من القطر التونسي.

لقد حسبت فرنسا أنها قامت بحصارها للجزائر في الوقت المناسب، ولم يكن غير

الوقت الذي طالب فيه المتاجر وابن غاسل الموتي وهو الداي حسين بالدين الذي ما طلت فرنسا في أدائه زمنا طويلا، وأخيرا دبرت مؤامرة ضد البلد وأهله، وذلك في الوقت الذي دخلت فيه الدولة العثمانية في حرب مع الروس والأنجليز والفرنسيين 1243هـ/1827م، والتي كان الأسطول الجزائري فيها من بين الأساطيل التي تحطمت في "معركة ناڤارين" البحرية، هذا بالإضافة إلى ثورة اليونان(376) التي اندلعت منذ عشرين سنة مضت1223هـ/1808م وقد فجرت المتاعب على الباب العالي إلى جانب الحرب مع الوهابيين(377) التي اندلعت في جزيرة العرب، وهي الحرب التي أساءت لسمعة آل عثمان بما فعلوه مع عبد الله بن سعود النجدي الذي ناصر فكرة السلفية التي تزعمها محمد بن عبد الوهاب، فكانت نهاية عبد الله المذكور أن قطعت رأسه غدرا بالقسطنطينية بعد أمان، وذلك بخيانة من إبراهيم باشا ابن محمد علي الذي أمنه باسم السلطان محمد خان ثم ذهب إليه ليقتله غدرا، ذلك لأنه أصبح يزاحم سلطة آل عثمان باستيلائه على حكم الجزيرة كما سنرى بعد حين كلامنا عن السلفية وأثرها في المغرب.

وهكذا فإن الدولة العثمانية تعرضت إلى مؤامرات متعددة ومتنوعة جلها كانت تنسج بأيدي أوربية، وقد بدأت بمحمد علي الذي دفع دفعا للخروج على السلطان، وأثناء المفاوضة بينه وبين الباب العالي خرج أحمد باشا المسؤول عن القوات البحرية بكل البواخر العثمانية التي توجه بها إلى الاسكندرية ثم سلمها نكاية إلى محمد علي يوم 2 جمادى الأولى 1255هـ/14-8-1839م(378) مندفعا لذلك بسبب إسناد منصب الصدارة إلى "خسرو باشا" الذي كان قد سبق تعيينه واليا على مصر، ثم خرج منها بناء على رغبة الأهالي في تعيين محمد علي واليا عليها، وخوفه من الإيقاع به بسبب ما كان بينه وبين محمد علي من مودة، هذا بالإضافة إلى أن دولة آل عثمان فقدت قواتها البرية في الحروب المتقدمة، ثم هي لم تعد لها سلطة مباشرة على الجزائر التي أصبح الجنود فيها كما رأينا يولون ويعزلون، بل ويقتلون حتى بلغ عدد ضحاياهم، من الدايات 14من 28 كما

(376) راجع الدولة العلية 206. مصدر سابق.
(377) نفس المصدر 201.
(378) المصدر السابق 277 تاريخ الدولة العلية.

سبق، مما وضعها تحت رحمة دول أوربا التي اتفقت ضد الرجل المريض رغم تباين أغراضها.

تلك كانت وضعية وظروف دولة آل عثمان التابع لها قطر الجزائر وقت تدبير المؤامرة الفرنسية ضده، وبذلك لم يكن أمام الشعب الجزائري إلا أن يواجه مصيره المحتوم، وأن يظهر هل هو أهل للحياة الكريمة أم لا، وإذا هو عرف الحصار مدة طويلة، فإنه لم يتأثر كثيرا بذلك الحصار، بل الذي تضرر منه هم الفرنسيون الذين كان يكلفهم نفقات زائدة، قيل إنها كانت تقدر بأكثر من مليونين سنويا، قامت من أجلها ضجة في البرلمان، حتى أن حكومة بولينياك(379) التي حلت مكان حكومة مارتينياك يوم 1829/9/8م كادت تعدل عن الاحتلال، وربما قيل حتى لا تعطى لروسيا التي كانت تنتظر المناسبة، بل الفرصة كي تنقض على أي إقليم من أقاليم الدولة العثمانية شرقا، واكتفت بالحصار الذي دام من 1827/6/16م إلى 1830/6/13م لكن الجزائريين وقد شعروا بالظلم الصراح لم يقفوا أمام ذلك مكتوفي الأيدي، خصوصا وأن الفرنسيين أكثروا من التهديدات البحرية بواسطة بعض الطلقات بين حين وآخر، الأمر الذي دفع إلى التربص ببعض رجال الأسطول الفرنسيين، ولما تمكنوا منهم قتلوهم، وذلك بعدما فشل قنصل سردينيا الذي كان يقوم بأعمال قنصل فرنسا في الجزائر في مهمة الوساطة التي كانت مركزة على حمل الداي كي يتقدم بالاعتذار كما قيل، لكن الداي عاد فقدم شروطه بواسطة قنصل الأنجليز حتى يغيظ الفرنسيين الذين تلفظ الداي في حقهم وفي جانب ملكهم بما قيل عنه إهانة، حين قال "إنه لا سلطة له ما دام لم يرجع له اليهودي المسؤول عن ماله خصوصا وأنه جزائري" وليس في هذا ما يعتبر قذفا في حق المستبد شارل العاشر، إذا نحن استوعبنا تصرفاته المطلقة التي أدت به إلى حل البرلمان تحديا لخصومه السياسيين

(379) تولى بولينياك رئاسة الوزارة الفرنسية ما بين 1829–1830م وكان متطرفا في نزعته الملكية، وفي مارس سنة 1830 طالب مجلس النواب بإقالته لكن شارل 10 حل المجالس بدلا من ذلك، وأجريت الإنتخابات التي جاءت ثانية بأغلبية الأحرار، فأصدر بولينياك مراسيم بحل المجلس قبل انعقاده، وسن قانونا انتخابيا جديدا، وألغى حرية الصحافة، وهي أمور أدت إلى ثورة يوليو، وقبض على بولينياك بعد الثورة وأصدر مجلس الاعيان الحكم عليه بالسجن مدى الحياة، ولكن صدر عفو عنه 1836م ورحل الى إنجلترا وكانت هذه المرحلة حاسمة في تاريخ فرنسا وأوربا راجع الموسوعة العربية 444–445 ط 1965 ومرآة الايام لخليل مطران ج2/290–308ط مصر 1905.

الذين أصبحوا قوة تهدد نفوذه، لكن الداي الذي كان يفتح صدره للقنصل الأنجليزي الذي كان بلا شك يدكى نار الفتنة حسب خطة سياسة بلاده وقتها تجاه الفرنسيين والجزائريين معا، ولذلك قالت فرنسا أيضا إن قنصل الانجليز كان من وراء عناد الداي، وشدة مقاومته لجنودها، مما دفع لإلحاح الفرنسيين في تقديم الاعتذار، وكان ذلك بواسطة ضابط فرنسي تردد كثيرا على الداي كمفاوض، وفي آخر مرة من السبع وهو عائد إلى الأسطول ضرب الأسطول بقنابل لم تصبه، وإنما حقرت من شأن فرنسا وحصارها الذي دام نحو الثلاث سنوات، ثم كلفها سبعة ملايين بالإضافة إلى خسارتها البحرية.

لقد أسندت رئاسة وزارة فرنسا إلى جول إرمان بولينياك يوم 1829/9/8م كما أشرنا وهو الذي أخذ يشيع بل يؤكد أن احتلال الجزائر سيساعد على تركيز الملكية وتحقيق النصر في الانتخابات، ولعل هذا كان من ديماغوجية بولينياك الذي أثار رأيه جدلا احتدم بين الفرنسيين حول البقاء في الجزائر، كما أن مذكراته وجدبها عدم التمسك بالجزائر كمتسعمرة كما أشرنا، لكن الشهية تفتحت بعد، وكان حادث ضرب الأسطول حيث أصيبت السفينة لابروفانس وقائدها، برصاص الجزائريين المدافعين عن مدينتهم التي أصبحت مهددة بما تجمع حولها من قوات بأمر من شارل العاشر الذي أصدر مرسوم التعبئة العامة يوم 1830/2/7م، وذلك نزولا عند رغبة بولينياك، الذي أشرفت حكومته على تجنيد حوالي 37500 جندي زودتهم بـ 45000 حصان و91 مدفع ميدان، ثم أسندت القيادة البحرية إلى الاميرال دوبريه، والبرية الى الجنرال برمون، ولكل من القائدين ترجمته السياسية في تاريخ فرنسا، وكلاهما كانا على طرفي نقيض فيما يرجع لغزو الجزائر، لكن ما جاءت به الأيام، وكذا الاستعداد الكبير للغزو، بدل المواقف وغير الإتجاه الذي ساهمت في إشعال ناره ثم تزويدها بالحطب كل العناصر المتزمتة باسم المسيحية وعدائها للإسلام، وبذلك تجمعت من السفن أيضا في ميناء تولون نحو الستمائة سفينة، منها أو أكثر توجهت بعد معاناة إلى الشاطئ حربية المغربي، حيث رست في ناحية "سيدي فرج" البعيد عن الجزائر بخمسة وعشرين كيلومتر.

بقي لنا أن نشير أن الحالة في أوروبا في هذه السنة بالذات كانت مضطربة، بحيث

كانت وزارة المحافظين في إنجلترا على وشك السقوط وفي بلجيكا، وإيطاليا، وبولونيا، الاستعداد للقيام بثورة وطنية، وفي إسبانيا والبرتغال وبلاد الاتحاد الجرماني قامت حركة لتأييد المطالب الدستورية، وكان كل ذلك وقودا ينتظر الشرارة مهما كانت ضعيفة لتشتعل النار، فكانت بالفعل من فرنسا بتايخ 26 يوليوز1830م حيث تطاول الملك الفرنسي على الحرية التي سبق للشعب أن انتزعها بحد السيف، وأصدر أمره بمصادرة حرية الصحافة وبتحديد قانون الانتخابات، مما دفع إلى اندلاع نار الثورة في باريز لمدة ثلاثة أيام هي 27–28–29 يوليو، فكانت النتيجة ستة الاف من القتلى، وتنحية الملك ليحل محله الدوق دورليان رئيس الفرع الثاني من آل بوربون لويس فيليب الذي نودي به ملكا يوم1830/8/9 بناء على نصيحة لافاييت، وبعد هذا بقيت فرنسا لمدة عشر سنوات شغلت نفسها جانبا من سياسة أوربا بتدخلاتها بإسم الثورة التحريرية، وكذلك تدخلاتها بين آل عثمان ومحمد علي، الأمر الذي أدكى روح استعمار الجزائر والاستمرار في القتال من أجل احتلالها.

كانت الشروط التي حصل من أجلها التفاوض الفاشل هي:

أ) إطلاق سراح الأسرى التابعين للبابا.

ب) إرسال وفد إلى باريز لتقديم الإعتذار.

ج) إعلان الهدنة بين البلدين.

وهي شروط ظاهرة الافتعال لم يكن القصد منها غير إثارة الرأي العام الكاثوليكي ضد الإسلام، وقد حصل، حيث تزعمت الصحف والهيآت السياسية الدعوة لذلك في فرنسا بشكل أدى إلى رد فعل، والتعجيل بالاندفاع للاحتلال الذي كان قد أمر به قبل شارل 10 حيث أقلع وزير الدفاع دي بورفون من مرسيلية يوم 1830/1/25م كما أقلعت قوات أخرى من تولون بعد في شهر ماي، بل ويستدل على مدى الحقد الذي تمكن وقتها من قلوب الفرنسيين باسم الدين من أنواع الذين شاركوا في الحملة سواء من العلماء والأدباء والفنانين والخبراء أسوة بحملة نابليون على مصر، والتي كان معه فيها حوالي 150 عالما، وإذا ما ركزت الحملة على مدينة الجزائر، فإن المقاتلين لم يجدوا بدا من الاستسلام بعد مقاومة شديدة يتقدمهم الداي حسن الذي تقدم بشروط يوم 12 محرم

1246هـ/4-8-1830م وكان استسلام الداي خوفا من نقمة المواطنين، ثم رحل طريدا إلى نابولي ثم إلى الاسكندرية حيث أصبح في ضيافة محمد على إلى أن توفي سنة 1253هـ/1837م، كما إحتل دي بورمون مدينة وهران وعنابة، وتوغل حتى انتهى إلى لبليدة، لكن الثورة التي قامت بفرنسا في بوليه 1830م والتي صنعتها تصرفات بولينياك ضد الحرية، عوضت الوزير المذكور بآخر موكلوزيل، زمن مليكه لويس فيليب من سلالة آل أورليان(380) والذي نصب يوم9/8/ 1830م(381) ويقول سيديو أن هذه الثورة أوقفت الزحف في الجزائر، وذلك حين يقول "كان ملوك أوربا متشوقين لامتلاك بقاع مهمة من ساحل شمال إفريقية، وتأسيس مراكز تجارية، وكان بينهم وبين حكام المغرب والجزائر، وتونس، وطرابلس، علائق نتج عنها منفعة تبعية، عاد الفرنسيون إلى الجزائر 1827م وحين أخذوها سنة 1830م، تغير شمال إفريقيا تغيرا كليا، ثم يقول "ومنع القرنسوية من توسعة دائرة حكومتها بالاقطار المغربية ما حصل من الانقلاب في شهر يوليوز سنة 1830(382) كما اعترف الكاتب أيضا بأن المانع كذلك من التوسع وقتها هو وطنية الاتراك والعرب وشدة بغضهم للمستعمرين خصوصا بعض الزعماء مثل الحاج أحمد وبنعيسى وابن زامون في الجهة الشرقية، وعلى مبارك و المقراني وابن مزراگ في الناحية الغربية وغيرهم ممن لم يتعرض لهم التاريخ وهم كثيرون في مختلف جهات الجزائر ولولا ما

---

(380) خلاصة تاريخ العرب، لسيديو 287. ط 1309هـ.

(381) دام لويس فيليب الذي كان مريضا بالمظاهر، والذي قال في حقه العظيم بسمارك كلمته المشهورة "من بعيد شيء ومن قريب لاشيء" دام لويس فيليب في الملك 18 سنة إلى أن قضي على الملكية في الثورة الثالثة عام 1848م ثم أقيمت الجمهورية الثانية. فذهب لويس وعائلته إلى بريطانيا التي توفي فيها بعد سنة وقد بلغ من العمر 77 سنة راجع تاريخ قطف الزهور ص467 مصدر سابف وخلاصة تاريخ العرب مصدر سابق كذلك.

أما برمون لوي أجيست كنت دي1773-1846م فهو مارشال فرنسي من مهاجري الاشراف أثناء الثورةالفرنسية التي حارب ضدها تحت إمرة كونديه وتزعم "أشوان" وهو إسم الخارجين على الثورة من فلاحي فدنية، سجن وهرب ثم خدم في حرب نابليون، وتخلى عنه قبيل واترلو، وانضم للبوربول، وعينه شارل العاشر وزيرا للحربية، وماريشالا. وفاجأته ثورة 1830 وهو منتظر في الجزائر. فأصبح منفيا ورجع سنة 1840م إلى فرنسا بعد صدور العفو.

(382) نفس المصدر، ولعل من هذا الكتاب يمكن أخذ تاريخ جميع المعارك التي حصلت بين الفرنسيين والمواطنين في الجزائر، بدءا من المعركة الأولى التي قادها إبراهيم أغا صهر الداي وباي قسطنطينة حول الجزائر العاصمة، حيث قام بالهجوم يوم 1830/6/19م، لكن لم يكن في صالح الجزائريين بل انتصر الجنرال بريمون الذي وصلته إمدادات وسلاح أحسن يوم 25 من الشهر المذكور مما أدى بعد إلى إحتلال المدينة.

حصل بين بعض الزعماء من تطاحن لما تم للفرنسيين إحتلال الجزائر في المدة التي ستتعرض لها.

لقد أدت منازعة بعض الزعماء الجزائريين بعضهم بعضا، خصوصا شرق قسنطينة إلى دفع بعض الولاة مثل مصطفى باي إلى ضعف إنتهى بعد إلى زوال ليحل محلهم حكم الزعماء، فحل الحاج عبد الرحمن محل مصطفى باي قسنطينة، كما إتجه سكان غرب الجزائر إلي مبايعة المولى عبد الرحمن بن هشام بالمغرب، في الوقت الذي نزل كلوزيل بجيشه في مدينة الجزائر التي استولى عليها يوم 1830/9/5م بعدما كلفته400 قتيل و900 جريح، فكان تركيز القوات الفرنسية فيها وحولها، واستيلاؤهم على أهم المراكز بينهما وبين وهران، مما أدى إلى ضعف موقف الجزائريين بسبب عدم القيادة ذات النفوذ المادي والمعنوي، التي تتصف بالمشروعية المتفق على احترامها من الجميع، ورغم ما قام به بومزراگ من محاولات لإنقاذ الموقف، حيث تظاهر بصداقة الفرنسيين وهو يظم عداوتهم، لكنهم عرفوه بعد حربه لهم وأسره ثم نصبوا مكانه مصطفى بن عمر جهة لمدية، كما ركزوا قواتهم في وهران إبتداء من يوم 1831/8/8(383) حيث تولى قيادة جيش الغزاة بها قائد الجيش برتزين يوم 1831/8/18م، والذي كان على رأس تسعة آلاف جندي، وعندما سقطت قوات الخائن مصطفى بن عمر، ولما احتل المجاهدون الجزائريون مدينة لمدية استبشر الناس خيرا وتفاءلوا بطرد الفرنسيين، ووقتها ظهرت فكرة قيادة الشريف الإدريسي محيي الدين وولده الحاج عبد القادر الذي سيكون أول رجل للدولة الجزائرية الحديثة، وبانيها، بسواعد المجاهدين الجزائريين(384) على أنه لا يفوتنا هنا أن

---

(383) نفس المصدر.

(384) هناك كثير من المراجع حول مرحلة كفاح الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي منها ما تركه الفرنسيون في مختلف الولايات من الوثائق وتقارير العسكريين ثم الأرشيف الحربي بقصر فانسان بباريز والمكتبة الوطنية الفرنسية، ومذكرات الضباط والحكام الفرنسيين ومع ذلك لم نجد من كتب حول تاريخ الجزائر ونضال أبنائها بما يتفق وما بذله الشعب الجزائري من تضحية قوامها الدين الإسلامي الذي تعرض للهدم من بعض المفلسين من ابناء الجزائر الذين اعتنقوا الاشتراكية المتطرفة بعد الاستقلال بطريقة أشد وأعنف من تلك التي سلكها دهاقنة الاستعمار قبل الاستقلال. ولم يكن ذلك في الجزائر وحدها، بل في جميع أقطار المغرب الكبير.تعرض الاسلام فيها إلى طعنات إن لم تكن بقوة الحديد والنار مثل الجزائر، كانت بنشر الخمور والفجور واباحة كل الشرور مثل المغرب وتونس.

نشير إلى أن الغزاة الفرنسيين، وكعادتهم كلما دخلوا بلدا إلا كان هدفهم السلب والنهب فقد إستولوا على خزينة الدولة ظلما وعدوانا عندما غادر حسين داي العاصمة، وكان بخزينة الدولة عشرات الملايين من الفرنكات الذهبية والتي من أجلها سال لعاب الفرنسيين، خصوصا بولينياك الذي كان قد خضع لمقاومة الباي حتى يرد إليه اليهودي المتجنس بوخريص، الذي أصبح يعرف بقرى بل إن الجنرال دي بورمون كان بحق مثال اللص الدنيء، حيث لم يعامل المقاتلين بشرف وذلك عملا بسياسة حكومته التي لم يسجل التاريخ السياسي لها في تلك المرحلة غير الدناءة والسقوط والانحطاط(385)، بقدر ما سجل لأمير المجاهدين عبد القادر بن محيي الدين من العظمة والنبل والتقدير، ما هو باق وسيبقى أبد الدهر، وذلك ما سنتعرف عليه في الفصل التالي.

(385) راجع مذكرات روفيكو الذي حكم الجزائر.

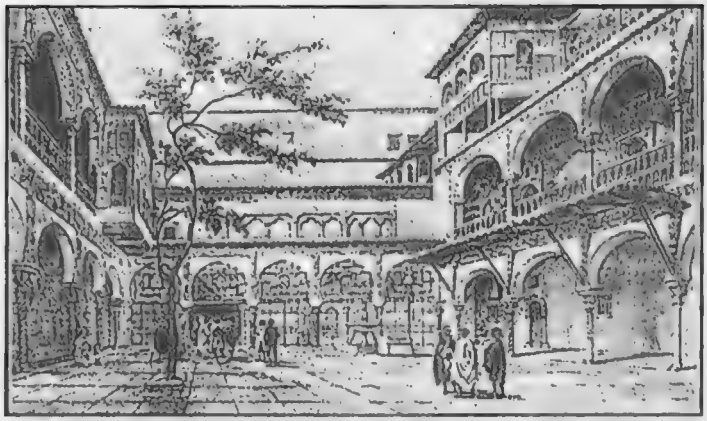

دار الحكومة الجزائرية. وهي الدار التي سرق الفرنسيون منها المال 48.700.000 فرنك ذهبا بشهادة خبرائهم بعدما كانوا قد وصلوا في صرفهم 43.500.000 فرنك
راجع آخر الفصل 155 بعد هذا من الكتاب

حسن داي آخر الحكام الترك بالجزائر وهو صاحب قصة "المنشة" التي لوح بها على وجه السفير الفرنسي

حسن داي والقنصل الفرنسي

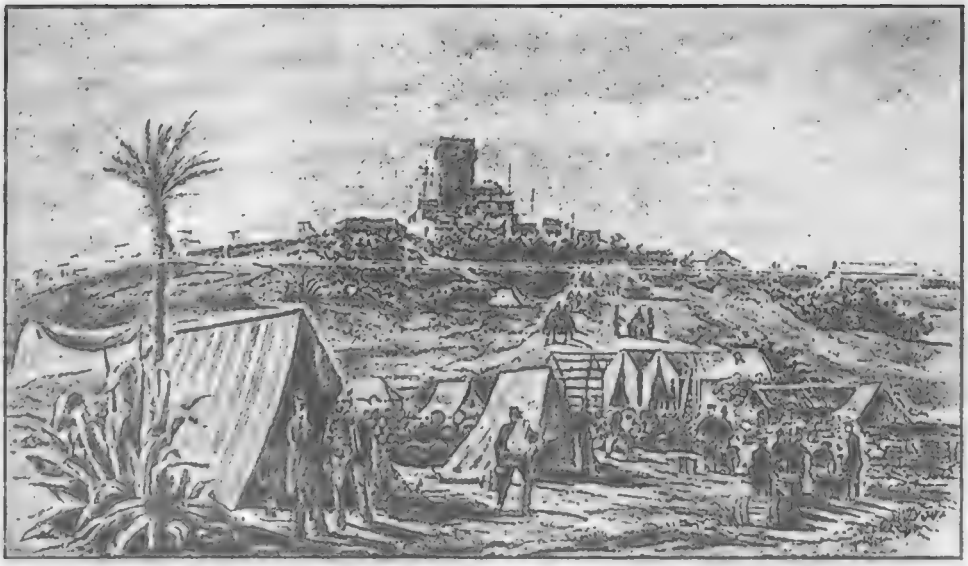

"سيدي فرج"
حيث الجيش الفرنسي يهاجم الجزائر من البحر 1830

أثناء الهجوم على الجزائر

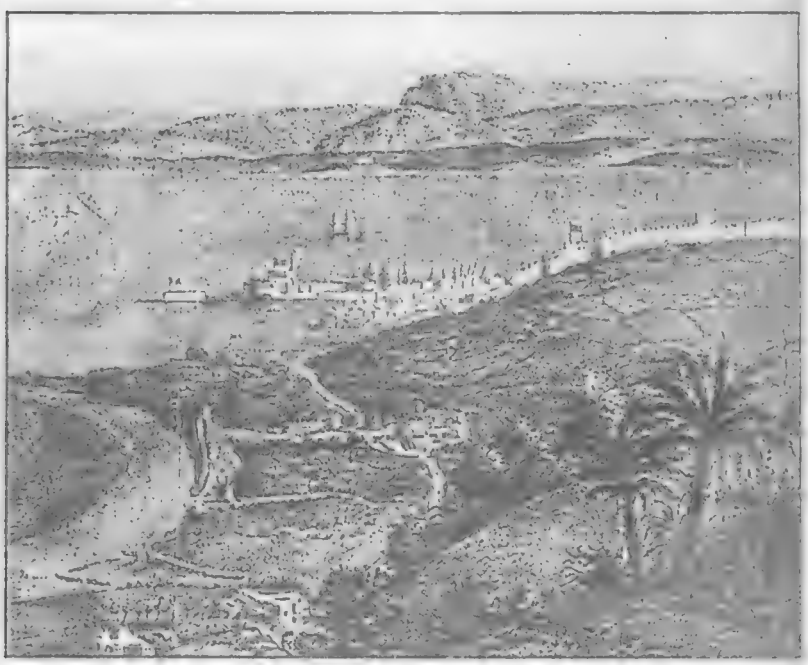

أبراج القصبة الجزائرية تستهدف القصف من البحر 1830

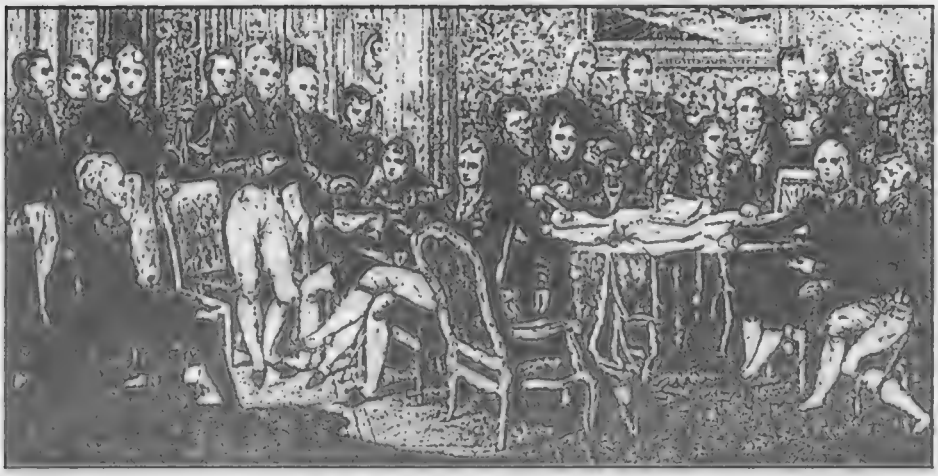

لوحة تذكارية عن مؤتمر فيينا سنة 1815 وهو المؤتمر الذي تقرر فيه استعمار الجزائر

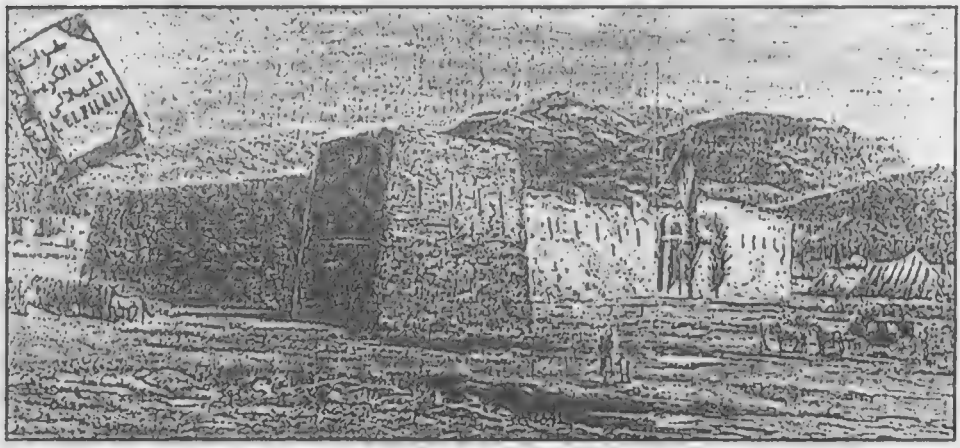

احتلال القنطرة بالجزائر

جندي تركي بالجزائر

الجنرال دوبورمون
يشرف على الهجوم على الجزائر

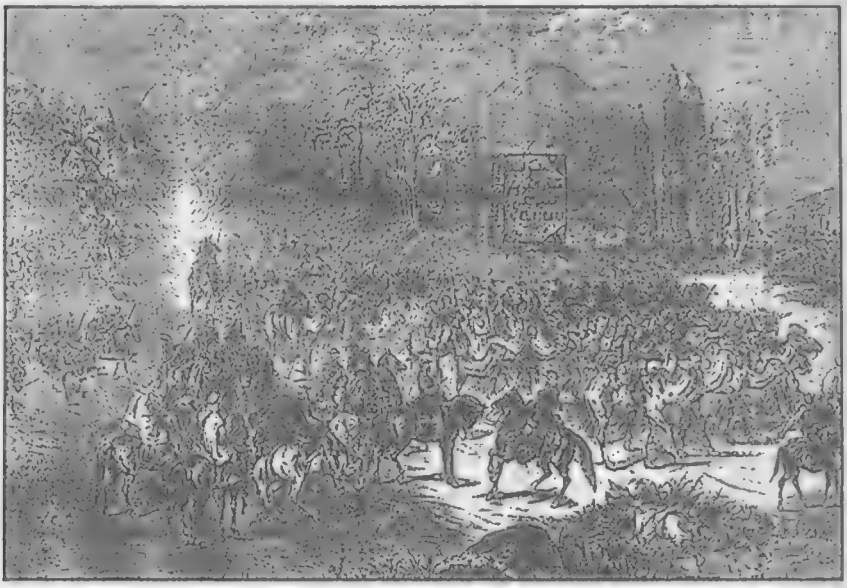

الباب السادس عشر
دولة ناصر الدين
عبد القادر بن محيي الدين

الفصل الثالث والخمسون بعد المائة

أمير وحكومة وجهاد

عندما اشتد القتال وظهرت أهداف العدو ومقاصده كان لابد وفي شعب مسلم عربي من تنصيب أمير وتكوين قيادة، حتى يكون الجهاد حسبما ورد نصا وبمقتضى الشرع الإسلامي، ورغم ما كانت تتوفر عليه الجزائر من قادة وزعماء قبليين ذوي ثراء وجاه، فإن الشعب العربي في الجزائر كان لا يزال يحن إلى الماضي القريب والبعيد، وما كان له قبل من سلطان ودولة، بل وإلى ماذا ع وانتشر من مذهب أهل السنة الذين فضلوا أن تكون الإمارة في قريش، بل وفي أعلى ما عرف لها من آل البيت، وقد كانت الجزائر ولا تزال تتوفر على جموع كثيرة من آل محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل صنو إدريس، وهؤلاء منذ القديم كانوا باستمرار لا يتقدمون أمام أبناء عمومتهم الأدارسة احتراما لما عرف بينهم من مودة القربى الصادقة، ولما لآل إدريس من فضل على آل سليمان يوم قدم محمد في عهد دولة ابن عمه إدريس الثاني الذي نصبه خليفة له على تلمسان وما حولها حيث دام سلطانهم مدة عهد دولة الأدارسة إلى أن قضى عليهم العبيديون فتفرقت جموعهم كما سبق، ومنهم كان محيي الدين بن مصطفى بن محمد المختاري الإدريسي، الحسني نسبا، ثم الغريسي الجزائري في القرن التاسع الهجري، ولقد وقع زامباور في خطأ كبير حين جعل الأصل بين الأمير عبد القادر المولود بتاريخ 15 رجب 1223هـ/ 1808م، والمتوفى 1300هـ جعل بينه وبين الحسن بن علي عليهما السلام أربعة من الأباء، بما فيهم محيي الدين راجع كتاب الأنساب والأسر الحاكمة جـ 1/137 ط1951" كما أخطأ سركيس في معجمه عمود 692 حين نسبه الحسيني(386) بل وفي ما

(386) راجع ترجمته في مختلف المعاجم وفي معجم اعلام الجزائر الذي أخذ عن أعلام الزركلي ص 95 ط بيروت 1971 هذا في حين أن الصحافة الفرنسية وقتها كتبت نسبه بطريقة سليمة راجع المجلة الفرنسية LUNIVER-SILLUSTRE ص 427 عدد 448 بتاريخ 8 جويي 1865م وهو نفس مافي العمود أعلاه سوى خلاف في بشار جاء في المجلة الفرنسية بشير.

نشرته وزارة الثقافة والإعلام بالجزائر تحت عنوان الأمير عبد القادر ص 10 ط1982 لمحفوظ قداش والذي اقتصر على ذكر ثمانية عشر من الأباء في خلط وعدم تحقيق أخذهم بدون ترتيب للعدد الصحيح الذي هو واحد وثلاثون في عمود النسب إلى علي وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فهو كما حققه أحمد بن أبي القاسم العشماوي المكي في كتابه "التحقيق في النسب الوثيق بدءا من أحمد بن محمد حفيد عبد القوي نزيل تفرسيت بالريف ومثله لمزيلي في "فتح الرحمان في شرح عقود الجمان، وأحمد بن يحيي الونشريسي صاحب المعيار في كتابه "البستان في ذكر العلماء الأعيان، وأحمد المقري في رباط الأزهار في عدد آل النبي المختار وليس كما أورده محمد بن الأمير عبد القادر في كتابه "تحفة الزائر ص923-26 ط 2 بيروت 1964 إلخ، وإذا فالأمير عبد القادر هو ابن محيي الدين، بن مصطفى بن محمد، بن المختار ، بن عبد القادر، بن أحمد المختار، بن عبد القادر، بن أحمد المشهور بـ، بن خدة، وهي مرضعته، بن محمد. بن عبد القوي، بن علي، بن أحمد، بن عبد القوي،،بن خالد، بن يوسف، بن أحمد، بن بشار، بن محمد، بن مسعود، بن طاووس، بن يعقوب، بن عبد القوي، بن أحمد، بن محمد، بن ادريس، بن إدريس، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي، وأمه فاطمة، الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد كان محيي الدين من ذوي المكانة والاعتبار بين قومه وعند الآخرين بل والذي اشتهر بالخير والنبل والصلاح، كما هو شأن أبناء عمومتهم الأدارسة في كل مكان حلوا به، ولذلك اختاره كبار القوم وجلة العلماء لقيادة المجاهدين وإمارتهم، ثم طالبوا ببيعته وإعلانها بين المواطنين وقتها في اجتماع تم بجنوب وهران يوم 21 ـ32-1118.

كان أول من دعى لقيادته أهل غريس، وكذا أهل تلمسان الذين مروا بمراحل قاسية قبل وأثناء غزو الفرنسيين، بل والذين أعلنوا قبل بيتعهم للمولى سليمان فردت عليهم، وللمولى عبد الرحمن بن هشام ففعل مثل ذلك.اقتداء بعمه الذي بنى الرفض على أن في أعناقهم بيعة لسلطان آل عثمان، إلا أن المولى عبد الرحمن لم يفعل إلا بعدما تبين له أن المصير غير محمود حين ظهر الغزو الفرنسي،وهو مانبه عليه بعض علماء فاس حين

استفتاهم أولا في شأن البيعة التي وردت عليه من أهل تلمسان الذين توجهوا بوفدهم إلى السلطان وهو في مدينة مكناس،(387) والتي حلوا بها يوم فاتح ربيع الأول 1226هـ/1830م بعدما مروا على عامل وجدة إدريس بن حمان الجراري، والذي توسط لهم عند السلطان الذي بالغ في إكرامهم يقول العمراوي محمد بن إدريس في مراسلته لعامل وجدة بتاريخ 13 ربيع الثاني من نفس السنة، فكانت نتيجة ذلك أن أرسل ابن عمه علي بن سليمان الذي دام بها كحاكم نيابة عن السلطان عبد الرحمن من آخر عام1246هـ/1830م إلى سنة 1248هـ/1832م لكنه لم يعرف فيها استقرارا بسبب تطاحن جيش الوداية والعبيد مع الكرغلية وقبيلتا الدوائر(388) والزمالة التي تقاعست عن البيعة أولا، وإن كانت قد بايعت بعد ثم أصبحت تميل نحو المغرب أكثر بسبب اتصالها بعميل فرنسا الخائن عبد السلام بن العربي الوزاني، والذي كان يعمل لصالح الفرنسيين منذ اللحظة الأولى، كما سنرى وأن قبائل الدوائر والزمالة، كانت أول من يطعن الأمير عبد القادر ويرتمي في أحضان الجنرال "دي مشيل"، بل إن رجوع الناحية الغربية من الجزائر دفع بالفرنسيين مطمئنين إلى الإهتمام بالناحية الشرقية، علما منهم أن استخلاص الغربية من يد السلطان عبد الرحمن سيتم بسهولة مادامت لا تعتبر من المغرب، خصوصا وقد علموا أن السلطان المذكور أصبح يواجه من مشاكله الداخلية بعد حرب طنجة والعرائش وما نشأ عنهما من تراجع عن الأسطول 1245 هـ/ 1829م وكذلك بشكل ثورة جيش الوداية 1247 هـ/ 1831م وهم الذين كانوا السبب قبل في نفور أهل تلمسان(389) بل وما حصل من عداء ضد المخزن،(390) وفعلا ذلك ما حصل عندما توجه قنصل فرنسا بالمغرب إلى السلطان بطلب سحب نائبه من تلمسان، وقد أيد الأنجليز

---

(387) أفتى بعض علماء المغرب برفضها فرد عليهم علماء تلمسان الذين ورد في ردهم "وعلى فرض تسليم أن لشاني في أعناقنا بيعة فلاتكون علينا حجة، لأنه تباعد علينا خطره فلم يغن عنا شيئا ملكه، لما بيننا وبينه من القفار والبحار والقرى والمدن والأمصار...إلخ راجع الاستقصا 28/9. وهو بدوره نقل عن الزياني.

(388) راجع دائرة المعارف الإسلامية جـ 308/9 ـ 13.

(389) الاستقصا المصدر السابق 26 ـ 32.

راجع الحسام المشرفي للعربي بن يوسف المشرفي خ. ع 2270 والاتحاف لابن زيدان 101/5، 124،125،126 وتحفة الزائر 99،100.

(390) راجع نص البيعة الأولى بتحفة الزائر 154 والثانية ص 163م ط 2. 1964.

الفرنسيين في طلبهم هذا، ولو لم يفعل لحصل غزو المغرب وقتها، خصوصا وأن "روفيجو" حاكم الجزائروقيادته العسكرية كانوا متحمسين لذلك، وهكذا بعدما انسحب المغاربة من تلمسان لم يجد أهلها غير البحث عن قيادة عربية إسلامية تتوفر على المشروعية التي تنال رضى الجميع مؤيدة بفتوى علماء تلمسان الذين قارعوا بالحجة علماء فاس، فلم يكن أليق لذلك غير الشريف محيي الدين بن المصطفى الإدريسي الحسنى الذي ما كادت بيعته تعلن حتى رفضها متعللا بكبر السن، لكن إلحاح الجميع دفع به إلى تقديم ولده عبد القادر البالغ من العمر وقتها خمسا وعشرين سنة، إذ هو من مواليد قرية القيطنة حوالي 15 رجب 1223هـ/ 1808م.

وكانت البيعة العامة يوم 13 رمضان 1248هـ/ 4-2-1833م وسنه لما يتجاوز السادسة والعشرين، وكان الذي كتب البيعة هو الشيخ محمد المعروف "ابن حوا"بن يخلف، وإذا كان والد الأمير عبد القادر أول من بايعه، فإنه أطلق عليه لقب "ناصر الدين"(391) كما أقبلت على تلك البيعة جل القبائل العربية أو البربرية شرقية وغربية، وكذا أعيان قلعة معسكر، وقلعة هوارة وأحوازها، كبني شقران وبني غدوان، وسجرارة وقبائل غريس وأحيائه، وعمائره، وأعيان القبائل الشرقية، كالعطاف وسنجاس، وبني القصير، ومرابطي مجاحة، وصبيح وبني خويدم،وبني العباس، وعكرمة، والمحال، وفليته، والمكاحلية، وأحلافهم، وأعيان مجاهر، والبرجية، والدوائر، والزمالة، والغرابة، وكافة قبائل اليعقوبية من : الجعافرة، والحساسنة، وبني خالد، وبني ابراهيم ثم القبائل القبلية، كأولاد شريف وأولاد الأكرد، وصدامة، وخلافة، وغيرهم، وإذا علمنا أن محيي الدين والد الأمير ورث عن آبائه الأشراف مجموعة من الزوايا القادرية والدرقاوية التي كانت مصدر الإشعاع ونشر المعارف في غرب الجزائر ندرك مستوى البطانة التي كانت تحيط بالأمير والتي لاشك كان لوالده ولمجموع العلماء ورؤساء القبائل الذين بايعوه يدفي تنظيمها.

---

(391) بايعه العلماء والأعيان والأشراف بغريس السادة، الأعرج وابن حوا وإخوته ومحمد بن الثعالبي، وعبد الرحمن بن الحسن الدحاوي وإخوته ومحمد بن عبد الله بن الشيخ المشرفي وقرابته، وكافة أولاد السيد أحمد بن علي، وكانت هذه البيعة الأولى بتاريخ 3 رجب 1248/ 27 ـ 11ـ 1832م أما أهل المدينة فقد استمروا في بيعتهم للمولى عبد الرحمن.

كان أول عمل قام به الأمير عبد القادر بعدما تمت بيعته، هو التنظيم السياسي والإداري للدولة الجديدة، حيث ألف حكومة وطنية تحت إشرافه، جعل على رأسها محمد بن العربي، وعضوية الجلاني بن فريحة في الخزينة العامة، والحاج الطاهر أبو زيد للأوقاف، والحاج الجلاني العلوي بسكون اللام على الخراج والأعشار والحاج ميلود بن عراش للخارجية، ثم عين مجلسا للشؤون من أحد عشر عضواًبرئاسة قاضي القضاة الذي هو وزير العدل، أحمد بن الهاشمي المراحي كما عين لكتابته الخاصة، أحمد بن عمه على بن مصطفى، والحاج مصطفى بن التهامي، والحاج محمد الخروبي وهو الجد الأول للرئيس الجزائري محمد الخروبي الذي أصبح بعد يعرف باسم الجهاد.. هواري بومدين" وهو الذي تحمس لإعادة جثمان الأمير عبد القادر من دمشق إلى الجزائر وللخارجية محمد بن علي الرحاوي، ولما اكتملت إدارته وانتظم سيرها في المدينة التي اختارها عاصمة، وهي مدينة المعسكر، أخذ في مباشرة تنظيم الجيش قصد تحقيق الهدف من الإمارة التي أصبحت قائمة.

كان من جملة ما أكد الرغبة في تنصيب الشريف محيي الدين أو ولده على رأس الإمارة ومن أجل تأسيس دولة جزائرية جديدة تحل محل الأتراك هو ما قام من مقاومة شرور جند الأتراك الذين انتهى به الأمر إلى ذبحهم جزاء ما قاموا به من عمل ضد البلاد وقت أن ظهر غزو الفرنسيين، حيث انضموا إلى الجيش الفرنسي ضد الأهالي، ولئن فعلوا ذلك بدافع ما كانوا عليه من شدة بؤس وضيق، وربما نجاة بأنفسهم فإنهم في نظر محيي الدين أحق بالدفاع حتى الشهادة إلى جانب الشعب المستميت في الدفاع، خصوصا وأنهم الذين استفادوا من حكم الأتراك، على أن مافعله الشريف محيي الدين ما تذرع به الوالي التركي، ثم اتفق مع الفرنسيين في هجومهم ضد محيي الدين، مما أدى بالمواطنين تحديا إلى مبايعة محيي الدين ثم ولده، ولذلك كان على هذا الأخير بعد إعلان البيعة وتنظيم الإدارة أن يقوم بجولة داخلية حتى يستطلع الأحوال ويتدبر شؤون الذين تخلفوا ولو أدى ذلك إلى حملات تأديبية لا تكون ضد العامة، بل ضد الخواص أمثال قاضي مدينة "أرزيو" أحمد بن الطاهر البطيوي.الذي بلغ به المروق إلى مخاطبة ود حاكم وهران الفرنسي وقتها، داعيا إياه كي يقدم للاستيلاء على المدينة، فقبض عليه

الأمير الذي نصب مجلسا خاصا من العلماء لمحاكمته، ثم أودعه السجن بعدما قطع يداه، ورجلاه وسملت عيناه، مما دفع بالفرنسيين إلى أن هجموا على قرية "الدبة" جنوب قلعة هوارة، ثم ألقوا القبض على عالمها السيد قدور الدبي(392) وجميع أهله، ثم أخذوه أسيرا إلى وهران، ورغم أن الأمير أرسل قوات لتخليصه فإنه لم يتمكن، وإن كان الفرنسيون قد خسروا الكثير في تلك المعركة، كما استشهد فيها من جانب الأمير كلا من علي بن الحبيب الرحاوي، والميلودي المغراوي، وغيرهما،، ومن وقته تنبه الأمير إلى وضع الحراسة لمراقبة كل الطرق المؤدية إلى وهران، واختار لذلك قبيلة "الغرابة"، الذين أمرهم بقتل كل من يتوجه إلى وهران ومنها.

كما قام بحملات تأديبية ضد قبيلة فليته التي اشتهرت بالسلب وقطع الطريق، وكذا قبائل "عكرمة" و"بني مديان" وإذا ما انتهى من تأديبهم فإن فتنا أخرى قامت، وكان قوامها قبائل نهر مينة" من البربر، والتي ما كاد يصلح بينها بعقد حتى قام "ابن نونه(393) قائد الحضر من قبل التركي في مدينة تلمسان معلنا عصيانه ضد الأمير وقومه، لكن فاته أن الطائفة الموالية لابن عودة قائد الكرغلية والتي لها عداوة قديمة مع الحضر، اختارت تلك المناسبة لتستمر على ولائها للأمير، ثم لتنتقم من ابن نونة وجماعته، وذلك ما حصل حتى انتهى ابن نونه إلى الفرار لضريح أبي مدين الغوث بعدما تمزق شمل جماعته ثم تعرضوا للنهب والقتل إلى أن خلصهم الأمير الذي قصد تلمسان فأصلح بين القوم وعفى على ابن نونة ثم أقره في منصبه، وإذا هو عاد إلى المعسكر فإنه في الطريق تلقى خبر موت والده يوم 3 ربيع الأول 1249هـ/20-6-1833م، وإلى هذا التاريخ لم يكن الأمير قد خاض أية معركة ضد الفرنسيين وجها لوجه، وإنما خاض بعضها ضد الذين اغتروا أو استسلموا من الجزائريين أنفسهم، ويخبرنا الأمير نفسه عن تاريخ بدء معاركه أنه كان في شهر سبتمبر 1833م(394) أما عن الفرنسيين فإنهم أمام تحركات

---

(392) انتهى المطاف بهذه الأسرة إلى مدينة الرباط حيث هي معروفة حتى اليوم بخمولها السياسي.

(393) نونة إسم امرأة يهودية "لونا" يقول الزياني في كتابه تحفة النبهاغي التفريق بين الفقهاء والسفهاء. وقد انتهى المطاف بهذه الأسرة إلى مدينة تطوان كغيرها من الأسرالجزائرية الأصل

(394) راجع كتابه إلى الأسقف دوبيش في تحفة الزائر 524/2 ولعل في هذه الرسالة ما يعتبر من اعترافات الأمير، على أننا نشير إلى أن هناك رسائل نسبت للأمير عبد القادر، وهي متعددة المصادر التي لا يستعبد افتراؤها، وقد كذب بعضها الكاتب الفرنسي أندري جوليان في كتابه عن الجزائر من 1825م إلى 1870.

الأمير قد أضافوا قوة إلى قواتهم التي كانت بقيادة الدوق "دي رويجو" والذي كان قد دخل الجزائر قبل في شهر نفمبر 1831م، ثم وزعوا تلك القوات شرقا وغربا حسب تخطيط شارك فيه بعض الأهالي، فكانت المعارك التي خاضها بعض المواطنين خارج قيادة الأمير، مثل معركة أكتوبر 1832م ناحية قسنطينة التي كان قد احتلها أحمد بك يوم 23/1832م، ثم ذبح من فيها من جنود العدو لكنه تركها بعد شهرين أي في شهر ماي، فاستولى عليها ضابط أرمندي، دخل قصبتها، كما كانت المعارك التي حصلت في ضواحي الجزائر وبين نهر الحراش ونهر متيجة في صالح الفرنسيين، أما في ناحية وهران وما حولها، فقد كان النصر فيها للأمير وجنوده رغم كل ما عرفت به المعارك من ضراوة بقيادة الجنرال« بونيه» الذي أبعد ليحل مكانه الجنرال « دي مشيل » الذي رغم الدعاية التي سبقته وأنه صاحب التخطيط العسكري المحكم، بل هو « الصاعقة » كما وصفوه، فإن شيئا من ذلك لم يتحقق على يديه، وإنما حقق بعض ماأراد بواسطة الذهب الذي نثره أمام بعض زعماء قبائل الدوائر والزمالة الذين مكنوه من المرور إلي مدينة وهران ، كما التحق بهم في نفس الإتجاه، بعض أهل تلمسان يتقدمهم مصطفى بن إسماعيل، بل إن الدوائر والزمالة وأهل تلمسان فعلوا ذلك عندما علموا أن سلطان المغرب المولى عبد الرحمن غربا إنصاع لتهديد الفرنسيين الذين قاموا بالدعاية ونشر الأموال لفائدة بعض انتصاراتهم شرقا، خصوصا وأن الجنرال « تريزيل» الذي أخذ مدينة بجاية يوم 29/9/1833م قد استعمل طريقة وحشية في ترويع الأهالي حين أمر برحيلهم عن مواطنهم ليحل مكانهم آخرون.

كان الأمير في هذه المرحلة ووقت استقدام «دي مشيل الذي حل بوهران يوم 14 حجة 1249هـ = 15/4/1833م قد بدأ يخوض المعارك بطريقة فيها نوع من التنظيم الخاص بالأمير ودرايته بالمواقع، بل أخذ يفرض الزمان والمكان علي جيوش الفرنسيين الذين ضاقوا ذرعا بالحصار في مدينة وهران التي لم تعرف علاقة بما حولها إلا من جهة البحر، وبذلك أصبح الجنود الفرنسيون وضباطهم في ضيق شديد، ولم يغن الجنرال ميشل ما اشترى من ذمم الدوائر والزمالة وبعض أهل تلمسان، ولا ما نشر من مال اندفعت حكومته للإكثار منه حتى أصبح الفرنك الذهبي أبخس من الذين يظهر بينهم.

كان قد مضى على بدء القتال خمس سنوات بالنسبة للفرنسيين، أما القيادة الجزائرية القريبة العهد فإنها بعد لاتزال وقت إحكام تنظيمها لم تعرف غير ماشب بين رجالاتها من روح التضحية والتنافس في سبيل الشهادة التي كانت مرغوبة من الجميع، وفي مقدمتهم الأمير الذي برهن على سمو في الأخلاق، وعلو في الهمة، حين كان يتقدم الصفوف في أخطر المواقف، وذلك مامكنه من أسر الضباط الذين قادهم الخائن المجرم طوبال* ... الذي كان الواسطة بين القاضي الخائن أحمد بن الطاهر البطيوي والفرنسيين بوهران، رغم الرقابة التي كانت مفروضة عليه، ولئن هو كعادته عامل أولئك الضباط معاملة شريفة انتهت الى الجنرال دي مشيل، فإن المعركة التي خاضها ضد قبيلة الدوائر يوم فاتح أكتوبر 1833م يوم في العين البيضاء، والتي دامت حتى يوم 12/3 منه لم يكن فيها رحيما، بل عامل الخونة بما يليق بهم من قسوة، حتى يتعرف دي مشيل أنه إنما يدافع عن حق معتدى عليه وأن الجزائر للجزائريين حتى وإن غلبوا على أمرهم، وفعلا اشتد الصراع وتعددت المعارك بشكل أكسب المجاهدين مزيدا من القوة ومزيدا من التجارب، ومعرفة بميدان القتال، وكيف يجرون الفرنسيين إلى أفدح الخسائر بأقل التكاليف، حيث تدرب رجال الأمير على «حرب العصابات » الذي ربما يكونون أول من باشروه في القارة الإفريقية، ولربما في التاريخ بعد الأمريكيين في قارتهم مع الانجليز والفرنسيين.

لقد كثر أسارى الفرنسيين عند الأمير، ومع ذلك لم تكن معاملتهم إلا كما أوجبت الشريعة الإسلامية، حتى إن بعضهم اعترف وأن حياتهم أسارى عند الجزائريين وأميرهم عبد القادر، كانت أحسن من حياتهم في وهران المحاصرة من كل الجهات إلا من البحر، وكلما تعددت الملاحم عرف الجزائريون كسبا وازداد جيش الفرنسيين إحراجا، ولم تكن أيام دي ميشيل أحسن من أيام بونييه الذي كان قبل الحاكم المطلق لوهران، وذلك رغم النجدات المتوالية من رجال وسلاح لم تبخل بهما حكومة باريز التي لم يكن يعنيها من ذلك تحقيق ولو القليل من التقدم، حتى تمكن للملك المهزوز الذي قيل إن

---

* إنتهى بهذه الأسرة المطاف فرارا بخيانتها إلى حيث هي اليوم بتونس.

الحرب في الجزائر تبعد عنه المعارضة وتمكن لسلطانه، كما وأن الصورة التي رسمت للجزائر والجزائريين وأميرهم في فرنسا ولدى الرأي العام بها، كانت مشوهة إلي درجة أنهم أخذوا يحقرون من شأن حكومتهم بسبب ما كانت تطالعهم به الجرائد من أخبار الميدان وما تنشر عن الأسارى قد جلب التأييد من الشعب، لكن الشعب وقد علم بعدد الأسارى والقتلى من أبنائه، بل وأن الجزائريين أصبحوا رغم ذلك يتزودون مما يحصلون عليه من سلاح الفرنسيين مما دفع إلى الإقبال على التطوع بين شبابهم ورجالهم، والذي كان يزيد ويكثر بازدياد وكثرة تهويل الصحافة وخطابة الزعماء ، وجولات القساوسة والرهبان، ومع ذلك لم تكن الجزائر ولمدة السنتين اللتين كان المجاهدون بقيادة الأمير ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين، قد قضوها في القتال حتى ذلك العهد غير مقبرة للفرنسيين الذين عرف الأمير كيف يخطط للقضاء عليهم حين قسم جيشه القليل بالنسبة لأعدائهم المتكاثرين إلى ثلاثة أقسام، قسم للهجوم، وآخر مهمته الالتفاف للرعب والتشتيت، وثالث إحتياطي، وكان هذا التنظيم يتعزز كلما استولى المجاهدون على السلاح الناري الذي كانوا يعوضون به بنادق البارود، بل وتزداد معنوياتهم قوة ويتقدمون بشكل أدخل الرعب والهلع في صفوف الفرنسيين الذين توهموا أن ثمة من يمد الأمير بالسلاح الذين ظهر بكثرة في صفوف رجاله، وما هو إلا مما غنموه من جنود الجنرال دي ميشيل، الذي لم يغنى عنه ذهبه ولم تجديه مكايده أمام روح الجهاد والصبر والجلد وقوة الإيمان ، التي تمكنت من المجاهدين الصابرين، وتحولت المعارك حول وهران إلي خسائر مستمرة للفرنسيين الذين انتهوا إلى حصار في إحداها خارج وهران، فلم يعرفوا طريق العودة إليها بسبب مفاجأة فريق الالتفاف، والفريق الذي قطع عليهم الطريق، ولولا اندفاعهم بشكل انتحاري لما إنتقلوا مما وضعوا فيه من ضيق.

الفصل الرابع والخمسون بعد المائة

معركة وهران و معاهدة تافنة

كانت معارك القيطنة، ورأس العين، وناحية وهران، كلها عبارة عن رحى طحنت الجيوش الفرنسية طحنا أزرى بقيادتهم، بل كانت معركة يوم 4 فبراير 1833م من المعارك التي دفعت الجزائريين دفعاإلى الأمام بما حققوا من مكاسب، كما دفعت الفرنسيين دفعا إلي الرعب والخوف وعدم الثقة بالنفس، ومع ذلك كانت هذه أكثر هولا مما سبق، بل هي التي قادت الفرنسيين وجنرالهم دي ميشيل إلى التفاوض صاغرا أمام ناصر الدين عبد القادر بن محيى الدين الذي تمكنت إدارته وقويت سلطته واشتد ساعده أكثر منذ أن وقعت وهران تحت حصار رجاله وبها الجنرال دي مشيل الذي انتقل اضطرابه إلى حكومة بلاده وخبراء جيشه، حيث وقع الكل في ورطة تزعم الجنرال تخليصهم منها باقتراحه على الحكومة تزويده بأقوى سلاح، وأمضى عتاد وإذا هو كان قد حقق شبه انتصار باقتراح سابق منه عندما استولى على «أرزيو» و «مسنغانم» فإن علي الحكومة الرئيسية أن تحقق له ما طلب وأغدقت عليه بما لم يتقدم وجوده من مدافع ذات عيار أكبر وسلاح ورجال جلبوا من مختلف الأعمار، كان الكل يستورد بحرا من نولون إلى وهران التي تحولت إلي ترسانة سلاح ضاقت بما حل بها من الرجال، ضباطا وجنودا، وإذا كانت عيون الأمير ورجاله يراقبون كل التحركات فإنه كذلك لم يضيع الوقت في الإنتظار، بل هو الآخر التفت إلى جيشه ينظمه. وكان قد انتهى عدده آخر – سنة 1838 إلى خمسة عشر ألف وثلاثمائة منهم 2500 فارس، 250 مدفعي والباقي راجل(395) وإذا هو كان يعلم أنه مقبل لا محالة علي معركة قاسية، ولربما ستكون فاصلة حسب الاستعداد الذي يقوم به الجنرال دي مشيل. فإنه كذلك وجب عليه أن يضع تخطيطا ميدانيا للمعركة، فقسم

(395) راجع نظام الجيش ومعامل الأسلحة والصيانة تحفة الزائر من 191 مصدر سابق.

الجند المذكور إلي: قلب يقوده بنفسه، وجناح أيمن، وآخر أيسر مهمتهما الالتفاف والترويع وإدخال الرعب في ساحة الجيش الذي يقوده الجنرال دي ميشل ، كما أصدر الأول أمرا إلى رجال القبائل المحيطة بوهران كي يتكاثروا في تجمعات علي الجبال، والشعاب، لإثارة الرعب والفزع في النفوس المضطربة وبين قوات العدو المرتبكة.

كانت المناوشات من الجانبين هنا وهناك حول المدينة الغارقة، وأطولها دامت ساعات من يوم آخر السنة، حيث انتشى الجنود الفرنسيون بخمرتها ثم اندفع بعضهم في جموح إلى معركة خاسرة دفعوا فيها أرواحهم وسلاحهم الذي غنمه المجاهدون، فكان مما أثار غضب الجنرال الذي استغل حماس الجند الغاضب على ماحل بفريق منهم ، فكتب إلى الأمير كتابا كله تهديد ووعيد، وقصده أن يكشف به الواقع من خلال الجواب، وهل معنوية الأمير وجنوده في صعود أم العكس:

قال الجنرال : إن مشانقه تنتظر الأمير وجنوده. وأنه مهما كان فإنه لم يرحم الذين لم يسلموا أنفسهم قبل المعركة... لكن الجواب كان غير ماقدر الجنرال الذي كان يحسب أن أخبار ما وصل من أنواع السلاح وكثرة الجند سيرعب القلة من الجنود الجزائريين وأميرهم، بل إن جواب الأمير المتزن كان أصدق لهجة وأقوى حجة، حطم بمرونته وبرهان إيمانه أعصاب الجنرال الذي ماكاد يقرأ الجواب المهذب حتي سقط في يده ، ثم دخل المعركة وفي مخيلته صورة لرجل عظيم مؤمن بأهدافه ومقاصده، التي صرح بها وكأنه لم ولن يحقد على أحد، ودليل ذلك ما يتمتع به الأساري من رجال الجنرال الذين حاشاه أن ينصب لهم المشانق التي يتمناها الجنرال للمتظلمين الذين يدافعون عن بلادهم وحقوقهم ضد قوم جاءوا لإغتصابها من وراء البحار...، وبلا شك كان لجواب الأمير أثره في نفس الجنرال الذي عرف صدق اللهجة وأن التمادي سيكلفه وقومه الكثير، ولذلك فكر في عقد هدنة، ولربما حتى تمكنه وقومه من الاستمرار في المدن التي احتلوها ريثما تنظر حكومة بلاده في الأمر ، وهل ستستمر في سياسة التوسع والغزو أم تكتفي وتقف، وهذا ماكان الجدل حوله قد اشتد بين مختلف الدوائر السياسية في فرنسا، لكن فكرة التوسع والاستعمار هي التي انتصرت علي المبادئ المزيفة للثورة الفرنسية، ولو أن المغاربة أنجدوا والجزائريين لانتصرت فكرة عدم التوسع، لكن التيار كان جارفا.

لقد اندفع دي ميشيل قهرا بحكم ما أصبح لدى الأمير من عدد الأسرى الفرنسيين من جانب، ثم بحكم ما أصبح عليه من قوة كذلك، والتي سيعترف بها قنصل فرنسا بمدينة المعسكر «دي ماس» في التقرير الذي كتبه لحكومته بعد في شهر ديسمبر 1833م، ولذلك دامت المفاوضات شهرا قبل عقد الهدنة، وأخيرا انتهت إلى أن تقدم دي ميشيل من أجل تحقيق الهدنة بالشروط التالية:

أ) عدم هجوم الأمير علي الأماكن التي بيد الفرنسيين.

ب) إحترام الفرنسيين للدين الإسلامي(396).

جـ) رد الأساري وغيرهم من الفارين الفرنسيين.

د) حرية الفرنسيين في التجول بالتراب الجزائري شريطة ترخيص من الأمير.

وإذا كان الجنرال يتكلم باسم ملكه لويس فيليب فإن الأمير عبد القادر وجدها فرصة تثبت اعتراف فرنسا به، لذلك سارع إلي قبول شروط الجنرال التي وقعها بتاريخ1834/2/28م بعدما عدلها ثم أضاف إليها شروطا تتفق ومقاصده، فمن ذلك «أن جميع المعاملات التجارية تكون في مدينة «ارزيو» دون غيرها، وتحت إشراف سلطة الأمير دون الفرنسيين وأن جميع ما يرد من الداخل لايباع إلا في «أرزيو» وأن لا يشحن إلى بلاد أوروبا إلا منها، أما وهران ومستغانم فلا يرد عليها من الداخلية إلا ما تقتضيه حاجة أهلهما. « وطبقت هذه التعديلات ضمن الشروط. وهي ماأعتبر أن الأمير خدع به دي ميشيل، بل استغفله، ولم يتنبه لها إلا عندما ضج التجار الفرنسيون بالشكوى من وسائل الاستيراد والتصدير التي احتكرتها "أرزيو" ووقتها أدرك الجنرال دي ميشيل أنه خدع، لكن الفرنسيين عادوا بسلطة أعلى من دي ميشيل إلى التعديل إن لم نقل رفضوا

---

(396) هذا في الوقت الذي كان الفرنسيون قبل أربع سنوات قد أصدروا قانونا 1830م استصفوا به كل الأوقاف الإسلامية ويقول صاحب تحفة الزائر أنه سمع من والده أن عزل دي ميشيل كان بتهمة أنه أراد الدخول في الإسلام، بل إن درلون سيقع في حبال تريزيل الذي لا يتوقف حتى يقوم بما يقتضي إلغاء المعاهدة كما سنرى راجع التحفة 225 مصدر سابق على أن دي ميشيل اعتبرها خطوة في سبيل التمكين لفرنسا بشمال افريقيا، وأنه اكتفى بما توصل إليه مع الأمير حتى إنه حاول التودد إليه بما قدم له من الهدايا والأسلحة. راجع التحفة، ثم الاتحاف لابن زيدان 67/5 ـ وفيه رسالة السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى الأمير، وفيها دلالة على روح الرجلين، وما كانا عليه من خلق وتعاطف وشهامة وطنية.

وأما الدوائر اليوم فهي قبيلة عربية مركزها مابين وهران وتلمسان ـ راجع الجزائر للمدني 139.

تلك الشروط والتعديلات التي أضافها الأمير عبد القادر حتى يحرروا صاحبهم، وإذا هم لم يمسوا الجوهر الذي يتضمن الاعتراف، فإن الأمير بقي ملتزما بنص المعاهدة التي كان يحث نوابه على التمسك بها، لكن الفرنسيين وخصوصا الجانب المتحمس للتوسع بالقوة، لم يخفوا عدم رضاهم، بالمعاهدة وصاروا يلحون على إضافة شرط أساسي هو: أن يعترف الأمير بسيادة فرنسا على كل الجزائر، ثم يقبل دفع الجزية لها، وإن هو قبل ذلك يقدم رهائن كدليل على قبوله حتى ينفذ الشرط المذكور، ومع ذلك تم الاتفاق على النص التالي للمعاهدة وهو ما يلي :

معاهدة الصلح بين الأمير عبد القادر والجنرال دي ميشيل.

قرر الجنرال قائد الجيوش الفرنسية في جهة وهران والأمير عبد القادر الالتزامات الآتية :

المادة 1 :"ابتداء من هذا اليوم توقف الحرب بين الفرنسيين والجزائريين، ولا يقصر الجنرال قائد الجيوش الفرنسية والأمير عبد القادر في جعل الاتحاد والصداقة يسودان العلاقة بين الشعبين.

ولهذا الغرض يستقر ممثلون للأمير في وهران ومستنغانم وأرزيو، كما أن ضباطا فرنسيين يسكنون في مدينة معسكر حتى لا يحدث أي اصطدام بين الفرنسيين والجزائريين.

المادة 2 : يجب احترام الديانة والشعائر الإسلامية وحمايتها.

المادة 3: يرد أسرى الطرفين حالا.

المادة 4 : حرية التجارة تامة كاملة.

المادة 5 : يجب على الجزائريين إرجاع الجنود الفرنسيين الذين كانوا تركوا الجيش وفروا، كما أن الجيوش الجزائريين الذين يأتون إلى الفرنسيين لاجئين يسلمون حالا إلى ممثلي الأمير الذين يسكنون إحدى المدن البحرية الثلاثة التي يمثلها الفرنسيون

المادة 6 : لابد لكل فرنسي يريد السفر إلى داخل البلاد أن يكون مزودا بجواز سفر يؤشر عليه ممثل الأمير بوهران، ومصرح له من طرف الجنرال القائد.

(وكتب في 26 فبراير 1834)

وهكذا بقيت هذه المعاهدة عرضة لصراع داخل جماعة الفرنسيين الذين أصدروا بعد قانونا بتاريخ 7/22 من نفس السنة 1834 يجعل الجزائر ولاية تابعة لفرنسا، وعين على رأسها مكلفا بإدارتها العامة "الجنرال دوريت درلون" الذي عزل دي ميشيل(397) لجل مكانه آخر عنيفا هو الجنرال تريزيل، وإن كان درلون قد أظهر اعتماده معاهدة دي ميشيل الذي كان يدافع عن عدم المساس بها حسب تفسيره لها، وأنها لا تعني غير منطقة وهران، لأن دي ميشيل لم يكن معتمدا بصفة عامة وإنما على مدينة وهران.

لقد مكنت المعاهدة بما فرضته من هدنة واعتراف للأمير بولاية وهران وما حولها باستثناء المدينة، من أن يتفرغ للقيام بتحقيق ما أدرك أنه في حاجة إليه، حتى تكتمل الدولة تنظيمها، ولذلك وحتى يعرف الفرنسيون أنه متمسك بعهده، تفرغ للبناء حيث ابتنى من الحصون سعيدة وسبدو غربا، وتاكدمت وبوغار، وسباو، وبوخرشفة، وطازة، شرقا، وكان أهمها جميعا تاكدمت التي شيد بها معملا للسلاح، جلب له من المهندسين الاسبان والفرنسيين ما يكفي، كما نظم شؤون المعكسر كعاصمة، ولمدية، ومليانة، وبعدما كان يشتري السلاح من المغرب وتونس أصبح يحصل عليه من معامله التي لم تعد في حاجة إلى غير المواد الخام التي كان يستوردها وبواسطة التجار الأجانب انجليز، وفرنسيين،واسبان، يجلبونها إلى مرسى الجزائر وغيرها. كما كان يستخرج بعضهامن جبل ونشريس، وفي تلمسان أنشأ معملا لصنع المدافع بإشراف مهندس إسباني، ومن تلك المدافع ما أسر بعد ثم نقل إلى متاحف فرنسا، ولا يزال بها حتى اليوم، كما أنشأ الأمير في مرحلة الهدنة من المرافق ما يتفق وأهدافه، ثم عرف كيف يربط علاقاته الدبلوماسية مع كل الدول التي كانت مستعدة لذلك، والتي لم تقع تحت تأثير الفرنسيين، بل إن تلك الهدنة وما ظهرلها من أثر على نشاط الأمير مكنته من استقبال زعماء جميع القبائل التي كانت متشككة في انتصاره. ثم هي لم تقبل على الفرنسيين، ولم تعرض عنه أو تقف في وجهه إلا قبائل الدوائر والزمالة، وهي خليط من البربر والعرب كان لهم جاه كخدم للباي والذين أصبحوا بظهورالأمير في وضع آخر، كما اقتدت بهم مدينة لمدية التي كانت قد أعلنت ولاءها لسلطان المغرب قبل فردها إلى الأمير عملا بنصيحة السفير الانجليزي، تلك التي نقلها البياز إلى السلطان كما تلقاها، وهو في طريقه معه إلى مكناس صحبة الكونت بورناي في مارس 1832م، ولما دار الحديث حول الجزائر، كان

رأي السفير عدم الوقوف في وجه فرنسا، إن لم نقل ألح على حياد المغرب(398)، مع علمه أن الأمير عبد القادر وكان في موقف يدعو المغاربة كمسلمين إلى القيام بجانبه كمدافع عن الإسلام في الجزائر مادامت فرنسا قد حولت غزوها لبلاده إلى حروب صليبية كما أشاعت وأعلنت، ناهيك وأن الأمير أرسل إلى السلطان يطلب الدخول في طاعته وإعلان بيعته وولائه له، وهذا في الوقت الذي كان فيه للأمير عبد القادر صدى في مختلف البلاد، ومنها بلاد الانجليز التي راسل ملكها وليم الرابع يطلب مساعدته، وكذا أن يدبر له لقاء مع سلطان المغرب، حتى يصبح من رعيته، وقد قام أحد أتباع الأمير بتسليم الخطاب إلى السفير هاي في شهر يناير من سنة 1834م، حيث بعث به إلى لندن في 13 منه، لكن الإجابة لم تكن إلا في فبراير 1836م وفيها : أن الحكومة وقتها لها من المشاكل ما يمنعها من الاستجابة إلى التوسط بينه وبين إمبراطور المغرب "ثم أتبعت برسالة من اللورد "بالمرستون" وزير الخارجية بتاريخ 13-6 - 1836م وفيها "إن على القنصل أن يتجنب بقدر الإمكان التورط في المراسلات مع "عبد القادر" وأعوانه وكذا في النزاعات بين الفرنسيين والسلطان، وهي التي ستعرف حدة بسبب المساعدات التي سيقدمها السلطان للأمير بدءا من أول اتصال سيتم بواسطة "مراسلة الاستفتاء التي سيقدم بها العالم عبد الله السقاط، على مدينة فاس وعالمها الورياغلي مديدش التسولي الذي أمر بالجواب بأمر سلطاني(399).

وهكذا فإن هاي قنصل الأنجليز الذي كان على اتصال كبير ومريب بحاشية السلطان في المغرب لم يتورع أن يوحي إلى البياز بما سبق، فكان ذلك من عوامل ودوافع رد بيعة أهل لمدية(400) الذين هم كذلك لم يعلنوها حبا في جمع كلمة المسلمين، وإنما نكاية في الأمير عبد القادر وسلطانه المستجد، فكان جوابهم الرفض مما جعلهم يتخوفون من الأمير وجيوشه، خصوصا وأنه أبدى رغبته في التطهير والإنتقام من الخونة والمتعاونين مع العدو ضد بلادهم.

---

(398) راجع العلاقات الأنجليزية المغربية لروجرز المشار إليه قبل ص 190 - 186.

(399) تحفة الزائر 316 - 330. أما خلف عبد الله السقاط فقد بقوا بمدينة فاس، وكانت سكناهم بدرب بن سالم من طالعة فاس، ومنهم الحاج إدريس وصنوه الحاج محمد وكلاهما كانا على جانب من الخلق والدين والوطنية

(400) راجع سيديو 290 والتحفة 113.

الفصل الخامس والخمسون بعد المائة

الأمير عبد القادر وصراع عشر سنوات ضد الخونة "وأبو حمار" والفرنسيين

لقد كان على الأمير أثناء قيام معاهدة الهدنة أن يهتم بأمن المنطقة الخاضعة لحكمه، ومن الإهتمامات الحيلولة دون كل ما يشوش على القبائل المعروفة بعدائها للغزو الفرنسي، والتي أصبحت في بعض الجهات عرضة لفساد بعض المفسدين المارقين، وكان في طليعة هؤلاء، خليط قبيلة الدوائر، والزمالة، الذين خرجوا على طاعة الأمير وأعلنوا العصيان ثم فروا ناحية مينة بزعامة ابن عربي الذي توجه إليها في 8 صفر من سنة1252 دوقدور بن الخلفي بالبرجية، فكان على الأمير تأديبهما وقد فعل، ثم ولى مكان أبي شقور الذي كان على مليانة محيي الدين بن علال الذي امتدت سلطته إلى شرشال وتنس، كما طوع الأمير كلا من سيگ، وما خوخ، وكذا قبيلة رياح(401) وبني خلاد من قبائل ولهاصة في الساحل، كل ذلك قبل أن يتوجه إلى الدوائر الذين حل بأرضهم عندما علم أنهم تحالفوا مع الشيخ ابن الغماري شيخ آنكاد، فوقع القتال بينه وبينهم في المكان المعروف بالمهراز، بالقرب من تافنا بتاريخ 6 ربيع الأول عام 1252هـ= 14 يوليه 1834م حيث انهزموا وجرح رئيسهم مصطفى ابن إسماعيل، كما علق رأس عبد الله بن الشيخ بن الغماري على باب مدينة المعسكر إلى أن يلحق به والده وخادمه فيعلقان كذلك بعد ظهور خيانتهم وعدم تراجعهم.

لقد اجتمع قادة الخارجين من الدوائر والزمالة وأهل لمدية على فكرة واحد، وهي

---

(401) رياح قبيلة عربية مركزها حول مدينة سور الغزلان من أعمال الجزائر عمر كحالة 456/2 والمدني 139 وهي من العدنانية كما عند ابن خلدون 6/31ـ32 ونهاية الأرب للقلقشندي 266 ط القاهرة 1959م، وعنده أن مساكنهم بنواحي قسنطينة والمسيلة، والزاب وكانوا بسجلماسة في القرن السابع الهجري.

عدم الاعتراف بالأمير ودولته الجديدة،لكن رأيهم لم يكن واحدا بل تفرقت كلمتهم بتفرق جموعهم شذر مذر، فمصطفى بن إسماعيل ينادي بالعودة إلى سلطان المغرب، وابن الغماري والمازري يقولان بالاذعان للأمير، وغيرهم يشيعون أن الأمير وجنوده يتوعدون الخارجين بأقسى العقوبات، وإذا ما تحمس الخصوم في الدفع للفرار من نقمة الأمير، فإن هذا الأخير خيب سعيهم حين أرسل منشور الأمان إلى قبيلة الدوائر مع كاتبه الخاص مصطفى بن التهامي، والعلامة عبد الله السقاط سفيره قبل إلى المغرب وسلطانه، المولى عبد الرحمن، وإذا كان الأمير وقتها في تلمسان فإن أعيانها الذين أدركوانتيجة مفعول المنشور المذكور، خصوصا وقد سئموا من مناورات الدوائر والزمالة ومن لف لفهم من بعض أهل تلمسان - توجهوا إلى الأمير شاكرين حلمه وتسامحه، كان ضمن الوفد الشيخ بن الغماري والمازري اللذين أقرهما على قومهما، أما مصطفى بن إسماعيل(402) رغم قبول الأمير شفاعة ابن أخيه المازري فيه، فإنه لم يتراجع، وذهب إلى الفرنسيين الذين قتل بين صفوفهم في قتال ضد بلاده لا رحمه الله، وأما، الأمير فإنه انتظر إلى أن استنفذ منشور الأمان مدته، فلم يكن منه إلا أن عمل على تضييق الخناق ضد الذين لم يتراجعوا ولم يستسلموا من الدوائر والزمالة، وكان بعضهم قد ابتعد عن تلمسان والتحق بالحمراء، ناحية وهران، فطاردهم ثم توجه إلى منازل أولاد خالفة من بني عامر(403) فنزل بوادي الكيحل حيث حضر لديه أعيان الدوائر ورئيسهم المازري وبنو عدة ولد عثمان، وأعيان الزمالة ورئيسهم محمد بن المختار، ومحمد ولد قاسم، وابن عفور وجماعة من الونازرة فأمرهم بالرحيل ناحية مدينة المعسكر وعين لنزلهم محلة العرقوب(404) وهكذا لما رتب الناحية الغربية ولى عليها عامله محمد البوحميدي الولهاصي، ثم رجع هو إلى

(402) هو مصطفى بن إسماعيل بن بشير أغا فرقة الدوائر، وهؤلاء الدوائر الذين منهم أولاد مسعود، قبيل مصطفى إحدى بطون أولاد بكر، أصلهم من المغرب الأقصى كانوا في الجيش النظامي مع المولى إسماعيل وهو الذي أخذهم لحراسة وهران وناحيتها أيام حربه مع الأتراك 1113هـ = 1701م ولما جاء الغزو الفرنسي مالوا أولا للأمير وبسبب خلاف حول بني عامر ومصطفى إلى الفرنسيين وبقي مزرى بمن معه من الدوائر مع الأمير عبد القادر دائرة المعارف الإسلامية 9/308 ـ13.

(403) راجع الجزائر للمدني 134 وهم عامر بن زغبة بطن من هلال راجع كحالة 2/707 والقلقشندي مصدر سابق في مواضيع مختلفة

(404) راجع التحفة 217 ـ 18.

ناحية المعسكر حيث أخذ في التمكين لإدارته بالإكثار من الجند وضرب العملة والتأليف بين مختلف القبائل وتنظيمها تحسبا لما يحدث، وفعلا فإن الجنرال تريزيل الذي كان يرقب كل تحركات الأمير بواسطة الجواسيس من كل صنف، والذي رأى رأي العين أن الأمير لم يضيع فرصة الهدنة، بل اتخذ منها وسيلة حقق بها الكثير مما كان لم يتحقق لولاها وبقي مشغولا بحالة الحرب، ولذلك تمكن الحقد على الأمير ودولته من عقل تريزيل ووجدانه، ثم أخذ يفكر كيف يتمكن من الوصول إلى إلغاء تلك المعاهدة التي حققت الهدنة، وكان هذا طبعا غير النهج الذي كان يوده الحاكم العام درلون، الذي وإن كان له رأي في المعاهدة، فإنه تمسك بها، ولذلك كان يقف في طريق الجنرال تريزيل الذي كان يود لو وجد الطريق لإعلان الحرب ضد الأمير حتى لا يستمر في التمكين لدولته الفتية، وإذا هو لم يتمكن فإن ريح الخيانة التي هبت من جديد وفي بعض الجهات ناحية تيطرى حملت معها أحد أبناء الغز "سكان مصر والذين عرفوا بتفسخهم نساء ورجالا(405)، والذي عرف ب "أبو حمار"(406). وهو موسى بن الحسن.

كان موسى بن الحسن الغزي، نسبة إلى الغز قبل قد استوطن بلاد أولاد نايل، وأظهر التنسك والصلاح، ثم أخذ يلقن الناس أوراد الطريقة "الشاذلية" بدعوى الدرقاوية التي تخلى عنها بعد، فاجتمعت عليه قبائل أولاد نايل وغيرها من قبائل تلك الناحية التي كان يتجول بينها على حمار، فعرف عندهم وعند الآخرين ب "أبو حمار" وإذا هو كان هادفا تحقيق غرض، فإنه استغل التنافر الحاصل بين قبائل أولاد نايل وأهل لمدية،

---

(405) عن الغز راجع دائرة وجدي 2/546 ـ 64/7 وتحفة الزائر 226 والمعجب للمراكشي ص288ط1949م نطق ا ومن الغز : السلاجقة والهياطلة، وبلادهم الصغد قريبا من سمرقند كما عند ابن خلدون الذي أخذ عنه البستاني في جـ 64/6 ع 2.

(406) لنحافظ على هذا الإطلاق الذي ستستمد منه فرنسا الإلهام بعد سبعين سنة، وعندما تتعرض الدولة في المغرب أيام السلطان عبد العزيز إلى الضعف والهزال ثم تعمل على تمزيق المغرب حتى يسهل عليها احتلاله فيظهر عميلها الجلالي بن إدريس من دشرة أولاد يوسف ناحية زرهون والمعروف ب "أبو حمارة" والذي لم يختلف عن أبي حمار، الذي هو موسى بن الحسن، فكذلك أبو حمارة .... أطلقوا عليه"محمد بن الحسن" نسبة إلى السلطان المولى الحسن الذي كان قد ترك محمد أكبر أبنائه الذي كان وليا للعهد، لكنه نزعه قبل موته لسبب خلقي فما كان من أحمد بن موسى إلا أنه نصب مكانه أصغر، اخوته عبد العزيز فكانت النتيجة بعد موت أحمد وظهور الفراغ، وقتها ظهر "أبو حمارة" بتدبير من الفرنسيين الذين دربوه بزاوية ابن عليوة في مستغانم .. إلخ كما سنرى بعد.

فزحف بهم على تلك المدينة التي لم يكن لأهلها سلاح كاف، وكان بها مدفع من عهد الأتراك استعملوه بعد أن هاجمهم أبو حمار، لكن المدفع ما كاد يكوي حتى تكسر وتناثر، فرد أهل لمدية ذلك إلى كرامات أبي حمار التي كان ينادي بها أولاد نايل حتى انتهت إلى الدوائر والزمالة خصوم الأمير التقليديون وعملاء الفرنسيين الملتزمين، فخرجوا ثانية على الأمير ثم أقبلوا على أبي حمار الغزي ولما سمع ذلك الجنرال تريزيل، وهو ما كان يتمناه اشتد فرحا بظهور من ينافس الأمير، والذي لا شك مادام قد انحاز إليه أصدقاء فرنسا من الدوائر والزمالة سوف لا يكون منه خطر على الجنرال ومدينة وهران، وبمثل هذا كتب تريزيل إلى الحاكم العام درلون الذي لا شك في الآخر تأثر بذلك ثم تحرك يريد تعديل المعاهدة.

كان على الأمير عبد القادر وقد انتشرت شعوذة أبي حمار الغزي، وانتشر معها الإخلال بالأمن في منطقة نفوذه بمقتضى المعاهدة، أن يتحرك وحتى لا يتخذ الفرنسيون تحركه وسيلة ضد المعاهدة كان عليه أن يخبر الحاكم العام درلون الذي بعث إليه في نفس الوقت يهنيه بالتولية، لكن درلون عاد إلى القول أن المعاهدة لا تعني غير منطقة وهران وما حولها ولا تسمح للأمير أن يتجاوز وادي شلف شرقا، ونهر "أرهيو" إلى "كوجيلة" ولاحق له في الدخول إلى ولاية تيطري لأنها يقول الحاكم العام درلون خاصة به، لكن الأمير وهو يعرف ما يقصد، ثم هو على علم بنصوص المعاهدة التي لم يغب عنه أنها كانت في صالحه، ولأجل لذلك لما طرد دي مشيل ليحل مكانه تريزيل الذي اعتبر نفسه إنما استقدم لإصلاح ما أفسده سلفه بأية وسيلة وبأي ثمن، وإذا ما ذاع وانتشر رأي الحاكم العام ثم أضيف إلى عمل أبي حمار وتحركات الدوائروالزمالة، فإن الجنرال تريزيل أخذ يستعد هو الآخر لإجهاض المعاهدة، وحتى لايفاجأ الأمير وحتى يعطيه وللفرنسيين صورة عن مدى تمسكه ورجاله بالحق، وأنهم مستعدون لاستئناف القتال بلا تردد، قام بجولته قاصدا تيطري ثم لمدية حيث موسى بن الحسن أبو حمار الذي ما كاد يعلم حتى أشاع في قومه أن رصاص عبد القادر وقومه سوف يتحول ماء، وذلك ما كان يتمناه الأمير الذي لم يفعل أكثر من أنه ثبت قومه معتمدا على الكتاب والسنة في مثل هذه المواقف التي كثيرا ما كان ينخذل لها البسطاء، بل إن الأمير كان يقصد من ردع

أبي حمار توجيه الطعنةالقاتلة إلى الجنرال تريزيل الذي أبدى حماسا كبيرا في تعرضه للأمير أن يذهب إلى تيطري كما أنه والحاكم العام لم يحركا ساكنا عندما علما بما قام به أبو حمار الغزي.

لقد وضع الأمير خطته على خريطة الميدان حين عسكر في "هبرة" ثم أمر عامله على تلمسان ونواحيها البوحميدي، كي يستعد بقواته حتى يشغل حاكم وهران إن هو تحرك، كما أمر أخاه الكبير محمد سعيد بمراقبة ناحية مستغانم وأرزيو شرقا، وأصدر أوامره إلى زعماء القبائل ليكونوا أيقاظا تحسبا لما يحدث، ثم قصد الأمير شرقا إلى تيطري التي قال الحاكم إنه لاحق له فيها، قصدها بقواته النظامية، وفي الطريق تعرض له عرب صبيح الذين اعتادوا أخذ أتاوة المرور في بلادهم حتى من الحكومة التركية قبل، فلقنهم الأمير درسا قاسيا أدى إلى سبي نسائهم وذراريهم، لكنه بعد ردهم عليهم إشفاقا حين عادوا إلى صف الجماعة ثم كفروا عما سبق، وفي بلاد جندل جمع الأمير هيأة أركانه وجنوده ثم خطب فيهم ضاربا الأمثلة بما سبق من أمثال هذا المشعوذ الدجال، دون أن يوغل في الحط مما عرف بالكرامات بل مفصلا أنه إن كان للرجل حق فيما يدعي أو كان حتى مسندا من سلطان آل عثمان فما للأمير إلا أن يزكيه ويباركه، وإن كان العكس فلسوف يرى مصيره ومصير الذين اغتروا به، وفعلا ما كادت المعركة تبدأ ويلتقى الجمعان حتى أخذ الذين اعتقدوا بتحويل الرصاص ماء يتساقطون كثمر العرجون إذا ضرب بحجر، وفي أقرب وقت استولى جند الأمير على كل ما كان مع " أبو حمار" الذي فر تاركا نساءه وما يملك غنيمة، وبعدها تبين للأمر كما للفرنسيين أن ريح الوباء اقتصر على الغزي أبو حمار ومن معه، وأنهم لو تدخلوا حسب رغبة تريزيل لكانت الخسارة أكبر والفضيحة أنكى وأشد، وتوج الأمير نصره بتولية عامله على لمدية، وكان محمد البركاني أحد أعيانها، ومن كبار القوم فيها.(407) أما الجنرال تريزيل فإنه بعدما سقط في يده اتخذ ذلك وسيلة لنقض المعاهدة، ثم طلب الإذن في مهاجمة الأمير، لكن دارون لم يأذن له بذلك، بل رفض بشدة أبان معها أن الجنرال يتحمس أكثر مما يجب، الأمر الذي أدى إلى شبه تنافر بين الرجلين ولذلك سيجنى تريزيل أشواك ما زرع أخيرا،

(407) التحفة 227 ـ 228. وخلاصة تاريخ العرب تأليف سيديو ص 291ط 1309هـ.

أما درلون فإنه رأى أن الموقف يستدعى تجديد المعاهدة حتى لا يكون ما حققه الأمير من انتصار دافعا له ولقومه إلي خلق المتاعب التي لم يكن الحاكم العام ولا حكومته مستعدين لها.

وفعلا أرسل درلون بعثة مكونة من القبطان "ست إيبوليت" ووكيل الأمير الموسري بن دران، يحملان نص تعديل المعاهدة إلى الأمير، وقد ورد فيها ما يلي :

أولا : يعترف الأمير برئاسة ملك فرنسا على افريقية؟

ثانيا : تكون سلطة الأمير عبد القادر محصورة في إيالة وهران المحدودة بنهر شلف ونهر "أرهيو" إلى "كوجلة".

ثالثا : يرخص بصفة عامة للأجانب في السفر في سائر جهات بلاده.

رابعا : إعطاء الحرية الكاملة للتجارة في داخل البلاد.

خامسا: لاتصدر البضائع والغلل ولا تستورد إلا من المراكز التي بيد الفرنسيين.

سادسا : يدفع الأمير عبد القادر ضريبة سنوية للدولة مع وضع رهائن تأمين مقابل ذلك.(408)

وما كاد الأمير يتوصل بنص التعديل حتى بادر درلون بعد مراسلة وجهها إلى الأمير مخبرا إياه أنه إنتقل إلى وهران حتى يكون قريبا منه لمناقشة ما يحتاج إلى مناقشة من النصوص أو التفاوض حول ما يحتاج إلى تفاوض، لكن الجنرال تريزيل آثارها ضجة، واعتبر تنقل الحاكم العام نقصا في حق فرنسا، ومبالغة في تقدير الأمير، وفعلا تراجع الحاكم العام ثم غادر وهران بعدما تبادل المراسلة مع الأمير، مما جعل الأمير يدرك النتيجة بعد الأسباب بسرعة، والتي لم تكن غير نقمة تريزيل الذي اندفع بسبب ما حقق من تأثير على الحاكم العام، إلى الإندفاع في طريق تدبير المكايد، حيث اتصل بقبيلتي الدوائر والزمالة اللتين كان زعماؤهما يلعبون على الحبلين، فأوحى إليهما بمغادرة ناحية تلمسان إلى أرض مسكين خارج وهران، ثم راسل الحاكم العام برغبتهما المفتعلة في ذلك، فأجابه درلون أن يتربص في أمرهم ثم يسوفهم ولا يقطع العلاقة معه، منبها إلى ما هم عليه من تذبذب لا يؤتمن، فلم يكن من أمرهم إلا أنهم كشفوا عن

---

(408) المصدر السابق.

وجوههم وأعلنوا ولاءهم للفرنسيين جهارا، ثم أرسلوا وفدهم للجنرال تريزيل الذي استقبلهم ثم أجاب مطالبهم التي كانت من وحيه بعدما عقد معهم شروطا أدخلتهم تحت حمايته بمقابل تعهدوا بدفعه من دمائهم وأموالهم، وبذلك كان عمل الدوائر والزمالة أول عمل إجرامي لتثبيت قدم الاستعمار الفرنسي اختيارا من مواطنين جزائريين سينتهون إلى حمل السلاح وقتل إخوانهم حتى يمكنوا للفرنسيين في الجزائر، أما العقد الذي قدمه به الجنرال تريزيل، فهو كما يلي وفيه ما هو مقتبس من تعديل درلون المرسل إلى الأمير؟؟ :

أولا : تعترف القبائل برئاسة ملك فرنسا وتلتجئ تحت حمايته.

ثانيا : تخضع القبائل لمن يوليه عليها من الرؤساء المسلمين.

ثالثا : تقدم القبائل في الدوائر المعينة المرتب الذي كانت تقدمه إلى بكوات الترك.

رابعا : تقبل القبائل على الفرنسيين بإخلاص، كماً يكون إقبال الفرنسيين على القبائل كذلك.

خامسا : تكون التجارة في الخيل مع جميع المواشي والمحاصيل بالقبائل حرة للجميع، أما البضائع التي توسق فلا يتمّ وَسقها إلا من الموانئ التي يعينها الحاكم العام.

سادسا: لا تكون تجارة الأسلحة وسائر متعلقات الحرب إلا بواسطة المأمورين بذلك من الفرنسيين.

سابعا : تلتزم القبائل بتقديم نجداتها متى دعاها والي وهران إلى غزوة عربية في إقليم افريقيا، ويكون للفارس فرنكان وللماشي فرنك كل يوم، وكل واحد منهما يحمل في الأقل خمس قراطيس ويعطي من مخزن السلاح عشر قراطيس وكل من يقتل حصانه في الحرب يعطي بدله.

ثامنا : أن لا تتعدى القبائل على من يجاورها من القبائل، فإن حصل عليها اعتداء من غيرها عليها حينئذ أن تعلم والي وهران ليحضر حالا لنجدتها.

تاسعا : متى ذهب العساكر الفرنسيون إلى الحرب يعطي لهم كل ما يحتاجونه من المؤونة بالثمن الملائم.

عاشرا : الخلافات التي تحدث في القبائل : إن كانت في قبيلة واحدة يفصل فيها قاضيها، وإن كانت بين قبيلتين يفصل فيها قاضي وهران.

الحادي عشر : ينتخب رئيس من كل قبيلة ويسكن مع عائلته في وهران.

وفعلا صادق زعماء الدوابر والزمالة بعد إجماع قبائلهم، وإذا ما اعتبره الجنرال تريزيل فتحا ثم بعث به إلى الحاكم العام، فإن هذا الأخير لم يرقه فعل تريزيل واعتبره عرقلة للتعديل المقترح على الأمير كما صارحه درلون بذلك، فغضب تريزيل ثم أرسل إلى الحاكم إذا هو لم يعجبه ما فعل، فما عليه إلا أن يعيد إليه الوثيقة ومعها من يتولى على مدينة وهران، وكان هذا التهديد ممافت في عضد درلون، كما وأن الأمير الذي تلقى الإقتراح بما اعتبره درلون تعديلا في مدينة لمدية بعد فراغه من تأديب الخارجين مع "أبو حمار" والذي سبق أن كاتب الحاكم العام في شأن الدوابر معتمدا البند الثالث من المعاهدة، فكان جواب الحاكم العام مناقضا لها، مما زاد في خبرة الأمير نحو الفرنسيين ثم دفع به إلى عدم الثقة حتى ولو كان الحاكم العام، بل أطلق عليه نائبه اليهودي بالجزائر الموسوي بن دران الذي عرف كيف يلعب معه ويقارعه بنفس السلاح.

حقا لقد عرف الجنرال تريزيل بغطرسة كيف ينسف المعاهدة التي أفاد منها الأمير الذي تمسك بها وأمر نوابه أن يتمسكوا بها كذلك، ولما ارتكب تريزيل ما ارتكب بزعمه، كانت مراسلات الأمير مع الحاكم العام تنبني على البند الثالث منها وهو :"رد الأسارى وغيرهم من الفارين الفرنسيين وبالعكس "ومع ذلك دخل درلون في مناقشة وجدال مفتعل حول كلمة "هارب" لكن الأمير كان صريحا في رده على درلون «تعلم الشروط التي ربط بها دي ميشيل نفسه بإذن دولته ـ التي تلاحظ أنها احتفلت بها ـ وعند وصولك إلى الجزائر وعدتني بالمحافظة عليها، وأنك تعلم جيدا أن الحكومة الفرنسوية ملزومة بأن ترد إلي كل مذنب التجأ إليها، ولو كان رجلا واحدا فكيف بالعشيرة والقبيلة، وعلى هذا فإن قبائل الدوابر، والزمالة، من جملة رعيتي التي أحكم فيها بموجب شريعتي، والآن أبلغك السلام أنك إن رفعت الحماية عنهم فنحن على ما كنا عليه من المعاهدة التي وقع عليها الاتفاق قديما؟! وإلا فإني لا أتخلى عنهم حتى ولو دخلوا مدينة وهران" فإن كنت ولابد معتمدا على إنقاذ ما صورته أفكارك من ادخالهم تحت حوزتك فاطلب وكيلكم من عندي واختر لنفسك ما يحلو، وميادين المعامع تقضي بيننا، ومسؤولية إهراق الدماء وإتلاف الأموال راجعة إليك وعليك، والله يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد"(409).

---

(409) المصدر السابق 234-235

يفهم من هذا أن المعاهدة أقبرت والهدنة انتهت، وما على الأمير إلا أن يتدبر شؤون قومه ويستعد لمواجهة غطرسة تريزيل الذي كان همه منذ استخلف مكان دميشيل، هو أن يقضي على المعاهدة التي أنجزها هذا الأخير، رغم أن حكومة بلاده فرحت بها واعتبرتها مكرمة من مكارمه.

وهكذا فإن الأمير رغم الاستعداد الذي فرضته عليه مراسلة درلون واقتراحه لم يتخلى عن المرونة السياسية، إذ كان عليه أن يفكر أن التصادم الحربي آخر ما يلجؤ إليه حين يستنفد كل وسيلة، ولذلك أجاب أيضا على اقتراح درلون الذي أرسله مع القبطان"سنت إيبولت: و"الموسوي بن دران" باقتراحه هو كذلك، والذي كان مستمدا من مصالح بلاده ومواطنيه أولا، وقد ورد فيه ما يلي:(410) يشترط ناصر الدين عبد القادر بن محيى الدين :

أولا : تبقى جميع الإيالات الخاضعة له تحت سلطته وحكمه، كما أن المدن التي استولى عليها الفرنسيون تبقى على حالها في أيديهم.

ثانيا : أن ولات "لمدية وملیانة" عند عزلهم تبعث أسماؤهم إلى الحاكم العام ليعرفهم ولتكون المواصلة مع الأمير بواسطتهم.

ثالثا : التجارة تكون حرة للجميع.

رابعا : على الفرنسيين أن يسالموا العرب كما أن على العرب أن يسالموا !لفرنسيين في جميع الأماكن.

خامسا : للأمير أن يشتري من مدينة الجزائر بواسطة وكيله فيها جميع ما يحتاج إليه من الآلات والذخيرة الحربية.

سادسا : إذا عزم الأمير على السفر إلى قسنطينة أو غيرها يخبر بذلك الحاكم العام مع الإفادة عن ذلك السفر.

وبينما كان جواب الأمير هذا في طريقه إلى الحاكم العام بواسطة الرسول سنت إيبوليت، الذي لاقى من الأمير أجمل الترحيب وأحسن الإكرام، وقد سبق لنا التعرف على

---

(410) نفس المصدر 230/229.

أن الحاكم العام الذي أخبر الأمير بتنقله إلى مدينة وهران قدغادرها تحت تأثير ما أبداه الجنرال تريزيل من رأي حقود، ولذلك توجه الرسول ورفيقه الموسوي بن دران اليهودي إلى الجزائر اللذين حلا بها دون أن يعلم الحاكم العام درلون أن الجنرال تريزيل لم يكن ينتظر غير مثل تلك الفرصة ليبادر إلى الصدام مع الأمير، وما كاد يصله خبر الجواب من طريق غير طريق الحاكم العام، حتى "خرج من وهران في الرابع عشر من ربيع الأول سنة 1252هـ = 1 يوليه 1836م في خمسة آلاف من المشاة، وفرقة من الخيالة، وأربع قطع مدافع جبلية، وعشرين مركبة للزاد، زيادة عن المركبات الإحتياطية يتقدمها جيش الدواير والزمالة، نزل في «تليلات» على مرحلة من وهران، وإذا كان الأمير قد أمر عامله على الناحية الغربية، وهو البوحميدي الولهاصي، حتى يكون على حذر مما يبيت تريزيل، فإن هذا الأخير ما كاد يتحرك حتي انتهى خبره بما سبق إلى الأمير الذي كان هو الآخر ومنذ قدم عليه "سنت إيبوليت" ثم ودعه وهو يستعد.

وفعلا غادر الأمير عاصمته المعسكر متوجها إلى "سيك" على رأس ألفي فارس وألف من المشاة، وقد ضرب موعدا لقومه ورجاله بالمكان المذكور، لكن تريزيل ما كاد يعلم حتى نهض من "تليلات" وفي عزمه المباغتة قبل أن تتجمع قوات الأمير ويتلاحق المجاهدون، لكن فاته أن البوحميدي وبوشقور ولهما قوات ذات اعتبار التحقا بالأمير حالا، فعين الأول على الميمنة والثاني على الميسرة، واختار هو القلب استعدادا لمعركة المقطع التي كانت في "حرش مولاي إسماعيل" بالقرب من سيگ وما أن التقى الجمعان حتى شب القتال الذي دام مناوشة بين الفريقين يومين بلا انقطاع، وفي الثالث وكان الأمير وجنوده قد استدرجوا الفرنسيين وأعوانهم إلى الحرش الذي انطلقوا منه ثم بادروا بالهجوم بلا نظام، بيد أنهم فتحوا باب عاصفة هبت عليهم فأخذوا يتساقطون اعتباطا وكان في المقدمة كبيرهم الكومندار "أودينو" ابن المارشال" دوق دي تريجو"الأمر الذي شجع الأمير وجنوده فاندفعوا كالسيل الجارف، فلم يكن من أمر الجنرال تريزيل المتهور الحقود، إلا أنه تعرض إلى انهيار معنوي أدى به إلى التفكير في الفرار، لكن سدت أمامه جميع الطرق إلا طريق الساحل وهو طويل، وإذا ما تفرقت جيوشه بين مختلف الوهاد والشعاب وفي الجبال، فإن الأمير قد دبر لها حيلة حتى تعود لتتجمع فينقض عليها، ذلك

أن الأوامر صدرت إلى جنوده ثم إلى الذين هم تحت امرة البوحميدي وبوشقور، حتى يتفرقوا في اتجاه معاكس، ولما فعلوا عاد القوم إلى المكان الذي لم يعرفوا غيره، وهو طريق وادي المقطع، وما كادوا يتجمعون حتى أحاط بهم جند الأمير وجيوش القبائل، فأخذوا يقتلونهم بلا تمييز حتى كادوا يأتون عليهم، أما الجنرال الجبان تريزيل الذي أعماه حقده والذي سجل أكبر فضيحة في تاريخ فرنسا حتى ذلك العهد، فقد فر في اتجاه وهران على طريق الساحل، ثم أرزيو، مخلفا وراءه كلما خرج به من قوات وعتاد، غنيمة للأمير وجنوده، وتقول مصادر الفرنسيين أنفسهم " أنه ما سبق لهم في معاركهم مع الأمير أن خسروا مثل ما خسروا من القتلى والجرحى في هذه المعركة التي ذهبت بالحاكم العام "دوريت درلون" ليحل مكانه "كلوزيل"، أما الأمير فإن نشوة إيمانه بالإنتصار لم تشغله عن التفكير فيما يستقبل، ناهيك وأنه خبر حقد الفرنسيين وعجرفتهم التي لم ولن تستسيغ أو تعتبر بما حصل، خصوصا وأن ضجة الرأي العام بعد المعركة سوف تزداد حدة.

كان على الأمير أن يوجه نقمته بعد ذلك إلى الدوابر، والزمالة، وأهل لمدية، الذين أعلنوا ردتهم وتواطؤهم مع العدو، وكانوا هم كذلك يعلمون ذلك، وحتى لا يتعرضوا للنقمة، عاد الذين نجوا منهم إلى صفوف الفرنسيين، وإذا ما كان قبل قد حل محل تريزيل في حكم وهران، الجنرال "دي ميشيل" يوم فاتح فبراير 1835م فقد كان مصيره الفشل والانهزام(411) ثم الجنرال "درلورانج" ثم "دام ريمون"، بل وإذا كان لهذه المعركة أثرها في حياة فرنسا السياسية، بحيث لم تقتصر على العسكريين الذين انتصرت فكرتهم الاستعمارية بواسطة اللجنة التي قررت استمرار الغزو والاستيطان بدلا من فكرة التوقيت المشار إليها قبل، فإن كلوزيل الذي أصبح الحاكم في شهر أوت 1835م يعتبر من دعاة الغزو والاستيطان ولذلك عليه أن يعمل على محو العار الذي جلل وجه فرنسا بين الدول وقتها، وحتى يرضى الرأي العام الفرنسي الذي انتهى به التذمر إلى نهاية الحقد على الجزائر والجزائريين الذين انعكس فيهم كذلك صدى ماذاع وانتشر من تهديد ووعيد، فكان رد الفعل بينهم أن عاد الذين اغتروا قبل بالفرنسيين منهم خصوصا البربر

(411) راجع سيديو مصدر سابق 291.

الذين تأثروا بمنشور الوعظ والتوجيه الذي نشره خليفة الأمير على مليانة محيي الدين بن علال(412) وبسبب ذلك ما كادت قوات الأمير وصحبه تغادر وادي المقطع وحرش مولاي إسماعيل، وقد اتجهت في طريقها على "متيجة" حيث قتلوا وأسروا من فيها من الفرنسيين، حتى وجدوا أنفسهم يتضاعفون في الطريق من شدة إقبال المتحمسين المستبشرين بالإنتصار من الذين لم يكونوا قبل مع الأمير، ولقد كاد يتحقق ماقاله بعض الفرنسيين في حق الأمير حتى يثير كراهية الرأي العام الفرنسي ضده، حيث قال وعلى لسان الأمير : إنه لا يسمح للطير أن يحلق من غير إذنه فوق المدن التي استولى عليها الفرنسيون الذين أمسوا كالأسير المقيد لا يطلب غير الخلاص من قيوده.". وفعلا كان الأمير قد استولى على ثلثي الجزائر.

لكن الحكومة الفرنسية وقد رأت ما زعزع الثقة فيها لدى الرأي العام صممت على أن تحارب الأمير بكل مالها من قوة، وتحقيقا لذلك وحتى لا تخور عزائم الجيوش التي أضناها الرعب أرسلت دوق "أورليان" ولي العهد ليكون بجانب الحاكم "كلوزيل" الذي لم يمض قليل من الوقت حتى كان مستعدا تمام الاستعداد لمهاجمة الأمير بقوات تجاوزت كل حد يقودها الدوق، الأمر الذي أدى بالأمير أن يفوت عليهم نشوة الانتصار، حين نقل ممتلكاته من العاصمة المعسكر التي كانت الهدف، والتي غادرها ولم يترك بها غير اليهود والمذبذبين الذين تأثروا من هول مارأوا وما سمعوا من قوات العدو وجحافله، وما كاد الفرنسيون يقبلون عليها حتى وجدوها خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وكان يوم 5 ـ 12 ـ 1836م(413) أسعد أيام الدوايروالزمالة الذين أحرقوا من عاصمة الأمير عبد القادر ما أحرقوا، وأعدم الفرنسيون من المخلفين المذذبين ما أعدموا، أما الأمير فقد أمر قومه ورجاله بالتربص، وذهب هو إلى حيث قبائل الأحلاف(414) وبني يزناتن الذين قاموا بنصرته، أما الجيش الفرنسي فإنه بعد خيبته وجهله بما دبره الأمير توجه

---

(412) التحفة 245.

(413) سيديو مصدر سابق 293

(414) منهم كانت أم السلطان المولى سليمان، ولذلك كان ميول سكان غرب وهران وتلمسان إليه حيث بايعوه زمن ثورات درقاوة أيام عبد القادر ابن الشريف كما سبق.

شرق الجزائر، لأن قيادة الفرنسيين حسبت أنه مادام غادر المعسكر وحده وبلا جنود سوف لا يكون توجه إلا إلى الناحية الشرقية، وزادهم تضليلا ما قام به خصوم الأمير من بعض أهل تلمسان الذين وجدوها فرصة لينشروا حوله أخبارا كاذبة وأن قواته ما خرجت من مدينتهم إلا ليلتقطها المغاربة خصوصا أهل الريف وبني يزناتن الذين للأمير عبد القادر فيهم رحم،والذين كان علماؤهم ورجال الفضل فيهم قبل يدفعون الناس لمؤازرة المجاهدين في سبيل الدين والوطن، وبينما الفرنسيون في تخطيطاتهم شرقا، كان المغاربة في الحدود المتاخمة وخصوصا درقاوة يتزعمون استنفار الناس للجهاد في سبيل الله، وإذا ما تجمعت لهم أعداد كثيرة، فإنهم أعلنوها هجمة مؤمنة صادقة ضد القوات التي كان يقودها الجنرال بريجو Perregdux" والذي نزل بقواته على نهر هبرة بوادي شلف، و"الجنرال ديرلنج" على نهر تافنة، ودهمتهما قوات القبائل المغربية المتحركة باسم الجهاد، ودون علم من السلطان إلا بعدما تحركت، مما أدى بالفرنسيين إلى الاستنجاد بقوات الجنرال بوجو Bugeud الذي قام من وهران كما توجه "دام ريمون" في قواته المكونة من اثني عشر ألف نحو قسنطينة لمقاومة أحمد باي، لكنه إذا ما قتل في الطريق وحل محله"فالييه"، فإن الأمير عبد القادر كان قد استرجع أنفاسه وعلم مدى التوزيع والتشتيت اللذين أصبحت عليهما قوات الفرنسيين، بل وقد استطاع بحكمة وتبصر أن يعيد جمع قواته والقوات التي أضيفت إليها بعد الانتصار بحرش مولاي إسماعيل ووادي المقطع، ثم الانتصار الذي حققته القبائل المغربية، بل والذي كان للأمير وجنده كالمتنفس، وللفرنسيين مما زاد في حيرتهم، وهذا ما دفع بعض المؤرخين الجزائريين وغير الجزائريين إلى القول أنه لو تم التحام الشعبين بتضافر القوتين(415) لماتم للفرنسيين ماتم لهم في الجزائر وهو رأي ينطوي على بعض الحقيقة بدليل أن الفرنسيين في الستينات وفي عهد حرب التحرير "1955" ما كادوا يرون المعارك تزحف من المغرب شرقا نحو نافوغالت بالشمال الشرقي من المغرب حتى أدركوا أنه إذا ما التحمت الصفوف بل

(415) ولا أريد أن أفصل أكثر في حالة المغرب وقتها سواء من جيشه المتخلف، حتى عن جيش الأمير عبد القادر أو حالته الاقتصادية المنهارة التي تحولت إلى أيدي اليهود والأنجليز، وسنرى نتيجة ذلك في موقعة إيسلي بعد قليل.

والقيادة في القطرين فما على الفرنسيين إلا أن يغادروهما بجلودهم، وذلك ما أدركه وزير الدفاع "كونيج "و"بناي" وزير الخارجية عندما زارا المنطقة المذكورة سبتمبر 1955م(416) إلا أن الأيام والناس في هذه السنة لم يكونوا هم، ولا وسيلة الدفاع ما كانوا عليه في عهد الأمير عبد القادر والمولى عبد الرحمن الذي رأينا حماسه وتشجيعه للأمير ماديا ومعنويا قبل أن يقع تحت ضغط الانجليز ثم الفرنسيين وقنبلة طنجة والسويرة، بل إن تحرك قبائل المغرب المشار إليه قبل دفع الجنرال بوجو أن يتوجه بالإهتمام ثم الإنذار رسميا إلى سلطان المغرب الذي لم يعلم ولم يتدخل فيما قامت به القبائل المذكورة، والتي ربما لم يكن لإدارته عليها سلطان وقتها إلا بالإسم، ومع ذلك كتب الجنرال المذكور إلى السلطان عبد الرحمن يقول : «إن مناصرته للأمير تعتبر دخول المغرب في حرب مع فرنسا» وتحت ضغط هذا التهديد الذي ضخمه وهوله الانجليز وقنصلهم العام "هاي" تم الاتفاق الذي لم يكن منتظرا، لاعدم مساعدة المغرب للأمير، كما اتفق الأمير نفسه مع "الجنرال بوجو" على هدنة بعد معركة تافنة وهي الهدنة التي قصد الجنرال بها كذلك وضع خطة جديدة واستراتيجية غير التي حذقها الجزائريون، وأصبحت مكشوفة لديهم، وانتقل وفد الحاكم العام والقيادة العسكرية بالجزائر إلى باريز مصحوبا بالهدايا إلى لويس فيليب حتى يوافق على الخطة الجديدة ويزيد في الاعتمادات، وما علم الأمير بذلك حتى قام هو الآخر بتوجيه وفد منه إلى حكومة فرنسا ضد فاليه، وبوجو، وغيرهما، واتخذ لذلك سببا ما أراده من محاولة التمكين لمعاهدة حقيقية بدل الهدنة المبيتة، وكانت هذه المرة بواسطة وزير خارجيته ميلود بن عراش الذي أغلظ له القول ثاليه حتى ينقض هو الآخر معاهدة الهدنة التي باركتها حكومة فرنسا ولذلك أرسل الأمير هو الآخر وفده إلى الحكومة المذكورة، لكنها وقد علمت ما قام به ثاليه من وسيلة مع لويس فيليب، فإنها لم تفعل أكثر من استقبال وفد الأمير ولم تتفاوض معه حتى لا يكون ذلك منها اعترافا يجلب عليها ضجة لم تكن قادرة على مواجهتها، وقد حصلت قبل عندما باركت معاهدة

(416) سوف نتناول هذا الموضوع بما يكفي من الدراسة والوثائق التي يستدل بها على أنه لولا ذلك الالتحام لما تم النصر للمغرب ولما عاد إليه عاهله الشرعي محمد الخامس رحمة الله عليه والذي كان للجزائريين بمثاليته وأخلاقه تعلق شديد من الكبير والصغير.

الهدنة، فكان ذلك سببا في الضجة التي أحدثتها المعارضة، والتي شغلت مجلس النواب وقتا غير قصير.

وهكذا فإذا ما ذهب الأمير إلى مدينة المعسكر بمقتضى معاهدة الهدنة، ثم أعاد لها الحياة، فإنه ما كاد يفعل حتى بلغه أن قاليه يدبر مكيدة بليل، وقد جمع عليها خيوط العسكريين والسياسيين حتى انتهى خبرها إلى الأمير الذي هو الآخر ما كاد يستشعر القوى ويتثبت حتى عاد للحرب غير مكترث بفاليه ولا قواته والاتفاق الذي يعمل في الظلام على نقضه، واختار الأمير هذه المرة أن تكون المبادرة منه في شهر ديسمبر 1837م حيث ظهر ناحية قسنطينة وفي أبريل 1838م ناحية لمدية، وفي ماي من نفس السنة ناحية ناجدامت وفي 15 ـ1 ـ 1839م توجه ناحية عين ماضي حيث كان محمد التجاني الذي انقاد للفرنسيين(417) بطريقة أفظع من الدوابر والزمالة وكان قبل رفض أن يساعدالأمير رغم المراسلات، ولما طالت الحرب بين الأمير والتجاني لجأ هذا الأخير إلى الأغواط، كما قدم بعد كل مساعداته للمارشال فالييه ضد الأمير، بل ضد الإسلام والمسلمين، لكن الأمير وإن كان قد انضم إليه أولاد سرغينة ثم قدم عليهم الزعيم الحاج العربي نيابة عنه ليشرف على مقاومتهم للفرنسيين، إلا أنهم انهزموا أمام جحافل فرنسا وجيوشها الذين كانوا معززين بآل عين ماضي، والتجأ الحاج العربي إلى أمزاب فخلفه عبد الباقي الذي كان مصيره كمصير سلفه، رغم قيادته لسبعمائة في فرقة منظمة ومعززة بمدفع، انتصر عليه أحمد بن سالم الذي كان والتجانيين إلى جانب الفرنسيين بكل قوتهم، وهذا ما دفع الفرنسيين بعدماتصاهروا مع هذه الأسرة التجانية أن يمكنوا لها وللطريقة التي اتخذها أبناؤها شبكة نصب واحتيال انتهى الأمر ببعضهم إلى الكفر والمروق بالافتراء على الدين كما سنرى. بعد دجلهم وافتراءهم على الدين وتعلقهم بالمستعمرين الفرنسيين الذين تطوعوا لخدمتهم في السنغال وغيرها.

---

(417) راجع دائرة المعارف الإسلامية 194/3 ـ 195، وبروكلمان في تاريخ الشعوب الإسلامية 11/4 اوفي هذه الرحلة بلا شك قامت حملة ظالمة ضد الأمير في المغرب تزعمها أكثر أتباع الطريقة التجانية بفاس ومراكش ونجد مداها حتى فيما أفتى به قيم الضريح. الإدريسي بفاس أحمد العراقي حول جمع السلطان محمد بن عبد الرحمان المال من الشعب، قصد التعويض للاسبان بعد حرب تطوان، حيث اتخذ موضوع الأمير عبد القادر وما قيل إنه افتدى نفسه بمال؟ أدى به إلى الإفلاس ثم عاد الفرنسيون فاستولوا عليهابنفس المال الذي أخذوه منه كما نفرت منه القبائل بسبب ذلك مما أدى بالفرنسيين إلى نقض الصلح.. إلخ راجع تاريخ تطوان؟؟.

وهكذا ابتعد الأمير عبد القادر عن الحدود المغربية ولمدة ستة أشهر، اتجه فيها ناحية زواوة وغيرها كمتجول مثير للهمم ومنشط لروح الجهاد، لكن لم تقم غير مناوشات خفيفة ناحية سطيف وميلة، وجيجل، واجميلة، كما حصن مضيق تيزي الذي توجه إليه دوق أورليان من سطيف وإذا كان الصراع والتنافس قد اشتد بين فاليه وبوجو فإن هذا الأخير وبمساعدات الاستعماريين عين يقول بروكلمان(418) سنة 1840م وذلك يوم12/20 وبحق كان أفضل جنرالات فرنسا، عين حاكما عاما للجزائر لأن سلفه انهزم بسبب عجرفته وتمسكه بالتطرف أمام الأمير الذي لم يخسر في معاركه إلا القليل الأقل إذا قورن بما كان الفرنسيون يخسرون في كل تحركاتهم الضخمة من أجل إيقاف قوات المجاهدين هنا وهناك، ويظهر ذلك بمقارنة ولو عددية بين القوتين.

لقد كانت قوات الفرنسيين وقتها بالجزائر قد بلغت رقما لا يقبله العقل من دولة إلى عهد قريب وهي تتشدق أنها صاحبة الثورة من أجل الحرية، والمساواة، والإخاء وحقوق الإنسان بيد أنها أول دولة ترامت على شعب آمن ثم ألقت بأبنائها ليقتلوا بالآلاف من أجل الاستعمار واستعباد الشعوب، وإذا كانت قد بدأت غزوها سنة 1827م ب 34000 جندي فإنها رفعت ذلك العدد إلى 48000 سنة 1838م مما أدى بالأمير إلى إعلان الجهاد في كل التراب الجزائري سنة 1839م، فكانت النتيجة بعد ذلك ومدة تعيين الجنرال بوجو أن أعطى بلا حساب وأطلقت يده كذلك بلا حساب، خصوصا في عهد حكومة جيزو التي استمرت إلى سنة 1848م والتي كانت متحمسة للاستعمار حيث رفعت قواتها بالجزائر سنة 1840م إلى 63000 جندي، وستعرف تصاعدا 1842 إلى83000 جندي وفي 1844م إلى90.000 جندي وفي 1849م إلى 108000 جندي، وهو ما يساوي ربع قوات فرنسا وقتها، بالإضافة إلى 45000 حصان ومآت من قطع المدفعية ثم 600 مركب شراعي بحري منها103 حربية، هذا في الوقت الذي لم يكن الأمير يتوفر على غير 2500 من الفرنسان و12500 من المشاة كجيش نظامي دربه أحسن تدريب، ونظمه تنظيما بواسطة بعض الضباط الأوربيين الذين تظاهروا بالإسلام من مختلف الجنسيات، ومنهم الفرنسي "ليون روش"الذي تظاهر بالإسلام لغاية: فاتخذه الأمير مستشارا إلى سنة 1839م ولما انكشف أمره وتبين قصده سرحه ولم يؤذيه.

(418) 4/تاريخ الشعوب الإسلامية .112 دون أن يعين اليوم.

بهذا العدد القليل حسا، القوي معنى قاتل الأمير جيوش فرنسا ودوخها مؤيدا بالشعب بل إن تاريخ أوربا ليشهد لهذا الرجل المؤمن العظيم أنه دوخ أقوى جيش بري وقتها بلغ تعداده ما سبق، ولمدة سبعة عشر عاما، لم يذق الفرنسيون فيها طعم الراحة بالجزائر إلا في الفترات التي اتفق فيها على هدنته. وما أقدمت فرنسا على هذا العدد الضخم إلا بعدما أيقن حكامها أنهم سيغطون نفقات غزوهم من مال الجزائر التي خبروا ثرواتها الزراعية ومداخيلها منها، خصوصا بعدما حصلوا على 48.700.000 فرنك ذهب من خزينة الدولة الجزائرية سرقة وقت احتلالهم للمدينة بعدما كانوا قد وصلوا في صرفهم على الغزو 43.500.000 فرنك، هذا بالإضافة إلى ما عرف من اتهام الجنرالات بعضهم لبعض بالسرقة من أموال الخزينة التي قالوا عنها لحكومتهم إن الخازن أبلغهم أنه لا توجد سجلات لما فيها من أموال، في الوقت الذي احتفظ التاريخ بما كان يقوم به الجنود من إشعال السجاير بأوراق السجلات، بل تحولت تصرفات الغزاة من الضباط والجنود الفرنسيين إلى لصوص بالسلاح أطلق الجنرالين "بوجو" "ولا موريسيير" أيديهم بكل حرية للنهب والسلب، وذلك ما سجله التاريخ في حقهم عند احتلالهم شرشال يوم 16ـ3ـ1840م بعد القضاء على ابن غانية الذي كان قد عين حاكما لها باسم الأمير يوم 14 منه، وهو ما سجل التاريخ على جنود فرنسا في الجزائر حين أطلقوا اليد في قبائل لهراقطة، وبني موسى(419) يوم 4/22 من نفس السنة وفي كالمة التي حشدوا فيها جموعهم ورباط طمطم، كما شيدوا حصنهم العسكري في عين الترك على بعد 57 كم من سطيف، كما ركزوا ثوانهم في لمدية بصفة نهائية يوم 17ـ5ـ1840م، وفي مليانة 6/8 منه، ثم توجهوا لمسيلة ويوغارة، وإذا ما حل الجنرال بوجو رسميا محل الجنرال ڤاليه يوم 22ـ2ـ1841م، فإنه ركز جهوده بحقد يساعده الدوق نمور للقضاء على الأمير عبد القادر مهما كلف الثمن، حيث وجه قواته غرب الجزائر بعدما عمت سلطة القهر جميع الجهات التي تركز فيها الحكم

---

(419) بطن من جعد من لخم من القحطانية : راجع نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي ص 427 ط1 القاهرة 1959م، ونلاحظ أن الجزائر أكثر ضمت جل بطون العرب، يوجد فرع لهم بتادلة وهم الذين غزاهم السلطان محمد بن عبد الرحمن في نصف رجب من سنة 1289 هـ/1872م بسبب إعلانهم العصيان ضد عاملهم الزواني بن زيدوح، كما سنرى بعد في ترجمة السلطان المذكور.

الفرنسي وحطت قوات فالا، ونموررحالهما في قرية تاجدامت يوم 25-2-1841م كما استولت على مدينة المعسكر ونواحيها، ثم عقبة جدة، في فاتح يونيه من نفس السنة، وبهذا أصبحت الجزائر كلها تحت الاحتلال إلا ما كان من بعض الجهات في الناحية الغربية مما أغرى المغاربة في النواحي المتاخمة للجزائر وهم يجهلون الواقع أن يتحمسوا بشكل اندفع معه السلطان عبد الرحمان بن هشام بعاطفة غير واعية بالواقع والمآل، إلى أن يسهم في المعركة التي ألح الشعب المغربي بطريقة ارتجالية على مشاركته فيها إلى جانب الاخوة الذين يربطه وإياهم الدم والدين والتاريخ والمصير المشترك، لكن هذا جاء متأخرا ولولا روح التخلف التي كانت طاغية في المغرب، وكان السلطان على علم بالواقع لما حصل ما حصل مما أدى بعد إلى أفظع كارثة بدون نتيجة، خصوصا وأن غرب الجزائر الذي كان ومن أول وهلة مسرحا للقتال والصدام السياسي، ومنه رجال الدوائر والزمالة الذين باعوا نفوسهم للشيطان والمستعمر معا، والذين أصبحوا لاهم لهم غير جر جيوش الاستعمار إلى محاربة الأمير ومطاردته بلا هوادة، وكذا بعض خونة أهل تلمسان من مرتزقة الانكشارية لكريت اليونانيين وما حولها من الذين كانوا قد تنكروا للأمير والذين استأسدوا حين احتل الجنرال بوجو مدينة تلمسان بإتفاق معهم*، كما أحتلت مدينة سبدوا آخر معقل حصين للأمير، مما عرضه إلى عدم الاستقرار مع الآلاف من رجاله، بل تعرض لمطاردة الدوق دومال وجنوده الذين ضاقت بهم الرحاب، والمزودين بأقوى ماكان عند فرنسا من سلاح، حتى قيل إنه سقط من رجال الأمير، الذين كانوا قد انتهوا إلى ضعف وهزال مادي بسبب طول القتال وكثرة التنقل، وعدم الزاد، وقلة السلاح والعتاد، ناهيك وقد قطع طريق الاستمداد عن وادي تافنة، وجبل طارق، ومالطة، وزال ما كان قد جمق من مصانع في حصون تاكدامت، وسعيدة، والمعسكر، وتفرق ما كان بها من جزائريين ومغاربة وأسبان. فما كان على الأمير البطل إلا أن يستسلم بجسمه لابروحه التي بقيت بمثاليتها المصباح الذي أنار طريق الشعب الجزائري الذي أنتج أمثال عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي ورجال

* في هذه المرحلة من التاريخ لم يتخلف في الجزائر من عائلات الترك أحد وإنما تخلف فقط بعض بقايا جيوش المرتزقة من اليونان والصرب والاسبان وغيرهم من الذين سرعان ما انقلبوا ضد الشعب الجزائري خوفا منه وحمايته لأنفسهم بالفرنسيين.

جمعية العلماء. وكذا مصالي الحاج ومن اقتدى بهم كما سنرى بعد، أولئك الذين كونوا جبل الثورة.

وأخيرا بقي لنا أن نعرف العائلات الجزائرية التي لجأت إلى المغرب وبالأخص إلى مدينة فاس وتطوان وغيرهما من مدن المغرب والتي منها من هرب محافظة على دينه ووطنيته، ومنها من هرب خوفا من مصيره بسبب خيانته.

العائلات الجزائرية التي استوطنت مدينة فاس
1260هـ/1844م

خـ 1) أولاد بن منصور: أول قادم منهم عبد الله بن منصور بن عثمان الحوتي نسبة إلى عين الحوت موطن السليمانيين ومنهم الجاسوس المشهور عبد الوهاب بن منصور الذي عمل عينا للفرنسيين ضد المغاربة كرقيب على الصحافة حيث لا تزال بصماته ضد رسالة المغرب. راجع جريدة العلم "سبتمبر 1971 ص7.

2) أولاد المقري ومنهم محمد عبد السلام الذي عرفناه قبل.

3) أولاد بن الحاج البيدريين المناويين وهم غير أولاد بن الحاج السلميين آل حمدون بن الحاج

4) البوسعيديين الوادغيريين ومنهم ا .

5) أولاد بن حربيط الحسنيين جميعهم من ذرية محمد بن إدريس.

6) أولاد بن عبد الجليل أول من قدم منهم محمد المجاوي جدهم أبو بكر بن محمد بن عبد الله الجليل دفين أرض الفحول من أولاد غاسول. ومنهم عمر بن عبد الجليل الذي انتهت حياته بسوء الخاتمة كما سنرى من خلال ما سلب الخونة من مال أسس به البنك الشعبي في عهد الاستقلال.

7) القيسيون التلمسانيون ومنهم الغبريطيين المتيجيين ثم الأندلسيين، قيل ان أصلهم من معقل ربيعة، وإليهم يرجع المجرم الحقير قدور بن غبريط كانت فرقة منهم في الرباط ووجدة.

8) أولاد الهطاليين بيت كريم.

9) الزغاريون التلمسانيون بيت نبيل.

10) ومن تلمسان كذلك أولاد بن ثابت وهم من مسلمة اليهود يقول بن الأعرج في اللسان المعرب ص 32 مطبوع و45 مخطوط.

ومن مدينة معسكر ونواحيها .

11) المهاجيون أول من قدم منهم محمد بن الخضير وهم سلالة محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل وهو صنو ادريس الأول.

12) المشرفيون العرجيون الحسنيون.

13) الصقليون الحسينيون من آل أحمد بن علي بن عيسى، ولهم فرع بمراكش هم ذرية مصطفى بن عبد القادر ابن عمه محمد بن التهامي الحسيني، وقد انتقلا معا إلى وجدة وبها خلفهم يقول ابن الأعرج ص 33 مطبوع مخطوط 46. وهم غير الصقليين المعروفين بفاس بل ابناء عمومتهم.

14) أولاد بن دحوهم من الحموديين الأدارسة أول قادم منهم الفقيه أحمد بن دحو وابن عمه الحبيب بن الصادق

15) المراحيون أولادهم في تازة.

16) أولاد بن الأعرج السليمانيون النقباء جدهم محمد ابن يحيى دفين غريس الجزائر والمتوفى عام 925هـ، ومنهم :

17 الفليتيون من ذرية محمد بن عبد الرحمن دفين وادي صا ذريته في اتگافايت

18) المختاريون الأدارسة ترجم لجدهم عبد القادر في عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس. ومنهم محيى الدين بن المصطفى ومنهم:

19) أولاد بوطالب أبناء علي بوطالب وأبناء عمومة المختاريين الذي منهم الأمير عبد القادر . كما تنص على ذلك رسالة التوصية من الأمير عبد القادر الى المولى عبد الرحمن التي أوردها ابن زيدان في الاتحاف.

20) الشبانيون وهم آل محمد بن يخلف تلميذ دحو الحمودي كما في العقد. وهم غير الشبانات الصنهاجيين.

21) الخالديون الحسنيون آل خالد دفين فكرة من بلاد بني عامر.

22) النميشيون أول من قدم منهم محمد وصنويه مرزوق وأحمد.

23) الخراجيون الحسنيون آل عبد الله بن خراج دفين بلاد تلاغ أول من قدم منهم محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الخراجي.

24) الورغيون الأدارسة الجوطيون كانوا في غريس ثم قدم كبيرهم عبد القادر بن ركش إلى فاس.

25) المازونيون منهم القائد السابق أبو بكر الناصري المازوني تولى رئاسة الجيش المغربي بتازة

أيام السلطان محمد بن عبد الرحمن وذريته بفاس ومنهم:

26) أولاد الميسوم القلعيون ويعرفون بأولاد المهرير مع نسبهم الي هوارة ومن مستغانم قدم منهم من عرب سويد وصنهاجة وهبرة وأولاد بن معزوز والحشم وبني عامر من زناتة وعرب سليم وزغبة وأولاد بن عيسى المغراويون وأولادبن صابر المغراويون وأولاد معمر آل عفيف الدين المشهور وأولاد الجندوز وجلهم انقرضوا المصدر السابق 35-36 مخ50.

وهناك عائلات سكنت الرباط وتطوان ومراكش مثل أولاد بنونة، وداود، وكاباص "الجباص" وغيرهم.

27) أولاد الولهاصيون وهم البو حميدي من المجاهدين دخلوا المغرب وقت مغادرة الأمير عبد القادر أرض الجزائروكان قبل عاملا من قبل الامير عبد القادر على المنطقة الغربية من الجزائر.

28) أولاد الفقيه العالم عبد الله السقاط سفير الأمير عبد القادر إلى السلطان عبد الرحمن بن هشام كما سبق.

29) ومن تلمسان أولاد بن جنان البارودي كما في الاستقصا جـ 9/71 ط البيضاء1956.

30) أولاد الدبي ويوجدون في الرباط ت 1679.

وأشير هنا إلى أن الدكتور محمد أمطاط قدم أطروحته ليل الدكتوراه باسم "الجزايريون بالمغرب ما بين سنتي 1830-1962. السنة الجامعية 2004-2005 كلية الآداب جامعة محمد الخامس. وهي مهمة جدا تساهم في تحقيق فكرة اتحاد المغرب العربي الكبير كما أشير إلى أنه لم يرد فيها ما أوردت هنا عن العائلات التي استوطنت مدينة فاس.

الأمير عبد القادر بن محيى الدين
بن المصطفى المختاري الإدريسي

الأمير عبد القادر الى جانب الخديوي إسماعيل يضع الاساس...

لما أراد الخديوي اسماعيل أن يحتفل بافتتاح قناة السويس سنة 1864 أبى إلا أن تمثل سوريا الشقيقة في مهرجانه التاريخي العظيم، فكان المغفور له سعيد القوتلي باشا -جد فخامة رئيس الجمهورية السورية- على رأس الوفد السوري الذي شهد الاحتفال. وقد بلغ من حفاوة "اسماعيل" بضيوفه من أبناء القطر الشقيق أن سجل الزيارة بالتقاط صورة له معهم هي التي تراها منشورة هنا، وقد توسطها الخديو والى يمينه سعيد القوتلي باشا والسيد شامل القفقازي، وإلى يساره الأمير عبد القادر الجزائري فالمسيو فرديناند دي ليسبس، بينما جلس كل من السيد الحمزاوي والسيد محمد الميداني..

الجنرال ماكماهون وهو الذي تولى حكم الجزائر 1864 وبعد موت بليسير عين رئيسا للحرب حيث حل محل الجنرال دوريو. ثم تولى رئاسة فرنسا وهو الذي استقبل السفارة المغربية برئاسة الزبدي

الجنرال دوكروا
راجع الاتحاف 169/5

الجنرال لاموريسيير
هو الذي استسلم له الأمير عبد القادر بعد جهاد خمسة عشر عاما

الباب السابع عشر
أخطر المواقف في تاريخ المغرب السياسي ومآسيه
أو المغرب ومقدمات الإستعمار

الفصل السادس والخمسون بعد المائة

المأساة الأولى:

موقعة إيسلي بين نجدة الاندفاع وانقلاب التاريخ

وأخيرا اندفع المولى عبد الرحمن إلى المشاركة في الحرب التي كانت دائرة بغرب الجزائر اندفاعا لم يكن يحصل لو أن السلطان كان مسايرا لحماس الرأي العام المغربي شرقا نحو شعب شقيق مسلم قبل هذه المرحلة، بل وللأحداث التي كانت على مقربة من المغرب وعلى حدوده، بل والتي كان أهل فجيج، ولعمور، وقبائل لهاية وبني يزناتن وما حولها، يشاركون فيها بأنفسهم وأموالهم ومعارفهم في صنع المفرقعات وحفر الخنادق الجوفية التي برع فيها أهل فجيج كما تؤكد مراسلة الأمير عبد القادر إليهم يطلب منهم مساعدته بالخبراء، مما يستدل به على أن صلة الدولة بتلك النواحي التي آنتشرت فيها السيبة كانت ضعيفة، ولم تكن أكثر من علاقة روحية بواسطة مراسلات وعظية، ولو أن السلطان كان على آتصال سياسي وإداري أقوى ولو بأهل فجيج الذين كانوا على علاقة طيبة مع الأمير عبد القادر، لعلم أن ليس فيما سيقدم عليه وقتها أية فائدة، سواء بالنسبة للجزائر التي آنتهت إلى ما آنتهت إليه بقوة الحديد والنار، والتي لم تكن وقتها في حاجة إلى الرجال بقدر ما كانت في حاجة إلى الزاد والسلاح، بل والتي مزقها الطمع وخيانة المفلسين هنا وهناك، بل ولا فيما أقدم عليه السلطان فائدة للمغرب والمغاربة الذين آندفعوا بعاطفة الدين والقربى وهم خائفون وجلون من واقعهم وواقع الجزائر، وما قيل من أن المغرب أقدم على الحرب حتى يوقف تيار المد، فالواقع وقتها أن فرنسا لم تكن قادرة على فعل أكثر مما فعلت، كما أن المغرب لم يكن قادرا على حماية حدوده، وإنما الذي حماه هو الصراع الخفي والظاهر الذي كان بين دول الاستعمار وقتها وداخل فرنسا.

لقد كان قنصل الانجليز هاي قد تقدم وبأمر من بالمرستون وزير خارجية بلاده، بالنصح إلى المغرب وسلطانه المولى عبد الرحمن بتاريخ 1841/2/12م وذلك بعدما حصلت قضية ضرب الجندي المغربي لأحد الرعايا الفرنسيين بالسويرة، في أكتوبر 1840م ثم طالب الفرنسيون إنزال العقاب بكل من الجندي وحاكم المدينة، ولما شاع ذلك تذمر الناس وتزايد آحتمال قيام الحرب بين المغرب وفرنسا، وقتها تدخل الانجليز لاحبا في المغرب وإنما إبعادا به عن المشاكل التي تعرقل مصالحهم التي سيطروا بها على المغرب الذي أصبح وقتها تحت وطأة اليهود الذين جروا عليه الإفلاس بآسم الحمايات، كما حصل في الجزائر زمن الداي حسين، حسبما سبق وكما سنرى بعد.

تطوع الأنجليز بنصيحتهم للسلطان، والتي تحمل في طياتها المكر والخديعة، بل والتي كانت مركزة على عدم تقديم أية مساعدة للأمير عبد القادر "إن الحكومة لبريطانية شعورا منها بالصداقة المخلصة تجاه الإمبراطور؟" ورغبة منها في الإبقاء على الإمبراطور مستقلا وقويا، فإن أفضل قاعدة يمكن أن يسترشد بها في علاقاته مع القوى الأخرى للإبقاء على آستقلاله والحفاظ على السلام تتمثل في الإلتزام بالحرص الشديد على عدم إعطاء أية قوة أجنبية مبررا للشكوى ضده)(1) واسترسل بالمرستون قائلا: "وفي أية مناسبة من هذا النوع، وعندما تواجه المتاعب الامبراطور أو تهدده المخاطر من الخارج، فله أن يعتمد دائما وبكامل الثقة على صداقة إنجلترا، وأن يتأكد بأن الحكومة البريطانية سوف تعينه في كل الأحوال بالنصيحة والمساعي الطيبة"(2).

وفعلا أخذ الفرنسيون يتحرشون بالمغرب في حدوده الشرقية، في شهر أفريل وماي من سنة 1844م وذلك بسبب لجوء الأمير عبد القادر إلى المغرب الذي كان قد دخله في نفمبر من سنة 1843م كلاجئ ناحية الريف وأهله الذين له فيهم لحمة نسب في مدينة تفريست(3) حيث تعززت جهوده بينهم بشكل هاجت معه العواطف، لكن ما كاد المغاربة

---

(1) وهي نفس السياسة التي سلكها خلفه أبرودين الذي صرح بوجوب ترك كل ما يتصل بالأمير عبد القادر من قريب أو من بعيد، راجع تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية ل: ب.ج. روجرز ترجمة د. لبيب رزق ص197، 198 ط1981م.

(2) نفس المصدر.

(3) راجع نسبه في تحفة الزائر 26/923. وفي هذا الكتاب الفصل 153. ص84 من الجزء الثالث...

يتحركون بما فيهم السلطان في شهر شعبان 1260هـ/1844م حتى انتهى الأمر أو كاد، إذ كانت القوات الفرنسية قد استولت على الجزائر كلها تقريبا، فقد ركز «الدوق دومال» قواته شرقا، وأصبح الحاكم المطلق لقسنطينة ونواحيها حتى الحدود التونسية كما توجه الجنرال «بوجو» بكليته مؤمنا الظهر إلى الناحية الغربية، وأصبح القطر الجزائري من الشرق إلى الغرب بين هاتين القوتين، يضاف إلى كل ذلك ما آل إليه أمر بعضهم من ارتماء في أحضان الفرنسيين بحكم التنظيم الإداري الذي نتج عن الحكم المباشر وسياسة الإرهاق، حتى أصبح الأمير مطاردا لامن جماعات الدوابر والزمالة وأهل لمدية قبل الفرنسيين، بل ومن غيرهم أكثر مما هو مطارد من الفرنسيين، وفي هذه الأثناء قامت تحرشات مغربية في الحدود، وذلك في شهر أبريل وماي كما سبق أن أشرنا، قام بها بعض المواطنين المندفعين، فتقدمت فرنسا بإنذار إلى المغرب، ألحت فيه بشدة على إبعاد الجنود المغاربة المرابطين في الحدود ومعاقبة المسؤولين عن الحوادث، بل وتسليم الأمير عبد القادر والقيام بالتحديد النهائي للحدود، ولقد كانت هذه التحركات من الفرنسيين أساسا لا بسبب تحرشات المغاربة المستمرة، بل بسبب تحرك الاسبان الذين ادعوا في أول السنة أن المغاربة اعتدوا على حدود سبتة ثم تدخل قنصل الأنجليز للوساطة في شهر غشت ليتوصل الى الصلح بين الجانبين يوم 1844/9/10م أي بعدما ستعقد معاهدة مغنية، وقد كانت فرنسا تود أن يدخل المغرب في حرب وقتها مع الاسبان حتى يتقدموا شرقا كما كان الاسبانيون يتمنون ذلك حتى يتقدموا شمالا، وما أفاد المغرب حقا في هذه المرحلة إلا ما كان لابريطانيا فيه من مصالح كادت تكون استعمارا اقتصاديا بكل معنى الكلمة، ذلك أن «إدوارد موندهاي» الأب لم يبخل على المولى عبد الرحمن بالنصيحة حين حذره من الوقوع فيما تنصبه الدولتان، وقد كلف نفسه العناء من أجل تقديم تلك النصيحة التي رحل حتى يبلغها الى مدينة مراكش التي حل بها يوم 7/13 من نفس السنة1844، فوجد السلطان قد رحل عنها متوجها إلى الرباط ولما علم بالقنصل أرسل إليه وزيره محمد بن إدريس العمروى الذي تلقى نصيحة القنصل ثم قاده إلى الرباط حيث اجتمع بالسلطان نفسه يوم 1844/9/5م ثم حثه على قبول المطالب الفرنسية التي كانت قد وضعت بأسلوب الغالب بعد الحرب في موقعة وادي إيسلي، ثم أزال من وهم السلطان ما

كان قد آعتقده من أن بريطانيا ستدافع عنه مقابل مصالحها إن هو دخل في حرب مع الدولتين أو إحداهما، وهو ماكان السلطان قد آقتنع به حسب ظنه أو بالأحرى ما توهمه من خلال تدخلات حاكم جبل طارق السير "روبرت ويلسون" حسب ظن هاي الذي كتب في شأنه بذلك إلى سفير بريطانيا بمدريد هنري بولويز، بتاريخ 1844/6/4م ليبلغ الحاكم المذكور أنه منزعج بشدة من التدخلات غير المسؤولة التي يقوم بها الحاكم المذكور، فتلقى هذا الأخير ملاحظة بذلك من وزارة المستعمرات، ولما عاد «هاي» إلى طنجة وجد قوات فرنسية قد قصفت المدينة ثم دمرتها بسبب عدم قبول المغرب الإنذار 6/12 السابق ذكره كما آحتلت السويرة في اليوم التالي بعدما دمرتها بالقصف، ووقتها آضطر السلطان وكما أشرنا أن يساير التيار الداعي إلى نصرة الجزائر ومحاربة الفرنسيين فبعدما وجه آبن عمه المامون بن الشريف إلى وجدة، ومعه آبن الجناوي أحد أعيان الرباط، وذلك في كتائب من الجيش توقف التيار حتى يتم الاستعداد.

آستنفر السلطان للجهاد فتجمع نحو الثلاثين ألف من المغاربة(4) وجهوا بقيادة ولي العهد محمد بن عبد الرحمن لم يتجاوز سنه الثانية والعشرين وإذا كان خليفة لوالده فإن وزيره كان هو الطيب بوعشرين الذي لم يكن له عليه سلطان. وإذا كان للأمير تجاوب مع عواطف الشعب فإنه آندفع هو الآخر بطريقة عشوائية أمام قوات الفرنسيين البالغ عددها ستة الاف جندي يقودهم الجنرال "بوجو" الذي احتل وجدة بعد الإنذار بأسبوع أي يوم 19 يونيه، ورغم نصيحة الأمير عبد القادر نفسه للمغاربة قبل المعركة، بعدم الإقدام على ما هم عليه من فوضى وتخلف، خصوصا وأن قوات الفرنسيين مجهزة ومنظمة أحسن تنظيم وبيدها أحسن عتاد، لكن المغاربة لم يقبلوا قوله لأنه هو الآخر تعرض لكيد مع المغاربة الذين آنتشرت بينهم وضده كثير من الشائعات، روج لها الفرنسيون وأذنابهم فظن به الظنون، حتى قيل إنه عدو للسلطان وما هو بعدو للسلطان ولا لأحد غير الذين باعوا أنفسهم للشيطان بقليل من فرنكات فرنسا الذهبية المغتصبة من الجزائر والمغرب وهم زعماء الدوائر، والزمالة، الذين أصبحوا ضمن قوات فرنسا وفي

---

(4) أما الجيش النظامي فإنه منذ ما بعد موت السلطان إسماعيل أولا ووقعة ظبيان ثانيا تلك التي خاضها المولى سليمان 1234هـ/1818م بآيت أمالو إنهار نظامه وتمزقت أوصاله ولم يعد له إلا الاسم.

صفوف جندها، وهؤلاء الزمالة والدوابر أصلهم مغاربة كان السلطان إسماعيل قد نقلهم إلى الجزائر يقول "گور" في دائرة المعارف ج9/308-313 ومثلهم في الجانب المغربي فرقة جيش الشراردة الذين سرقوا المال الذي كان هو وسيلة تمويل الجيش المغربي اثناء المعركة كما أورد صاحب الاستقصا 52/9 ولذلك قال لم يهزم المسلمين الا المسلمون.

كانت معركة وادي إيسلي حامية وشديدة العنف بين المغاربة الكثيري العدد بقيادة ولي العهد(5) محمد بن عبد الرحمن، وبين الفرنسيين الذين كان عددهم ستة آلاف، قيل بمثلون 20٪ من الجيوش المغربية بقيادة الجنرال بوجو، ولئن خاضها المغاربة بأجسامهم وليس بعقولهم، بل بسلاح مماثل لما كانوا عليه من تكوين وتدريب هزيل إحتقرهما الفرنسيون كما نبه إلى عدم صلاحيتهما الأمير عبد القادر منذ سنوات،(6) أو بالأحرى قبل المعركة بأربعة عشر عاما، فإن تلك المعركة كانت بداية الإنهيار، بل تلك هي المأساة الأولى للمغرب.

إنجلت المعركة التي فتحت باب الشر على المغرب دون أن يكون لعمل المغاربة وقتها أية فائدة، فقررت فرنسا تقول مصادرها، معاقبة سلطان المغرب بعد هذه المعركة التي عرفت بـ "موقعة إيسلي" أحد روافد تافنا، وهو الواقع في الحدود شرقا بين المغرب والأتراك، والتي تمت يوم 15 شعبان 1260هـ/14-8-1844م، بل تقول الرواية، إن الجنرال بوجو وبنشوة الانتصار كان يريد الزحف إلى مدينتي تازة وفاس لولا تدخل الأنجليز حيث إتهم "روبير بيل" فرنسا بأنها تريد ضم المغرب، ورفض كل التأكيدات التي قدمها "غيزو" وأعلن "أبرودين" وزير الخارجية البريطانية للقائم بالأعمال الفرنسي "إني أريد إيجاد صعوبات لمسيو غيزو، ولكن كن متأكدا أن احتلال فرنسا النهائي لنقطة ما من السلطنة المغربية سيكون حالة حرب"(7).

---

(5) لقد تعرض هذا الأمير الذي سيتولى الملك بعد إلى اللوم بعد الهزيمة - راجع الاتحاف لابن زيدان 363/3.

(6) اختلفت المصادر في تحديد عدد الجيش المغربي الذي شارك في هذه المعركة، وعند بروكلمان 113/4 رفعه إلى ستين ألفا.

(7) راجع سفارة عبد الله السقاط من الأمير عبد القادر إلى سلطان المغرب واستفتاء الأول علماء فاس في شأن الخونة بتاريخ 19 حجة 1252م تحفة الزائر 316-29 وما كانت عليه العلاقة من توادد وتراحم بين =

كان هذا الموقف إستمرارا للصراع المعروف بين الفرنسيين والانجليز في هذه المنطقة، والذي كان من الأنجليز أكثر نحو المغرب بدافع المحافظة على سوق التجارة المرتقب، كما سنرى بعد معاهدتهم مع المغرب 1856م، بل وعلى قاعدتهم بجبل طارق التي لا حياة لها ولا لمصالحهم في المنطقة بدون حياد مدينة طنجة التي هوجمت من طرف الفرنسيين، وهو ما أبداه نلسون من رأي صريح للفرنسيين، بل وكان لابريطانيا ذلك الموقف المتشدد كلاميا مع فرنسا بسبب المغرب، لأنها قبل عززت مطلب فرنسا بانسحاب نائب السلطان الذي كان عينه بتلمسان(8)، وهو علي بن سليمان، كما وأن المغرب لولا ظروف الاسبان وما عرفوه من استبداد وتسلط "سبارتر" وحكمه العسكري لحصلت الحرب بين الدولتين بسبب قتل نائب القنصل العام الاسباني بمدينة الجديدة، لكن موقعة إيسلي جعلت الإسبان ينتظرون، خصوصا وأنهم رأوا موقف الأنجليز، من الفرنسيين، فكيف ولهم في المنطقة سلطان على مدينة سبتة، وسنرى كيف سيكون التقيد بالمعاهدة الانجليزية أكبر معول في هدم المغرب وتحطيم صرح بنيانه، وهي المعاهدة المأساة التي كشفت بريطانيا بها الستار عن المغرب من غير أن تجديه.

كانت فرنسا قد وجهت قواتها البحرية بقيادة الأمير جوان قبل إلى كل من طنجة فقنبلتها قبل يوم المعركة، وذلك يوم 8/6 ثم إلى مدينة السويرة يوم 15منه، بل وتوجه الأمير جوان قيل، بمدافعه لقنبلة أجادير، هذا بالإضافة إلى وباء الطاعون "الكوليرا" الذي حل بالمغرب في نفس المدة، الأمر الذي أرغم السلطان عبد الرحمان وقد كان بمدينة الرباط، حيث التحق به قنصل الانجليز – هاي – على طلب الصلح الذي تم عقده

= المغاربة والجزائريين بل إن الأمير عبد القادر عندما أخذ في تأسيس معامل السلاح بتاكدمت، وغيرها، أرسل إلى أهل فجيج الوادغيريين يطلب منهم إسعافه بالخبراء منهم في حفر الخنادق، ووضع الألغام، وقد وقفت على مراسلته في هذا الموضوع من بين مخلفات قاضي فجيج وكبير علمائها أحمد أمحمد الحسيني الرشيدي، كما وقفت على وثائق يتعهد فيها أهل فجيج زناكة والوادغيريين بالزاد والسلاح لكل من يتطوع للجهاد في سبيل الله من أهل المنطقة والذين آستمر جهادهم فيها بلا آنقطاع الى سنة 1903م كما سنرى، ومثل طلب الأمير عبد القادر لأهل فجيج تقدم به الأمير العباس بن عبد الرحمن لأخيه محمد بن عبد الرحمن أيام حصار سبتة 1276هـ/1860 وذلك في رسالة مؤرخة بـ 26 رجب ورد فيها: "ومولانا يوجه لنا بمقاطع وفؤوس وقوادم وآلة الحفر كلها وعدد كثير من أهل فجيج العارفين بالأنقاب والمينات وغير ذلك.." راجع تاريخ تطوان محمد داود/ف 2 م 224/4.

(8) راجع فصل دولة ناصر الدين قبل من هذا الكتاب.

يوم 1845/3/18م والذي كان صلح قوي مع ضعيف، غير مجرى تاريخ المغرب، ثم عرضه من قريب لأطماع عدو حاقد تضافرت جهوده مع الطامعين من ذوي النفوس الحقيرة الذين اتخذوا من قضية الأمير عبد القادر والجزائر قميص عثمان، بدل أن يتدبروا أسباب الهزيمة ويلتفوا حول السلطان، ثم يساعدوه على الخروج بالبلاد، مما كانت تتردى فيه من مصير على يد حفنة من اليهود جرت الفقر على البلاد والعباد، أصبحوا لا شغل لهم غير البحث عن النجاة بأنفسهم، ولو بواسطة الحمايات التي سيظهر مفعولها وتستفحل أكثر في آخر عهد المولى عبد الرحمن وخلفه محمد بن عبد الرحمن، الذي هو الآخر سيستفيد من تلك المعركة ثم يحاول تكوين الجيش بطريقة جديدة ولو في دائرة نفوذه كخليفة لوالده بمراكش الى أن يتولى الملك فيعمل على التجديد والإصلاح، لكن سيتعرض للإجهاض في عهد خلفه كما سنرى.

في الوقت الذي عاد المغاربة من المعركة بما عادوا به من انهيار نفسي، ثم عاد الفرنسيون متظاهرين بما عرفوا به من غطرسة وغلواء، كان الجزائريون لهم بالمرصاد، وهذه المرة لم يكونوا بقيادة الأمير، بل بقيادة محمد بن عبد الله أبو عزة المعروف تحريفا "ابو معزة"(9) أما في الناحية الشرقية والتي أصبح الجزائري يقاتل فيها أخاه الجزائري تحت راية الاستعمار الفرنسي، فإن بعضهم لم يقتصر على ذلك، بل نسبه الى الأمير عبد القادر الذي كتب أنه يتبرأ من كل الذين يقاتلون ضد فرنسا بإسمه(10) والذي اشتد ساعده عندما ظهرت قوات درقاوة الجنوب أولاد سيدي الشيخ، والجنوب الشرقي بالمغرب بعد بزعامة الشيخ محمد العربي الهاشمي العلوي صاحب قصر كاوز بمدغرة كما سنرى، والذي أذاق الفرنسيين المرارة كلما حاولوا التوغل بجنودهم في كل من إقليم توات ووادي الساورة وگير(11)، كما سنرى بعد في ترجمته كأول زعيم للمقاومة ضد

(9) راجع دائرة المعارف الاسلامية 388/6. ويحيى بوعزيز كفاح الجزائرين خلال الوثائق/ط الجزائر 1986/ص115-130 ومحمد بن عبد الله هذا هو الذي جدد حركة درقاوة التي كان يتزعمها عبد القادر ابن الشريف ضد الاتراك قبل، ومحمد بن عبد الله هو الذي دام صراعه ومقاومته للاستعمار الفرنسي إلى أن توفي كما قيل عام 1876-أو على رأي من قال 1895 بصحراء طرابلس الخ.

(10) راجع مجموع ما نشره المسمى ابن سدرة من رسائل ط حجر سنة 1310هـ.

(11) راجع دائرة المعارف الاسلامية 198/9-203 وقد كان من أتباعه الذين اتصلوا بعد بالذين بعثوا المغاربة من جديد ضد الفرنسيين في كل من غرب الجزائر خصوصا تلك التي قادها أولاد سيدي الشيخ جنوب ناحية =

الاستعمار الفرنسي مما آضطر إدارة الاستعمار الفرنسي بالجزائر إلى أن توجه حملة كبيرة ضد أنصار محمد العربي، وهي الحملة التي قادها "ده مارتمبراي" على بني يزناسن 1859، بل آستمرت الثورات شرقا وغربا، وكان أعنفها ثورة المقراني(12)، 1871م تلك التي عرفت كيف تستغل محنة فرنسا وزوال هيبتها بعدما أذلها وداس كرامتها ثم مرغها بسمارك في الوحل، في الوقت الذي كانت تذيق الجزائريين أنواع الخسف والعذاب.

ومثل ثورة المقراني ثورة الشيخ الحداد وابنه عزيز، وهما من رجال الطائفة الرحمانية، كما قامت ثورات عارمة في بلاد القبائل الكبرى والصغرى، وفي جنوب قسنطينة وبعض مناطق إقليم الجزائر وحوصرت المدن والحصون، ودمرت بعض القرى التي أحدثتها فرنسا للمستوردين، فاضطرت إدارة الاستعمار إلى إرسال النجدات تحت قيادة "سوسييه" و"لالمان" و"سيريز" الذين قادوا أكبر قوة وقتها ضد المقراني الذي واجههم في أكبر معركة بصور الغزلان، عند وادي "سفلت" وفيها استشهد خلفه صنوه أبو مزراق، الذي وقع في الأسر بعد قتال شديد بالرويسات في 1872/1/20م، وبالتالي فإن فرنسا واجهت 200.000 رجل من الثوار، وبلغ عدد المعارك التي خاضوها بقيادة المقراني وخلفه من الأبطال نحو 1340معركه لكن القبائل التي ناصرت ثورة المقراني دفعت الثمن غاليا. فبعدما آنتصر عليها الفرنسيون أذاقوها أنواع النكال بعدما حرموها من كل الحقوق، ثم فرضوا عليها غرامة حربية مالية، وصادروا من أراضيها حوالي 373000 هكتار(13) خصصت للمستعمرين ثم ثورة العمور 1876م والأوراس 1879م وأولاد سيد الشيخ بزعامة بوعمامة 1881م الخ. وكلها كانت من أثر توجيه محمد العربي الدرقاوي العلوي صاحب قصر كاوز، والذي هو صاحب منشور الجهاد من أجل طرد الفرنسيين من الجزائر 1305هـ/1887م كما سنرى والذي لولا موقف السلطان لأمكن للشيخ العربي بفضل ما كان له من سلطان أدبي أن يغير مجرى التاريخ السياسي وقتها كما سنرى.

=وهران لمدة ثلاث سنوات 1864–1867م والتي زودها الشيخ المذكور بأنصاره من بني گيل، وذوي منيع وأولاد جرير، من القبائل المغربية وهم الذين قاد الحملة ضدهم الجنرال «ومفن» الذي توغل حتى وادي گير.

(12) هو من أشراف الجزائر والأغا السابق لمدينة مجانة يقول "يڤر" في دائرة المعارف الاسلامية 389/6.

(13) نفس المصدر ص390–391 وفيها نلاحظ عدد الأوربيين الذي أرتفع إلى 658.567 ملكوا الأراضي واستولوا على الامتيازات التي لم يكن للجزائريين شيء منها– وقد بلغ عددهم سنة 1906م حوالي 5.231.650 نسمة قليل ولا كثير، ثم راجع الحركات الاستقلالية 37.

السلطان سيدي محمد
وهو نجل مولاي عبد الرحمن ووالد مولاي
الحسن توفي بمراكش عام 1276

المولى عبد الرحمن بن هشام

معركة إيسلي غشت 1844

تعليمات من السلطان لرؤساء البحر المجاهدين من أهل سلا والرباط وتطوان ويشخص الظهير الملكي للمولى عبد الرحمن سياسته البحرية وقت إعادته بناء الاسطول وهو بتاريخ 19حجة 1243هـ 2 يوليه1828م كما يعطي صورة صادقة على الأخلاق والسلوك التي من أجلها اختاره المولى سليمان قبل ابنائه.

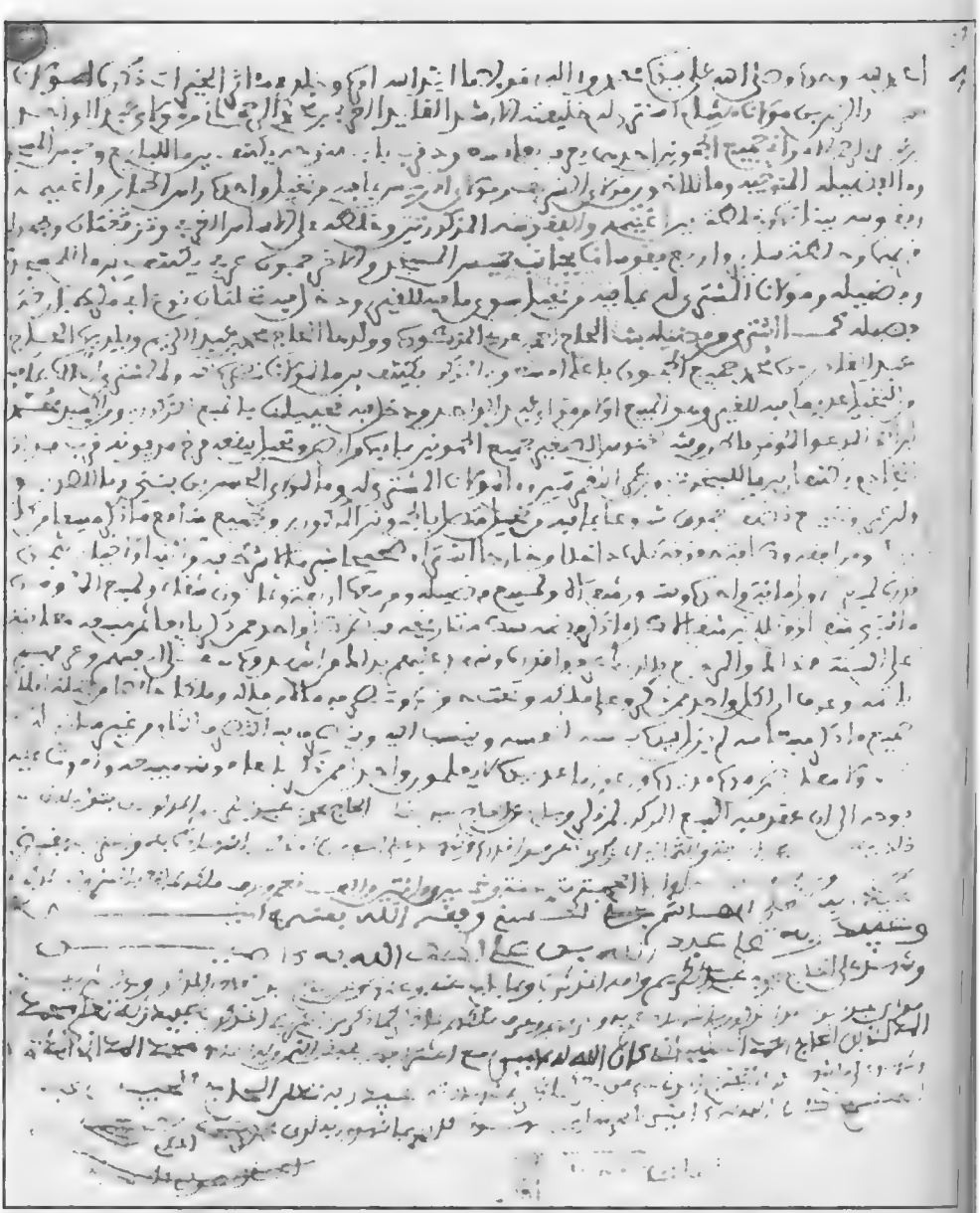

شراء أرض في تافيلالت باسم السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام وهو يمثل كيف كان المولى عبد الرحمن يشتري بعض القطع من الأرض الفلاحية بتافيلالت رغم صغرها وفي هذا دليل على صحة إيمانه وقناعته أنه إنما رشحه عمه المولى سليمان لأداء الواجب الذي أداه أحسن أداء رحمه الله عام 1256هـ1840م.

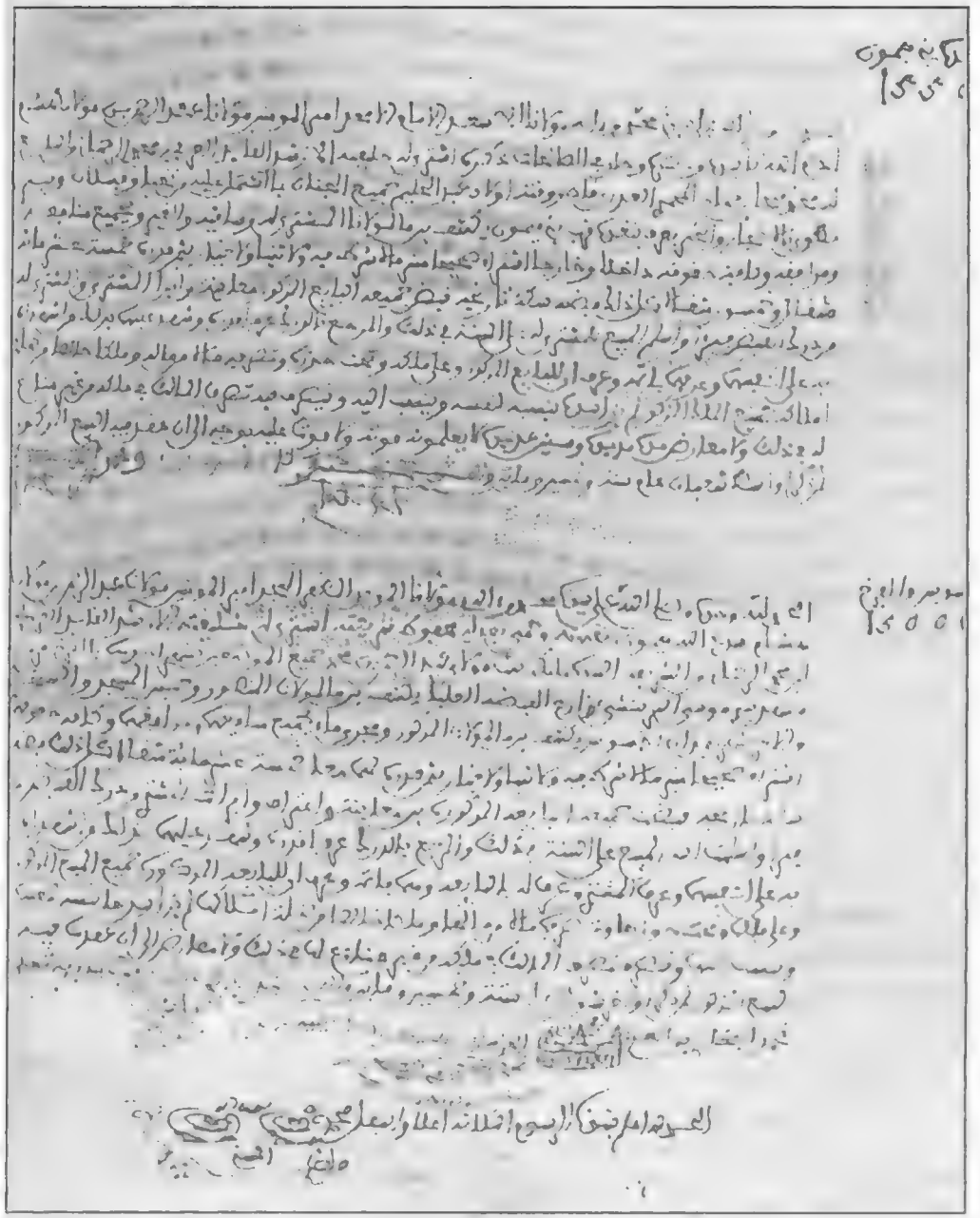

عقد شراء أرض كذلك

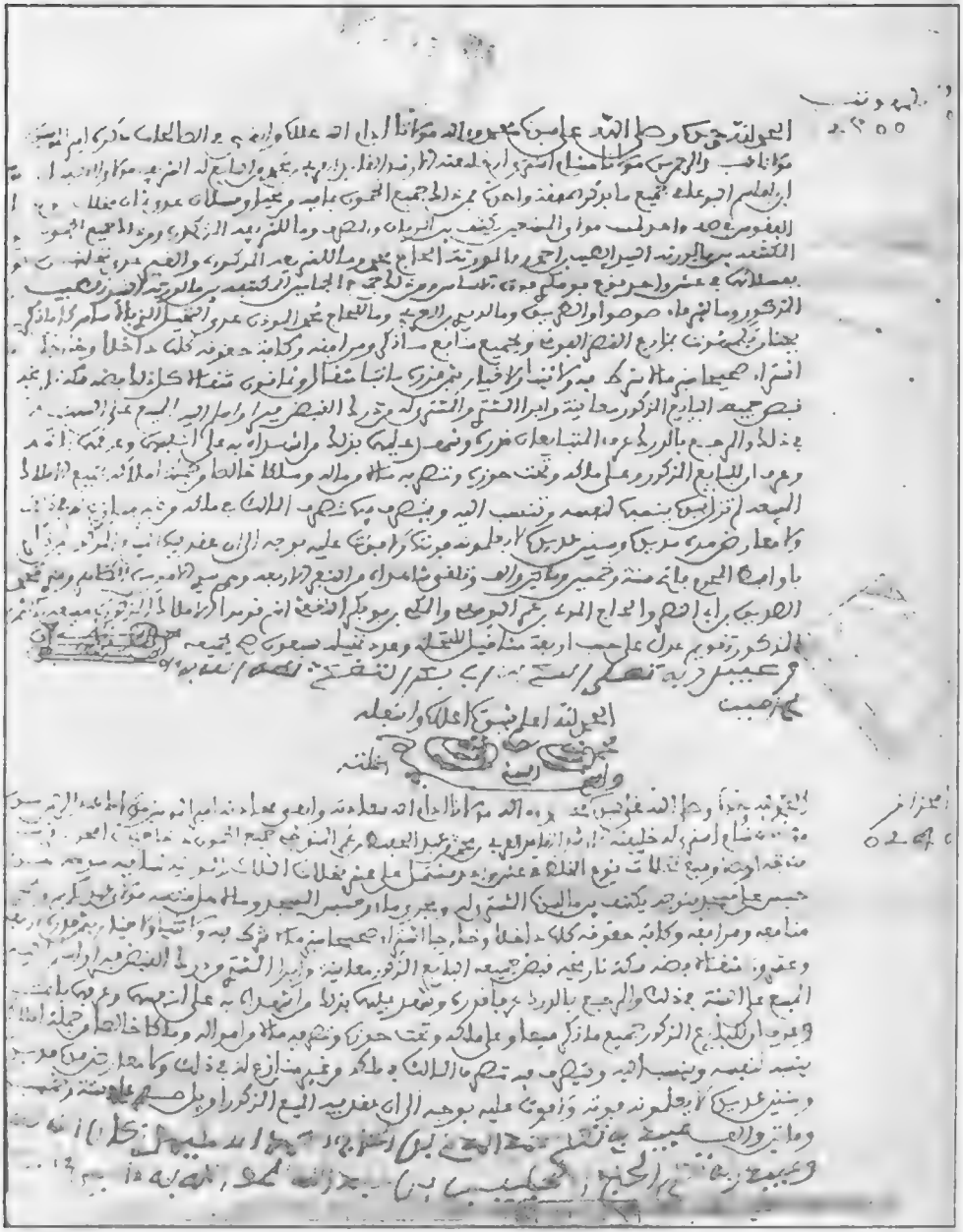

عقد شراء قطعة من أرض في تافيلالت باسم السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام

رسالة من السلطان إلى قاض القضاة بفاس م عبد الهادي والد القاضي
م إدريس بن عبد الهادي حول آيت عطا قبيلة عربية تبربرت، وفيها استمرار سياسة المولى سليمان في عهد المولى عبد الرحمن 1248هـ1832م

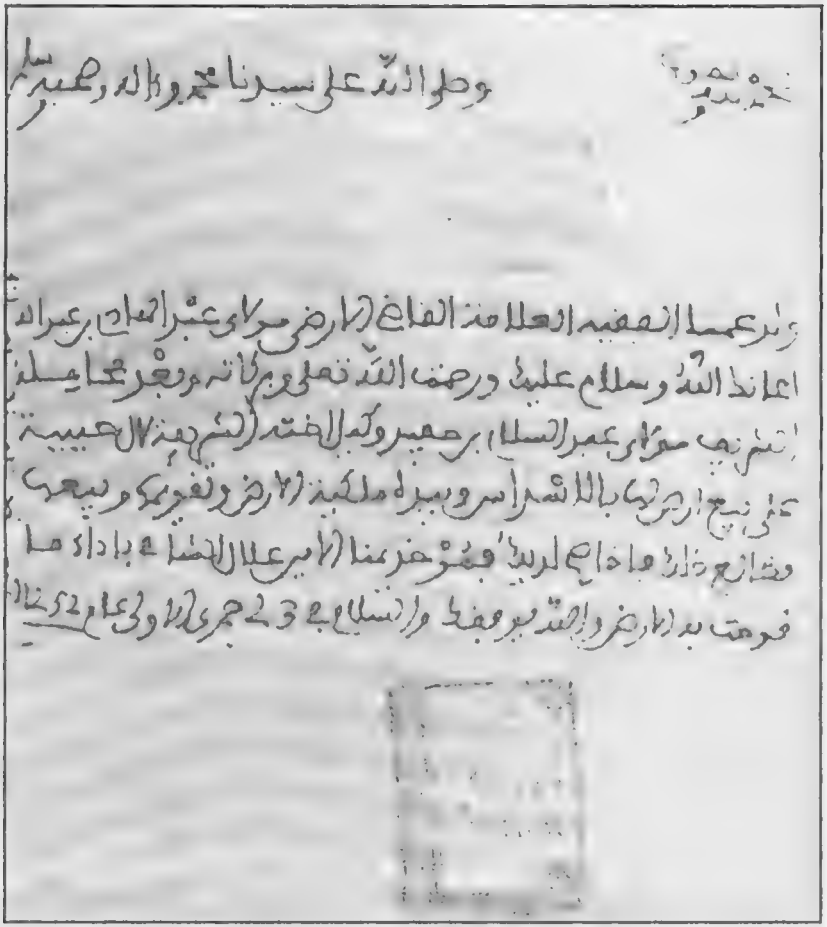

من المولى عبد الرحمن بن هشام إلى القاضي المولى عبد الهادي بن عبد الله العلوي الشاكري قاضي الجماعة بفاس تنص على شراء السلطان لأرض من إحدى الشريفات بتافيلالت أرض بالأسداس عام 1252هـ1836م.

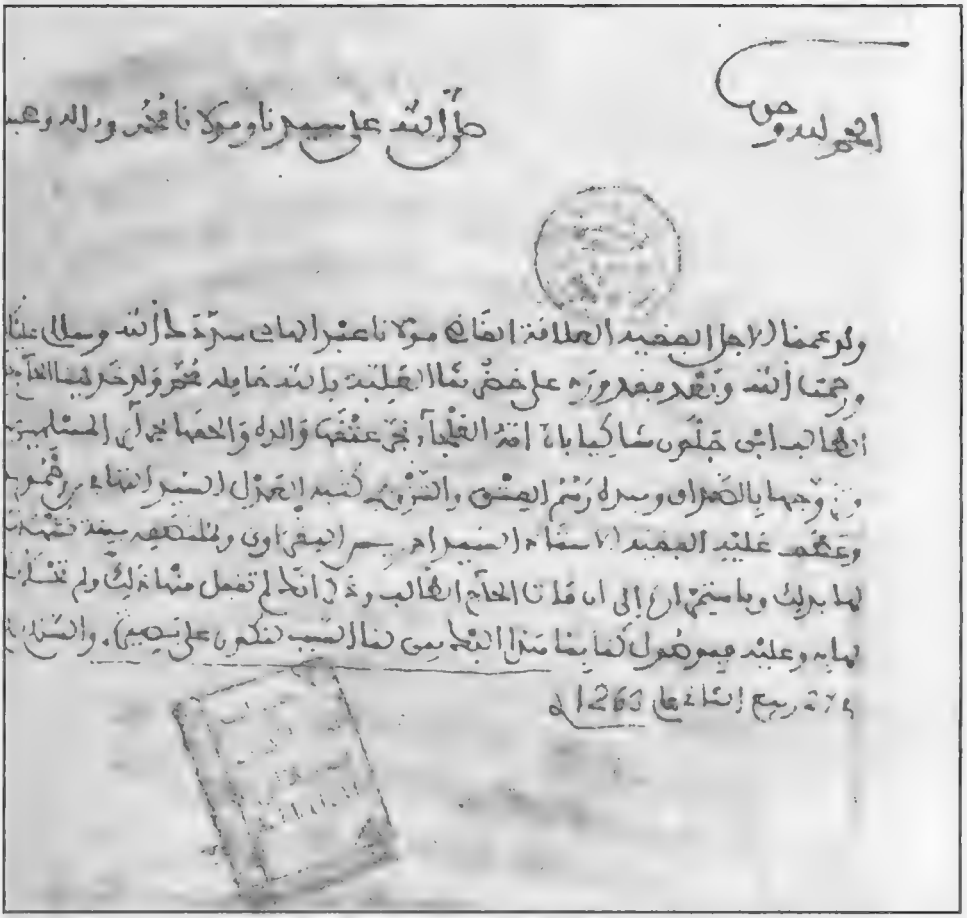

رسالة ملكية يرجع تاريخها إلى القرن الماضي19 وهي من السلطان عبد الرحمن بن هشام إلى قاضي الجماعة بفاس عبد الهادي بن عبد الله العلوي وفيها من اعراف المجتمع ونظمه: ما بقي في المجتمع الفاسي إلى عهد قريب. "العلماء"– "العتق"– "حرائر المسلمين" أما ما ورد حول نظام الدولة فإنه عبارة عن مسطرة القانون المدني، والأحوال شخصية،

وكذا سلطة القانون العليا فوق الملك والتي اعتبرها الملك كل الاعتبار بقوله: بعد بيان الحجج" وذكر أنك لم تقبل منها ذلك ولم تحكم به وعليه فبوصوله بين لنا السبب لنكون على بصيرة" كما يلاحظ التواضع والخلق الكريم في المخاطبة.

وصف رحلة المولى عبد الرحمن بن هشام إلى الشمال بعد بيعته وهي من وصف الشيخ الجيلاني بن المجذوب وهو وصف شبه مفصل

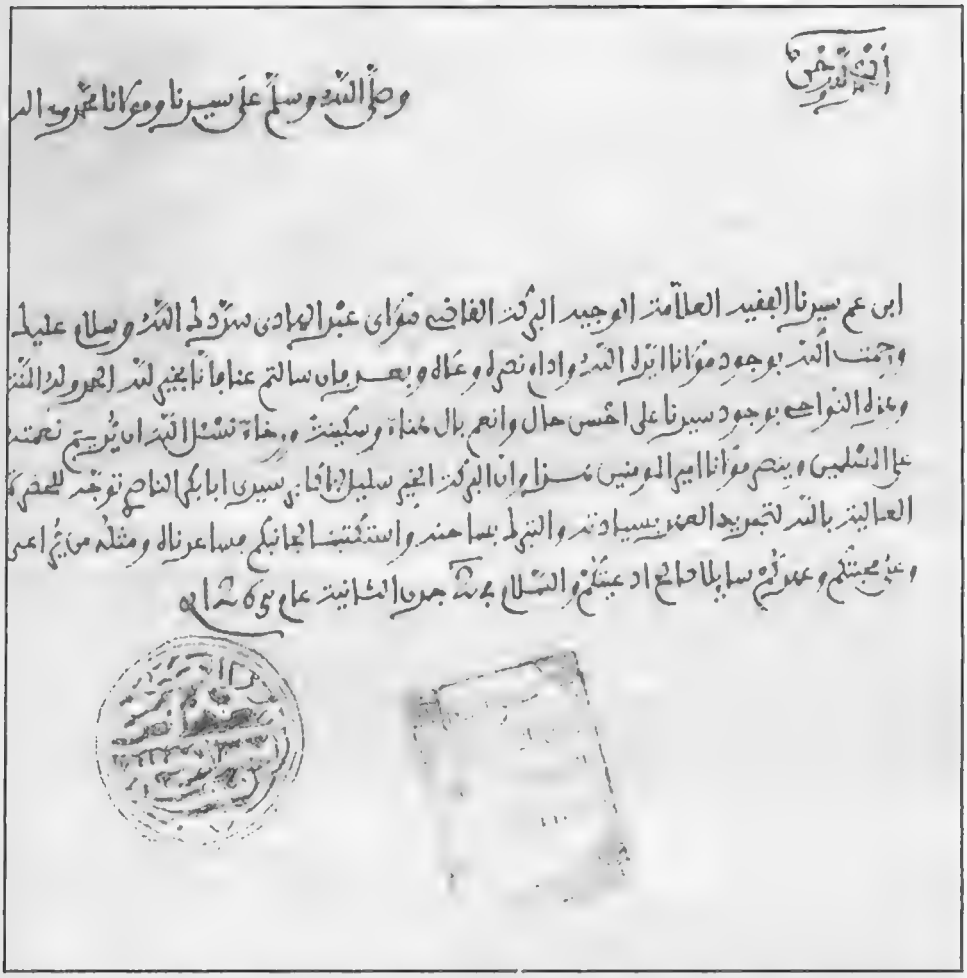

رسالة توصية من المولى محمد بن عبد الرحمن أيام خلافته لوالده بمدينة مراكش إلى القاضي عبد الهادي بن عبد الله العلوي قاضي القضاة بفاس في شأن أحد الناصريين أهل تامجروت وفيها ترى كيف كان الملوك أنفسهم يعترفون بذوي الأصول العريقة "سليل الاكابر" ولايجهل التاريخ ان الذي تجند لنشر السنة في وادي درعة والجنوب الغربي هو الشيخ احمد ابن ناصر رحمه الله.

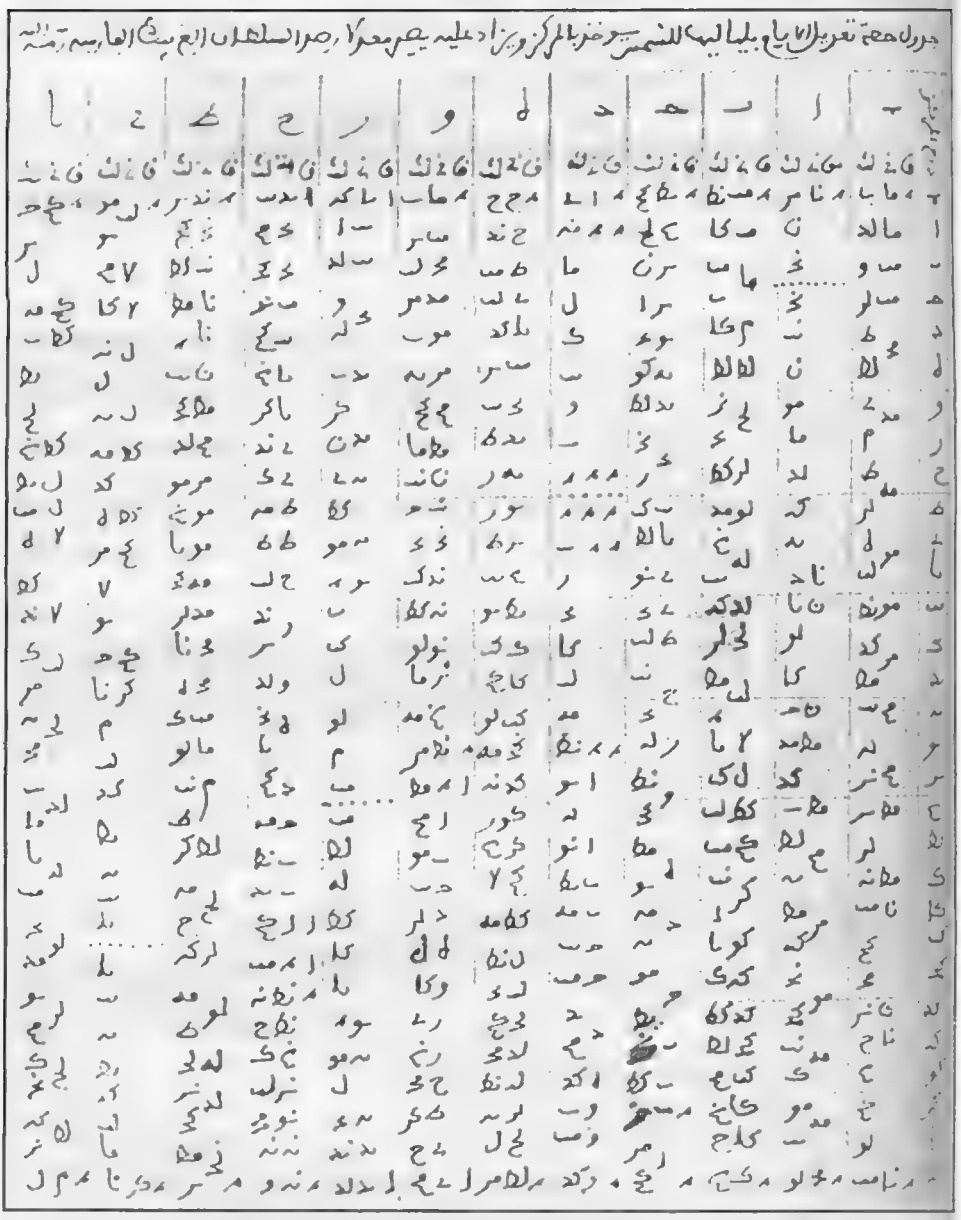

أيضا من عمل السلطان محمد بن عبد الرحمن أيام خلافته

الفصل السابع والخمسون بعد المائة

المأساة الثانية: المغرب والاختيار الرهيب

لقد رأينا كيف وجد المغرب الرسمي نفسه تحت ضغط الظروف المحيطة وحماس المواطنين شرقا وغربا، مرغما على المشاركة الفعلية في الحرب ضد الفرنسيين رغم التهديدات العنيفة من هؤلاء، ورغم "التحذير" من الأنجليز، وقد رأينا كيف كانت نتيجة الحرب جد خطيرة على المغرب وعلى مستقبل المغاربة الذين وكأنهم أستدرجوا لذلك المصير المحزن والأليم، بالنسبة لهم وللجزائر معا، إذ لم تكن نتائج موقعة إيسلي وهزيمتها بالنسبة للجزائر غير خسارة جرت عليها إعتراف المغرب صاغرا بالوجود الفرنسي، وبالنسبة للمغرب الذي أنكشف وتعرى قصدا ولم يعد أمامه غير الوقوف متفرجا على تمكن الاستعمار الفرنسي في قلب المغرب العربي، ريثما يصله دوره وهو لا يستطيع أن يتحرك رسميا.

لقد أستسلم المغرب لجلاده وكأنه أختار ذلك المصير، حين قبل الشروط التي وضعتها فرنسا للصلح الذي طلبه السلطان عبد الرحمن وهوجاث على ركبتيه، تلك الشروط التي بلغت النهاية في القسوة القاسية والعنف العنيف، والتي لا تقبل إلا من مهزوم مرهوب ومذهول أمام الاختيار الرهيب، وما يشاهد من أنقلاب التاريخ بتلك الفجائية التي لم يدرك أن من أسبابها ما آلت إليه الدولة التي حطمتها حروب أبناء السلطانين اسماعيل ومحمد بن عبد الله وهشمها ما اندس فيها من سماسرة اليهود الذين أحرزوا على الثقة في كل ركن من أركانها..

لقد حصلت مفاوضة حول الشروط بين الدولتين، ناب فيها عن المغرب، عامل طنجة بوسلهام بن علي أزطوط العرائشي، وهو مرتش فاحت رائحة ما تبخر عليه من فقد نوازنه، ثم عضوية باشا طنجة وقتها بنعبو، محمد بن عبد الملك الريفي.

وعن فرنسا: أنطوان ماري، دانييل دوري، ديكازيز دوق كلوكسيرج، وقنصل فرنسا وقتها، وهودوشاسطو(14) والمستشار فلوروا، والملحق بها ليون روش، وإذا ما عرضت الشروط تحت ظلال الرماح والتهديدات بتقدم الاحتلال يرددها العسكريون فإن المفاوض المغربي الذي كان خائر القوى لم يفكر في شيء قبل طلب إيقاف القتال الذي أجيب إليه ثم قدمت له الشروط التي أقدم على توقيعها مكرها بدون تدبر يوم 25 شعبان 1260هـ/ 10-12-1844م. أما الشروط التي حصل عليها المفاوض الفرنسي فهي كما يلي(15): ويظهر منها أنها وضعت من طرف الفرنسيين دون أن يبدي المغاربة أي رأي في التعديل ولو ما يجرح الكرامة منها، إلا ما كان من السلطان الذي تذمر وتذمر بدون جدوى وإليك نصها:

أ) إن الفرق العسكرية الكثيرة من الجيش المغربي النازلة على حدود الجزائر والتي في نواحي وجدة، تحل ويسرح جنودها في الحال؟

ب) يعاقب الذين كانوا السبب في الخصومات التي آرتكبها المغاربة في أرض الجزائر؟!.

ج) يلتزم سلطان المغرب بعدم إعانة أحد من رعيتها الذين يقومون علينا وأن لا يعين أحدا من أعدائنا في "بلدنا"، كما يلتزم بعدم مساعدة أحد من رعاياه لأي من رعيتنا بأي سلاح أو آلة من آلات الحرب(16).

د) ينفى الأمير عبد القادر من أرض المغرب، أو يحجر عليه فيها وأن لا يعطيه السلطان بعد ذلك مددا من رعيته، ولا مالا أو ذخيرة؟

هـ) تحديد الحدود الفاصلة بين المغرب والجزائر على أساس ما كانت عليه بين المغاربة والأتراك»؟.

ومما يظهر بلاهة المفاوض المغربي بل غباؤه أن الفرنسيين بيتوا على الغدر من أول وهلة حين ضموا مغنية مع قولهم تبقى الحدود على ما كانت عليه بين المغاربة والاتراك.

---

(14) راجع الاتحاف لابن زيدان 5/162-65.

(15) إن المؤرخ المغربي ليخجل من ترجمة ذلك النص الذي أورده ابن زيدان؟! من نصه الأصلي كما يقول.

(16) أي خزي بعد هذا: "رعيتنا".. في بلدنا" ويظهر من ترجمة النص والتي أوردها ابن زيدان أن الترجمة تحمل لهجة يهود المغرب المحلية.

تقول جل المصادر إن هذه الهزيمة وما نتج عنها من آختيار رهيب فرضته معاهدة مغنية بشروطها المهينة والتي كانت بداية الانهيار والشلل الذي لم يعرف المغرب منه شفاء إلى أن فرضت الحماية كقناع للاستعمار، لكن الذي يحز في النفس أكثر هو ما يبديه بعضهم من رأي متطرف ضد السلطان التقي النقي عبد الرحمن بن هشام، الذي لا يجهل التاريخ أنه حسب طويته السليمة واجتهاده الصادق، شارك الشعب الجزائري في محنته، بل زوده بما آستطاع، ثم طلب من الأمير عبد القادر وكما أشرنا الإلتزام بالهدنة الأولى وأرسل له السلاح والخيل مع السفير الجزائري عبد الله السقاط، لكن ما آلت إليه بلاده وهو المسؤول الأول فيها جعله أمام التاريخ رغم آنقلابه يتحمل كل المسؤولية، حتى مسؤولية الشروط التي لم يقبلها، وكاد يعلن ذلك لولاما سبق أن آلتزم به حين عين أبو سلهام الغبي، والذي يتحامل على السلطان عبد الرحمن كان عليه قبل أن يفعل أن يتدبر، هل كان في مقدوره فعل شيء، يقبل غير ما ورد في تلك الشروط الظاهر أنها من غالب لا يرحم،بل وبلا حياء يطالب بتعرية الحدود حتى يفعل ما يريد، على مرأى ومسمع من المغلوب، وفي الشرط الثاني يطالب بفرض العقوبة على الذين قاموا بواجبهم، وبأمر من السلطان نفسه، أي بعقاب الذين بقوا على قيد الحياة ولم يقتلوا في موقعة إيسلي من أهل وجدة وبني يزناتن وأنجاد ولعمور، وبني گيل، وفجيج، وتوات، وغيرهم، وأكثر من ذلك وأمر فرض الإرادة على المغرب والمغاربة، وأمرهم بطرد الأمير عبد القادر الإدريسي الحسني من وطنه الأول المغرب، أو الحجر عليه فيه تحت المراقبة، وأن لا يساعد بأي نوع، وهذا ما سيحصل بطريقة مدبرة وبإكراه على هذا الاختيار الرهيب الذي قبله السلطان والأمير، وأقدم عليه أولئك الذين أشرفوا على تطبيق بنود تلك الشروط المذلة التي قيل عنها معاهدة.

وليست هذه فحسب، بل ثمة اتفاق حول الحدود وقع بين الطرفين بتاريخ 4 ربيع الأول1261هـ/ 18-3-1845م وهو يتضمن سبع بنود مهد له الكونت"دولارو" بمراسلتين تنازل فيهما كثيرا ولا نقول تأدب، لأنه بلا شك خبر أحوال المغرب عن قرب، إذ كانت الأولى موجهة إلى السلطان نفسه، وهي مؤرخة بـ "أواسط صفر 1261هـ والثانية موجهة

الى الوزير محمد بن إدريس العمروي وتاريخها يوم الجمعة 12 ربيع الأول 1261هـ(17) وكلا الرسالتين ركز الكونت فيهما على الإثارة ضد الأمير عبد القادر بشكل واضح التأثر، وكأنه يريد القول أن لا تفاهم إلا إذا بذلتم الجهود لا لطرده بل لاضطهاده: "... وسبب الفساد الواقع بين الدولتين، إنما نشأ عن حلول الحاج عبد القادر بقرب الحدود، ولا يخفى أنه أصل كل فساد وعنه ينشأ، وبفساده تنتقض المحبة المعقودة بين الدولتين، وهو الآن نازل في بلدة قلعية وتروهم في ضيافته وإعانته هو وسائر دائرته، وما ذلك إلا من كذبه على القبائل بالتمربيط(18)؟ والجهاد يختلهم به بلا طاقة وفعله هذا كذب محض يزعم أن ليس غيره آمر بالدين والجهاد، ونيته بذلك أن يقيم رعية ويختلس لنفسه القوة ويضرم نار الفتنة بين الجانبين.. فإنا نذكركم أني حين جئت عندكم سابقا منذ ثمان سنين وبذلت جهدي عند سيادتكم، وعند وزيركم الطيب البياز، وبينت لكم كل الفساد الذي سيصدر من الحاج عبد القادر، كنت حذرتكم من بيع السلاح وآلة الحرب لما علمت أنه لابد يطرد عن مملكته لأنه لا يستطيع المقاومة ومن المعلوم أنه لا يلجأ إلا إليكم، وربما جر لنواحيكم البلاء المحيط به، وكل ذلك وقع بإذن الله، فنرجوا من سعادتك العمل بكلامي وتبذل مجهودك في إزالة الحاج عبد القادر، لأنك ألزمت نفسك بذلك بواسطة الشرط الرابع من شروط الصلح الذي انعقد ووافقتم عليه بطابعكم، فالتحريض الذي حرض سلطاننا عليه لأجل الوفاء بهذا الشرط.. لا يثبت الخير بوجود الحاج عبد القادر بمجاورة الحدود..."(19) وإذا كان موضوع الرسالتين واحدا فإن الذي ركز لهما ومكن للقصد منهما هو ما قام به القنصل العام للأنجليز هاي، وهو الدور الذي سنتعرف عليه بعد.

كانت الاتفاقية المبرمة حول الحدود، والتي ناب فيها عن المغرب حميدة الشجعي، وعن فرنسا الكونت دولارو، واضحة التحايل ليس فيها غموض رغم الدس الذي حاول

---

(17) أوردهما إبن زيدان في الاتحاف 5/169-174. ط الرباط 1933.

(18) التعبير باللهجة اليهودية ويعني آدعاء الصلاح لأن كلمة مرابط في المغرب تطلق على كل من ينهج نهج الخير العام. سواء المرابط في مكان معلوم من اجل الجهاد أو يرجع أصلا إلى ذوي المروءة والخير والاصلاح.

(19) من الرسالة الموجهة إلى محمد بن إدريس العمروي الاتحاف 5/170-71.

الفرنسيون دسه، ومع ذلك سنرى أنها لم تجف ولم يغادر الأمير عبد القادر أرض ابائه وأجداده مبعدا بعد جهاد، حتى أخذ الفرنسيون في الإعتداء عليها، ولولا جهاد رجال الشيخ محمد العربي الهاشمي العلوي، صاحب قصر كاوز بمدغرة، ونضال مريده أبي عمامة من آل سيدي الشيخ البكريين لما طال زمن تقدمهم في تلك المناطق من أرض توات إلى سنة 1908م حين استقروا ببوذنيب قبل عقد الحماية مع المغرب بأربع سنوات.

أما نص الاتفاق حول الحدود التي تركت بعد ما فعلوا فيها ما فعلوا، كوسيلة لعدم الوفاق بين الشعبين المسلمين العربيين الشقيقين، والتي وقعت في شهر يونيو 1845م فهي كما يلي من غير أن نتدخل لإصلاح ما ورد فيها من ألفاظ غير سليمة وإن كانت تؤدي المعنى المقصود:

أ) اتفق الوكيلان على إبقاء الحدود بين إيالتي المغرب والجزائر كما كانت سابقا بين ملوك الترك، وملوك المغرب السابقين، بحيث لا يتعدى أحد حدود الآخر، ولا يحدث بناء في الحدود ولا تمييزا بالحجارة بل تبقى كما كانت قبل استيلاء الفرانصيص، على مملكة الجزائر(20).

ب) عين الوكيلان الحدود بالأماكن التي في ممر الحدادة وتراضيا عليها بحيث أنها صارت واضحة معلومة كالخيط، فما كان غربي الخط يعني الحد فلإيالة مملكة المغرب، وما كان شرقي الخط فلإيالة مملكة المشرق.

ج) ذكر مبدإ الحدود والأماكن التي تمر عليها الحدادة، فمبدؤها ملتقى وادي عجرود مع البحر، وأصعد مع الوادي إلى أن تبلغ المشرع المسمى كيس، وسر كذلك مع الوادي إلى أن تبلغ رأس العيون الكائنة بحجر الكديات الثلاث، المسمات مناصب كيس، وهذه الكديات الثلاث داخلة في الحد الشرقي، وسر من رأس العيون مع الحمار إلى أن تبلغ ذراع الدوم، واهبط إلى الوطا المسمى الأعوج، وسر كذلك وحوشى سيدي عياد كالقابل لك، غير أن الحوش بنفسه يبقى داخل الجهة الشرقية نحو الخمسمائة ذراع، وسر كذلك إلى جوف البارود الكائن بوادي بونعيم، ومنه إلى كركور سيدي حمزة، ومنه إلى زوج

(20) أوليس هذا إعتراف صريح أن الجزائر كانت مملكة قبل أن يستولى عليها الفرنسيون، أي وإن كانت ولاية تابعة لآل عثمان فإنها كانت تتوفر على مكونات الدولة.

البغال، وسر منه مسايرا لبلد الطلح الى سيد الزهار المعلوم للعمالة الشرقية(21)، ومن سر مع الطريق الجادة إلي عين تقبالت التي هي بين الداورة والزبوجتين المسماتين بالتويمات المعروفتين لإيالة المملكة المغربية، واصعد من عين تقبالت مع واد روبان إلى رأس العصفور، وسر كذلك مع الكاف، واترك شرقا قبة سيدي عبد الله بن محمد الحمليلي، وغرب مع ثنية المشاميش، وسر كذلك غير مشرق وغير مغرب إلى أن تبلغ قبة سيدي عيسى الكائنة يمنتهى طرفي ميسون والقبة وحرمها داخلان في إيالة المملكة الشرقية وسر مستقبلا من القبة المذكورة الى أن تبلغ كدية الدباغ وهي تمام حد التل ومنها سر مستقبلا إلى أن تبلغ خنيف اللحدا، ومنه الى ثنية الساسي المعلومة لإيالة المملكتين، والحدادة المذكورة من البحر إلى الصحراء من تمامها ذكر الأرض الملاصقة للحدود شرقا.

أما ذكر القبائل النازلة بها فأول الأرض والقبائل، أرض بني منكوش، وأعطية الذين هم لإيالة المغرب، ومنزلهم أرض إيالة المشرق، وسبب نزولهم واقعة وقعت بينهم وبين إخوانهم الغرابة، فانهزموا والتجأوا الى المنازل التي هي سكناهم الآن ولا زالوا يتصرفون في المنازل المذكورة بالكراء من مالك إيالة المملكة الشرقية الى الآن وحتى الآن لكن تكرم وتبرع النائب عن سلطان الفرنصيص على نائب سلطان المغرب، بالوظيفة التي تؤديها هاتان القبيلتان لسلطان العمالة الشرقية، فلا يطالبون بقليل ولا كثير، ولا جليل ولا خطير، رغبة في الائتلاف، وإبقاء للمحبة وجلبا للمودة بين الفريقين، مدة الخير والصلح والمهادنة من النائب المتبرع المذكور على السيد النائب عن سلطان المغرب المسطور.«؟»

ثم يجاور تراب الفرقتين المذكورتين تراب مسيردة، والأعشاش، وأولاد ملوك وبني بوسعيد، وبني سنوس، وأولاد أنهار، فهذه القبائل الستة من جملة عمالة الجزائر، وكذلك ذكر الأرض الملاصقة الحدود غربا، وذكر القبائل النازلة فيها، فأول الأرض، والقبائل أرض أولاد منصور أهل طريفة وبني يزناتن، والمزاوير، وأولاد أحمد بن إبراهيم، وأولاد

(21) في الأصل مكتوبة "للاعملة الشرقية" وهو خطأ مطبعي واضح يقصد "للعمالة".

العباس، وأولاد علي بن طلحة، وأولاد عزوز، وبني بوحمدون، وبني حمليل، وبني مطهر، اهل رأس العين، وهؤلاء القبائل ومنازلهم لعمالة المغرب.

د) إن أهل الصحراء لاحد فيها بين الجانبين لكونها لاتحرث وإنما هي رعي فقط لعرب الإيالتين التي تنزل فيها وتنتفع بخصبها ومائها، ولكلا السلطانين التصرف في رعيته بما شاء، من غير معارض إن إمتازت؟ وإلا فمن أراد إحداث أمر في رعيته حالة اختلاطها برعية غيره فليكف عن غير رعيته ويحدث في رعيته مايشاء، فالأعراب الغربية هم المهاية، وبني گيل، وأولاد سيدي الشيخ الغرابة، وعمور الصحراء وحميان الجنبة(22) والاعراب الشرقية هم: أولاد سيدي الشيخ الشراقة وكافة حميان من غير الجنبة.

هـ) في تعيين قصور المملكتين في الصحراء، فعلى المملكتين اتباع الطريق السابقة وتوفير أهل هذه القصور رعيا لجانب المقاومين؟ أما قصور فجيج وقصرييش فلعمالة المغرب، وأما العين الصفراء وصفيصفة وعقلة، وتيوت، وشلالة، والأبيض، وبوسمغون فللعمالة الشرقية.

---

(22) قبائل حميان الجنبة هي: 1- قبيلة أولاد سرور ولمكاي: ناحية العين الصفراء 2 - لغياثرة: أولاد حمو وأولاد مسعود 3- لمغاولية 4- أولاد أمبارك 5- بني عقبة منها: قبائل أولاد تومي والفراهدة 6 - أولاد «سيدي» احمد الجنوب 7- أولاد سيدي التاج. أولاد سيدي بوبكر الصديق، بوادي الناموس) وقبائل لعمور هي: 1- أولاد عامر 2- أولاد عليان 3- أولاد سليمان 4- أولاد عبد الله 5- أولاد الشحيمي 6- لمرينات 7- أولاد قطيب 8- قبيلة لمذابيح 9- قبيلة الشوارب، وبالمنطقة كذلك الشرفاء العلويون أولاد المولى عبد المالك بن السلطان المولى إسماعيل في تيوت على بعد 16 كم من العين الصفراء، وكذا الشلال والبيض وبوسمغون، وكلها أصلا من المغرب قبل الاحتلال الفرنسي، ورغم اللجج والتعديل الذي أدخل على الاتفاق بعد تبادل المراسلات والسفارات، فقد بقي مضمونها لم يتغير، وبذلك سجل التاريخ أن المخزن وقتها سلطان وحكومة كانوا وكأنهم الا يعرفون حدود المغرب وما حولها من قبائل مغربية، أو لربما كان السبب في التجاهل هو ما أعمى به الفرنسيون حاشية المخزن من هدايا كما سنرى بعد، بل رغم تنازل المعاهدة على حقوق تلك القبائل ومغربتها فإنها دافعت بدخولها في حرب ضد الفرنسيين الذين لم تقبل سلطتهم رغم قوة الحديد والنار التي استعملها الجنرال: وكاڤينياك» المسعورة بتاريخ 1847/4/21. وكررها كثيرون غيره أمثال الجنرال «بليسير» 1849م ودوكلوب، وغيرهم من الذين بدأوا الحملات العسكرية التي ستستمر لولا قيام أهل تافيلات باسم الجهاد ضد الغزو: لأمكن لفرنسا أن تحتل لكثير من الاراضي داخل المغرب الكبير»، ومهم يكن فإن هذه المعاهدة، وما جرت علي المغرب شرقا، راجع بعد باب «المقاومة وأبطالها في المغرب الضعيف كانت السبب في الكثير من المتاعب والمشاكل، وحين تنبه السلطان طالب بتعيين الحدود مرات متعددة سواء بالاتصال بفرنسا أو عن طريق المؤتمرات التي انعقدت دوليا من أجل المغرب وعلاقته بغيره من الدول، فكانت المطالب من أجل تعيين الحدود وتحديدها في سنوات 1877-1884-1885-1891 بل إن فرنسا جندت كل إمكاناتها عسكريا وإعلاميا حتى تجند الرأي العام الأوربي عموما والفرنسي لغزو المغرب كما سنرى.

و) إن الأرض التي هي قبلة الفريقين في الصحراء لآماء فيها فلا تحتاج للتحديد لكونها أرض فلاة»؟

ز) إن جميع من التجأ من رعية الفريقين إلى الآخر فلا يرده من التجأ إليه لموضعه حيث أراد البقاء بملتجئه، وإلا فمن أراد الرجوع لموضعه فلا يتعرض له عامل ولاغيره، وحيث عزم على البقاء فيبقى تحت حكم عامل المكان الملتجأ إليه، ويكون آمنا في نفسه، وماله، احتراما من السلطانين بعضهما بعضا، وهذا الشرط لاتدخل فيه القبائل الذين؟ عمالتهم مبينة في الشرط أعلاه، وغير خفي أن الحاج عبد القادر ومن في حزبه غير داخل في هذا الشرط، لأن دخوله فيه موجب لبطلان الشرط الرابع في مكتوب الصلح المنبرم 10 شتنبر 1844م فإن العمل والوفاء به من أهم الأمور الموجبة لنفوذ كلمة السلطانين، وتصحيح المحبة وإبقاء المودة بين الدولتين والألفة بين الجانبين، فبعد المطلوب من السلطانين الرضى بما ذكر أعلاه والوفاء به، ولابد من كتب نسختين لتقييد الشروط المذكورة فتطبع نسخة منهما بطابع سلطان الفرنسيس ويأخذها سيادة سلطان المغرب، وتطبع نسخة أخرى بطابع سلطان المغرب ويأخذها سيادة سلطان «الفرانسيس» وتبادل النسختين إنما يكون في طنجة عن قريب إن شاء الله، بعد أن يضع كل واحد من النائبين المذكورين خط يديه وخاتمه في كل نسخة من النسختين، وذلك بقرب الحدود بتاريخ 4 ربيع الأول 1261هـ الموافق 1845/3/18م، والله يصلح الحال والمآل» وأسفله خط بيد النائب الفرنسي الجلينار الكونت دولارو، وأسفله خط يد النائب المغربي السيد حميدة بن علي(23) الشجعي عامل وجدة»، وقد انتهى إلى السجن هو ورفيقه أحمد لخضر بتهمة الارتشاء والتفريط، بل خيانة الوطن وبيع الضمير.

هذه الاتفاقية المقبورة بلا شك بين وثائق وزارة الخارجية الفرنسية والتي انتهت النسخة المغربية منها إلى يد ابن زيدان، لم تجف حتى تعرضت للغدر، بحيث نهج الفرنسيون ومن أول وهلة طريقا معاكسا لما ورد فيها، ذلك أنهم أقروا فيها بالمحافظة على الحدود التي كانت بين الدولتين المغربية والتركية، والتي قسمتها المعاهدة إلى ثلاثة أقسام هي :

---

(23) الإتحاف 5/166-169، هذا ولله الأمر من قبل ومن بعد..

أ) وادي كيس ومصبه بالبحر إلى ثنية الساسى، مرحلة مرحلة حوالي 150 كم انقطع للمغرب منها الكثير ثم أضيف للجزائر.

ب) ومن هذه الثنية إلى تخوم الصحراء عبر فجيج، وقد أضيفت قبائل وقرى كذلك إلى الإيالة الشرقية.

ج) امتداد الحدود إلى الأرض الغير المعمورة، دون ذكر ولا تحديد، مفتوحة للاستغلال من الطرفين إلخ، وإذا ما ورد التأكيد في الاتفاق على احترام تعهد الطرفين، فإن فرنسا من أول وهلة وقبل أن تستقر في شرق الجزائر وهي تعمل جادة للسطو على الأطراف بدعوى عدم تحديدها بالإسم رغم وجود المغاربة بها مثل توات(24) التي احتوت على ثلاثمائة قصر فيهم الكثير من العلويين البلغيثيين والحرونيين، بل إن مانصت عليه المادة الرابعة من الاتفاقية من حق المطاردة داخل الحدود بالنسبة للذين لم تحدد حالتهم، فإن الفرنسيين رغم عدم المبرر وجدوها فرصة أمام ما أصبحت الدولة في المغرب تنحدر إليه من ضعف وعدم قدرة على الحراسة المشددة للحدود الطويلة، التي كانت تخترقها كل يوم، متعللة بالرعايا المتواجدين في الصحراء الغير المحددة، وما كان عليه أهلها من أوضاع قبل، وحتى رد الفعل الذي يقوم به الشعب الذي كان في استطاعته لوترك دون اضطهاد من طرف الحكومة المغربية لأمكنه إيقاف الفرنسيين دون أن يهجموا على قصور توات، وقد فعل ممثلا في جهاد اتباع الشيخ محمد العربي الهاشمي صاحب قصر كازو، الذي كان يوجه خمسمائة مقاتل من رجاله يرابطون دوما ناحية الحدود الشرقية منذ 1861م. كما سنرى بعدما بذله عظيم المجاهدين ب المولى أحمد بن لحسن السبعي الذي كتب الفرنسيون عنه الكثير.

صحيح إن الحدود الفاصلة بين المغرب والجزائر لم يقع حولها نزاع في عهد

---

(24) هي : قصور تبلكورت 14 وطملين 6 وشروين 2 وكورارة 11 وأولاد سعيد 10 وتيميمون وكورت 6 والضانفسة 6 ودلدل 13 والدغامشة 15 وتيبت 10 وبودة 13 وتيمي 32 وتمنطيط 3 وبوفاد 4 وفنغيل 14 وتمست 12 وأولاد سيدي حمو بن الحاج 15 ورسامي 3 وزجمى 11 وركان 6 وتيديكلت 13 وقبلي 4 وتيط قصبة الشرفا، وينغر 4 والعمادة 2 وعين صالح 11 والغنانمة بوادي الساورة 23 راجع تقييد ما اشتمل عليه اقليم توات ط الرباط 1962 ثم وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية بالرباط ووزارة الخارجية المغربية، ومديرية الوثائق الملكية. وكلها عليها طابع خزانة عبد الكريم الفيلالي.

الأتراك لما بين الدولتين من روابط الدين، ولذلك لم تكن مدققة ولالها علامات غير ما تعارفت عليه بعدما وضعوا شروط الاتفاق كما أرادوا، وبعدما خربوا الذمم بالهدايا كما أشار دولارو،(25) ورجالات القنصلية الفرنسية بطنجة.

لقد كانت معاهدة مغنية بداية إذلال المغرب الذي كشفه أهله الذين وقعوا فريسة الطمع والشره وفساد الأخلاق، وتلك كلها صفات تمثلت في الحكومة التي فضحها الأوربيون الرحالة والسياسيون، بل إن تلك الاتفاقية لم تمنع بعض العسكريين الفرنسيين عندما علم السلطان منها ومن الذين تفاوضوا حولها من المغاربة، أن يقول وهو الجنرال بوجو: إنه يجب أن تتقدم فرنسا فتبتلع بيش وفجيج، بل ووجدة، حتى وادي ملوية، ومع ذلك حاول السلطان وبكل شدة أن يلغى من الاتفاقية ما يتعلق بالأماكن التي لم تحدد، والقبائل التي لم تذكر، والواحات التي لم توضح بالنص على ذكرها، إلا أنه لم يستطع، وبقي الموضوع معلقا فيما يرجع إلى الأرض التي قيل عنها لا تزرع، بل يقول بعضهم إنه لولا تدخل الأنجليز ووقوفهم بجدية من أجل مصالحهم بالمغرب، لكانت الشروط أكثر شدة وعنفا مما ذكر،وهذا ما جلب "الشكر والذكر" الجميل من السلطان للقنصل الأنجليزي العام - جون إدوارد درموندهاي "وان هذه الشروط التي سميت صلحا قيل أرغمت عليها فرنسا بسبب تهديد أبرودين وزير خارجية الاتجليز الذي صرح به لممثل فرنسا كما أشرنا قبل. لقد كانت فرنسا تهدف تحقيق مكسب آخر بالإكراه زيادة على التوسع على حساب المغرب شرقا، ذلك هو فتح المغرب، أمام التجارة الفرنسية ومزاحمة التجارة الأنجليزية التي كانت صاحبة الامتياز في المغرب وقتها، وهذ مادفع الأنجليز إلى النهديد اللفظي والاتفاق العملي على نهج الخطة التي تحقق مصلحة الطرفين، وهكذا يمكننا القول أن الفرنسيين خسروا جانبا من مقصدهم بالضغط والدفع للإكراه على الإختيار الرهيب.

ومهما يكن ورغم ما قيل حول المولى عبد الرحمن مما يعتبر ليس بعيدا عن الحق

---

(25) وقد أتحفنا هما - يعني أحمد الشجعي وأحمد بن الخضر - والخطاب موجه للوزير محمد بن إدريس بهدية نفسية تليق بالوفود كما سنعاين جميع ذلك في مكتوب السلطان» راجع الاتحاف 173/5 وإن كان الكشف عن هذه الهدايا في نظر بعضهم لا يعني الرشوة لأن المغرب اعتاد أهله قبول ذلك.

والواقع والصدق(26) فإن هذا السلطان بالنسبة لقضية الجزائر لم يبخل على رائدها الأول ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين، فقد أيده بالمال والرجال والسلاح، كما يعترف بذلك صاحب تحفة الزائد نفسه، وأخيرا قدم على الحرب ضد الفرنسيين وهو يعلم أنهم أحسن تنظيما وأقوى سلاحا، وما فعل حين فعل، ثم قدم ولي عهده إلا وهو صادق الإيمان قوي العزم مؤمن بواجب وقوف المسلم إلى جانب أخيه، وحين انتهى الأمر إلى ماانتهى إليه من انهزام لارجاء بعده، وانهال النقد على السلطان حتى من المقربين، بل وتعرضت المدن الساحلية طنجة والسويرة للقصف، وقامت الثورات هنا وهناك، في زعيرو الشاوية، وفي الجنوب الشرقي، بل وحتى لا يفقد المغرب أكثر مما فقد بسبب تصلبه في مساندة الأمير عبد القادر الذي تخلى عنه بالتزام أكره عليه بمقتضى البندين الثاني والثالث من الاتفاقية الأولى، ناهيك وأن معارك الأمير عبد القادر تحولت إلى شمال المغرب الذي التجأ إليه، وهو يريد أن يخوضها معه المغاربة الذين نقموا على السلطان ما حصل من انهزام المغاربة بقيادة ولي عهده في إيسلي، بعدما أصبح في غير مقدور الجزائريين الإلتحاف بأميرهم، ولطالما ردد أنصار الأمير من المغاربة أنه : لو عمل برأيه قبل المعركة التي وصف قائدها وهو ولي العهد بقوله إنه في الطريق إلى النزهة وليس إلى المعركة، لأنه أو لربما من حوله أحاطوه بالابهة وبالمظلة الشمسية التي كانت تميزه من بين آلاف المقاتلين حتى إن الذي يريد القضاء عليه كان في إمكانه ذلك بكل سهولة، ولربما لم يفعل الفرنسيون ذلك عن قصد واكتفوا بما ألحقوه بمن حوله، ولئن كان ذلك هو رأي الأمير عبد القادر وأنصاره في الوضع، وفي السلطان وولي عهده، فإن الانجليز قد سجلوا ذلك في تاريخ علاقاتهم بالمغرب وقتها، ومنه نستدل على الموقف الحرج الذي كان السلطان قد تردى فيه بسبب ذلك، والذي كان له ما يبرره من عصيان الوداية وتمردهم، مما شوش على السلطان. لقد كتب قنصل الأنجليز هاي إلى وزير خارجية بلاده الذي كان قد أشار عليه أن يؤكد على السلطان أن من مصلحته طرد الأمير عبد القادر، خصوصا بعدما عاد هذا الأخير إلى قتال الفرنسيين بعد معركة إيسلي، وحملت الأنباء قتاله من أرض الريف

(26) راجع فواصل الجمان لغريط ص : 67.68 ط 1347 فاس.

يوم 1845/10/9م فأمر أبرودين، قنصل بلاده أن يتوجه إلى البلاد ليبلغ السلطان ما سبق، وقد ورد في كتابه ما يلي «من الضروري أن يفهم الإمبراطور وأن يعلم بأنه إذا لم يكن بإمكانه طرد عبد القادر فإن الحكومة الفرنسية تملك هذا الحق، وسوف تستخدمه قطعا، وقد شرح هاي في مراسلته للوزير المذكور بتاريخ 1845/10/20 الموقف الحرج الذي يواجه السلطان بشأن الأمير عبد القادر، وأشار إلى أن الزعيم الجزائري كان منافسا مخيفا للسلطان في تأثيره على الشعب المغربي، وهودس مكشوف واستطرد القنصل العام بأنه إذ ما عارض السلطان الفرنسيين فلن يتمكن من تجنب الحرب معهم، وإذا ما عارض عبد القادر فسوف تنشب حرب أهلية تطيح بجلالته عن عرشه(27) وفي كتاب آخر بتاريخ 1846/8/31م من نفس القنصل للورد بالمرستون الذي عاد إلى وزارة الخارجية يبلغه بوجود عصبة قوية في فاس تعمل على خلع المولى عبد الرحمن، وإحلال عبد القادر على العرش محله، وطلب هاي التعليمات لمواجهة الموقف وقد جاءته الرسالة التي بعث بها بالمرستون إليه في تاريخ 1847/5/18م وكان نصها «أبلغكم أن لابريطانيا العظمى مصلحة قوية في الإبقاء على المغرب كدولة مستقلة، غير أن الحكومة البريطانية غير مستعدة للتدخل في الصراع بين عبد القادر والامبراطور الحالي حول السيادة على المغرب، ومن ثم فعليكم وحتى صدور تعليمات أخرى أن تمتنعوا عن الاشتراك بشكل مباشر أو غير مباشر في هذا الصراع»(28) إن بالمرستون لم يقف عند هذا الحد من عدم الوقوف بجانب المغرب في محنته مع الفرنسيين الذين كانوا وقتها قد انتهوا معهم إلى تحديد الموقف، بل كان بالمرستون يثبط عزم المغرب حتى بالنسبة لتطاول الأسبان الذين احتلوا جزيرة حجر بادس في يناير 1848م حيث أرسل إلى القنصل يقول له وقتها وحتى لا يثير عليه فرنسا « تعليماتي إليكم إن تنصحوا الحكومة المغربية بقوة ألا تسمح للحكومة الفرنسية بأي مبرر للشكوى، إذ يجب أن يكون واضحا للمغرب أنه لا يملك أية وسائل لمقاومة هجوم يشنه الفرنسيون: سواء من البحر أو من البر»(29) ونسي هذا

(27) راجع تاريخ العلاقات الأنجليزية المغربية حتى عام 1900 لروجرز. ترجمة ديونان رزق ص 204 ط دار الثقافة 1981. مصدر سابق.

(28) نفس المصدر 206.

(29) نفس المصدر 208.

القنصل أنه كان لابريطانيا ممثلة في شخصية وزير خارجيتها ضلع كبير فيما انتهى إليه السلطان بتغريرها إياه حتى كان يتوهم أنه إذا ما تعرض لأي هجوم من الفرنسيين فإن الأنجليز سيد افعون عنه لا محالة، ونسي السلطان أو لربما لم يكن يعلم أن علاقة الانجليز مع الآخرين شرقا وغربا، ومهما بلغت من القول الجميل والكلام المنمق، لن تخرج عن دائرة الاستغلال الاقتصادي الهادف إلى افقار الشعوب والاثراء على حسابها، وهذا ما عرفه المغرب من الانجليز طيلة العهد الطويل من المعاملات التي انتهت إلى حصولهم في عهد المولى سليمان وخلفه المولى عبد الرحمن على 75٪ من التجارة الخارجية للمغرب، بل كان هذا في الوقت الذي كان المغرب فيه مرتبط بمعاهدات أمن وتجارة مع كل من فرنسا واسبانيا وأمريكا، والسويد، ونابولي، والنرويج، وروسيا القيصرية، وبلجيكا، ذلك لأن بريطانيا بحكم وجودها بالقرب من المغرب في جبل طارق استطاعت أن تلعب دورا خبيثا من أجل مصالحها انخذع له المغرب عاهلا وحكومة حين زعمت أنها مستعدة للدفاع عن شواطئه ضد الفرنسيين الذين ظهرت نواياهم الاستعمارية في المنطقة، ومن أجل ذلك انخذع السلطان عبد الرحمن لما دعاه قنصل الأنجليز العام بالمنطقة إدوارد درموند هاي، إلى عدم التدخل أو مساعدة الأمير عبد القادر حتى لا يعطي لفرنسا فرصة التدخل كما رأينا، بل منذ 1842م حين أصدر السلطان أوامره عام 1258هـ/1842م بمنع المعاهدات التجارية مع الجزائر في الوقت الذي كانت قائمة بينها وبين جبل طارق، وتمر على المغرب عبر منطقة الريف، وإذا هو منع التصدير من فاس إلى الجزائر فإن جماعة من بعض علماء فاس، وجدوا أنفسهم مدفوعين والتجار من خلفهم إلى القيام بحملة لصالح الشعب المسلم في الجزائر طالبين من السلطان إن فعل ذلك نحو الأمير عبد القادر فعليه أن يحرر تلمسان وسيضمها إلى المغرب، وتلك كانت مطالب، الفارين منها إلى مدينة فاس وغيرها من مدن المغرب والذين قام بعضهم بأخطر دور ضد الأمير عبد القادر، وحتى يغطوا خيانتهم أعلنوا بيعتهم للمولى عبد الرحمان الذي اندفع كما رأينا قبل، كما تحرك القنصل هاي للقيام بنفس الدور ضد الأمير عبد القادر حين قام هاي برحلته إلى فاس ليوحي إلى السلطان أنه يجب عليه عدم مساعدة الأمير عبد القادر الذي سدت في وجهه وبأمر السلطان كل

الطرق المغربية الموصلة إلى جبل طارق الذي كان يستورد منه السلاح والذخيرة، وأحيانا من تجار فرنسيين به، لا تهمهم غير الأرباح حين كانوا يصدرون كذلك عن طريق تطوان ومليلية، وبواسطة قبائل الريف، ومع ذلك فقد قامت حركة ضد السلطان لا في فاس فقط، كما أخبر القنصل وزيره، بل وفي طنجة والريف وبني يزناتن وناحية فجيج وغيرها، وكذلك كان بسبب ما أقدم عليه السلطان بوحي من قنصل الأنجليز الذي ورطه حتى انتهى الأمر أخيرا إلى مطاردة الأمير عبد القادر الذي وجه السلطان إليه جيوشه بقيادة ولي عهده محمد، وصنوه أحمد والقائد محمد بن عبد الصادق الريفي، حيث هاجموه في قصبة سلوان(30) وإذا كان السلطان الآمر بالهجوم عليه وقتها فهو الذي كان يساعده بأقصى ما يستطيع بالأمس القريب، مما دفع بالأمير إلى أن يتوجه صوب الجنوب وأين المفر... بل إنه أخيرا وتحت الضغط اضطر إلى أن يستسلم للفرنسيين الذين كانوا يعدونه بحسن المعاملة، وهنا قيل إنه ترك رجاله وجنوده غنيمة للسلطان وانسل هو إلى الفرنسيين فسلم نفسه للجنرال لأموريسيير، والجنرال «كافينياك»، كماسلم سيفه لحاكم الجزائر «الدوق دومال» ابن ملك فرنسا، الذي قدم عليه فرحا إلى جامع الغزوات، حيث تم تسليم الأمير بشروط يوم 15محرم 1263هـ/23ـ 11ـ 1847م وقد كانت الشروط كما يلي :

أ) أن يحمل مع جميع عائلته إلى عكا أو الاسكندرية.

ب) أن لا يتعرضوا لمن يريد السفر معه من الضباط والعساكر.

ج) أن الذي يبقى منهم في الوطن يكون آمنا على نفسه وماله.

ورحم الله بطل المغرب العربي ومقاومه الأول وأديبه المغوار الذي ما سلم ولاودع إلا بعدما ترك أثره في الخالدين وهو القائل:

هذا الذي سبق القضاء به والدهر في الإنسان ذو دول
ما قر في أيدي قوابله حتى أذيق الصاب بالعسل (31)

---

(30) تبعد عن مليلية بحوالي 530م جنوبا، يقع على ضفة نهر سلوان، والذي شيدها هو المولى إسماعيل على ضفته وهي إحدى قصباته للحراسة والأمن في المنطقة. أما الخونة الفارين من تلمسان إلى مدينة فاس وتطوان والذين نشطوا في الدعاية ضد الأمير عبد القادر إلى درجة المطالبة بتحرير تلمسان وضمها إلى المغرب فقد ذكر بعضهم ابن الأعرج السليماني في كتابه : اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، ط الرباط 1971.

(31) إن المؤرخ المغربي ليأسف كل الأسف حين يدون هذه الحقيقة، التي أطلق العنان حولها صاحب تحفة الزائر ص 494 وننسي أن يلاحظ ظروف البلاد وما قام به الأنجليز والفرنسيون وخونة تلمسان ضد الأمير =

لكن ماذا كانت نتيجة التوقف الذي فرض على الأمير عبد القادر ومكنت له الإتفاقية الفرنسية المغربية، خصوصا بالنسبة لفرنسا، قد أفادت منه إنشاء خط حديدي بين وهران وطنجة، وبذلك أصبحت فرنسا في المنطقة عكس ما كانت ترجوه لها بريطانيا التي لعبت على الحبلين، وكان موقفها ظاهر التلاعب أيام الحرب التي دارت قبل بين المغرب وفرنسا، خصوصا عندما توجه الأسطول الفرنسي إلى الموانئ المغربية، ورغم الوعد الأنجليزي الذي قطعه القنصل للسلطان باسم الملكة بعدم حصول عنف من الأسطول الفرنسي مادام السلطان قابل للتفاهم في شأن قضية الأمير عبد القادر، وإذا هو فعل ما فعل حتى انتهى الأمير إلى ما انتهى إليه فإن شيئا من وعد الأنجليز وما حمله القنصل باسم الملكة لم يحصل، بل إن الفرنسيين، وربما قصدا وجهوا أعنف الضربات إلى المغرب حتى يدرك السلطان أن اعتماده على الأنجليز وصداقته لهم حتى مكنهم مما لم يتمكن منه غيرهم، إنما هي ضرب من عدم الدراية وإدراك الحقيقة التي كان على السلطان أن يتفطن لها قبل موقعة إيسلي، وفعلا هذا ما حصل وإن كان الوقت قد فات، حين أدرك السلطان بعد الاتفاقية وفشل جيوش المغرب في الموقعة وما انتهى إليه أمر الجزائر التي أصبحت كلها وبلا منازع خاضعة لفرنسا، ولذلك قرب إليه بعض الفرنسيين الذين أصبحوا يدربون الجيش المغربي الذي جلب له كذلك الأسلحة الجديدة، وعن طريقهم وطريق اليهود الذين كان المولى عبد الرحمان يقدمهم في ميدان التجارة والتمثيل السياسي للمغب وللأجانب المتواجدين في مختلف الموانئ، وذلك قصدا منه بصفتهم مغاربة، حتى يقوموا بالدور الذي لم يكن لغيرهم أن يقوموا به في نظره، بل ما سمح لهم كي يمثلوا قناصل الدول الأجنبية في الموانئ المغربية إلا ليبعد هؤلاء عن

= عبد القادر في المغرب، كما ساندهم الجهل وعدم الوعي السياسي وقتها، حتى بين "العلماء" الذين نجد منهم أمثال أحمد بن المواز صاحب "المقالة المرضية في تاريخ الدولة العلوية خ ع ص20 والذي يقول في معرض الإشادة بالمولى عبد الرحمن، ومن جملة أعماله "تدمير الثائر محي الدين من المغرب" وكأنه يعد ذلك من المحاسن والمكرمات، على أنه ما أقدم وهو التقى النقي إلا تحت ظروف القهر، وبعد استفتاء العلماء وتحقيقا لنظرية "الضرورات". تبيح المحظورات أما ترجمة الأمير عبد القادر ومواقفة الانسانية في الشام وما قام به من جهد وتضحيته من أجل إنقاذ الفرنسيين مما يستدل به على سلوكه الذاتي ومدى اتساع أفقه وترفعه، فقد سجل التاريخ في حقه من المكارم والتسامح مارفع من شأنه وحقر من شأن فرنسا التي عملت كل جهدها لإذلال قومه وشعبه من بعده.

المغاربة، وما يجره توادجهم بين المغاربة والاختلاط بهم من تدخل في الشؤون الداخلية للبلاد، ومن حمايات.

وهناك دخلت كل من فرنسا وبريطانيا في صراع خفي وعنيف، بل وتسابق فيما يرجع للمغرب،(32) وإذا ما اختل الأمن في مجموع المغرب بسبب موقف السلطان من الأمير عبد القادر مما اضطر السلطان معه إلى توجيه الجيوش لمختلف الجهات مما كلف الدولة نفقات لم تكن منتظرة زادت في إرهاقها وتكاليفها بالإضافة إلى القحط الذي عرفته البلاد منذ موقعة إيسلي إلى سنة 1850م وإذا لم يكن أمام السلطان غير وسيلة واحدة للموارد وقتها، وهي الرسوم الجمركية المقررة للتجارة الخارجية وهي أكثر مع الأنجليز فقد أوحى إليه، وربما بتأثير من الفرنسيين الذين أصبح لهم تواجد واتصال في البلاط، أن يزيد في قيمة الرسوم وبالتالي أن يعود إلى سياسة الاحتكار التي قيل إن الذي حاول إقناعه بها أكثر وإرضاء لرغبة الإمساك وحب المال الصفتان اللتان عرف بهما المولى عبد الرحمن عند الأوربيين، هو ولده الأمير عبد الله(33) وكان عبد الله هذا قد حج سنة 1275هـ/1858م وفي ذهابه وإيابه أقام بمصر الأسكندرية زمن محمد علي 1183ـ1266هـ/1769 ـ1849م فترة مكنته من معرفة أحوال جمركها وأسلوب التجارة فيها، وما يدره احتكارها من مداخيل على الدولة الجديدة في مصر وقتها، بل كان قد عمل به باي تونس الذي أفاد منه كذلك وإذا ما اقتنع به المولى عبد الرحمن فإنه لم يعممه بصفة موحدة في مختلف موانئ المغرب بل اختلف من مدينة لأخرى، كما وأن السلطان نفسه استثمر أمواله في التجارة بواسطة بعض الذين احترفوا التجارة وقتها يهود أو مسلمين، وكل الذين عرفوا منهم بذلك في كل من تطوان والسويرة، حصلوا على امتيازات جرت الخسارة على كثير من التجار الأجانب الذين انتهوا إلى إفلاس وليس هذا فحسب، بل كثير من التجار المغاربة وذوي الحرف هم كذلك تعرضوا للإفلاس بسبب التسلط والاحتكار، حيث كسدت بضاعتهم وارتفعت الأسعار وعم الإرتشاء وانحط الاستيراد

---

(32) راجع الإتحاف لابن زيدان 183/5 ـ 184.

(33) كان بقصر أبار تافيلالت، وهو القصر الذي بناه السلطان نفسه وله نظير في اقليم توات، وعن حج هذا الأمير وإخوانه علي وابراهيم وجعفر وابن عمهم أبو بكر بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله راجع الاستقصا ج 9 71ـ78 ط البيضاء 1956.

بانحطاط مكانة جبل طارق، عندما أوقف المغرب تصدير الأصواف والزيوت، فضج الكل بالشكوى بما في ذلك حاكم جبل طارق والشركات التجارية والمصانع التي انعدم استيرادها من المغرب، وهنا عادت فرنسا إلى أسلوب الدس في معاملة الأنجليز الذين تظاهرت بالاتفاق معهم فيما أبدوه من تذكر إزاء الموقف المغربي حتى تحقق خطتها الرامية إلى خلق منطقة تجارية مكثفة في شرق المغرب وشماله عن طريق قبائل حميان، ولهاية، ولعمور، وبني گيل، وتوات، ثم قبائل بني يزناتن والريف ، خصوصا بعد إصدار المرسوم الفرنسي المؤرخ بـ1853/8/11م /1270هـ قصد تنظيم التجارة بين الجزائر وما حولها شرقا وغربا، وماكاد المرسوم يأخذ طريقه حتى تخلت فرنسا عن تأييدها للأنجليز وتذمرها من الاحتكار والدعوة إلى حرية التجارة التي كان الأنجليز يرون فيها خيرا للمغرب الذي كلما ازدهر اقتصاديا امتنع عن فرنسا، وبالعكس كلما اشتدت الأزمات الاقتصادية استطاعت فرنسا وهي على حدود المغرب وقد أصبح لها رجال داخله باسم العمل العسكري، أن تتدخل وتتوغل ، ولم يكن الأنجليز يدركون أن جهودهم من أجل حرية التجارة هي التي ستفتح الباب لكل أوربا الغربية التي ستكون أعمالها غير المشروعة أهم ماتتمكن بها فرنسا في المغرب بعد تونس كما سنرى.

وهكذا لم يستسلم الأمير عبد القادر إلا بعدما كان قد أشهد العالم ثم دون في التاريخ أن عبد القادر بن محيي الدين بن المصطفى الإدريسي الجزائري قد فعل بشرف فرنسا العسكري مالم تفعله قوة ما معاصرة سوى قوة الألمان بـ 1871م بحيث لم يستسلم إلا بعد ما تمرغ شرف فرنسا في الوحل وبعد ما ضاع لها في ميدان القتال من الرجال والعتاد ما يستدل به على ضراوة المعارك التي يستدل على شدتها ما جندت لها من الجنرالات، فقد واجه الشعب الجزائري من الجنرالات الذين ساهموا في تصفية المقاومة وضد الأمير عبد القادر:

الجنرال كلوزيل	الجنرال برتزين	الجنرال دريت درلون
الجنرال تريزيل	الجنرال دي ميشيل	الجنرال بريجو
الجنرال بوجو	الجنرال دم ريمون	الجنرال ڤالا
الجنرال سانت أرنود	الجنرال بيليسييه	
المارشال والدوق نمور	الدوق أوليان...إلخ	
الدوق درويجو	الدوق امال	

هؤلاء وما كان تحت قيادتهم من عشرات ومآت الآلاف من الجنود وضباط الصف هم الذين حاربهم الشعب الجزائري بقيادة الأمير عبد القادر بن محيي الدين بن المصطفى لغريسي الجزائري الإدريسي رحِمه الله. لكن ماذا كان مصير الجزائر والمغرب العربي الكبير بعد النهاية وما آل إليه المصير.

الفصل الثامن والخمسون بعد المائة

المأساة الثالثة

محنة الشعب الجزائري بعد أميره وأثرها في مستقبل المغرب الكبير(34)

رأينا كيف أن الأمير عبد القادر لم يستسلم إلا بعدما استنفد كل الوسائل، وبعدما أصبح من المحتم عليه أن يفعل، بعدما انتهت الأوضاع في الجزائر إلى ما سبق أن عرفناه حربيا وسياسيا، وإلى أن فرنسا قررت قبل سنوات وبحكم الحديد والنار، أن تركز فيها من الفرنسيين ما يقوم عليه التشريع الذي تفننت في صوغه مختلف الطوائف السياسية والعسكرية منذ عهد بولينياك، والذين جاؤوا بعده، وهكذا انتهى حكم الأمير بعد زوال حكم الأتراك الذي دام 347 سنة، وأصبحت الجزائر في نظر الفرنسيين أصحاب ثورة "الحرية"... فرنسية بأمر ملكي فرنسي زعم ملكيتها حين صدر يوم22-7-1834م وقد نص في بنده الأول على تلك الملكية، ثم عدل بقرار 4/3/1848م، والذي نص فيه هو الآخر على أن الجزائر جزء لا يتجزء من التراب الفرنسي، ثم جاء بعد ذلك قرار مجلس الشيوخ في 13-7-1865م الذي نص في بنده الأول على فرنسة المسلم الجزائري، وذلك بعد قرار 7-3-1844م وقانون 20-9-1847م. ثم القرار النهائي في 28-8-1884م.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل في سنة 1846م أصدرت الحكومة الفرنسية قرارا استولت به على كل الأراضي الفضاء في الجزائر، وهي تعلم أن تلك الأراضي مرعى

---

(34) لقد كان استعمار الجزائر سببا في استعمار بقية أقطار المغرب الكبير، وبالمثل ستكون ثورة الجزائر والمغرب الكبير التي أشعلها محمد الخامس بما أقدم عليه يوم 20 غشت 1953 سببا في تحرير بقية أقطاره كذلك، لأن فرنسا ما انصاعت لقبول التفاوض من أجل استقلال المغرب وتونس إلا من أجل التفرغ لسحق الشعب الجزائري كما سنرى ذلك عام 1955، فكان الشعب الجزائري بحق في المستوى كما سنرى ذلك بتفصيل ومن خلال الوثائق.

لماشية القبائل التي تقوم حياتها الاقتصادية على تربية المواشي، لقد كانت خطة فرنسا القضاء ماديا ومعنويا على الذاتية الجزائرية، أما معنويا فإنها لم تستطع رغم كل ما بذلت من جهد وما قام به رجال جيشها من وسائل القتل والقهر والإذلال، وأما ماديا فإن ما قامت به فرنسا في الجزائر يخجل المرء من ذكره والكتابة حوله، ولسوف يبقى عاره عالقا بتاريخها مهما فعلت ومهماحاول المخلفون من عملائها الأغبياء في مغربنا العربي أن يبدلوه أو يطمسوه وقد حاولوا كثيرا بلا خجل ولا وجل بدافع الماضي المشترك بينهم.

لقد فرضت فرنسا على الشعب الجزائري غرامة حرب وعقاب هي : ستة وثلاثون مليونا من الفرنكات 36000.000 ثم صادروا من أرضه مليوني هكتار وخمسمائة ألف2500.000 هكتار استرد بعضها بثمن قدره 50.000.000 من الفرنكات حتى يسلبوا الشعب أمواله، ثم صادروها ثانية، ثم انتزعوا أيضا من المواطنين 296097 هكتار أنشئت فيها 210 من المراكز لفائدة 905 عائلة من الألزاس واللورين والكورس، ثم خصص أيضا لها ولغيرها من الأراضي 370.196 هكتار، ثم2.994.879 هكتار كلها أخذت قهرا، ثم قننت بقانون 26-4-1879م، وهو المعروف بقانون "فارني" ثم قانون 28-4-1887م ، وقانون 6-2-1897م إلخ.

لكن بعد هذا كله هل وجدت فرنسا راحة في الجزائر، بل منذ بداية الاحتلال وهي من ثورة إلى أخرى، ولما انتهى عهد السلاح قامت ثورة الفكر كما سنعرف بعد على يد مجموعة من رجال الفكر السلفي يتقدمهم الشيخ المجاهد عبد الحميد بن باديس ورفيقه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي طال عهد نضاله العظيم وبأسلوبه العلمي الذي تعتز به أقطار المغرب العربي والذي لم يعرف له مثيل بعد شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي الذي رشحه الشيخ محمد البشير كرئيس شرفي لجمعية العلماء الجزائريين، وكذلك الشيخ الطيب العقبي والشيخ العربي التبسي، والشيخ خير الدين، وعباس بن الحاج الحسين، وعبد الرحمان شيبان، ورضى حوحو، وبيوض، هؤلاء باستثناء الشيخ ابن باديس الذين عرفتهم وأفدت منهم في هجرتي سنة 1947-1948 رغم ما حصل من صراع حزبي شبه "مذهبي" تحفظه مذكراتنا المشتركة عبد الحميد مهري وغيره مثل قاسم زيدون رحمه الله والتي لاشك هي كذلك عند بعض رفاق النضال أيام "الجاهلية" الحزبية.

ومهما يكن فإن الشعب الجزائري الذي أعلن الثورة ضد فرنسا واستعمارها يوم

لـ1954م استطاع أن يحقق استقلال بلاده الذي أعلن يوم فاتح يوليوز 1962م، وبذلك ردت الأراضي كما رد للأمير الذي توفي بدمشق سنة 1883م، 1301هـ اعتباره بإنهاء غربة جثمانه رحمه الله، ورحم الذين أقبلوا عليه كرمز للعزة والكرامة والمجد.

لم يكن ما حصل في الجزائر وما عرفه شعبها من إرهاق الفرنسيين واضطهادهم غير أعمال تنذر بالخطر لجموع المغرب العربي الكبير، الذي أصبح هدفا لسياسة الاستعمار وتنافس المستعمرين، كما وأن المغرب الأقصى في العقدين اللاحقين بعد استسلام الأمير عبد القادر، لم يعرف فيها غير التدهور والانهيار اللذين تضافر لصنعها والتمكين لهما كلا من الظروف التي عاشها المغاربة سياسيا واقتصاديا وقتها، وما عرف المغرب من أوبئة وجفاف اشتدت بسببها الأزمات حتى اضطر الناس لأكل الجيفة سنة 1269هـ/1852م هذا بالإضافة إلى ما عرفه المغرب من غزو اقتصادي أوربي من أجل الاستيلاء على ما به من عملة ذهبية وفضية، مقابل التصدير للحبوب التي كانت مراكب الدول تتوجه بها إلى الموانئ المغربية، ومنها سفينتين توجهتا إلى ميناء مدينة سلا محملتين بالحبوب، فارتطمتا قبل الدخول إلى الميناء وغرقتا في الساحل المقابل للمدينة، مما دفع بالمواطنين في المدينة إلى أخذ أخشابهما والتقاط ما شرد منها في البحر، مما لم يعد يصلح لغير أن يكون وقودا، لكن قنصل فرنسا الذي تتربص بلاده بالمغرب اعتبر ذلك اعتداء، حيث تقدم بتقرير ساخن وعنيف إلى عامل المدينة وقتها السيد محمد بن سعيد الصنهاجي(35) الذي رفعه بدوره إلى السلطان مصحوبا برأيه أن المواطنين برءاء مما نسبه إليهم القنصل، الأمر الذي دفع بهذا الأخير إلى أن وجه تقريرا مثيرا إلى حكومته التي كانت في حاجة إلى مثله كي ترسل بأسطولها ليقنبل مدينة سلا بقنابل أصابت الدور ومختلف المرافق حتى المسجد الأعظم ومنارته، ولقد كانت هذه الحادثة وما

(35) كانت له علاقة جد قوية مع المولى عبد الرحمن، وقد وقفت على كثير من الوثائق التي تؤكد ذلك عند حفيده الحاج العربي بن سعيد، كما ضمت خزانتنا كثير من مثل تلك الوثائق التي أنقذناها أيام الطفولة من مسخن حمام القصر الملكي بفاس، والتي كانت في طريقها إلى العدم بفعل النار التي التهمت عشرات الأطنان من مثلها. راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية بالرباط، ومديرية الوثائق الملكية التي يديرها الجاسوس المشهور اللمساني المتفرنس عبد الوهاب بن منصور الذي دفع بعض الموظفين لمحو طابع خزانتي من تلك الوثائق الأمر الذي يبر الطعن في سلامة الوثيقة لكنه وإن فعل لم يتمكن من تحقيق ذلك في مائة ألف وثيقة 100.000.

نتج عنها من أضرار بليغة، الأمر الذي نبه السلطان عبد الرحمان إلى الاهتمام بتلك المدينة التي عرض على أهلها من مداخيل الميناء ما سوروها به، كما جلب لها من المدافع الضخمة ما تدافع به عن نفسها.

وهكذا لم يتوفى المولى عبد الرحمن يوم 29 محرم 1276هـ/1859م إلا والمغرب يعيش في أحط الدرجات التي لم يعرفها تاريخه إطلاقا، سواء في مجال السياسة، كما رأينا أو الاقتصاد الذي تغيرت صادراته وواراداته، بل هزل حجمها حسب معطيات ارتباطه وما جد في حياة الناس الذين صدوا ثانية عن فرنسا بسبب ما عرف لها من كيد وغزو جديدين، وبدافع ما ظهر به الأنجليز وما تجند لنشره اليهود، وكثير من التجار بفاس من طرق جديدة كذلك، ومنها في أحط الدرجات وللتأثير في العامة والخواص على السواء، نشر مادتي السكر والشاي، اللتان أصبح من كمالهما ما أغدقته معامل الرابط بمنشيسطر من أواني فضية، وسانلوي من كؤس البلور، ومن التحف الذهبية التي مكنت لنشوة الشاي بطريقة أصبح رجال الدولة وذوي اليسار يتبارون بالتباهي في اقتنائها، كما أصبحت المعامل ودور الصناعة تنوع في أشكالها وألوانها، وأصبح جبل طارق المركز القريب لاستيرادها من أهم المراكز التجارية وأغناها، والتي وجد اليهود ودهاقنة الاستعمار الأنجليزي فيه ضالتهم كما هي اليوم(36) بالنسبة لرواد خمرة (الويسكي) ومنها كذلك التي قيل إن المغرب الضال في عهد الاستقلال يستهلك منها أكثر من غيره حسب رغبة ذوي الصولة فيه من خصوم الدين والشعب معا والأمر لله، كما وجد تجار تلك البضاعة ضالتهم في طنجة وغيرها من الموانئ، ولعل هذا ما أدى بالأنجليز إلى مصارعة الفرنسيين الذين افتقدوا أبو سلهام بن علي ازطوط، الذي تولى مكانه رجل من أنبل رجالات ذلك العهد هو محمد بن الحاج عبد الله الخطيب وهذا أي بوسلهام الذي

(36) لقد بلغ كلف الانجليز بمدينة جبل طارق التي أدركوا أهميتها الاستراتيجية درجة عالية حتى يمكنوها من الاكتفاء الذاتي ويجعلوا منها مركز استيراد وتصدير إلى حد أنهم أسسوا فيها مرافق عسكرية ذات اعتبار إلى جانب أسواقها التجارية التي جلبت لها من السكان الانجليز والاسبان والمغاربة وغيرهم ما قيل عنه قبل ذلك العهد 16454 نسمة من الانجليز والاسبان والمغاربة واليهود، بل من فرط اهتمامهم بها أنهم أسسوا فيها سنة 1793م مكتبة بلغ عدد كتبها أكثر من عشرين ألف مجلد 20.000 وبلغت صادراتها في هذا العهد عهد المولى عبد الرحمان نحو الثلاثين ألف جنيه 30.800 وورادتها كذلك.

ستسند له مهمة توقيع أخطر اتفاقية مع الإنجليز عام 1856م وهي تلك التي ساهمت في هد كيان المغرب ثم زادته ضعفا على ضعف كما سنرى.

وهكذا لم يكن الصراع بين الفرنسيين والانجليز كما عرف حول الجزائر، بل كان بالطرق الدبلوماسية الهادفة إلى تركيز الاقتصاد، ولذلك نجد الأنجليز يسارعون لاستغلال ظروف المغرب بعد نهاية الحرب في الجزائر، فيعملون وبمختلف الوسائل ومنها الرشوة بين رجال البلاط المغربي لعقد اتفاقية تجارية مكنتهم من القيام بأخطر من الدور الذي قامت به فرنسا في هدم المغرب والقضاء على ما تبقى له بعد موقعة إيسلي، لكن دون أن يقدموا ما قدمه الفرنسيون حسا ومعني من خسارة.

وهكذا فإن الأنجليز اختاروا لظهورهم في الميدان كمصارعين لفرنسا في المغرب، زمنا مناسبا، سواء فيما يرجع لأوضاع المغرب الاقتصادية التي عرفت أزمة حادة قبل الحرب وأثناءها وبعدها، ثم بسبب الحروب الأمنية "زمور" التي عرفها المغرب شرقا وغربا، وبسبب عدم الأمطار من جانب آخر من سنة 1261 ـ1267هـ/1845ـ1850م، وكذلك ما آلت إليه الأوضاع في فرنسا التي عرفت الإنقلاب أو الثورة ثانية في فبراير 1848م حيث قامت الجمهورية الثانية، مما أدى إلى عودة كثير من قواتها المرابطة في الجزائر إلى فرنسا لمواجهة الموقف، ومما أدى كذلك إلى القيام بهجومات من طرف بعض المواطنين على الفرنسيين الذين كانت سفنهم راسية في بعض الموانئ، والتي تضررت هي الأخرى، وكان على السلطان أن يعمل على إصلاحها بل والجدية في إصلاح الجيش الذي ظهرت عيوب تخلفه وسوء تنظيمه في الحروب التي خاضها، والذي لم يجبر كسره بصفة عامة منذ عهد المولى محمد بن عبد الله الذي أذاقه المذلة والهوان، بسبب تصرفاته مع والده ومحاولاته معه كذلك، لكن وكما سنرى فلا محاولة المولى عبد الرحمن، ولا محاولة خلفه الجادة بعد، ستغير من واقع الجيش أو ترفعه من الحفرة التي تردى فيها، بل إن تطعيمه ومحاولة النهوض به بواسطة العناصر المختلفة المذاهب والأجناس، والتي تسلطت عليه من الفرنسيين والأنجليز والألمان والإيطاليين، والذين احتدم الصراع بينهم، وذلك ما قصد المولى محمد بن عبد الرحمن حسب رأيه وسوف يقتدي به ولده المولى الحسن حتى يكون بعضهم ضد الآخر فيضيع ما بينهما وهو الجيش المغربي، وذلك ما حصل وظهرت نتائجه بشكل مذهل في عهد السلطان عبد العزيز بعد موت المولى الحسن الذي ضاعت كل

محاولاته الجادة بعد موت الحاجب الوصي أحمد بن موسى كما سنرى بعد.

أشرنا قبل أن الجزائر التي تحتل مكان القلب من شمال إفريقيا كانت قبل الاعتداء الفرنسي عليها سنة 1827م دولة حرة ذات سيادة، لها حكومتها ولها ملكها الذي كان يدعى (الداي) ولها إدارتها. وكانت للجزائر علاقات دبلوماسية بأهم دول العالم آنذاك كما رأينا قبل «ف147».

أما عن العلاقات الدبلوماسية للجزائر بفرنسا، فإن العقود التي أبرمت بين البلدين والتي أوردناها قبل، قد بلغ تعدادها 57 عقدا دبلوماسيا، خلال المدة التي تبدأ من إبرام أول معاهدة بين الجزائر وفرنسا في 21 مارس1619م، والتي انتهت بالاعتداء الفرنسي سنة 1827م، وكان عدد المبعوثين إلى الجزائر من طرف البلاط الفرنسي ومختلف حكومات باريس قبل 1827م، قد بلغ 96 مبعوثا.(راجع فصل 147 الجزائر شعب ودولة).

وكان بين الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية ثلاث معاهدات صداقة وصلح، عقدت الأولى في 5 سبتمبر 1695م، والثانية في 30 يونيه 1700م والأخيرة في 23 ديسمبر 1710م.

وكانت هولاندا قد أبرمت مع الجزائر معاهدة منذ سنة 1689م.

وفي 22 أبريل 1672م، أمضيت معاهدة صلح بين الجزائر من ناحية وبين هولاندا وانجلترا من ناحية أخرى.

وقد كانت السيادة الجزائرية في سنة 1830م، معترفا بها لدى كافة دول العالم حتى دولة فرنسا نفسها وإلى 14 يونيه 1830م، حين نزلت الجيوش الفرنسية على ساحل سيدي فرج على بعد 20 كيلو مترا غربي عاصمة الجزائر، وفي 5 يوليه 1830م، قبيل دخول الجيوش الفرنسية إلى العاصمة أمضى الجنرال دي بورمون قائد الجيوش الفرنسية العام، باسم فرنسا (معاهدة الجزائر) التي تعهد فيها لسكان المدينة بأمور منها ما يأتي:

"ان تأدية الشعائر الدينية الإسلامية ستبقى حرة. وأن حرية السكان"

"بمختلف طبقاتهم، وديانتهم، وأملاكهم، وتجارتهم، وصناعتهم"

"لاتمس بسوء. وأن نساءهم سيحترمن، وأن القائد العام يتعهد"

"بذلك على الشرف". لكن هل كان لقادة فرنسا وقتها وبعدها شرف.

"تلك هي المعاهدة التي أمضاها دي بورمون والداي حسين والتي كانت تخص تسليم مدينة الجزائر عاصمة المملكة فقط، لا سائر البلاد الجزائرية، والتي كانت بحق

برأسم جنرال كبير يمثل الشرف الفرنسي، بل والتي لوح بها في بؤرة القذارة قبل أن تجف، وذلكم كان هو السلوك الفرنسي الذي عرفه الشعب الجزائري وشعوب المغرب الكبير من الفرنسيين إلى أن أخرجوا أذلاء.

لقد رأينا أن أول عمل اهتم به الأمير عبد القادر هو استرجاع السيادة الجزائرية بإنشاء حكومة وإقامة جيش وتأسيس إدارة، وتلك كانت حكومة دفاع وطني تقيم تارة في مدينة معسكر، وتارة في تاجدمت، وقد امتدت سلطته مدة 15 سنة على كافة الأراضي الجزائرية عدا جهات مدن الجزائر وهران، وعنابة التي كانت تحت احتلال القوات الفرنسية.

وقد رأينا كيف أمضت فرنسا وهي في حالة حرب مع الجزائر معاهدتين بينها وبين الأمير عبد القادر، أولاهما "معاهدة دي ميشيل" في 26 فبراير سنة 1834م، وثانيهما "معاهدة تافنة في 30 مايو سنة 1835م، وأصبَح بين الطرفين بعد هاتين المعاهدتين تمثيل دبلوماسي متبادل، فكان ممثل فرنسا بعد معاهدة دي ميشيل"، يدعي "دازبون"، وممثلها بعد معاهدة التافنة الكابتن "دوماس" وكان يمثل الأمير عبد القادر لدى السلطات الفرنسية وكلاء في مدن وهران ومستغانم والجزائر.

وكان اختيار الأمير من يمثله بمدينة الجزائر قد وقع أولا على قنصل الولايات المتحدة الأمريكية المستر "جرافيني" ثم على إسرائيلي يدعي "ابن دوران".

ولكن السلطات الفرنسية لم توافق لا على الأول ولا على الثاني. لأنها كانت تتمسك بأن لا يمثل الحكومة الجزائرية لديها غير وكلاء مسلمين، فلم ياترى هذا التمييز؟

لقد أجاب وزير الحربية الفرنسي على هذا السؤال في مذكرته إلى المارشال ڤاليه في 10 ديسمبر سنة 1838 حيث قال :

"إننا لا نخشى كثيرا من أن يوصلوا (الجزائريون) لنا ملاحظاتهم"
"بأنفسهم، إذ أن اتصالاتهم بنا على مر الأيام لا يمكن إلا أن تخدم"
"مصالحنا. فنحن إذ نستقبلهم بحفاوة فائقة، بل أن نفرض عليهم أن"
"يقع الاختيار على الخصوص من بين العرب، نملك وسيلة أخرى لدعوة هذا"
"الشعب إلى الثقة، وجعله يتقبل جوارنا، فتحل الاتصالات اليومية محل"
"التخمينات، على حين أن تمثيل الأوربيين أو الإسرائيليين يبقي هذه"
"التخمينات في كل قوتها".؟؟

وانتدب الأمير عبد القادر إلى باريس وفدا يرأسه السيد مولود حراش ويشمل من بين أعضائه الإسرائيلي ابن دوران.

وإذا كانت معاهدة التافنة التي أمضيت في 30 مايو 1835م، آخر عقد دبلوماسي بين الجزائر وفرنسا، فإن مخالفة الفرنسيين لمقتضيات هذه المعاهدة كما ثبت في التاريخ، جعلت نار الحرب توقد من جديد في 20 نوفمبر سنة 1839م، وتستمر حتى 25 ديسمبر من سنة 1848م، وهو تاريخ تسليم الأمير نفسه إلى الفرنسيين، ولكن الحرب في هذه المرة لم تتيمز بأية معاهدة، ولم توقع أية وثيقة دبلوماسية، لا من الأمير عبد القادر باسم الجزائر، ولا من الحكومة الفرنسية، لأن حالة الحرب كانت مستمرة بين البلدين.

وقد واصل الجزائريون الحرب التي بدأها الأمير عبد القادر، فكانت ثورة بلاد القبائل تحت قيادة المقراني، وابن الحداد، وثورة الزعاطشة في الجنوب الجزائري القسنطيني، وثورة أولاد سيدي الشيخ تحت قيادة أبي عمامة في جنوب وهران، وهكذا استمرت حالة الحرب قائمة بين الجزائر وفرنسا من 10 يونيه 1830 إلى نهاية سنة 1881م أي إلى يوم انسحاب القائد أبو عمامة ورجاله المحاربون نحو المغرب الأقصى حيث التحمت ثورتهم بجهاد قبائل الجنوب الشرقي للمغرب بزعامة العالم الفاضل أحمد بن لحسن السبعي الإدريسي الصغروشن صاحب تالسينت رضي الله عنه.

بل إن مقاومة الجزائريين المسلحة التي دامت من سنة 1830م، إلى غاية 1881م،أي نصف قرن لتبين جيدا أن الفرنسيين وجدوا في الجزائر شعبا تطلب منه حبه للحرية والاستقلال تضحيات قاسية قدمها بلا حساب، وكان جهاده أكثر عند ما لم يعد للفرنسيين شغل أكثر من استعمال سياسة الادماج لمحو الذاتية، وكان ذلك في الوقت الذي لا يوجد بين الجزائر وفرنسا معاهدات على غرار المعاهدات التي تربط تونس والمغرب بفرنسا (معاهدة باردو 1881م، ومعاهدة فاس في 1912م،) إذ احتلال فرنسا للجزائر لم يعتمد على أية وثيقة دبلوماسية، بل كانت لا تعتمد إلا على مجموعة من النصوص التي وضعتها فرنسا بمفردها وبدافع سلطان القهر.

لقد جاءت فرنسا إلى الجزائر كدولة غازية وأنها بنت بقاءها بالجزائر على مجرد إلحاق الجزائر بها، وكان هذا الإلحاق يسير جنبا لجنب مع الغزو، وفيما يأتي نظرة إجمالية إلى نصوص القوانين التي قررت هذا الإلحاق الظالم المستبد بنصوص ظالمة كذلك وهي :

*الأمر القانوني المؤرخ 22 يوليه سنة 1834م : يعتبر الجزائر "كممتلكات فرنسية" يعين لها حاكم عسكري تحت سلطة وزير الحربية الفرنسي مباشرة.

* قانون 4 مارس سنة 1847م : "يعلن أن الجزائر جزء مكمل لفرنسا"

* قرار مجلس الشيوخ الفرنسي المؤرخ 14 يوليه سنة 1865م : يجعل من الجزائريين المسلمين "فرنسيين".

* قانون 24 أكتوبر سنة 1880م : يعلن أن الجزائر تتألف من ثلاث مقاطعات فرنسية":

* قانون 29 مارس سنة 1881م : يعين على الجزائر حاكما مدنيا تحت سلطة وزير الداخلية الفرنسي.

* الأمر القانوني المؤرخ 8 مارس سنة 1944م : ينص على أن المسلمين الجزائريين "فرنسيون"ويمنح الجنسية الفرنسية لبضعة آلاف من الجزائريين. وبالتالي فقد كان هناك من التشريع الخاص الذي يسري في الجزائر رغما على الجزائريين الذين لم يعترفوا به قط. وبذلك أصبحت الجزائر وقتها تخضع لنظام سياسي خاص على رأسه حاكم عام له نفوذ إداري وقضائي وعسكري، ويمتد اختصاصه حتى إلى ناحية التشريع بإنابة من رئيس الحكومة الفرنسية.

ويملك حق حل أي جمعية جزائرية، وله أن يعلن حالة الحصار وأن يحكم بالنفي وغيره، وهو الذي يدبر شؤون الميزانية.؟.

ثم جاء القانون التفسيري الذي صوتت عليه الجمعية الوطنية الفرنسية في 20 سبتمبر سنة 1947م، والذي حدد للجزائر نظاما سياسيا خاصا، وهذا القانون (في مادته الثامنة) يبطل مبدئيا النظام الترشيحي السابق الذي كان قد نتج عن قانون 22 يوليه سنة1834م، وأنشأ هذا القانون الجديد الجمعية الجزائرية التي كانت تتألف من 120 عضوا (60 جزائريا و60 فرنسيا)، وهذه الجمعية لاتملك أية سلطة تشريعية، وكل قراراتها موقوف تنفيذها على مصادقة الحكومة الفرنسية عليها، وهي مطالبة بتقرير الميزانية، فإن امتنعت عن تقريرها فهي منحلة من نفسها من غير حق لها في الاعتراض.

لقد ركزت فرنسا كل جهودها في الجزائر على أن تحولها أرضا فرنسية، ولو بقوة الحديد والنار، ولم تقتصر تلك الجهود النارية على العسكريين فقط، بل تبناها القساوسة،

والرهبان، والأدباء والمؤرخون، ورجال الأعمال، كل في اختصاصه ولما لم يستطيعوا ذلك مع الشعب المسلم العربي تحولوا إلى المعالم، فقد كان في مدينة الجزائر وحدها مائة وستة وسبعون مسجدا لم يتركوا منها سوى ثمانية وعشرون، وما لم يحول إلى كنيسة عملت فيه محاول الهدم أو تحول إلى ثكنة لجيش الاحتلال،(37) لكن فات هؤلاء وأولئك أن الإسلام الذي طبع الشعب الجزائري منذ ثلاثة عشر قرنا وقتها لم يترك للفرنسيين مجالا لتحقيق فكرة التحويل التي استعملوا من أجلها وفي سبيلها كل ما سجل التاريخ من ضروب الوحشية والهمجية، مما لم تعرف به الدول القديمة بل ولا عهد التوتون، ولما لم تجديها وسائل القساوة والإرهاق لجأت إلى سياسة التفريق بين العرب والبربر مدعية أن هؤلاء من أصل أوربي، وأن خير وسيلة لحملهم على الفرنسة هي عدم السماح لهم بتعلم العربية، حتى قال قائلهم وهو الأستاذ فكتور بيكة "البربر شعب يظهر عليه الميل من نفسه إلى المدنية الفرنسية، لذلك يجب علينا قبل كل شيء ألا نعربه أكثر مما هو، ولأجل بلوغ هذه الغاية يجب أن يحمل البربر على الثقافة الفرنسية» وحتى يحققوا ما سبق، ضيقوا الخناق على الشعب الجزائري حتى تحولت ملايينه الأربعة والنصف وقتها وكما قال شكيب أرسلان إلى أجراء ومستعبدين لمليون من الفرنسيين الذين اغتصبوا الأرض وأذلوا أهلها.

ولقد أبان الفرنسيون وقتها على غباوة الذين تزعموا منهم ذلك النهج أنهم إنما كانوا يعمقون الهوة ضد الوجود الفرنسي في تلك البلاد، وأن الجزائر مهما طال الزمن ومهما عرف شعبها المسلم العربي من ضروب العسف والإرهاق، لم ولن يتحول عن دينه وعروبته، وإن هو فقد الأرض وكل ما يملك من مقدرات، وكان على الفرنسيين أن يدركوا ذلك كما أدركه العالم المحترم غوستاف لوبون 1841 ـ 1921م، الذي أنصف الحضارة العربية وأشاد بفضلها على الحضارة الأروبية، وهو الذي قال "لقد أثبت التاريخ

---

(37) من ذلك جامع كيشاوة بالعاصمة، ثم جامع وهران بحي سيدي محمد الهواري، ثم جامع بتشين الذي حول إلى كنيسة دي فكتوار "وجامع القصبة، وجامع سوق الغزل بقسطنطينة، ومثله الجامع الذي تحول إلى كنيسة القديس أندريه بوهران، وفي بجاية لاتسأل.

ما سبق أعلاه من محاضرة القاها المؤلف بمدينة كراتشي عاصمة الباكستان باشراف جمعية العلماء المسلمين ورئيسها مولانا عبد الحميد البدايوني صباح يوم الأحد 14 جمادى الأولى 1374 هـ =9ـ1ـ1955م، والمحاضرة كانت بعنوان «المغرب والجزائر حاضرها ومستقبلها» ولسوف نتعرض لذلك بتفصيل أكثر في هذا الكتاب إن شاء الله.

راجع الفصل 321 من هذا الكتاب

أن مدنيتين مختلفتين تمام الاختلاف لاتندمجان، وما رؤيت الأمة المغلوبة مندمجة في الغالبة إلا إذا كانت متشابهتين من الأصل، فالشرقي يندمج في الشرقي، أما في الغربي فلا، وهذا هو سر الهند، نفوذ العرب في الشرق وفي الصين وفي إفريقيا، فإنهم كانوا كيفما تقلبوا طبعوا تلك بطابعهم وأعطوها صبغتهم، وحيث حلت حضارة الإسلام ظهر أنها استقرت وثبتت، فهي في الهند قد غلبت على حضارات أقدم منها، وهي في مصر قد عربت بلدا دخل فيه قبل الفرس والرومان واليونان ولم يؤثروا فيه إلا قليلا».

لقد عرف الشعب الجزائري من ضروب الإرهاق والتعذيب ووسائل الإبادة ما تشهد به مصادر التاريخ المعاصر، لكن ذلك كله لم يؤثر فيه، وبقي الشعب العربي المسلم الذي لم يردد شعب من شعوب العرب والإسلام كلمة إسلام وعروبة ويتمسك بهما كما فعل الشعب الجزائري، حتى إن رائده العظيم عبد الحميد بن باديس رحمه الله، من كثرة ما علم من تعلق شعبه بالإسلام والعربية نظم النشيد الذي تميزت به الجزئر والجزائريون، بل وما ذكر اسم الجزائر إلا وتبادر إلى الذهن وبنغمة الحب والتقدير قوله:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أ ورام إدماجا له رام المحال من الطلب

إلى أن يقول :

هذا لكم عهدي به حتى أوسد في التراب

لقد كان ابن باديس هذا نتيجة ما عرف لهذا البلد الأمين من ماض مجيد سجله التاريخ لأولئك العباقرة من رجالات العلم والسياسة الذين زخرت بهم أرض الجزائر عبر التاريخ، فابن معطى والخضيري، وعفيف الدين التلمساني وغيرهم إلى عهد عبد القادر بن محيي الدين، وعبد الحميد بن باديس، والعقبى، ومحمد البشير الإبراهيمي، ومصالي الحاج، هؤلاء وغيرهم لم يتركوا مجالا لفرنسا رغم قوة الحديد والنار، كي تتمكن في الجزائر، وهو ما سنتعرف عليه بعد في العقود الأولى للقرن العشرين.

الفصل التاسع والخمسون بعد المائة

المأساة الرابعة

حظ المغرب من سياسة الأنجليز..

عرف الاستعمار الأنجليزي بوسائله الخاصة المتميزة عن بقية الوسائل التي لم تكن الدول الاستعمارية الأخرى تعرف غيرها، وهي وسيلة العنف والغزو والقهر، فالأنجليز في غالب الظروف كانوا يختارون التستر خلف التجارة والامتيازات واصطناع الأذناب، وشراء الضمائر وتثبيط الهمم والإكثار من العيوب، والإغراء بالمال، والتهديد والوعيد وإثارة الفتن ضد ذوي النفوذ حتى يلجؤوا إليهم، وكل ذلك بالترتيب والتدرج، ولعل الدارس لتاريخ شعب ما من الشعوب التي منيت بالاستعمار الأنجليزي حاول معرفة أسباب ذلك الاستعمار والظروف التي مكنت لهم من ذلك، ثم هو استعمل المنشور من وثائق وزارة الخارجية لبريطانية المهيأة لكل دارس وباحث، سيجد أن بريطانيا التي أمكنها في القرنين الثامن والتاسع عشر أن تكون الدولة التي لاتغرب عن مستعمراتها الشمس لم تحقق ذلك إلا بما سبق من وسائل برزت فيها غيرها من الدول.

بل بريطانيا هي التي استطاعت أن تمزق بلاد الإسلام شرقا وغربا، بعدما اندست داخل أروقة قصور آل عثمان، بواسطة عملائها وذوي الأغراض الذين انخدعوا بوعودها ووسائلها، وبنظرة خاطفة إلى ما قامت به من أدوار بين محمد على القولي، الذي استولى على مصر ثم فصلها عن آل عثمان، وما جر ذلك على الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، يتحقق مما أشرنا إليه، فهي التي اتخذت من الباب العالي وأهله خلانا وأصدقاء، أقبلوا عليها مقابل ما قامت به فرنسا كيدا وضد الأنجليز كذلك لصالح محمد علي الذي خدعت به كثيرا من المصريين زمنا غير قصير، فكانت حمله فريزر 1807م، بعد حملة نابليون 1798م، مما أعطى لفرنسا درسا حول أخطاء نابليون الذي كان قد توجه إلى مصر تحدوه

آمال عراض، ولما يدخل في حسابه ما كانت عليه بريطانيا وقتها من قوة بحرية يستحيل معها على فرنسا أن تزاحمها، وهي التي بزت براعة البرتغال التي أشرفت منذ قرن على المحيط الهندي بواسطة الأمير الملاح هنري والمكتشف الثاني بعده، فاسكودي جاما، وكذا هولاندة التي توجهت إلى مصايد اللؤلؤ بالخليج، بل بريطانيا هي التي زاحمت فرنسا في الهند وعملت بأبسط الوسائل على إبعادها منه، حيث انقلبت شركة الهند الشرقية التي أسسها الأنجليز إلى حكومة 1858م، وقد وجدت حاجتها في المغرب حفاظا على تلك الإمبراطورية، تدفعها إلى المحافظة على البوغاز المشترك بين المغرب وجبل طارق، خصوصا وأن فرنسا احتلت الجزائر وتركزت فيها بقوة الحديد والنار، وأن للأسبان مطامع في شمال المغرب أكثر مما لهم في سبتة ومليلية.

كانت بريطانيا قبل في طليعة الدول الاستعمارية التي تختار الرجل المناسب للمكان المناسب، ومن ذلك وفي هذه المرحلة من تاريخ المغرب الحرجة أنها اختارت "إدوارد هاي" الذي كان بحق أهم القناصل الأنجليز الذين عرفهم المغرب في عهد الدولة العلوية، بالنسبة لمهمته وصالح بلاده، إذ حل هذا القنصل بالمغرب خلفا لدوجلاس الذي أفسد عليه اليهودي ميعير أم قنين علاقته، بل وكل أعماله بالمغرب، فحل مكانه "هاي" يوم 25.8.1829م ومعنى هذا أنه عاش اشتداد الأزمات بين المغرب وفرنسا، ورأى كيف أن ضعف المولى عبد الرحمن أمام كيد الفرنسيين وترغيب وترهيب دولارو، الذي دفع به إلى أن أقدم كرها على تعرية المغرب ونقض سياسة سلفه التي قطعت حد الأجانب بمدينة طنجة، بل رخص هو للفرنسيين وغيرهم كما سنرى، مما يعتبر أول كشف وتعرية للمغرب بل(38) وفي عهده اشتد الصراع بين الدول الاستعمارية حول المغرب من أجل حصول كل منها على امتياز أكثر بعد هزيمة إيسلي، خصوصا بين فرنسا التي احتلت الجزائر وإسبانيا المحتلة لسبتة ومليلية، وبريطانيا ذات الحساسية أكثر حول قاعدتها بجبل طارق البوابة المتحكمة في طريقها نحو إمبراطوريتها في المشرق الأقصى، ولم يكن لهذا الصراع وجود قبل نهاية القرن 18م بعقد واحد فقط، بل كانت الدول تهاب المغرب

(38) راجع الاتحاف لابن زيدان 174/5 ـ 175، وتاريخ العلاقات الأنجليزية المغربية المشار إليه قبل، وكذا الاستقصا ج 9. ط 1956.

وتحسب لسلطانه ألف حساب، بل إن المغرب كان في مقدمة الدول ذات الاعتبار في العالم وقتها، وكانت علاقته مع غيره من الدول منظمة بشكل يجعله صديقا مع الجميع، فقد كانت للمغرب معاهدات مع كل الدول تقريبا، بل وحتى في بداية عهد التدهور عقد معاهدات مع الدول التي لم تكن له معها معاهدات، مثل سردينيا 1240 هـ/1824م، كما عقد مع الأنجليز معاهدات سنة 1216هـ/ 1801م، ولم يوافقوا عليها إلا في سنة1240هـ/1824م، وكذلك مع أمريكا 1252هـ/1836م، وكلاهما نسجتا على منوال المعاهدة التي عقدت مع الأسبان 1212هـ /1797م والتي اعترف فيها بأخطر اعتراف جر الأذى على المغرب وهو قاعدة "المدعى يتبع المدعى" بل إن المعاهدة الأمريكية بالإضافة إلى حق التجار في اتخاذ سماسرة ومترجمين من المغاربة، زادت امتيازا أكثر هو التزام الدولة المغربية للقنصل الأمريكي باستعماله لرجال الأمن المحلي من المغاربة في مباشرة قضائه وتنفيذ أحكامه، وكانت هذه المعاهدات الثلاث المشار إليها والتي عقدت في عهد الضعف وما قدمه السلطانين سليمان وعبد الرحمن من تنازلات بدافع التطلع إلى مودة الدول الأخرى خصوصا عندما رأى الثاني ما كانت تحيكه فرنسا للجزائر، وتلك المعاهدات هي التي أوحت إلى الأنجليز بوجوب استعمال كل الوسائل للحصول على معاهدة تجمع كل ما في تلك المعاهدات وتزيد عليها، وقد علم الانجليز أنهم لم ولن يحصلوا على شيء من ذلك طمعا في تنازل المغرب اختيارا، خصوصا وقد تعرفوا على المولى عبد الرحمن وحساسيته الدينية والوطنية، وما تقرب إليهم وميزهم في المعاملة قبل وحسب ما يظهر، إلا بحكم ما كان لهم من علاقة قديمة مع المغرب، وما كانوا عليه مع جده محمد بن عبد الله الذي ارتبط معهم بمعاهدة سلام وتجارة 1174هـ/ 1760م، تلك المعاهدة التي وقعها مبلانك بفاس يوم 18 يوليو من السنة المذكور، نيابة عن جورج الثاني 1683 ـ 1670. والذي نال تقديرا كبيرا من السلطان المذكور، مما جعل مفعول تلك الاتفاقية يستمر بقوة رغم ما عرفت العلاقات المغربية الأنجليزية من ظروف، لابين العاهلين كما صرح الحاج عبد القادر عديل صاحب القصة مع "المينورُي بيدو همبرت" بعد سفارة "كليفلاند" للمغرب بسفارته للندوة، بل وما حصل للقنصل "بوبهام" مع السلطان محمد بن عبد الله بسبب

إصلاح العربة التي انقلبت به في الرباط،(39) ثم سفارة التي أصلحت ما سبق من أخطاء كدرت الصفو قبل بسبب تصرف القنصل سامبسون زمن محمد بن عبد الله الحاج العربي المنستيري قائد الأسطول وحاكم سلا في غشت 1766م، وهي سفارة1186هـ/ 1772م، بل إن المولى عبد الرحمن، ما كان ليقبل طوعا أن يخرج عما قررته هذه المعاهدة التي أصبحت ناقصة أمام ما جد من تنازلات المغرب لفرنسا في عهد الضعف، بعد معركة إيسلي، لذلك عاد الأنجليز إلى طريقتهم التي اعتادوها في كل زمان ومكان، وهي التحايل وخلق المتاعب قبل انقضاضهم على الفريسة.

كان على بريطانيا وقد انتهى المغرب إلى ما انتهى إليه من ضعف أمام فرنسا أن تعمل جاهدة حتى لا تنقض هذه الأخيرة على الفريسة فتتعرض مصالح الأولى للأخطار التي حاولت حتى لا تقع فيها منذ عهد بعيد، ولذلك كتب اللورد أبرودين إلى القنصل العام جون درموند هاي، بتاريخ 26-5-1845م وقت أن كان في طريقه لتقديم أوراق اعتماده بالتعليمات التالية : «وتقديرا منا للحقائق التي فرضت نفسها، والتي تشير إلى الإهتزاز الحاد لنفوذ السلطان، وإلى أي اهتزاز آخر قد يؤدي إلى تعريض عرشه نفسه لخطر عظيم، فإنه ينبغي أن يكون هدفنا الأول بذل أقصى ما نستطيع للمعاونة على الإبقاء على هذا النفوذ، وتوقي أية حادثة يمكن أن تهدد بمزيد من الأخطار، ويبقى استقرار عرش الإمبراطور وتوفر الإدارة الحسنة والأوضاع السليمة وأراضيه من أكثر الأمور أهمية لإبريطانيا العظمى(40) لم يكن هذا الحرص من أجل شيء، غير ما كان للأنجليز من مصلحة أكبر في بقاء النفوذ على البوغاز مشتركا بين بريطانيا العظمى ودولة إفريقية متخلفة وضعيفة، أولا، ثم من أجل ما حققت وتسعى لتركيزه بمعاهدة من أجل التجارة التي كان لهم فيها مع المغرب وقتها السهم الأكبر، لكنها تحولت بسبب وضع المغرب الجديد بعد معركة إيسلي واكتشاف عدم جدوى العلاقة مع الأنجليز، مما دفع بالمولى عبد الرحمن لنهج ما يتفق ومصلحة شعبه حيث رفع الرسوم المستحقة على الواردات، وهذا سمي عند الأنجليز إحتكارا، وفي ذلك يقول أبرودين لجون هاي، وقد

(39) راجع تاريخ الضعيفي، م، خ،ع. وم. ع 661 ط 198م، والعلاقات الانجليزية المغربية مصدر سابق.
(40) تاريخ العلاقات ص 203 مصدر سابق.

بدأت اللهجة تتبدل عما كانت عليه من حلاوة مفتعلة وصيغة مصطنعة :«عليك أن تشير لوزير الإمبراطور، وإذا كان ممكنا للإمبراطور نفسه بأن الفرض المطلق للمكوس المتزايدة على المواد التي تشكل عصب التجارة بين انجلترا والمغرب، وكذا فرض الاحتكارات عليها سوف يكون لها تأثير على التجارة بين البلدين»(41) وفعلا كان موضوع التغييرات المستمرة للتعريفة الجمركية في الصادر والوارد هو موضوع الخلاف بين الأنجليز والمغرب لأن موضوع التجارة كان عندهم هو كل شيء بالنسبة لعلاقتهم بالمغرب.

استغلت بريطانيا فساد العلاقة بين المغرب وفرنسا بسبب موقفه من الأمير عبد القادر، بل وبين المغرب، واسبانيا قبل حول سبتة 1249 هـ/1833م 1258هـ/1842م فنصبت نفسها للقيام بدور الوسيط بين المغرب وفرنسا، وأرسلت قنصلها إلى مدينة مراكش باسم العمل لإصلاح ذات البين 1257هـ/1841م حسب الظاهر بيد أنه في الواقع ليعمل ضد الجزائر وأميرها، وحتى لا يقوم السلطان بأي عمل لفائدة الشعب الجزائري المسلم، معللا ذلك حتى لا تجد فرنسا وسيلة أو تعطاها فرصة للتدخل ضد المغرب، أو بالأحرى حتى لاتزاحمها فيه وفي سوقه التجارية وموارده الاقتصادية، بل جندت لهذه الفكرة ما أمكنها من اليهود ومن ذوي الضمائر الفاسدة في المغرب، ولقد كان هذا الموقف فعلا في صالح فرنسا التي وجدت من يعينها في القضاء على الأمير عبد القادر رائد الكفاح المسلح ضدها في الجزائر، والتي كان المغرب ينتظر كسبا من انسياقه وراء هذه السياسة الهادفة والملفوفة في ثياب النصيحة وحسن القصد، فإن شيئا من ذلك لم يحصل وأخذ المغرب يفكر ويقدم على رد الفعل حين استقدم المدربين لجيشه من الضباط الفرنسيين، ثم رفع التعريفة الجمركية للواردات والصادرات مما جعل مجلس العموم الأنجليزي يسند ذلك إلى تصرفات الحكومة الأنجليزية التي كشف عنها في نقاش حول أسباب تحول ما كان لبريطانيا من أسبقية في مجال التجارة الخارجية للمغرب حتى بلغت 75٪ وكيف تحول ذلك إلى فرنسا بالإضافة إلى ما نتج عن ذلك من إضرار أكثر بمصالح الأنجليز في جبل طارق، فكثرت الاحتجاجات الأمر الذي دفع بالسلطان إلي إحداث نوع من "التأميم" قيل عنه احتكار، وما هو إلا عمل أراد به التنظيم لفائدة مداخيل الدولة التي لم

(41) نفس المصدر 204.

تكن لها وسيلة لتزويد مداخيلها غيرها، لكن ذلك العمل انقلب عندما منع التصدير ليس في المواد الخام فحسب، بل حتى في الصناعات التقليدية،(42) كما أحدث السلطان نظاما جديدا في المدن هو : تعيين نائب في كل ميناء من موانئ المغرب، اختصاصه معرفة ما يرد وما يصدر، ثم يخبر الإدارة بذلك، والتي كانت دون المستوى حتى انتهى الأمر إلى فرض نوع من الاحتكار الحقيقي باسم الدولة، ولفائدة ما قيل عنهم الأمناء، لم يقتصر على التصدير دون الاستيراد، فعرفت الأثمان رسوم التصدير والاستيراد ومصارف النقل والصيانة تصاعدا مفرطا ونوعا من الفوضى لا يقبلها العقل، حتى إن مادتا السكر والشاي اللتان اتسعت تجارتهما بسبب انتشارهما بين عامة الشعب اتخذتها الدولة وسيلة للأرباح باحتكارهما ورفع أثمانهما فوق ما يقبل حتى انها بلغت أكثر من 300٪ الأمر الذي دفع السلطان إلى أن يحتكر لنفسه ـ تقول بعض المصادر ـ التي لطفنا عبارتها، ما يستورد وما يصدر من بعض المواد مثل الزعفران، والخشب والجلود، والرصاص، والزنك، والبارود، والطباق، ثم ينيب عنه تجارا من اليهود الذين استدرجوا كبار رجالات الدولة الذين مهدوا لهم حتى قبلت أن تتقاضى مبلغا شهريا يستولى بواسطته المكتري على ضريبة الصادر والوارد في أحد الموانئ، وأظهر المستدرجون للدولة أرباحا أول الأمر، بيد أن تلك الأرباح سرعان ما تحولت إلى الخسارة الجامحة ماديا ومعنويا، حيث أخذ تجار اليهود ومن اقتدى بهم من مسلمة اليهود بفاس، وهم الذين كان منهم أكثر الأمناء وقتها،(43) أخذوا يستعملون المراسي وتهريب ما يروج بها من البضائع الصادر منها والوارد، وسيلة للإثراء غير المشروع مما أدى إلى التزوير

---

(42) سبقت إشارتنا إلى سبب فسح المجال لليهود، حتى إنهم وهم الذين كانوا يضربون العملة فحلوا النحاسية منها بشعار دولتهم الغابرة وهي عبارة عن النجمة السداسية التي كان المغاربة يضعوها حتى في مفتتح السور بألواح الأطفال الذين يحفظون القرآن كما يلاحظ ذلك ولفترة طويلة إلى عهد الحماية، حيث نرى الريال والنصف في عهد السلطان عبد العزيز خصوصا المضروبين في المانيا يحملان نفس العلامة، راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية ومديرية الوثائق الملكية.

(43) كتب حول هذا الموضوع بتفصيل أكثر الدكتور الألماني : هيكوديتشي زوايكن في كتابه بعنوان"رحلة إلى المغرب المظلم سنة 1850 ط 2ليبسك ص 105ـ117 وهو الذي كتب الواقع وما شاهد عن خمور وفجور عميد الزاوية الوزانية وقتها والذي دخل منزله وزاويته باسم مسلم تركي، كما كتب حول حاشية السلطان التي نعتها باخس النعوت. وقد كان بعضها كما وصف.

في سجلات الدولة، ثم تهريب التجار الأجانب الذين اتفقوا مع بعض الأمناء، وبالتالي مع الوزراء الذين استغلوا بدورهم وضع السلطان ثم سلكوا طريقا يحقق من الأرباح ما أدى إلى انهيار التجارة الخارجية للمغرب بشكل حاد وخطير، ظهر أكثر في العقد 6 من ق 13 هـ وهو الخامس من القرن 19م، فتضرر من ذلك التجار الأجانب بشكل أدى بالأنجليزيين منهم وقد وجدوها فرصة إلى إثارة أكبر ضجة ثم رفعوا تقريرا يتضمن البرنامج المنقذ إلى وزارة المستعمرات ببلادهم سنة 1269هـ/ 1852م كما طلبوا تدخل قنصل بلادهم بطنجة... والذي اتصل به اللوردجون روسل بتاريخ 5-1-1853م حتى يتعرف منه على الواقع الذي جره عمل السلطان على التجارة الخارجية، والذي تضرر منه التجار الأنجليز بالمغرب أكثر، وحول ذلك كتب بعنف إلى القنصل هاي بتاريخ 27-9-1853م ولعل جون روسل كان يقصد من وراء أسلوبه العنيف والتهديد الواضح أن يزيد في تمزيق أعصاب السلطان المحطمة، والذي لم يعد في مقدوره مهما حاول أن يقاوم السياسة الأنجليزية أكثر مما فعل، وقد جره عمله إلى النتيجة التي يعيش ويرى، ولنسمع إليه يخاطب القنصل العام بقوله :«لن تأخذ معك هدايا إلى الإمبراطور«؟» وسوف تعزو ذلك إلى أن الهدايا يتبادلها الأصدقاء وليس أولئك المختلفين مع بعضهم، كما هو الحال في العلاقات القائمة بين إنجلترا والمغرب لسوء الحظ» كما تضمنت التعليمات التي تلقاها هاي بأن عليه بعد تقديم الرسالة الملكية إبلاغ السلطان بغضب حكومة جلالتها بسبب عدم إبداء أية استجابة تجاه الشكاوى التي تقدمت بها من القيود المفروضة على التجارة المغربية، والتي تمثل انتهاكا لمعاهدة السلام والتجارة الانجليزية المغربية(44) وتضمنت نفس التعليمات أخيرا بأن على هاي إبلاغ السلطان بأنه لن يتم استقبال أي سفير مغربي في بريطانيا قبل اتخاذ الخطوات الواجبة لوقف انتهاكات هذه المعاهدة (45) .

وأمام هذه التهديدات التي لم يكن السلطان قابلا سماعها أصدر الأمر - ولكن بعد ستة أشهر - في شهر ماي من سنة 1854م بإلغاء الاحتكارات وزيادة الرسوم على

(44) بقصد بها تلك التي أبرمت سنة 1801م في عهد المولى سليمان والتي وضعها القنصل العام «ماترا» يوم 14 يونيه من السنة المذكورة، ولم توافق عليها بريطانيا إلا بعد ثلاثة وعشرين سنة أي يوم 19-1-1824م بعد تولية المولى عبد الرحمن بسنة وزيادة.

(45) تاريخ العلاقات 215 - 216.

الواردات، مما بدل التهديد المفتعل إلى شكر ورضى، خصوصا وأن السلطان بالغ في ترضية الانجليز حين دخلوا في حرب القرم(46) إلى جانب آل عثمان ضد الروس،

حيث أمر بإبعاد سفن روسيا من جميع موانئ المغرب حسب رغبة الأنجليز والفرنسيين معا، كما صرح لهم بتصدير ألف رأس من البقر زيادة على المصرح به إلى جبل طارق، حيث كانت تمر قوات الحلفاء إلى ميدان القتال، وذلك في الوقت الذي رفض نفس الطلب من الأسبان لفائدة حامياتهم التي كانت ترابط في المدن الواقعة شمال المغرب، فكانت هذه المواقف دافعا للقنصل هاي إلى التفاؤل أكثر حيث اقترح على حكومة بلاده العمل على عقد معاهدة تجارية جديدة تقوم على أسس جديدة حسب المعطيات التي تضررت منها التجارة الانجليزية في المغرب.

ورغم أن للموضوع حساسية خاصة لأنه سيمس مصالح كثير من الذين ساهموا مع المشار إليهم قبل في تردي الوضع، أولئك الذين ألفوا الارتشاء من المسؤولين يتقدمهم الحاج محمد الرزيني قنصل المغرب بجبل طارق، أسوة بسلفه ابن بجة الذي مات بجبل طارق دون وارث مخلفا نحو الأربعين ألف جنيه كانت أوضح دليل على خيانته وارتشائه، صادرها الانجليز طبقا لقانونهم الذي سيقترحون عكسه على المغرب بعد الاتفاقية المرتقبة كماسنرى، ورغم ذلك فإن "هاي" نجح في الحصول على تحقيق الإتفاقية الجديدة التي يفوض السلطان في عقدها بعد لمحمد الخطيب التطواني، وتلك خامس وأخطر المآسي في تاريخ المغرب السياسي وقت ظهور الاستعمار كما سنرى، والتي ستكون الوسيلة لظهور الحمايات بين المواطنين، وهذه سيكون مجالها أوسع لخلق الفتن والدفع بالمغرب إلى الهاوية السحيقة، رغم كل المقاومة التي سيعرفها عهد المولى الحسن الذي سينتهي هو الآخر إلى تدويل مشكل الحمايات كما سنرى أيضا.

---

(46) قامت هذه الحرب سنة 1270هـ/1853 وكان سببها مفاتيح الأماكن المقدسة في بيت المقدس، وقد انضمت كل من بريطانيا وفرنسا إلى الدولة العثمانية في مارس سنة 1854م. ثم لحقت بها سردينيا بعد سنة وقد دارت المعارك في شبه جزيرة القرم شمال البحر الأسود وانتهت بمعاهدة باريز 1856م.

كامبيتا

المنادات بالملك وليم امبراطوراً على جرمانيا في فرنسا في 1871/1/18

بنيامين ديزرائلي يهودي إسمه بنيامين إيرل بيكنسفيلد ولد 1804-81 ساهم بكتاباته في دفع حزب المحافظين لبريطاني إلى الاستعمار أصبح زعيما لحزب المحافظين 1848 وزيرا للمالية في وزارة لوردبي (1852-1858 ثم رئيسا للوزراء 1867 دفع للهجوم على جزيرة فيجر 1874 والترانسفال 1877، وحرب على الافغان وقبائل الزولو 1878-79 قناة السويس التي عرض الخديوي اسماعيل 1875 تركيا على النزول عن جزيرة قبرص لبريطانيا1878 مقابل تعهده البرطانيا بحماية أملاكها في تركيا الاستوائية أضعف هيبة روسيا في البلقان بانتصاره الدبلوماسي في مؤتمر برلين 1878.

الفصل الستون بعد المائة

المأساة الخامسة

المعاهدة الانجليزية المغربية(47)

ـ 1856م ـ

تعرض المغرب ولفترة من الزمن تقدر بما يقرب من العشر سنوات لضغوط جد خبيثة ولئيمة من انجلترا التي تدربت على تلك الطريقة التي أثمرت بالنسبة لها عندما جربتها في بلاد متعددة، وفي مقدمتها الدولة العثمانية التي تعرضت كذلك لضغوط أشد فأنتجت معاهدة يالطة ليمان قبل 1254هـ/1838م.

وهكذا استمر القنصل "هاي" في أسلوبه الذي لم يضارعه فيه غيره، وهو أسلوب الهدم عن طريق الرشاوي التي كان يطلق عليها أحيانا لفظ «الهدايا»، وبعد الانفراج المشار إليه، قيل إن اللوردكلارندون وزير الخارجية وافق للقنصل العام على التصرف في مبلغ خمسمائة جنيه، حسب المراسلة بتاريخ 14ـ11ـ1854م ليقدم بها هدايا.. ثم عاد فرفع المبلغ بمراسلة أخرى بتاريخ 5ـ2ـ1855م إلى ثلاثة آلاف جنيه، وذلك عندما أدرك أن "هاي" استطاع أن يسير خطوات أوسع في سبيل تحقيق الهدف، وهو قبول مشروع الاتفاقيتين، وإن كان هاي باعترافه لم يحقق ماأراد رغم مقامه بمدينة مراكش لمدة ثلاثة أسابيع، واجتماعه بالوزير محمد الصفار مرتين، إلا أن هذا الأخير لم يكن من المستعجلين حتى يوافق على المعاهدتين بالسرعة التي كان يتمناها هاي، بل أبدي رأيه فيهما وأنهما يحتاجان إلى دراسة وتدبر، وإن كان القنصل يرد هذا الرأي إلى تأثير الحاج محمد

---

(47) لقد عرف المغرب علاقات قديمة مع الأنجليز خصص لتاريخها كتاب ظهرت ترجمته أخيرا كما أشرنا لذلك قبل وهو كاف رغم اهماله بعض الجوانب لابراز ما كان للمغرب «الدولة» من قوة بالأخص في عهد أحمد المنصور السعدي «الذهبي».

الرزيني(48) قنصل المغرب بجبل طارق، وأحد التجار الذين لهم ضلع في الاحتكار الذي أفاد منه؟؟(49).

ومهما يكن فإنه بعد كيد ومناورات دامت ثلاث سنوات لعبت فيها الرشوة دورا هاما إلى جانب سياسة الترغيب والترهيب التي لم يكن المغرب وقتها في مستوى إدراك هدفها ومقاصدها ـ أبرمت الاتفاقية التجارية بين المغرب والأنجليز بتاريخ 10 ربيع الثاني عام 1273هـ/9ـ12ـ1856م عنونت ب"معاهدة الصلح والاحترام المتبادل(50) بين الدولتين(51).

أما المعاهدة في مجملها فقد نصت على عدم أي احتكار أو امتياز لأحد خاص بالبيع والشراء إلا فيما يتعلق بالأسلحة والذخائر، كما اعترفت للأجانب بالحق في القيام بالصفقات التجارية وحق الملكية العقارية في مختلف جهات المغرب، وحددت الرسوم الجمركية على الواردات ب10٪، وبالتالي فإن هذه المعاهدة تعتبر أكثر وبحق هي البداية السيئة لأخطر تحول وانحدار إلى الهاوية في تاريخ المغرب السياسي المعاصر، بعد معاهدة مغنية وإن كان قد ظهر لبعضهم أنها أفادت المغرب بما أوجدت بين الدول من التنافس قيل لفائدة المغرب؟ حيث فتحت الباب أمام مختلف الدول بطريقة حالت دون احتكار أية منها للتجارة مع المغرب؟! ولقد استمر هذا النهج الذي يمكن القول معه إن المغرب عرف صراعا زاده ضعفا عندما أصبح مشتركا بين أهله ودهاقنة كل من فرنسا واسبانيا وانجلترا وألمانيا، وهي الدول التي تصارعت داخله وخارجه من أجل السيطرة عليه واحتكار إمكاناته إلى أن وضع حد لذلك الصراع بالاتفاقيات التي أبرمتها فرنسا

---

(48) لقد ترجم له صاحب تاريخ تطوان ق 3م3/362 نقلا عن صاحب الاستقصا ج4/ 206، ثم حلاه بما روى عن أخيه حين أرسله السلطان أمينا على سائر أولاده في حجهم 1274هـ =1857م. راجع الاستقصا ج 9/71 ط البيضاء 1956م.

(49) العلاقات 218.

(50) راجع الاتحاف لابن زيدان 5/187ـ203 تاريخ تطوان للأستاذ محمد داود 3/338 ـ 339 ط 1962م، ومركز الأجانب في مراكش للمرحوم محمد بن عبود ص 36 ط القاهرة 1950م، وتاريخ العلاقات 323 ـ346، وهي مأخوذة فيه بالنص من تاريخ تطوان بدءا من ص 342 س 12 إلى ص 360س 20، وفي المصادر المشار إليها كل واحد كتبها بأسلوبه الخاص واحد منهم ابن زيدان الذي وضع في مقدمة كل بند "مضمنه".

(51) حسب الرسالة الموقعة من طرف محمد الخطيب والقنصل "هاي" وكذا ماورد في الفصل الأول من المعاهدة.

مع كل تلك الدول حتى يبقى لها المغرب وحدها، وآخرها المعاهدة السرية مع الانجليز كما سنرى 1904م، ثم معاهدة الجزيرة 1906م التي لم تخرج في مضمونها عما ورد في معاهدتي 1856م ثم 1880م بمدريد.

لقد صيغت المعاهدة الأولى من ثمانية وثلاثين فصلا، والثانية من خمسة عشر، وقد نصتا على التمكين للسلام والأمن بين الدولتين بحرا وبرا وتنظيم وجود الانجليز بالمغرب، أما الثانية فخاصة بالتجارة، ومن جملة نصوص الأولى إعطاء الحق للقنصل الانجليزي في استخدام ما يشاء من الموظفين في إدارته كتراجم، وكتاب، وفراشين مغاربة، مسلمين كانوا أم يهودا وأن لهؤلاء حق التحرر من جميع التكاليف التي كان على المواطن أداؤها من ضرائب وعمل في الجيش، وليس للقنصل العام فحسب، بل لكل مواطن انجليزي الحق في استخدام من يريد وتمتعه بنفس الامتيازات، كما نصت على أن للانجليز الحق في جر من ادعي عليه إن كان مغربيا إلى غير المحاكم المغربية، وهو ما أفاده الانجليز من المعاهدة التي سبق عقدها بين الاسبان والمولى سليمان 1212هـ/1797م، وهي التي خالفت الشريعة الإسلامية "لاحكم لغير المسلم في بلاد الإسلام" ومثلها تلك التي سبق للسلطان عبد الرحمن أن أبرمها مع سردينيا، والانجليز، وفرنسا سنة 1240هـ/1824م والتي اعترف فيها بقاعدة.. المدعي يتبع المدعى عليه إلى محكمته "فصل 8.9"وقد عمت هذه القاعدة بعد جميع القناصل الذين تشددوا في التمسك بها اعتمادا على المعاهدة الانجليزية التي حققت الكثير من المكاسب لكل الدول الأروبية التي أصبحت تتقاطر على موانئ المغرب للحصول على معاهدة شبيهة بالمعاهدة الانجليزية ومنسوجة على منوالها، وذلك ما سعت إليه تهديدا بقوة الحديد والنار كل من اسبانيا وفرنسا، بل عن تلك المعاهدة المشؤومة نشأ ما عرفه المغرب من حمأة الحمايات التي هدت كيانه وحطمت بنيانه بواسطة طابور المحميين فصل3، وامتلاك العقار باسم الزينة وحرية التصرف فيه فصل 4، والرجوع للإدارة المغربية وإذلالها كلما احتاج السفير لمساعدتها في التدخل، إلا إذا كان في الموضوع طرف مغربي ثالث غير محمي، ومع ذلك فالفصل للقنصليات فصول 11ـ12ـ13ـ14، بل والفارون من أي الجانبين يردون بالقوة فصل 15، ولا فرق بين الرعايا الانجليز في المغرب سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين فصل 16 بل لا يعترض على أي

منهم في وقت الحرب بين الطرفين فصل 17، ومن مات من رعية دولة في أرض الأخرى لاحق لأحد غير ورثته أو الوصي في التصرف في مخلفاته، فإن لم يكن له وارث ولاوصي بالبلد فالقنصل أو من ينوب عنه يحوز المتروك ويحتفظ به لورثته(52) أو أقاربه فصل 18، بل حتى إذا تملكت بريطانيا من جديد أي بلدأو مدينة فأهلها مقدما يعتبرون بريطانيين، ورعاياها لهم الحق في الحصول على كل ما سيخول لغيرهم من الأجانب من امتيازات لم تتعرض لها هذه المعاهدة(53) فصل 19ـ20 ومن وجد بمركب غنمه الانجليز في حرب وكان مغربي الجنسية فهو وما يملك حر، وبالمثل إن حصل ذلك للانجليزي، ولهم كذلك أن يبيعوا ما غنموه في المراسي المغربية أو يرحلوا بها، فصل21،22،23، ومن كان محاربا للطرفين لا يسمح له بالتزود بشيء إلا بقدر ما يوصله لبلده فصل 24، والمركب الذي يرجع إلى الانجليز ووجد بالمغرب، ثم في نفس الوقت وجد مركب آخر محارب للانجليز ووجد بالمغرب ثم في نفس الوقت وجد مركبا آخر محارب للانجليز، يجب أن يمنع من مطاردة الأول إذا كان ذلك في الإمكان، ومثل ذلك يجب على الانجليز 25، ولصاحب أي مركب أن يشتري من موانئ المغرب ما يكفيه من مأكول بدون تعشيرة، ولمراكب البريد الحرية، ومن دخل الميناء ببضاعة ولم يرد بيعها، أو إظهارها لا يجبر على ذلك، أو أراد أن ينزل البعض دون البعض من بضاعته فله ذلك، ولا يلزم بالسفر لبلد لا يريده فصل 26 ـ 30، أما بقية الثمانية فصول مجملها يتعلق بالمراكب في البحر وأنه مهما تعرضت لشيء يعوضها حتى ولو كان من فعل الطبيعة، فالمغاربة ملزمون بمساعدتها إلخ إلخ.

وبالتالي فإن هذه الاتفاقية ستكون وسيلة عرقلة في طريق كل محاولة يحاولها المغرب للإصلاح والنهوض والتطور، خصوصا عندما انتقلت السلطة في بريطانيا إلى أيدي اليهود الذين فعلوا بها وباقتصادها ما أرادوا زمن ديزرائيلي، فاليهود المغاربة هم الذين أفادوا من السياسة الانجليزية وغير الانجليزية أيام التزاحم الدولي من أجل الحصول على الامتيازات في المغرب، وما كان لهم أن يفعلوا لولا مساندة بريطانيا

---

(52) لكنهم لم يفعلوا هذا مع قنصل المغرب قبل بجبل طارق "أبجه" الذي ترك أربعين ألف جنيه استولى عليها دون مبرر قنصل الانجليز.

(53) أية فضيحة وأي خزي أنكى من هذا الذي يقتصر على الرجعية بل حتى ما يمكن تصوره من الامتيازات يصبح نافدا...

وسياستها التي كانت تتظاهر لصالح التطور والإصلاح في المغرب حسب زعم القنصل العام "هاي"، وفي الواقع كانت مقاصده تحقيق أهداف الاستعمار الانجليزي الزاحف عن طريق البحر والتجارة، حتى إن ما فعلته بريطانيا باستقلال المغرب عن طريق اتفاقيتي 1856م لم تفعله أية دولة من دول أوربا قبل، باستثناء فرنسا التي حاولت الهدم مباشرة، لكنها انتهت إلى فشل أخرها إلى ما بعد عام 1900م.

لقد عرف الانجليز بمعاملاتهم مع المغرب ولفترة جد طويلة منذ عهد أحمد المنصور السعدي وإليزابيت، ثم عهد المولى اسماعيل كما سبق، وبذلك كانوا هم أكثر من غيرهم من بين دول أوربا معرفة بالمغرب وماله من أعراف وتقاليد وشريعة إسلامية يفوق تمسكه بها ما عرف لهم كذلك من تقاليد وأعراف، ومع ذلك تعمدت بريطانيا ممثلة في وزارة خارجيتها، عدم اعتبار ذلك، متجاهلة أن المغاربة لا يتدخلون عن حقوقهم مهما كلفهم ذلك من ثمن، وأنهم إن فعلوا في مرحلة من المراحل، فما ذلك إلا تذمرا من الحاكم المستبد، حتى إذا حل مكانه آخر متصف بالمرونة والعدل، أمكنه أن يستخلص بهم وبإقدامهم ما اغتصبه الأجنبي أو قيل إنه ضاع.

لقد حاول الانجليز أن يسلكوا مع المغرب نفس النهج الذي سلكوه مع دول الشرق، وماقاموا به من سطو باسم التجارة أدى إلى استعمار، كما حصل شرقا بواسطة شركة الهند، ثم مع مصر وغيرهما حتى استولوا على جل القارة الهندية، ثم زحفوا على الشرق الأوسط دون أن يكلفهم ذلك ما كلف الفرنسيين والإيطاليين المتهورين، فقد رأينا كيف اندفعت السياسة الانجليزية بسبب تراجع تجارتها أمام التنظيم الذي اختاره السلطان، فكانت النتيجة أن أعطى بعض الانجليز لأنفسهم حرية العمل غير عابئين بشيء حين قامت سفنهم بمظاهرة أمام ساحل الريف مما أدى تحت الضغط إلى المفاوضة التي اختاروا لها الوقت المناسب، فما كان من "هاي" إلا أنه أقنع الخطيب أنه لا يقصد رغم كل الظروف التي يجتازها المغرب، غير الحصول لبلده على حرية التجارة دون المساس باستقلال المغرب، ومع ذلك كان السلطان حريصا على عدم قبول أي شيء ماداموا قد اتخذوا لذلك وسيلة الضغط والإكراه، وذلك كان رأى وزيره المختار الجامعي(54). وأمام

(54) راجع ترجمته في فواصل الجمان لمحمد غريط ص 60 ط فاس 1347هـ

هذا الصراع الذي كان يخوضه "هاي" كان الفرنسيون لا يعنيهم من شيء مادام قصدهم فقط استيراد الأصواف التي استثنيت من قائمة المنع، والتي أخرجها السلطان شبه مكره بظهير، لكن حرب القرم التي اتفق فيها الفرنسيون مع الانجليز كيدا، على مساعدة "الرجل المريض" آل عثمان ضد الروس على الدولتين عجزا في مادة القمح الذي كان يستورد من الروس، مما وفق بين الدولتين حول السياسة الواجب اتخاذها مع المغرب حول التجارة الخارجية، وصادراتها التي كانت قد عرفت درجة عالية، وإذا كان محصول المغرب سنة 1855م قد ارتفع عاليا فإن على فرنسا أن تتجه بكل وسائلها كي تستورد منه 200.000 قنطار، وتحرك قنصل فرنسا لتحقيق ذلك بتوزيع الرشاوي على الحاشية التي بلغت وقتها قعر الهاوية في الرذيلة، وبوحي منها وافق السلطان على طلب الزيادة في صادرات الحبوب، بعدما أمر بجمع ذلك من الفلاحين في الحوز حتى قالت مصادرهم التي كانت واعية لذلك وقتها : إن ميناء الجديدة عرف في شهور صيف 1855م ما قيل عنه 128 سفينة، وعرفت الدار البيضاء وحدها في يوم واحد نحو 32 سفينة كلها قدمت لحمل الحبوب، وبلغ ثمن مجموع ما صدر في تلك السنة نحو السبعة ملايين فرنك، مضافا إليها أربعة ملايين تعريفة جمركية، وخمسة عشر مليونا مداخيل تجارة بين المواطنين وتجار الحبوب(55).

بهذا الاتفاق بين الانجليزيين والفرنسيين في هذا الظرف استدرج السلطان إلى الموافقة على حرية التجارة، ونجح "هاي" الذي توجه إلى مراكش اقتداء بقنصل فرنسا في شأن الحبوب وقد أغدق هو الآخر على حاشية السلطان ما أمكنه من تلك الرشاوي التي حققت له كل مقاصده، ومنها توقيع المعاهدة المذكورة، كما استعملت فرنسا طرقها الخاصة حتى فاز ممثلها "بكلر" بمعاهدة فيها زيادة على معاهدتيها مع المغرب، الأولى في شهر مارس 1824م، والثانية في 28-9-1825م، هذه ستكون يوم 20-11-1861م، وأما التي ستستفيد من تجربة الانجليز فهي التي ستوقع يوم 14-9-1863م عندما يتذمر المغرب من كثرة الحمايات التي سيغدقها التجار على المواطنين بلا حساب باسم فرنسا، وبها

(55) راجع تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية مصدر سابق. ود محمد بن عبود رحمه الله مركز الأجانب في مراكش.

ستقتدي اسبانيا وبقية دول أوربا التي ستتفق على المغرب، ورغم ما بينها من خلاف جمع بينها توافق المصالح، فكانت المعاهدة الانجليزية الفرنسية 1860م/1277هـ، والتي كانت نتيجة ظهور مشروع قناة السويس 1859م /1276هـ، وإنشاء البنك العثماني 1862م/ 1279هـ، كما عرفت في هذه المرحلة كذلك معاهدات بين الانجليزوالبلجيك والألمان والإيطاليين والنمسا وسويسرا، حتى لا يحصل صدام بينها من أجل الاستعمار، بل وفي هذه المرحلة كذلك أصبح المغرب في نظر جميع الدول المذكورة موضع اهتمام لمركزه من العالم عموما وبالنسبة للبحرين العظيمين الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلسي بالأخص، غير أنه رغم اهتمام تلك الدول التي كان من الممكن أن يكون التنافس بينها من عوامل استفادة المغرب، فإنه على العكس من ذلك، لأن البداية التي خطط لها الانجليز بمعاهدة 1856م جلعت لندن ومنشسطر ولفربول، بحكم قاعدة جبل طارق التي هي على بعد أميال، وما تعرفه أيضا من واردات، أكثر علاقة بالصادر من المغرب، وإن كان بعد قد تحول إلى شبه معادلة مع مدريد وباريز ومرسيلية، عندما ظهرت المواصلات التجارية بواسطة البحر، وقتها أصبح المغرب مقصد التجار بكثرة، كما كثرت فيه الجاليات الأجنبية، بل كانت المواصلات البحرية دافعا بالمغاربة ليتفتحوا على العالم الخارجي، خصوصا بعدما أصبح للشركات مراكز وممثلين في طنجة وغيرها من موانئ المغرب مثل :العرائش، وسلا، والرباط، وتطوان، والجديدة، والسويرة، وأجادير.

ولولا الصور المشوهة التي كان يرسمها جهل وخيال المغامرين من الأوربيين الذين كانوا يقصدون المغرب من أجل التمهيد للاستعمار، والذين كانوا يصورون المغاربة في أبشع صورة حتى تقبل شعوب أوربا على مساعدة حكوماتها وتشجيعها على غزو المغرب وحكم المغاربة الذين قالوا عنهم إنهم نظريا مستعدون أن يستعمروا، لأنهم متخلفون، وليست لهم روح وطنية، وأن حكامهم غير قادرين على ضبطهم، والذين هم تحت نفوذهم لم يفعلوا ذلك إلا بالقهر والقمع والإرهاق، وكانت هذه الصور طبعا من أولئك الذين لم يعرفوا من المغرب غير أيام قضوها في أحد الموانئ ثم رأوا بعض المظاهر التي لم يستطيعوا تحليلها ولافهم أسبابها ودوافعها، خصوصا إذا كانت اللغة هي الأساس والتي كانوا لا يعرفونها، وإذا كان بعضهم قد استطاع الوصول إلى بعض الحقائق

السياسية ولو من خلال نظرات خاطفة صادفه فيها الحظ فأصاب كبد الحقيقة، فإن الغالب الأكثر من كتابات الأوربيين في تلك المرحلة عموما والانجليز والفرنسيون بالأخص، وباستثناء بعض مذكرات القناصل، وليست كلها ـ كانت السبب في إعطاء صورة مشوهة عن المغرب، ساهمت في الإقبال بحماس على استعماره بروح صليبية سنراها في دور الأسبان وما يجره من مآسي على المغرب.

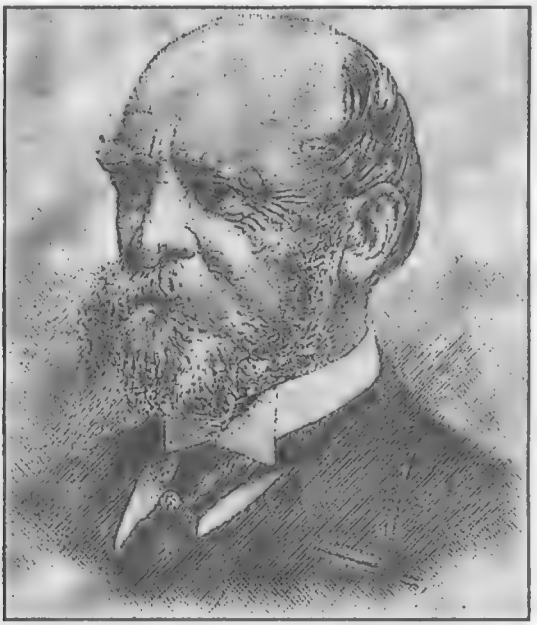

القنصل الأنجليزي بالمغرب درْمُونْدْهَايْ الذي دامت خدماته لبلاده بالمغرب واحدا وأربعين سنة تدخل أثناءها بكيد ودس في كل شيء بما في ذلك السجون والرقيق وتوزيع الحمايات بلاحساب... راجع تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية270-272 ود الاسلامية جـ1 والاتحاف لابن زيدان 213/3 واذا هو غادر المغرب يوم6/14 عام 1886 وقد جاوز التسعين عاما من عمره فقد حل مكانه من هو أشد منه حقدا على العرب والمسلمين كذلك هو الاستعماري المستشرق "وليم كيربي جرين" الذي دفع يهود المغرب إلى الخيانة باعتناق الحمايات بل هو الذي جر عليهم من العداوات ماعرفوا معها اشد الحقد وفترات النكال واخيرا بسبب ما حقق لهم هاي من الكراهية وذلك بالرشاوي التي طبع بها كل رجالات الدولة الذين اصبحوا يتقاضونها علنا وبلا حرج، حتى أصبحت تعرف عند المسؤولين المغاربة بـ (الحلاوة).

الفصل الواحد و الستون بعد المائة

المأساة السادسة

دور الاسبان في هدم المغرب واستعماره

كانت موقعة إيسلي كما رأينا هي بداية المآسي في تاريخ المغرب المعاصر، لأنها بداية الانهزام المكشوف وتمزيق الستار الذي كان يحجب المغرب المريض ويستر عيوبه التي ظهرت واضحة للجميع بعد موت السلطانين إسماعيل ومحمد بن عبد الله، فكان وضع المغرب ومآل إليه دافعا ملحا للاسبان كي يقوموا بمحاولة هدم للعدو التقليدي القديم، وإذا لم تمكنهم تلك المحاولة ولو من بعض ما حققه الفرنسيون في الجزائر، فلا أقل تمكنهم من التوسع والزيادة في الممتلكات المغتصبة في الشاطئ المقابل لسبتة، ومليلية، ثم تشعر الفرنسيس بوجودهم في المنطقة، خصوصا وأنهم منذ عهد مؤتمر فينا1815م الذي شارك فيه لباردو باسم اسبانيا ضمن 23 عضوا تابعين لبقية الدول الثمانية(56)، من وقتها واسبانيا تسير نحو المنحدر بخطى واسعة، في الوقت الذي تسير فيه دول أوربا نحو التقدم والرقي والازدهار، بل أصبحت فرنسا تملي وهي تسمع وتقلد، وقد حصل ذلك في دستور 1812م الذي حاول تقليد الدستور الفرنسي 1791م، لكن فرديناند لما عاد إلى العرش 1814م = 1230هـ وقف ضد هذا الدستور الذي يقيد سلطة العرش والجالس عليه، بل ألغاه ثم أتبعه بحل مجلس النواب الكورتيس، واعتقل زعماء الأحرار، ثم قيد الحرية الدينية والسياسية، وبعث محاكم التفتيش وأعاد رقابة الصحافة، ورد للملكية والأشراف ورجال الدين امتيازاتهم الأولى، وبسبب ذلك عرفت اسبانيا هزات تكررت من أجل تحويل الملكية إلى جمهورية، فكانت ثورة 1820م/1236هـ بقيادة ضابطين هما : كويروجا، وريجو" وهي الثورة التي أخضعت الملك ثم عادت به لقبول دستور 1812م

(56) راجع تاريخ القرن 19 ص 82 ط 1924 مصدر سابق.

وقبول الكورتيس وحكومة الأحرار، لكن الملك خان يمينه، مما دفع فرنسا أن تقدمت بطلبها لدول أوروبا في مؤتمر فيرونا عام 1822م(57) من أجل أن يعهد إليها بالعمل من أجل إعادة فرديناند إلى سلطانه، فنالت الموافقة رغم احتجاج الانجليز، وفعلا أعاده الفرنسيون ثم بقوا في البلاد لحمايته حتى سنة 1828م/ 1244هـ، وزاد اسبانيا دفعا إلى هاوية التخلف بالنسبة لدول أوربا عمل بريطانيا على تحرير المستعمرات الاسبانية في أمريكا مؤيدة في ذلك برئيسها منرو، حيث فازت تلك المستعمرات باستقلالها لما أعلن الرئيس المذكور في 2-12-1823م أن تدخل الدول الأوربية في شؤون القارة الامريكية يهدد سلامة الولايات المتحدة، ويعتبر غير ودي(58).

ولما انتهى فرديناند السابع وحلت مكانه ابنته إيزابيلا الثانية 1833م/1249هـ قام ضدها عمها دون كارلوس، وكان الجيش وأهل المدن والأحرار ينتمون إلى الملكية ومن ورائهم الحكومات الفرنسية والانجليزية، وكان رجال الدين والأشراف وسكان البوادي يناصرون دون كارسولس، يساندهم الحكومات الرجعية في وسط أوربا، مما دفع بالحرب الأهلية إلى زيادة اشتعال، فعرفت البلاد الكثير من الفوضى والتنكيل بكل معارض حتى تعطلت الحركة في كثير من النواحي بسبب التطاحن القاتل والجو المرعب المخيف، في الوقت الذي كانت الملكة وبطانتها يرتكبون من الفظائع ما هو مسجل في تاريخ تلك الفترة التي ستنتهي بها وبفجورها إلى الفرار من الشعب ثم تلجأ إلى فرنسا حيث ستموت منبوذة محقرة بها، بل لولا مصاهرة نابليون الثالث للاسبان بواحدة منهم 1863م كانت لها سلطة عليه، لما وجدت إيزابيلا ملجأ في أخريات حياتها(59) خصوصا وأنها تزوجت قبل من أمير فرنسي وهو الزواج الذي أحدث أزمة بين الفرنسيين والانجليز، إنتهت بنقض الاتفاق الودي بين الدولتين 1844م/1260هـ وبحكم هذا الوضع المضطرب في داخل اسبانيا ثم بحكم ما شاهدت بعد من محاولات السلطان محمد بن عبد الرحمان للسير في طريق دفع عجلة المغرب نحو التطور العسكري والاقتصادي، اندفع الاسبان مؤيدين

---

(57) نفس المصدر 92.

(58) راجع الموسوعة العربية ص 284 ط 1965.

(59) نفس المصدر 91.

بفرنسا معنويا للقيام بعمل ضد المغرب، خصوصا وقد تزعمته الطوائف الدينية بعد قتل المغاربة لوكيل القنصل الاسباني في مدينة الجديدة، منذ 1844م/1260هـ حتى كاد الاسبان معه ينضمون إلى الفرنسيين في حربهم مع المغرب لولا تدخل الانجليز الذين ضغطوا عليهم حتى قبلوا تعويضا ماليا، لكنهم مع ذلك احتلوا جزيرة زامنارين التي كانت فرنسا تنوي احتلالها، وإن كانوا قد فشلوا في احتلال جزيرة برجيل الاستراتيجية، والمواجهة لجبل طارق بسبب معارضة الانجليز.

لقد رأينا في الماضي القريب والبعيد أن الاسبان والبرتغال هم العدو التقليدي لأقطار المغرب الكبير منذ الفتح الإسلامي، وذلك بدافع الدين أولا، وثانيا بحكم الجوار وما كان يحدث من صراع عبر التاريخ عرف جنوب بلاد الاسبان الذي هو الأندلس خلاله الخضوع للمغرب زمنا غير قصير، وأن المغاربة أيام كانوا من المهتدين قيادة وشعبا هم الذين مددوا في تاريخ الإسلام بالأندلس لمدة ثمانية قرون، وحتى بعدما تبدلت الأيام والناس، عاش المغرب دوما في قوة ومنعة من سيطرة الاسبان، سواء زمن امبراطوريتهم المترامية الأطراف شرقا وغربا، أو قبلها وبعدها، وإن كانوا منذ سقوط الأندلس وآخر معاقلها غرناطة التي عرفت معها وصية إيزابيلا الأولى، والاسبان يتطلعون كلما استشعروا القوة إلى احتلال مركز ما في الشاطئ المقابل من تونس إلى المغرب الأقصى، يدفعهم لذلك تقسيم ألكسندر الثالث للمغرب بينهم وبين البرتغال. وقد داموا يحدوهم ذلك الأمل في صراع مستمر مع أقطار المغرب التي كلفتهم الكثير، لكنهم انتهوا آخر القرن 15م إلى احتلال سبتة ومليلية وهو حلم خطط له أميرها المكتشف الأول هنري البحار 1394ـ1460م/794ـ865هـ(60) وقد بذلوا في سبيل المحافظة عليهما الكثير جدا من الجهد والمال، وعندما ظهرت القارة الأمريكية التي توجهوا نحوها بنشاطهم فأبعدهم ذلك عن الاهتمام بشمال افريقيا التي عرفت في نفس التاريخ رجالا عظاما تمثلوا في الأخوين أوروج وخير الدين شرقا، ثم البحارة المغاربة في عهد أحمد المنصور غربا، بل في عهد هذا السلطان كان فيليب الثاني الذي لم تحقق مكايده ما كان يريده للمغرب، وبعد

(60) كان من الذين حققوا حلم الاسبان كذلك الضابط الاسباني بيير اليستون بيتان الذي استولى على مليلية1490م.

المنصور عرف المغرب أبطالا ذادوا عن حماه سبق ذكرهم، كالعياشي، وغيلان، وآل النقسيس، والسلطان إسماعيل الذي طردهم من مختلف الموانئ التي استولوا عليها بسبب ما عرف المغرب من تدهور بعد موت المنصور وتطاحن أولاده، ولئن حصل مثله بين أبناء المولى إسماعيل والذي بسببه فك الحصار بعد ثلاثين سنة عن سبتة ومليلية، فإنه سرعان ما عاد التأزم بين المغرب والاسبان بعد تولية محمد بن عبد الله حفيد المولى إسماعيل والذي نهض بالمغرب، لكنه انشغل عن الاسبان كما انشغلوا هم عنه، كل بمشاكله، واختفت فكرة التوسع في المغرب بين الاسبان بعد تبادل الأسرى كلية بين الجانبين زمن شارل 3 حين عقدت بينهما المعاهدة التي نظمت العلاقة بين الدولتين بعد الصلح الذي زور فيه الاسبان على غباوة الممثل المغربي ابن عثمان فأصبح الصلح برا وبحرا، بعدما كان السلطان يحسب أنه برا لا بحرا، ولم يظهر التزوير إلا بعدما أراد مهاجمتهم من البحرفأدلوا بنص المعاهدة التي مثل المغرب فيها ابن عثمان الذي قالت عنه وثائق الانجليز أنه كان مرتشيا من الاسبان(61) بل إن تلك المعاهدة كذلك هي التي نظمت العلاقات السياسية للاسبان في موانئ المغرب، ثم مكنتهم من حقوق لم تكن لهم ولا لغيرهم في المغرب، تجاه مواطنيهم من الاسبان، والتي بالغوا في استعمالها بنية أسوأ، مما أثار ضغينة السلطان محمد بن عبد الله، ففكر في حربهم بحرا عندما حرر الجديدة من يد البرتغال 1183هـ/1769م فظهر من الاسبان تذمرا أدى إلى التحرك لردعهم عن طريق البحر فاستظهروا بمعاهدة 1181هـ/1767م المشار إليها، لكن السلطان يقول الزياني في البستان رد عليهم بقوله : إنه لو كان الأمر كما تدعون لخرجتم إلينا ودخلنا إليكم في المدينتين المذكورتين، لكن الوفاق سرعان ما عاد بين الطرفين 1195هـ/1780م عندما كان الاسبان في حرب مع الانجليز الذين طردهم المولى محمد بن عبد الله كلية، مع ممثليهم من المغرب بسبب تدخلهم لفائدة حامية جبل طارق، وهم في أرض مغربية، وبسبب هذا الموقف فكر الاسبان في التخلي عن المدينتين، لكنهم عادوا ثم تراجعوا عن موقفهم ذلك تقول بعض المصادر.

أما في عهد المولى سليمان فإن الاسبان استطاعوا أن ينتزعوا من هذا السلطان

(61) راجع تاريخ العلاقات الانجليزية ص 172.

الذي عرف بحسن المعاملة واللين، مما جر عليه المشاكل والضعف أمام المتزاحمين ما لم يكن قبل، فقد منحهم ما لم يعرف قبل لالهم ولا لغيرهم من تسهيلات قضائية في المعاهدة، التي أبرمت سنة 1212هـ/1797م وهي التي اشتملت على 38 مادة كما في الانجليزية، تضمنت النص على حقوق الاسبانيين ورعايتهم بالمغرب، كما تضمنت أول امتياز قضائي أعطى للأجانب وهو رجوع المغربي في بلاده إلى القضاء الاسباني في حالة نزاع بين الطرفين في أرض المغرب، وهو ما سمي بقاعدة «المدعي يتبع المدعى عليه إلى محكمته» وكان هذا الاعتراف كما أشرنا في الانجليزية أول مخالفة لقانون الدولة المغربية الذي هو الشريعة الإسلامية التي لا تسمح بالحكم لغير المسلم في بلاد الإسلام، بل كانت أول معول في هدم صرح المغرب الذي سيعرف مثله من كل الدول الأوربية بعد، والتي كلها ستحصل على نفس الامتياز بعد المعاهدة الأنجليزية المشؤومة.

ولعل سائلا يسأل لماذا أقدم المولى سيمان على هذا العمل الفظيع؟ وهو من هو علما وتعقلا ودينا وخلقا وسلوكا، نحن لانجد لذلك مبررا غير أن المولى سليمان وكما سبق أن بينا كان وقت أن ذهب نابليون إلى مصر غازيا لا يزال في نزاع مع إخوته الذين لم ينته بعد من القضاء على مزاحمتهم إياه، وقد كان للاسبان ضلع في إثارة أخويه الحسين وهشام وما قام به الوسيط الزنديق الفاسد المرتشي عبد الرحمان بناصر العبدي، ولما فشلوا في ذلك فكر رئيس الوزارة جودى في إعلان الحرب على المغرب، وإذا هو اصطدم بإرادة ملكه شارل الرابع، فإن اسبانيا لجأت إلى تحقيق أغراضها بطريقة أخرى هي طريقة المعاهدة التي لم يجد السلطان بدا من الموافقة على ما ورد فيها، هذا مع العلم أن إسبانيا منذ ما بعد شارل الرابع وهي في كوارث داخلية تقوى وتضعف حسب الظروف، بل عندما تطورت أوربا سياسيا واقتصاديا ثم عرفت عصر الآلة، رجعت اسبانيا إلى انكماش وتخلف، بل انحطت إلى الأسفل حتى أصبحت خلال العصر الذي نحن بسدد الكتابة حوله، وهو عصر إيزابيلا(2) تمثل الفوضى والفتن والمؤامرات التي نتجت عنها الحروب الطاحنة بين الأحرار والمحافظين، أى بين الملكيين وإعادة الجمهورية، لكنها بالنسبة للمغرب الذي انهار بسبب التطاحن بين الإخوة من جانب والحروب القبلية التي نتجت عنها "السيبة" من جانب آخر، لم تكن كذلك، فقد حاولوا جمع قواهم وتوحيد

صفوفهم التي تزعم رجال الدين من الكاثوليك الدعوة لتحقيق ذلك، خصوصا وقد رأوا ما تم لفرنسا من فتح للجزائر بعدما أخرجوهم منها قبل وهم صاغرون، وتلك آثارهم الدالة على ماضيهم القريب والبعيد في كل من بجاية ومستغانم وشرشال ثم وهران، بل وحتى تونس وطرابلس، بل إن المغرب في زعمهم يمثل مع اسبانيا وحدة جغرافية واقتصادية، بل وها قوته الإسلامية التي أذلتهم قبل قد انهارت بسبب ما تفشي فيه من ظلم وبغي وفساد، وحتى أصبحت بعض مناطقه شرقا تحت رحمة فرنسا التي انتصرت عليه في موقعة إيسلي، وها قد أصبح لهم وللانجليز وجود مادي ومعنوي حاد داخل البلاط المغربي ، وأنهم لا يعملون لتحقيق شيء غير التسابق للاستعمار بتنافسهم حول السلطان وحاشيته التي لم يعد لها شغل غير ما تنتظر من رشاوي القناصل كما رأينا، وسنرى من اعترافات هؤلاء، فلم لا يحاول الاسبان رغم ظروفهم التي تختلف عن غيرهم، وكيف وقد كانت محاولتهم الأولى ناجحة ولم تقابل بما يثير التخوف عندما استولوا على الجزائر الجعفرية 1260هـ/1843م ثم جزر زافارين "الزعفران" الثلاث بعد خمس سنوات1265هـ/1848م.

لقد عرفنا كيف كان للاسبان وجود في كل من سبتة ومليلية، وهما أقرب نقطة في شاطئ المغرب إلى شاطئ أوربا، وكان وجودهم بسبتة كما رأينا منذ القرون الخوالي 1415م رغم وجود قوات البرتغاليين قديما والاسبان بعدهم، وما كان لهم من سلطان على مدينة سبتة، فإن نفوذهم لم يتجاوز أسوار المدينة حتى إن بعض الأنجليز كتب يصف واقع الاسبان في مدينة سبتة وأنهم إذا أرادوا جمع الحطب مما حول المدينة يحتاجون إلى استعداد عسكري مرهق فكيف لوقلنا له اليوم إن الماء الذي يشرب سكان المدينتين هو مما حولهم من الأرض التي هي تحت نفوذ المغاربة.

ولقد بقيت دارلقمان على حالها أكثر من قرنين ونصف، إلى ما بعد احتلال الجزائر وموقعة إيسلي، ثم المعاهدة الانجليزية التي حققت للأنجليز ما أثار ضغائن الفرنسيين وشدد من حقد الاسبان الذين لم يحققوا ما يقرب من ذلك، رغم صراعهم الطويل، بل منذ عهد الراهب المتعصب فرنسيسكو خيمينيس الذي بلغ غلوه إلى حد الإيمان بوجوب تحويل بلاد المغرب إلى أرض كاثوليكية، مغرورا في ذلك بما تم من تحول سريع من

النصرانية إلى الإسلام وقت الفتح، وما كان للانجليز في نظرهم، وربما هو الواقع أن يحققوا ذلك إلا بمظاهرة السفن التي قاموا بها أمام الشاطئ كتهديد بعدما هيأوا لها بشراء ما حول السلطان من ضعاف النفوس الذين كشفهم "هاي" القنصل الانجليزي، ولم لا يقوم الاسبان بنفس التجربة ولو بطريقة أعنف، وقويت الرغبة عندما أسند الحكم إلى نيرفايز مكان المارشال أودنيل كرئيس للوزراء،(62) وهو الذي فكر في الخروج بصراع الاسبان وحروبهم منقسمين بين الملكة وعمها إلى خارج البلاد ومع عدو تقليدي يتفق عليه الجميع حسب الوصايا القديمة، وهو المغرب.

وبدأت الحكومة جولتها في ذلك الإتجاه بسبب تافه اتخذ كشرارة أولى هو :" أسر باخرة اسبانية كان قد حصل من طرف أهل الريف حماة الشاطئ الشمالي للمغرب، حيث قام أهل قلعية رأس الثلاث مدارى، سنة 1845م/1262هـ بالهجوم على أكثر من ثلاثين سفينة أوربية كرد فعل على تسلط الاسبان على زوارقهم التي صادروا لهم بها ما قيمته ألفي 2000 جنيه، كما أن بني شيكر استولوا على 3 بواخر أنجليزية وفرنسية وشراعية اسبانية، فوجدها الاسبان فرصة واختلقوا الأزمة بسبب مركبهم الشراعي، لكن المغرب قضى على تلك الأزمة بما قدم من ترضية سعى إليها قنصل الانجليز "هاي" الذي كان يعرف ما يعمل حين جر المغرب إلى دفع مبلغ ألفي جنيه، وذلك ما كان يرضيه ويرضي الفرنسيين والاسبان ما دام في الأمر استنزاف للمغرب المتأزم وضعه والمهدد من فرنسا، وتم الاتفاق يوم 24ـ9ـ1859 هذا مع العلم أن المولى عبد الرحمان كان قبل قد حاول رغم تحرش الاسبان في وقت غير مناسب ـ أن يحسن معهم العلاقة ما أمكن، وذلك حين تقدموا بمطالب سبع للمغرب بواسطة القنصل "هاي"، وضمنهاإعادة حدود سبتة إلى ما كانت عليه، فأمر بذلك وتم بمحضر الواسطة الذي هو "هاي"، كما نصت الوثيقة، ثم قنصل اسبانيا وقتها انطونيو برمندي، وحاكم سبتة الجنرال أودينيل، وشيخ أنجرة قنجاع، وقائد سبتة أحمد العسري، وذلك بتاريخ 13 رمضان 1260هـ/7ـ10ـ1844 أي بعد هزيمة إيسلي بأقل من شهرين مما يستدل به على خبث الاسبان وأنهم وقتها أخذوا يبحثون عن وسيلة للقيام بعمل ما ضد المغرب اقتداء بالفرنسيين، ورغم الاتفاق السابق،

(62) راجع د : البستاني 346/3 وما بعدها.

سعى السلطان إلى تحقيق اتفاق آخر تم يوم 28 ربيع الثاني عام 1261هـ/5.6.1845م(63) إلا أن خبث الاسبان وحقدهم بقي هو هو، ولم يلق بالشعب الاسباني الذي سممه حكامه غير أنه يقدم على حرب "الكفار" فكانت جموعه تزداد حماسا حتى انتهى إلى إيزابيلا نفسها التي تبرعت بحليها من أجل فتح بلاد الكفار، كل ذلك وحكومة الاسبان كما عبر الخطيب التطواني واهمة منجرة إلى وهمها بسبب لهجة "نائبها".

ولايفوتنا هنا أن نشير إلى أن مما زاد في حنق الاسبان هو أن السلطان محمد بن عبد الرحمن ما كاد ينصب حتى نادى بإرسال سفارتين إلى كل من فرنسا وبريطانيا، الأولى لنا بليون3 ملك فرنسا برعاية ابن إدريس العمروي الحسني يقول ابن زيدان في الاتحاف ج 2/33 ـ 34 وهو صاحب الرحلة المسماة "تحفة الملك العزيز لمملكة باريز" والثانية إلى ملكة بريطانيا فكتوريا، كلف بها الحاج عبد الرحمان العاجي ومحمد الشامي، وعضوية محمد الطاهر بن عبد الرحمان الفاسي، وكانت بتاريخ 13 ذو القعدة 1276هـ/2.6.1860 وهو تاريخ الثانية كذلك، والتي كتب عنها محمد الطاهر بن عبد الرحمان بعنوان "الرحلة الإبريزية إلى الديار الانجليزية" ط 1967م، هذا في الوقت الذي لم يقم بشيء من الاعتبار نحو الاسبان.

وهنا كان على الاسبان وقد فشلت وسيلتهم تلك أن يبحثوا لهم عن أخرى حتى يحولوا ما أصبحت بلادهم تعيشه من اضطرابات وتجمعات داخلية إن لم توجه خارج البلاد ستنتهي إلى ثورة لم يكن في مقدور الذين هيأوا لها أن يواجهوها، وإذا ما استمر هيجان الشعب وتجمعات السياسيين والرهبان. إلى جانب الحروب الطاحنة بين الملكيين والجمهوريين إلى شهر غشت من سنة 1859م /1276هـ، وقد بلغهم أن المولى عبد الرحمن مريض بالكليتين، وهو على فراش الموت، فإنهم وجدوها فرصة دفعوا أثناءها حامية من جنودهم المرابطين بسبتة لمحاولة بناء ثكنة في تراب المغرب خارج حدود المدينة المحتلة باسم حماية وتحصين المدينة التي حصنتها الطبيعة منذ القدم، كما سجل وبكل دقة ابن عبد المنعم الحميري(64) الذي وصفها وصفا لم يعرف لغيره، بل لم يكن بمدينة سبتة ما

(63) راجع الاتحاف لابن زيدان 206/5.

(64) راجع الروض المعطار للحميري ج 2 م خ نا وكذا إختصار الأخبار لمحمد بن القاسم الانصاري السبتي ونزهة المشتاق 528/2 ط القاهرة بدون تاريخ وكتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ص 137 تحقيق د سعد =

يستحق التحصين لأن سكانها كانوا من المشردين الذين يتحملون ظروف شظف العيش بها، وهي المدينة التي عاشت طول عهد الاسبان بها في ضيق وحصار، تستورد كل شيء من اسبانيا حتى الماء، لكن الذي دفعهم للقيام بعملهم المثير زيادة على تحرك الفرنسيس شرقا ناحية الحدود المتاخمة لبني يزناتن وما عرفناه عن أحوالهم في الداخل، هو روح الصليبية التي حركوا بها الجموع، والتي سيطرت على كل التحركات إلى درجة أنها استعملت حتى في بناء الثكنة التي أطلقوا عليها اسم "كلارا" وهي قديسة كاثوليكية، فكان أهل أنجزة يهدمون بالليل ما يخططه مهندسوهم بالنهار، وقبل أن يشرع في البناء إلا بعض الجدران قصد منها الإثارة، مما دفع إلى تعزيز الحامية الاسبانية بفرقتين حلت بالمدينة يوم 30ـ9ـ1859م.

وإذا كانوا قد اختاروا لعملهم هذا وقتا تبلورت فيه النقمة في الشعب الاسباني إلى درجة لم يعد في الإمكان التحكم فيه، فإنها كذلك تبلورت وبشكل قوي وإيمان أقوى في نفوس أهل تلك المنطقة الذين لم يعتمدوا قط على الدولة في حماية ممتلكاتهم والدفاع عن أنفسهم وموطنهم، وإذا كانت منطقتهم قد عرفت القحط والجفاف قبل تلك السنة أي منذ 1858م وهي السنة التي ظهرت فيها تحرشات الاسبانيين ضدهم، فإنهم أخذوا يستعدون لذلك حتى لا يؤخذوا على غفلة، خصوصا وأن السلطان أرسل رسالة إلى قائد تطوان الحاج أحمد بن عبد الكريم(65) الحداد بتاريخ 3 شعبان من سنة 1275 هـ يحثه فيها على الجهاد.

لقد كانت كل من سبتة ومليلية رغم وجودهما في التراب المغربي لا تعتمدان على شيء من المغرب فيما يرجع لحاجيات الاستهلاك اليومي حتى الماء، وكان عدد سكان سبتة أكثر من خمسة آلاف، وفي مليلية نصف هذا العدد، وما ستقدمه حكومة أودنيل من ضحايا قربانا لنهج سياستها أكثر من سكان المدينة الثانية، وهكذا ما كاد المخططون مع البنائين وحماتهم الذين تكاثروا يشرفون على إتمام بعض البناء الذي عملوا فيه بالليل

= زغلول عبد الحميد ط البيضاء 1985 ومعيار الاختيار للسان الدين بن الخطيب ص 71 تحقيق محمد كمال شبانة ط الرباط 1977 ووصف، افريقيا للحسن بن الوزان 316/1 ط بيروت 1983م مصدر سابق.

(65) توفي بتطوان ليلة الجمعة 10 شوال 1276 هـ/1859م ت ت 4.

والنهار مما أثار حمية المواطنين من قبيلة أنجرة المجاهدة الذين قام فيهم المستنفرون حيث تجمعوا واستجمعوا قواهم للهجوم، خصوصا وأن ما خطط للبناء وما تم منه دخلوا به في أرض القبيلة مسافة تبعد عن أسوار المدينة، وخطوط الحدود بما قيل عنه فرسخين أو ثمانمائة قدم، وكان ذلك في نفس الشهر الذي قيل إن التفاهم تم فيه من أجل السفينة الشراعية المذكورة قبل، والذي ثارت ثائرة سكان سبتة ضد الانجليز الذين سعوا في التفاهم بواسطة قنصلهم العام "هاي"، وفي نفس الوقت هجم الفرنسيون شرقا شبه متضامنين مع الاسبان، كما أرسلوا سفينتهم التي لما أظهرت شيئا من ذلك هاجمها أهل تطوان الذين اعتذر عنهم محمد الخطيب ثم كتب للسلطان بذلك.

كل ذلك لم يعبأ به أهل أنجرة ولم يدخلوافي حسابهم شيء منه، بل عندما اكتمل جمعهم قاموا بهجومهم يوم 10 محرم 1276هـ=10غشت 1859م فكانت النتيجة أن هدموا البناء الذي قام تحت حماية القوة المستوردة المشار إليها، ولولا أنهم كانوا قاصدين لما تمكن أهل أنجرة من الهدم، وهناك حامية مسلحة استقدمت بعد المناوشات، ومهما يكن فقد هدم البناء وأهين العلم الاسباني الذي كان قد رفع عليه، الأمر الذي دفع قنصل الاسبان إلى أن يكتب لوزير خارجية بلاده رسالة ختمها بقوله(..واعلموا أن الإهانة الموجهة إلى معسكرنا سوف لاتزيد كونها ومضة براقة تشرق مع سابقاتها على جبين الحصن الاسباني»(66) كما وأن رسالة القنصل المذكور إلى وزير خارجية المغرب وقتها وهو النائب محمد بن عبد الله الخطيب(67) التطواني كانت نابية تتفق وما عرف به الاسبان من سلوك بعيد عن اللطف واللياقة، فقد ورد فيها عن أهل أنجرة عبارات مستمدة مما كان عليه الاسبان وقتها، ملكة وشعبا ورجال جيش وسياسة ورهبان، الكل موغل في الهمجية وسوء التصرف والاندفاع خلف روح الرجعية الدافعة إلى المبالغة في عداء المسيحية الكاثوليكية للإسلام، فأهل أنجرة «المتوحشون الاشقياء» يطالب القنصل الاسباني برؤوس زعمائهم وإلا فستحتل بلادهم، وليس ذلك فحسب، بل تهجم على السلطان بقوله :"فإن الأعمال قد برهنت على أن مولاكم الملك فاقد للقوة والسلطة

(66) بتاريخ 6 صفر هـ 9.5من نفس السنة.
(67) نفس المصدر ص 23.

الضروريتين، حتى يكون مهابا ومطاعا من جانب رعاياه"(68) وفي نفس الرسالة التي حددت الزمان، ثم عينت منه وقت تلقى الجواب بيوم 5-10-1859م ثم مددته إلى 15 منه، والتي تحمل مطالب أربعة يستدل منها على أن الاسبان كانوا يتمنون عدم تحقيقها، وحتى إذا ما تحققت لن تكون غير وسيلة من وسائل إذلال المغرب والمغاربة، ومع ذلك أجاب الخطيب أنه سيتحقق ثلاثة من المطالب الأربعة، ماعدا ما يخص التصريح حول القيام بالأشغال،(69) وهذا يتناقض مع ما سجله التاريخ من أن السلطان رفض التنازل عن المواطنين الذين طالب بهم الاسبان حتى يحاكموا في مدينة سبتة ويعدموا في ساحتها، وكان هذا هو رأي السلطان المتفق عليه من كل المؤرخين المعاصرين، بيد أن الجواب بالقبول كان حسب اجتهاد الخطيب الذي كان ملما بالمشكل ونتائجه، وحتى يجنب البلاد ما كان يعلم مما صمم عليه الاسبان أجاب بالقبول ثم أقنع السلطان الذي وافقه كذلك في رسالة جوابية بعد شهر، إلا أن موافقة السلطان عاد فألغاها بسبب ما حصل مما أشار إليه الأمير العباس بن عبد الرحمن في مذكراته من "تلبيس على السلطان"، ولربما لم يكن كما ظنه الأمير حسب وصفه، بل كان غيرة وحماسا انتصارا لأهل أنجرة الذين ثاروا ضد تصرفات الخطيب بعاطفتهم، خصوصا وأن حاكم سبتة أطلق لنفسه العنان وأصبح يقوم بدوريات عسكرية تعدادها مآت من الجنود في أرض قبيلة أنجرة نفسها، علما منهم أن حالة السلطان الصحية خطيرة وفي تدهور ينذر بالنهاية بين حين وآخر، ورغم ذلك حددوا لمطالبهم عشرة أيام.

ان العاطفة تدفع أيا كان في هذه الحالة إلى اتخاذ ما يناسب عجرفة الاسبان وغلوهم المغيظ، لكن محمد الخطيب بحق كان في المستوى دبلوماسيا حين أجاب بقبول المطالب لتكون إجابته حجة على الاسبان أمام قناصل الدول وقتها، لكن الاسبان كانوا قد انتهوا إلى تخطيط وتنفيذ مقدماته. ولا يمكنهم التراجع دون السير به حتى النهاية، ولذلك لم تزدهم مرونة الخطيب وحسن استعداده للتفاهم إلا رعونة وتحرشا واستفزازا، ولم

---

(68) رسالة الخطيب بتاريخ 8 صفر 7 سبتمبر ص 24 من نفس المصدر، بل من رسالة السلطان نفسه المؤرخة في 7 ربيع الأول هـ=10/5حسب إشارة الخطيب ص 37.

(69) قيل إن حاشية السلطان يتقدمها ابن اليماني استهجنوا عمل الاسبان ثم سخروا من تحركاتهم التي قال عنها أهل انجرة الذين ذهبت وفودهم إلى السلطان أن في استطاعتهم بقليل من المساعدة أن يلقوا بهم في البحر.

تكن زيادة أجل الانتظار قصد تحقيق المطالب بسبب موت السلطان كما قيل، بل كانت وحسب الاستنتاج من أجل الاستعدادات التي كانت جارية في اسبانيا على قدم وساق، والتي من جملتها البحث عن البواخر التي تنقل الجيوش إلى منطقة المعارك المقبلة، ولربما لم يكن المغاربة وقتها يتوفرون على أية معلومات في هذا الشأن لولا سفير الانجليز الذي أخبر الخطيب والزبدي وهما بدورهما كتبا إلى السلطان محمد بن عبد الرحمان الذي كان قد نصب اثرموت والده يوم 30 محرم 1276هـ/30-8-1859م حسب مذكرة ولده العباس، ولذلك فوض للخطيب في قبول المطالب الأربعة والإشراف على تنفيذها، كما كتب الخطيب بذلك بتاريخ 13 ربيع الأول 1276هـ/11-10-1859م إلى القنصل الاسباني، بل إن السلطان مبالغة منه في قبول كل الحلول قصد التخلص من المشكل الذي جسمه له الخطيب بصدق وأمانة، عين نائبا مفوضا لحله وقبول كل الشروط، وهو الحاج محمد الزبدي، وكان مما أغرى الاسبان ليونة الخطيب وطول نفسه ولياقته وقوه احتماله أمام غلو الاسبان وعجرفة خوان بلانكودي ألبايي، القائم بأعمال القنصلية الاسبانية الذي تجاوز كل الحدود، كما عبر الخطيب نفسه لسفير الانجليز في رده على بيان الاسبان بعد إعلان الحرب - حتى إن من يتعامل مع بلانكو كان في حاجة إلى صبر وتحمل أكثر، ولا نقول : إذلالا ومهانة أكثر، لأن الزبدي قدم في هيأة تليق بمن يمثل السلطان، لكن ياليته وقتها لم يفعل حين قدم مصحوبا بعشرة من قواد الجيش يقول الأمير العباس في مذكراته، كانوا يلازمون بابه في هيأتهم وزينتهم؟! لكن مع الأسف ومن خلال تفكير قائد المعركة وقتها وهو الأمير العباس قبل أن يعيش الواقع ويتراجع تعرف ما كانت عليه أفكار الناس وقتها إزاء الاسبان، ولربما ذلك ما انتهى إلى السلطان نفسه، فقد كتب الأمير المذكور رسالة إلى الزبدي يصف فيها الخطيب بالخوف؟ والمكتوب إليه بالتثبت، ونسي الأمير أن خوف الخطيب كان هو الحكمة والشجاعة والإقدام كما يظهر من أسلوب مباشرته للمشاكل من خلال الوثائق، بعيدا عن اللغة والأسلوب اللفظي والبياني، وذلك ما عابه عليه بعض المؤرخين،(70) في حين أن التاريخ لا ينظر لمثل الخطيب إلا من جانب ما قام به من أعمال أبانت عن كفاءته وأنه كان يعيش مشاكل المغرب السياسية، ويقدر ما تعانيه من أحلك

(70) راجع تاريخ تطوان المشار إليه قبل.

الظروف، إذ هو كما عبر حين توصل بظهير تعيين الحاج محمد الزبدي كمعين حسب التعبير السلطاني، فأجاب كما روى الأمير العباس قوله حين قال : لم أحتج إلى مساعدة منذ ثلاثة عشر عام مضت؟ فكيف حدث ذلك اليوم؟ إن لم يكن القصد هو الضرب على يد الخطيب الذي لم يغرر بالدولة كغيره من المفترين تملقا للسلطان الغارق وقتها فيما لم يعهد من المشاكل بعد موت والده ثم تنصيبه، وسنرى أن الزبدي هو الآخر سيغتر ويغرر بالسلطان الذي كانت المراسلة بينهما تدل على منتهى السذاجة، حتى ليشعر المرء وكأن المسير للمعارك من جانب المغرب إنما هو القنصل "هاي" ولنسمع إلى السلطان نفسه يرد على رسالة للزبدي بتاريخ 15 ربيع الثاني 1276هـ/12ـ11ـ1859م، وقد مضى على الحرب ثمانية عشر يوما والحديث عن الاسبان الذين دخلهم الرعب والفشل "لما رأوا ما عليه المسلمون من الضبط والاستعداد يقول السلطان حسب إخبار الزبدي الذي خالف رأيه كلية وتفصيلا رأي الخطيب، وتستمر الرسالة، وتبين كذبه "الاسبان" وفجوره فيما كان زعمه من أن جنس الفرنصيص وعده بالأخذ بيده فيما يحتاجه، وأن نائب الفرنصيص ورد عليه الكتب من دولتهم بتكذيب الكافر الصبنيولي والتبرى من إعانته وإمداده، وظهرت ثمرة ما دفعته مع نسخ مادار بينكم وبينه لنواب الأجناس، وأنه دمره الله وخيب سعيه لما رأى ما عليه الثغور من التحصين طمع في الإتيان لأصيلة، لما علم من تفريطها، فوجهتم من ينظر في أمرها بما أشار به عليكم نائب الانجليز(71)...إلخ

إن المغرب عبر تاريخه لم يعرف هذا المستوى المنحط في السياسة، سواء في الداخل أو الخارج، بل ولم يعرف في معاملاته الدولية مرحلة كالتي بدأت منذ ما بعد معركة إيسلي التي حطمت معنويات رجالات الدولة بما فيهم السلطان الذي أصبح لا يتحرك ويقف إلا بمشورة القنصل الانجليزي الذي وإن حاول التخلص من ضغط سياسة بلاده، فها هو قد عاد إليها عندما انهارت صحته ثم جاء طبيب انجليزي لعلاجه من داء الكليتين، وبذلك استطاع "هاي" أن يعيد لبلاده تأثيرها على السياسة المغربية، خصوصا وقد استطاع بمهارة أن يثير الضجة حول اتصال الفرنسيين عن طريق قائدهم ملاكوف بالاسبان، حين زار مدريد أيام الأزمة، فقالت عنها الصحافة ما قالت، كما أوحى إلى

(71) تاريخ تطوان 4/112ـ115.

مندوب المغرب كي يكاتب الجهات العليا متهما فرنسا بتضامنها مع الاسبان ضد المغرب، وما هي إلا إثارة ضد أحلام نابليون الثالث، وما كان يتمناه في الأبيض المتوسط.

وهكذا ما تخلص المغرب من فرنسا وتسلطها على حدوده الشرقية، حتى وقع تحت رحمة الاسبان وخبث نكايتهم في ظرف حرج جدا بالنسبة للسلطان الذي هو محمد بن عبد الرحمن بن هشام، الذي لم يعرف الذين مروا قبله ولا الذين جاؤوا بعده ظرفا أشد قساوة، ولاخصما أكثر حقدا وضراوة، مما عرف هو من الأسبان الذين كانوا معززين بمختلف دول أوربا معنويا، فقد كان على هذا السلطان الذي وجب أن يكرمه التاريخ بحق لأنه رغم المستوى الذي عرفته البلاد، والذي صارع بطريقة فيها صدق طوية قصد، وهما فقط ما توفرا لهذا السلطان الذي نصب والدولة في أحط الدرجات حسا ومعنى كما سنرى. فقد كان على المولي محمد بن عبد الرحمن رغم ذلك وفي وقت واحد أن يواجه أثر موت والده الذي كان وإياه على علاقة جد طيبة تتسم بصفاء صادق وروحانية عالية، وفي فقده في تلك الظروف خسارة أكبر من أن يتحملها، كما كان عليه أن يتحمل أعباء تسيير الدولة التي آلت في الإدارة والجيش إلى أحط درجات الضعف والتفكك بشكل مريع ومخيف يظهر من مستوى تفكير المسؤولين حوله وقتها، كما نلاحظ من الرسالة الموجهة إلى الحاج محمد الزبدي(72) وحالة الحرب قائمة بين المغرب والأسبان، وفيها يخبر السلطان كلا من الزبدي والخطيب بقوله إنه «بلغنا أن"الكرة" الحرب إذا أريد عقدها لابد من اتفاق المتنازعين في وقتها بأن يجعل أجل لها، وفي محل الخروج للقتال بأن يقال مثلا المحل الذي يخرج فيه الكافر هو المحل الفلاني لا غيره؟!» فإن كان هذا الذي بلغنا صحيحا وقانونا فنحب أن يجعل مع الكافر أجل ريثما يأخذ الناس أهبتهم على الوجه الأكمل، وأن يعين المحل الذي يخرج فيه ليقاتل بما يجب أن يقابل به، وإن كان ذلك غير صحيح فلا علينا فيه والاستعانة بالله، وما هذا إلا كلام بلغنا أخبرناكم به والسلام» .

هذه الرسالة وهي صحيحة لامحالة ومن مصدر صحيح رغم تخلص السلطان أخيرا مما ورد فيها من تفكير سخيف إن دلت على شيء فإنها تدل على المستوى الذي تردى فيه الفكر السياسي في أعلى مرافق الدولة التي سنرى كيف أنها لم تقتصر على

(72) الرسالة بتاريخ 13 ربيع الثاني عام 1276 هـ - 10-11-1859م المرجع تاريخ تطوان ج 109/4.

ذلك فحسب، بل ماديا كذلك، حتى إنها سوف لا تواجه قوات الأسبان بغير ما قيل عنه أكثر من الألف بقليل، ولولا وطنية المغاربة وكذا ما هدد مصالح الأنجليز التي ضمنتها الإتفاقية المأساة معهم 1856م، والتي أعطت أهم النتائج لصالح الأنجليز، بل ولولا استجابة الشعب لنداء الجهاد رغم عدم الاستعداد، إلى غير ذلك مما كان له أثر في الموقف، لكان الشاطئ الشمالي للمغرب وما حوله مثل سبتة ومليلية اليوم، بل ولربما وبلا تهويل أو مبالغة أصبح شطر من الشعب المغربي يدين كرها بالكثلكة كما فعل الاسبان بالأندلس وجنوبها تحت رحمة محاكم التفتيش التي كانوا على استعداد لبعثها من جديد، ملكة ورهبانا وقواد جيش، حسب رغبة ووصايا السابقين من إيزابيلا الأولى إلى الراهب فرنيسكو خيمينيس الذي أحرق عشرات الآلاف من الكتب العربية، لكن إيمان السلطان وشهامة المغاربة ونخوة قبيلة أنجرة رغم ما قيل في حقها من الموتورين ضعفاء الإيمان ردت العدوان الفاجر على أن هذه الحرب من الاسبان وكما سنرى ان التخطيط لها كان باقتباس واقع ما حصل قبل مع الفرنسيين بعد حرب إيسلي والذين حققوا لهم فوق ما حققته معاهدة المأساة الخامسة للإنجليز من مكاسب مادية ومعنوية، وكذلك سنرى أن حرب الاسبان لم تكن تقصد هي الأخرى فقط غير تحقيق ما انتهت إليه من مكاسب مالية، وحتى نقف على هذه الحقيقة التي لم يكن للمؤرخين فيها رأي، وجب أن نعود إلى موضوع المطالب الأربعة التي وضعت كوسيلة تعجيز تمكن الأسبان من تحقيق غرضهم الهادف بالحرب مع حكومة علموا أنها تعاني من الوضع الشاذ الذي أصبحت عليه.

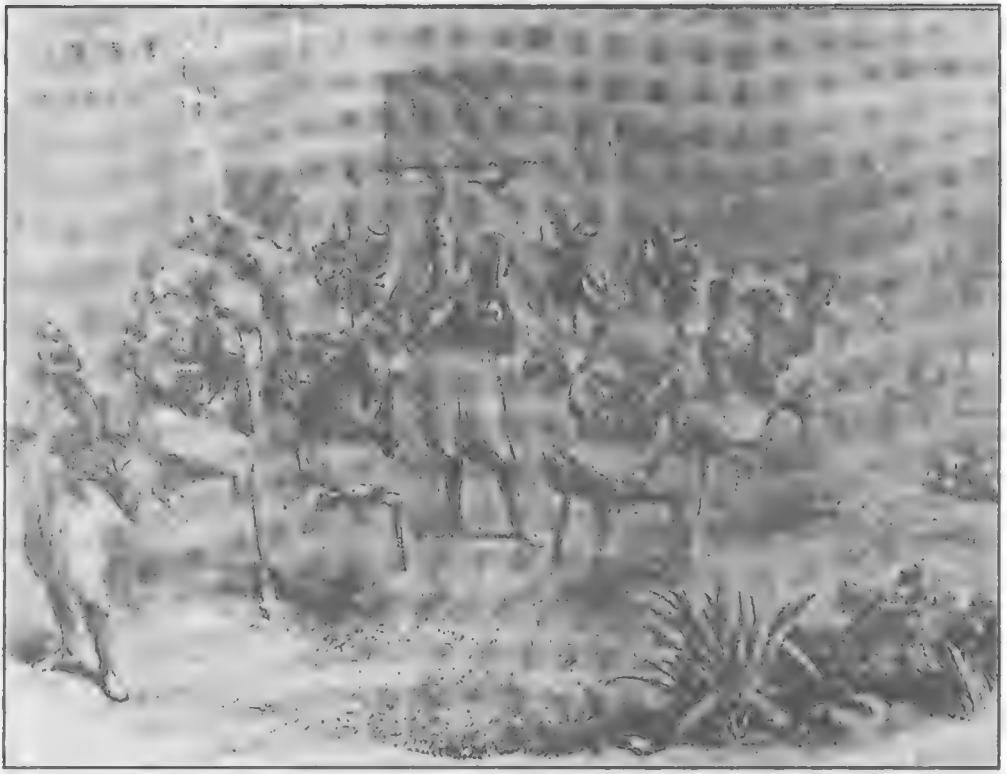

أهل الريف من المرابطين على مدينة سبتة في لعبة الفروسية مجلة الشعاع رقم191
بتاريخ Lunivers Illustré1862/1/9.

الفصل الثاني والستون بعد المائة

المأساة السابعة

تحديد مواقف المغاربة والاسبان والأنجليز قبل غزو تطوان

كتب القائم بأعمال القنصلية الاسبانية وقتها "خوان بلانكودي البابيى" رسالة إلى النائب محمد بن عبد الله الخطيب، الذي كان هو وزير الخارجية وقتها، وكان مقره بطنجة وكان تاريخ الرسالة كما سبق هو 6 صفر 1276هـ/5-9-1859م، وكانت الرسالة شديدة اللهجة عنيفة الانفعال مقصودة الإثارة في كل فقرة من فقراتها : وهذا آخر ما ورد فيها :"وإذا كانت حكومة جلالة السلطان ترى أن ليس في ميسورها ذلك فأخبرونا سريعا، فإن الجيوش الاسبانية بتوغلها في أراضيكم سوف تشعر تلك القبائل الهمجية والمتأخرة عن العصر الذي نحن فيه..."(73) ثم استرسل على هذا المنوال ليختم رسالته ترضية لمطالب حكومة مدريد والتي هي :

1) إعادة رفع العلم الاسباني في محله، وقيام جيوش السلطان بتحيته من نفس المكان الذي نكس فيه.

2) أن يساق المعتدون إلي ميدان سبتة ليعاقبوا بصرامة على مرأى من حاميتها ومشهد من سكانها(74).

3) إصدار تصريح رسمي بمنح حكومة الملكة حق تشييد التحصينات التي تراها ضرورية لسلامة سبتة.

4) اتخاذ الوسائل التي أشرت عليكم بها في محادثتنا الأخيرة وفقا لتكرار ما

---

(73) بعض الرسالة أشرنا إليه قبل.

(74) وقيل انها كانت تقصد جبل موسى الواقع في أضيق نقطة من المضيق، وهو أهم من جبل طارق.

سبب تعكير السلام وحسن التفاهم اللذين كانا يسودان بين الدولتين.

فإذا ما حل الأجل المذكور ولم نحصل على هذه الترضية فإني سأنسحب من هذه البلاد وجميع رعايا مملكة سيدتي، وأنتم تعرفون معنى هذا والسلام "(75) ولعل في هذه الجملة الأخيرة ما يكفي للدلالة على أن حكومة اسبانيا كانت وقتها لاتهدف لشيء غير الحرب إذا هي لم تحقق ما تريد وهو التوسع، لم تكن مباذأة "خوان بلانكودي البايي" المقصودة إلا وسيلة من وسائل التمكين للأزمة التي كان صداها يتردد بين الأسبان فيخفف من تطاحنهم في الداخل، ثم يوجه حقدهم خارج البلاد ونحو المغرب والمغاربة، بل ومن خلال كلام ممثل الأسبان نقف على ما كان الخطيب يتحمله في سبيل البعد ببلاده عن الموقف الذي يعلم أنها غير قادرة عليه، خصوصا وأنه كان على اتصال بكل تحركات الاسبان التي كان يبلغها للمسؤولين الذين حولوا الثقة فيه بسبب ما تلقاه السلطان المفترى عليه من عواطف وفد أهل أنجرة وحماسهم الذي كان في حاجة إلى تلطيف وتوجيه وسليم إدراك.

لقد كانت لهجة الممثل الأسباني مستمدة من الواقع الذي أقرته حكومته أو هي كانت على وشك أن تقرره مادامت قد أشاعت في الشعب أنها ستقدم على حرب مع المغرب، ناهيك وقد علمنا أنها أرسلت فرقتان من الجند إلى سبتة كما سبق، بتاريخ30/8/1859م، ثم هي أخذت تستعد قبل أن تتلقى الجواب على تلك المطالب التي قيل إنها نالت القبول من الخطيب المفوض له بذلك، حسب رسالة السلطان المشار إليها قبل والمؤرخة بتاريخ 5/10/1859م، أي بعد رسالة ممثل الأسبان بشهر، بل وفي هذا التاريخ كان الاسبان قد هيأوا للحرب تسعا وثلاثين فرقة من الجيش على مختلف المستويات، من مشاة وفرسان ومدفعية ومهندسين، أرسلوا منها فرقتان إلى سبتة، والباقي وضع على استعداد بالجزيرة الخضراء تحت قيادة الجنرالات الخمس وهم : إيتشاكوى، وكوندي دي باريديس، وكوندي دي ألينا، وكوندي دي ريوس وأورثكو، ثم القوات البحرية وقوامها أربعة عشر بارجة حربية، بقيادة : سيكوندو دياس دي هريرا، أما القيادة العامة فستسند يوم 2/11/1859م إلى الجنرال ليوبول أو دونيل الذي سيتخذ

(75) ت تطوان السابق 23ـ24 والاتحاف لابن زيدان 3/399ـ400 والاستقصا ج 9.

مدينة قادس مقرا لقيادته، وسيأمر بنقل القوات من اسبانية إلى سبتة يوم 11/18 ولو بإيجار بعض السفن الأنجليزية والفرنسية، أي بعد إعلان الحرب بنحو ثلاثة أسابيع ونصف.

كانت القوات التي أعدها الأسبان مكونة من 34.990(76) ما بين ضباط وضباط الصف وجنود موزعين كما يلي :

163 من الرؤساء ثم :

1599 من الضباط ثم :

33.228 من الجنود المحاربين ثم

2.994 من الخيل والبغال.

74 من المدافع

14 باخرة حربية في البحر.

هذا ما أقدم به الأسبان على حرب المغرب الذي لم يكن المسؤولون فيه قد أعدوا ولو 10٪ مقابل ذلك كما سنرى، وكان قد مضى على موقعة إيسلي خمس سنوات وإن كان التاريخ لا يجهل محاولة محمد بن عبد الرحمن النهوض بالجيش مذ كان خليفة لوالده بمراكش، كما حاول والده نفس الشيء حين استقدم مدربين فرنسيين، لكن الوقت كان قدفات والجسم اعتل، ولم يعد العلاج المؤقت بالمفيد.

لقد طال زمن المراسلة بين الجانبين بحيث لم يعد جواب السلطان على رسالة خوان بلانكو المؤرخة ب 6 صفر هـ/5 ـ 9إلا يوم 24 ربيع الأول 1276هـ/22/10/1859م، وهو اليوم الذي أعلن فيه الأسبان الحرب ضد المغرب، وذلك بعد ما تعرضوا مع الأنجليز إلى تفاهم، ثم تعهدوا بعدم دوام الاحتلال أولا، وعدم المساس بمصالحهم ثانية، بحيث كان الوطيس حاميا بين وزير خارجية الأسبان ساتورنينو كالديرون كويانتيس، وموظفي وزارته ضون خابييرا دي استوريث، السفير الاسباني بلندن وأوروبا، وخوان بلانكود البايي قنصل الأسبان بطنجة من جانب، ثم عن الأنجليز اللورد راسل وزير الخارجية وسفيرهم بمدريد أندري بوشنام من جانب آخر، أكثر مما كان بين الأسبان والمغرب الذي

(76) وفي رواية أخرى كان عدد قواتهم 44000 مقاتل.

لم يقل رأيه الرسمي إلا في رسالة السلطان إلى الزبدي حسب التاريخ أعلان، بل والمؤرخة بتاريخ يوم إعلان الحرب من طرف الأسبان وكأنه كان نتيجة علمهم بما ورد في الرسالة السلطانية، والتي جاء فيها بالحرف حول أهل أنجرة المطالبين للقتل والتشفي قول السلطان «... أما ما طلب من قتل أهل أنجرة فلا يحل في شرعنا قتل مسلم إلا بموجب شرعي.. وأما ما طلب من الجبل - يعني جبل موسى - فلا تعطيهم بلاد المسلمين من غير قانون.. وقد كتبنا لسائر المراسي بأخذ الأهبة والاستعداد أولا، وأكدنا عليهم ثانيا(77)...

ألم يكن العلم بما ورد في هذه الرسالة هو الذي حدد يوم إعلان الحرب بعدما انتهى الأسبان من استعداداتهم، ناهيك وأنه منذ هذا العهد أخذت تقاليد الدولة ثم وفاؤها والوفاء لها، في طريق الزوال بعدما آلت إلى ضعف شديد، حتى تطبع الحاكم والمحكوم بالجحود وقلة الوفاء وعدم المحافظة على العهد والسرية.

عندما أعلن الاستعداد للحرب كان سلاح الأسبان كما علمنا مدافع ومقاتلين وبنادق آلية ورصاص مصنوع في معامل الأسبان، وبالمقابل كان سلاح المغاربة بعد العاطفة في الأكثر والإيمان في الأقل : بنادق ملح البارود والرصاص المقطع والسيوف والرماح والمزابر والمقاليع وصيحات المستضعفين؟؟!

حقا لم يكن للمغرب اختيار أمام الوضع الذي دبر، والذي أوجده فيه الأسبان والفرنسيون معا، بل كان السلطان محمد بن عبد الرحمن الذي يعتبر بحق ورغم كل الأخطاء التي هي في صحف من حوله قبل أن يعلق شيء منها بصحيفته، قد عالج الموقف كأحسن ما تكون المعالجة، خصوصا إذا نحن وضعنا في الحساب ما مر بنا من تسوية أوربا لمشاكلها، وأنها شبه اتفقت على الاستعمار خارج القارة الأوربية، وإن كانت لم تتفق بعد على كيفية التوزيع، والمغرب بموقعه الاستراتيجي ومكانته من العالمين القديم والجديد، ومدخراته الكثيرة والمتنوعة، يستحق الاهتمام من كل الدول المتفتحة على الاستعمار، والقوية منها بالأخص، ولم تكن غير بريطانيا وفرنسا، واسبانيا المتصارعة عليه سرا وعلانية وقتها، وستلتحق بالركب ألمانيا بعد فتثير الضجة التي سينتج عنها مؤتمر الجزيرة لصالح دول الاستعمار كذلك سنة 1906م.

---

(77) راجع المصدر السابق.

أمام هذا الصراع الخفي الذي كان المغرب ملكا وشعبا لا يعرف منه إلا القليل رغم حقائقه وخباياه، قامت اسبانيا بما قامت به في سبتة وانطلاقا منها، ولولا أهل أنجرة الذين وقفوا في وجه المكر والتدبير السيء وهم لا يعلمون ما خلف الأكمة، وبذلك أصبحوا هم محور المشكل ومحط النقمة ووسيلة الوصول إلى الهدف، إن هم سلموا للعدو بفعل بهم ما يريد، وله في ذلك أعظم نجاح حسب خطة الأسبان، لكن السلطان محمد بن عبد الرحمن رغم حسن طوية محمد الخطيب الذي كاد يضحى بهم قربانا لمصلحة الوطن، لم يكن ليتنازل عليهم كما قيل، ولو أدى ذلك إلى ما أدى إليه من خسارة في الأنفس والأموال دفاعا عن الحق، وتلك صورة من أروع ما عرف التاريخ لحاكم نحو مواطنيه، بعيدا عن الانتهازية المكيافيلية الخلدونية المقيتة، وإن كانت الضرورات تبيح المحظورات كما يقال فإن محمد بن عبد الرحمن أبى إلا أن يحافظ على كرامة دولته بين الدول وقيمة شعبه بين الشعوب وأن يخوض الحرب وهو كما عرفنا ولا أن يتنازل عن أهل أنجرة الذين كان لهم شرف الدفاع عن كرامة وشرف المغرب والمغاربة.

لقد كان ضمن الشروط الأربعة كما رأينا تلك التي تقدم بها الأسبان للمغرب، والتي ربما قصد منها الإيقاع بين السلطان ومواطنيه، وتسليم اثنى عشر رجلا ذكروا بالإسم(78) من أهل أنجرة وغيرهم من الذين كان لقنصل الأسباب "خوان" بلانكودي البابي، فيهم غرض، بل والذي ظهر أن حقده عليهم كان مستمدا من الحالة النفسية التي كانت تعيشها بلاده التي أثير فيها وبعنف حقد الصليب على الهلال، عندما ثارت ثائرة الكاثوليك بصفة هو جاء لم تقف عند المطالبة بحرب المغرب، بل وضد الأنجليز الذين بدأ تدخلهم للأسباب وكأنه للحيلولة دون تحقيق مصالحهم المرغوبة في المنطقة، بل وهم المستعمرون لصخرة جبل طارق في التراب الإسباني. وتحت هذه الضغوط لم يكن أمام المغرب وسلطانه الجديد ورغم الظروف القاسية حسا ومعنى، إلا أن يقف الموقف الذي يقتضيه الدين والشرع والشرف، بل والذي يجب على المؤرخ أن يقيمه بمنظار ومقياس ذلك العهد الموغل في القيم العالية والتمسك بالدين، استفتى السلطان ما حوله من رجال

(78) مع الأسف لم يدون المؤرخون أسماءهم، وتلك عادة عرفوا بها سواء بالنسبة لمن أحسن أو من أساء، وهو نقص وجب أن يتدارك حتى يكون للتاريخ معناه وبما يقصد منه : أن يقال للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت.

الدولة والعلماء حول اعتداء الأسبان ومطالبتهم تسليم الاثنى عشر رجلا المشار إليهم بالإسم، «لينالوا أقسى عقاب بميدان مدينة سبتة؟!» فكان الجواب الرفض من الجميع- والناس على دين أمرائهم، كما ورد في الأثر.

لم تكن الحرب في صالح المغرب، ولم يكن المغرب بالقادر على الحرب في ذلك الظرف الخطير من تاريخه السياسي، ولذلك كان محمد بن عبد الله الخطيب التطواني يتذرع بالصبر ويتجمل بالاحتمال أمام عنجهية وبذاءة الأسبان، بل ويسعى بكل ماله من وسيلة قصد الوصول إلى التصالح، لكن الأسبان وقد كانوا انتهوا إلى نهاية الدرب المغلق لم يعد أمامهم العودة من حيث أتوا، بل أن يفتحوا لهم مخرجا مهما كانت التكاليف، خصوصا وأنهم استعدوا للحرب وأعدوا لها، فلم يعد لجهود الخطيب من أثر، ناهيك وأنه تبين للإسباب وأن الزبدي ما قدم إلا للقيام بما «لم يستطعه الخطيب» وإن كان كذلك تبين أنه أيضا لم يكن في قدومه كبير فائدة إن لم نقل عكسها، لأنه وقد عاش هو الآخر حماس المرحلة التي مر منها استفتاء السلطان لرجالات الدولة وللعلماء حول موضوع الأسبان ومطالبهم، فإنه كذلك قدم إلى مدينة طنجة، وكله انفعالات عاطفية معاكسة لخطة الخطيب، من غير أن يكون له أدنى إلمام باستعدادات الأسبان الحربية، بل وأن الخطيب ظهر منه أنه وإن لم نقل جرح في كرامته حين أصبح يراجع الزبدي وربما لا يتحرك إلا بمشورته، الأمر الذي أدى إلى الحد من نشاطه بعدما تبين له أن لا فائدة ترجى من الاجتهاد مع قوم اتصفوا بالجحود وقلة الوفاء، إلى درجة أن استعمال الحكمة والاتزان في معالجة المواقف الحرجة أصبح عندهم جبنا وخوفا كما أن اتصاله الوثيق بالقنصل الأنجليزي العام المستشرق الداهية "هاي" جر على الخطيب حقد الأسبان، الذين أصبحوا يرون أن النصر لا محالة بأيديهم بعدما تجمعت لهم أخبار المغرب والمغاربة، ومالهم من وسائل المواجهة، لكنهم كانوا يجهلون بل يتجاهلون أن المغاربة وقتها إذا ما نودي للجهاد فإنهم يقبلون بالآلاف ولا يترددون.

استعد الأسبان بكل الوسائل للحرب التي حشدوا لها ماعرفنا من قواتهم التي وضعوها على الحدود المغربية، كما حصل اتصال بينهم وبين الفرنسيين حيث قام القائد الفرنسي ملاكوف بزيارة مدريد في تلك الأيام، مما جلب الظنون إلى أن هناك حلف

ثنائي يدبر، ولعل الصحافة تناولت هذا الموضوع حتى انتهى خبره إلى الخطيب والزبدي ثم رفع إلى السلطان الذي ما كان له أن يفعل أكثر مما فعل، ولربما تحرك الخطيب في الجولة وبدافع ما عرف به أمكنه أن يثير الأنجليز الذين كانوا يبحثون عن وسيلة للتدخل أكثر والذين كانوا يدركون أنه إذا تم حلف بين الفرنسيين والأسبان لتهددت قاعدتهم بجبل طارق، ثم البوغاز الذي هو طريقهم إلى الهند، ووسيلة تحقيق أهدافهم في الشرق الأوسط، بل ولتهددت مصالحهم التجارية التي عرفت وقتها بنشاط ملحوظ في المنطقة، وهنا أخذ الأنجليز وصحافتهم يرددون ذكرياتهم التاريخية في مدينة طنجة التي كانت بأيديهم قبل أن يخرجهم منها المولى إسماعيل عام 1094هـ/1681م(79) بل وعن حقوقهم التاريخية فيها كذلك، وأن كل مايريده الأنجليز هو حياد المدينة، وهذا لا يتمثل حسب اعتبارهم في غير بلد ضعيف كالمغرب الذي كان سفيرهم "هاي" يفعل فيه وبكبار المسؤلين من أبنائه ما يشاء ويريد، بدعوى النصح، ولما لم يستجب الأسبان لحملة الأنجليز الإعلامية قام هؤلاء باستعراض بحري لسفنهم التي كانت وقتها قد برهنت على أنها أهم قوة مخيفة في البحار، وإذا كان الأسبان وقتها بالنسبة إلى دول أوربا أقرب إلى التخلف فإنهم أخذوا ينددون بالأنجليز على الطريقة التي تقوم بها البلاد المهددة بقوة أكبر، ولم يدركوا أن موقف الأنجليز كان متصلبا ضد الرغبة الجامحة التي أشاعها الأسبان قصد احتلال ما أمكن من التراب المغربي، خصوصا الموانئ والشاطئ الشمالي.

لقد اشتد هيجان الأسبان وحقدهم نحو المغرب العدو التقليدي منذ عهود ضاربة في القدم، والذي كان في أغلبها مقبرة لطغاتهم وإذلالهم عبر التاريخ، ولما جاء وقت الإنتقام في العهد الذي يوجد المغرب في أحرج ظروفه، مات السلطان وحل مكانه ولده المستجد في تسيير شؤون الدولة، بل وحالة المغرب بعد موقعة إيسلي وما نتج عنها من جراح لاتزال طرية ويتألم منها الجميع، ولئن وقف الأنجليز في الطريق حتى لا يفوز الأسبان ويتبدل الموقف في المنطقة، فإن ذلك كان في صالح المغرب، من غير أن يريد الأنجليز ذلك.

---

(79) راجع أول كتاب كتب حول تاريخ العلويين بالمغرب ـ الأنوار الحسنية ـ لأحمد بن عبد العزيز تحقيق المؤلف ص 91 ت 1 ط 1966م.

لقد كان من حسن الطالع وقتها عدم الوفاق بل ولا التفاهم بين الدول الثلاث، اسبانيا وبريطانيا، وهذه مع فرنسا، وذلك رغم معاهدات التسوية التي عرفتها دول أوربا فيما بينها، بل ولم يكن للأسبان عندها كبير اعتبار حتى في عهد المؤتمرات الذي كان للانجليز فيها ونحو الاسبان موقف خاص، عندما وقف وزير خارجيتهم، كما نتج في مؤتمر "فيرونا" VERONA الذي انعقد سنة 1822م للنظر في ثورة اسبانيا، فعارض الوزير المذكور كل تدخل في شؤونها على نحو ما فعلت تلك الدول في نابلي،(80) ولما تقرر انتداب فرنسا لإخضاع الثورة في اسبانيا انسحب الأنجليز من هيأة المؤتمر، وإن كان انسحابهم لم يعتبر من أجل الحرية بقدر ما كان من أجل مصالحهم التجارية، لأن انتصار الثورة يبعد تجارتهم عن التقيدات التي وضعتها اسبانيا لمستعمراتها، ولذلك لما تم انتصار الفرنسيين على الثائرين سارع الأنجليز إلى الاعتراف بالجمهوريات الجديدة في المستعمرات حتى لا تتعرض لإخضاع الفرنسيين، خصوصا تلك التي نشأت في أمريكا الجنوبية، ومن وقتها أصبح الساسة الأنجليز يرددون أنشودتهم التي ذاعت وقتها «كل أمة ترعى مصلحتها والله يرعانا على السواء...»(81) وبالتالي فقد كان لإسبانيا بالنسبة للأنجليز مستوى عديم الجدوى، ولذلك لا عيب ولا غرابة إذا كان لهم اليوم موقف ضد تصرفات الاسبان في المنطقة، خصوصا وان الفرنسيين شرق المغرب لم يقتصروا على ما سطوا عليه بواسطة موقعة إيسلي، بل أخذوا يثيرون المتاعب للمغرب شرقا بحربهم مع قبائل بني يزناتن حتى يجدوا الطريق إلى المغرب المرشح مثل تونس للاستعمار الفرنسي، والذي كان الأنجليز يودون له التطور والاستقرار تحقيقا لمصالحهم التي لم يعاكسها المغاربة قط قبل ظهور الفرنسيين في المنطقة.

لقد أصبحت بلاد الأسبان تغلى كالمرجل، بسبب ما أثاره فيها الرهبان معززين الحكومة والملكة، وهم لا يأمنون الانعكاسات التي تنتج عن التدخل الانجليزي إن هم أعلنوا الحرب ولم يتوصلوا معهم إلى اتفاق يؤمن عدم تدخلهم ولا يحول بينهم وبين الحرب التي أصبحت واقعا معاشا مع المغرب، ولا يمكن التوقف دونها بعدما تحددت

(80) راجع تاريخ ق 19 عهد المؤتمرات ص 91 ط 1924.
(81) المصدر السابق 92.

المواقف ونقل عشرون ألفا(20000) من الجيش الاسباني إلى التراب المغربي بمدينة سبتة، وبعدما دام تبادل المفاوضات بين الأسبان والأنجليز لمدة شهر من 9/10 إلى 1859/10/21م (82) تبادل فيها كل من وزير خارجية الأنجليز "اللوردراسل" ووزير خارجية الأسبان "ساثورنينو كايانتس"، العديد من المراسلات بلغت الأربعة عشر وثيقة، ورد في الخامسة منها ما يستدل به على أن الأنجليز غيروا رأيهم رأسا على عقب، فبعدما كان عدم التدخل والدفع بالسلطان إلى قبول مطالب الأسبان حتى يحولوا دون ما يكدر صفو مصالحهم ولو على حساب المغرب كما تعودوا منه قبل(83).

وإذا هو تشدد هذه المرة وظهر أن الشعب رغم وضعه الشاذ متمسك بحقه وأن الحرب لا محالة أصبحت على الأبواب، فإن على الأنجليز أن يحددوا موقفهم من الأسبان الذين وجب أن يعرفوه حتى يحسبوا له حسابه، وكان هو ما ورد في الرسالة الخامسة ضمن المراسلات المشار إليها والتي ورد فيها "أن حكومة بريطانيا العظمى تعتبر أي هجوم من القوات الاسبانية على الموانئ المغربية، وخاصة طنجة مسألة خطيرة..."(84) ولئن كان الوزير الأسباني إثرها صرح مكابرة (بأن إسبانيا تعمل كل ما يفرضه عليها شرفها..» فإن السفير الأنجليزي بمدريد تحديا منه هو الآخر اطلع الوزير بدون تردد على القرار السري الذي اتخذه مكتب الخارجية لبريطانيا "الفورين أوفيس" والذي يقضي بتدخل الأسطول البريطانيا لحماية طنجة إذا هي تعرضت لهجوم اسباني، ولذلك ستعلن هذه الأخيرة الحرب على المغرب ثم تصرح أنها لا تقصد احتلال أي ميناء ولا هي تسعى إلى أي امتياز في البحر الأبيض المتوسط؟ وإذا هي رأت ما حققته فرنسا من مشاركة في مداخيل الموانئ فلم لا يكون لها مثل ذلك وكفى.

كان هذا الموقف الأنجليزي الذي لم يكن القصد منه مساندة المغرب ـ طبعا ـ هو لصالح المغرب، مادام ضد أي توسع يهدف له الأسبان عن طريق الحرب، مما حطم

---

(82) ت 4/50-68 ثم تاريخ العلاقات الأنجليزية المغربي 223-229.

(83) راجع موضوع التعويضات التي دفعها المغرب مقابل السفينة الاسبانية حسب رغبة "هاي" التي عمل بها المولى عبد الرحمن، بل والذي قبل تعديل حدود مليلية، راجع تاريخ العلاقات ص 23.

(84) تاريخ تطوان 4/55 وحماية اسبانيا في مراكش ع الفاسي ص 7-8 ط الرسالة بالقاهرة 1948.

آمالهم مادامت تلك الحرب سوف لا تحقق لهم السيطرة على البوغاز، أو المشاركة في السيطرة عليه عن طريق طنجة، بل وحتى على تطوان التي أدخلت في إشارة الأنجليز ضمن الموانئ المغربية، وكيف وهم الذين عرفوا أهمية تلك الموانئ التي وإن قبلوا من الأسبان تصفية حسابهم مع المغرب، فإنهم لم ولن يقبلوا منهم التفكير بالاستمرار في أي مكان بعد احتلاله، لأن ذلك في اعتبار الأنجليز، سوف يمكن نابليون الثالث ـ صهر الأسبان ـ من تحقيق ماكان يطمح إليه في الأبيض المتوسط، وهكذا تبدلت خطة الأسبان تحت ضغط الأنجليز ولم يعد أمامهم غير العمل على تحقيق أي مكسب يرد للحكومة اعتبارها ويحول دون نقمة الشعب الإسباني الذي هيجه الرهبان وحولته الحروب القائمة بين طائفتي إيزابيلا وعمها دون كارلوس إلى كثير من الاضطراب المتجه نحو الانفصالية التي أصبحت طبيعة مجموعات كثيرة في مختلف أقاليمه، والتي سوف يرى الاسبان بسببها كل أنواع المرارة التي سوف يطول عهدها.

الفصل الثالث والستون بعد المائة

المأساة الثامنة

من معركة إيسلي إلى معركة تطوان

كان ممثل الأسبان بطنجة "ضون خوان بلانكو" لما لم يستجب لشروطه الأربعة المحددة بزمن، قد غادر طنجة بعدما أناب عنه قنصل فرنسا بصفة تدل على نفور وقطع للعلاقة بين الدولتين، كما أخذ السكان من الأوربيين واليهود يغادرون المدينة كذلك، خصوصا بعدما فرض عليها الأسبان الحصار ثم على العرائش وتطوان، وفي نفس اليوم25/10/1859م الذي غادر فيه القنصل المذكور المدينة أصدر الخطيب بيانا منددا بتصرفات الأسبان، الأمر الذي أدى بحكومة مدريد إلى إصدار بيان مضاد يوم 29 منه باسم "كالدرون يانطس"، وهو عبارة عن تهديد ووعيد،أعاد فيه الأسبان ذكريات القرصنة، وذلك حتى يثيروا الرأي العام الأوربي، وقد حصل، حيث أن دول أوربا خصوصا التي لها تمثيل في طنجة، والتي ظهر من جلها شبه تضامن مع الأسبان مادام سفراؤها قد غادروا البلاد ما عدا سفير الأنجليز هاي الذي اختار الإقامة في مخبأ مجهول عبارة عن قرية جوار مدينة طنجة حسب رسالة الزبدي إلى السلطان كجواب بتاريخ 8 ربيع الثاني عام 1276هـ/5 ـ11 ـ 1859م، ورغم ذلك فقد كان على اتصال مستمر بسير الأمور وكل ما يستجد، وكان يبلغ ذلك إلى الخطيب وأحيانا كما رأينابطريقة فيها إثارة، ولربما كان يقصد مالم يدركه الخطيب وغيره، وقد حصل كما سنرى بعد.

كانت حكومة مدريد قد انتهت إلى الإعلان بين الإسبان أنها ستبدأ بالحرب ضد المغرب، وفي نفس الوقت صرح أدونيل حتى يشعر الأنجليز بالارتياح أن إسبانيا لا تقصد الاستعمار والتوسع، بل الذي تهدف إليه هو الترضية الكاملة، فإذا حصلت هذه الترضية مع الضمانات الكافية حول المستقبل بما فيها الغرامة فإنها مستعدة لعقد

الصلح، وهذه نغمة أخرى فسحت المجال لجولات القنصل الأنجليزي هاي، وكان هذا في الوقت الذي جندت إسبانيا ما أمكنها من القوات العسكرية والبواخر الحربية التي تجندت ثم استعدت لحماية الجنود على امتداد الشاطئ المغربي، وإذا كانوا قد أخذوا في نقل الجنود من الجزيرة الخضراء إلى شاطئ المغرب، فإنهم استعانوا على ذلك بتأجير سفن فرنسية؟ وأنجليزية؟ حتى يتم لهم نقل ما أمكن من عدد الجنود الذين بلغوا نحو الأربعين ألف.

وأما الجانب المغربي فإن السلطان الذي تلقى أخبار الاستعدادات الإسبانية بطريقة مشوهة وفيها تنقيص وتشويه قام هو الآخر كذلك بما يشبه الاستعداد، حيث انتقل من مراكش إلى مدينة مكناس حتى يكون قريبا من أرض المعركة التي أخذ يستعد لها بما جمع حول أخويه الأميرين العباس وأحمد، كما أصدر أوامره إلى مختلف الجهات بالمغرب ثم بدأ يوزع ما أمكن من الملابس والأسلحة ونقود بيت المال الذي لم تزوده الموانئ تلك السنة بشيء يذكر حسب قول السلطان لأخيه العباس، وبينما هو يستعد أرسل القائد المامون الزراري(85) في المقدمة إلى تطوان حتى يقوم بحراستها على رأس مائة فارس وخمسمائة راجل من الرماة(86) نزلوا بشرق تطوان في الطريق المؤدي إلى مدينة سبتة وقيل إن هذا العدد من الجنود وجه بلا تموين، بل ولا حتى من شعير علف الخيل الذي كلف السلطان بعد عامل العرائش التهامي بن عبد السلام بشرائه مما عنده من مال مدخر، هو وعامل الغرب عبد السلام بن عبد الكريم، الذي أرسل ما عنده من مال، وبأمر من السلطان كذلك إلى الخطيب قصد الإنفاق على قوات الاستعداد للحرب من جيوش الدولة، والتي رغم قلتها بشكل مؤسف وأليم كانت لا تتوفر كذلك إلا على أسلحة مهملة، ومع ذلك وقبل خوض المعركة كانت البيانات الكاذبة سواء من الزبدي

---

(85) زرارة فرقة من جيش الوداية والأصل زرارة بن أعين بطن من ربيعة ابن نزار من العدنانية ثم هي كذلك عند القلقشندي بنو زرارة بطن من بني دارم من تميم من العدنانية، وهم بنو زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم. راجع نهاية الأرب ص 270 ت ابراهيم الابياري ط القاهرة 1959 وفرقة زرارة من جيش لوداية نقلهم المولى عبد الرحمان إلى قرية تمارة غرب الرباط، وذلك إثر فتنهم المعروفة بفاس، ثم راجع عمر كحالة 469/2 ط 1949.

(86) راجع الاستقصا 80/9 وفي تاريخ تطوان 110/4 نقلا عن مذكرات الزبدي أن عدد الجنود الذين كانوا مع الزراري 300 فقط.

الراوي عن غيره، بل والذي كان يوجه بكيد حتى يكتب إلى السلطان بما كان يزيد المأساة ضخامة، ويمكن للفضيحة والعار كلما استهان السلطان ومن حوله بقوات العدو ولم يعرفوا حقيقة ما كانت عليه قوات الاسبان من كثرة عدد وأكبر استعداد، ونقرأ مع الوزير الطيب بن اليماني بوعشرين، رسالته إلى الزبدي بتاريخ 8 ربيع 2 عام 1276هـ/5-11-1859م والتي يقول فيها باسم السلطان " وبعد وصل جوابك وعرفنا ما فيه، وها هو جواب سيدنا يوافيك بما فيه الكفاية، وقد نشط أيده الله ونصره بما أخبرت به من أن المسلمين رموا الكافر فأصابوه، ورمى هو فأخطأ فلله الحمد والمنة والسلام"؟؟؟.

ثم يقول السلطان في رسالة إلى الزبدي بتاريخ أسبوع بعد السابقة "وذكرت أن الأخبار تواثرت عليكم من جبل طارق بما حصل للكافر اصبنيولي دمره الله من الرعب والفشل لما رأى ما عليه المسلمون من الضبط والاستعداد(87) ولقد كان هذا الغرور والتغرير في الوقت الذي كان ما ذكر من جيش المغرب القليل، ينتظر وصول مهرازين إثنين وضاربين إثنين، أجنبيين إلى جانب آخر من العرائش حسب رسالة ابن اليماني بتاريخ 5 ربيع الثاني 1276هـ.

كانت قيادة جيش المغرب إن صح أن نطلق عليه هذا الإسم بيد صنو السلطان الذي هو الأمير العباس بن عبد الرحمن الذي رحل من مكناس هو الآخر في خمسمائة، أما باقي عشرات الآلاف من المقاتلين، فقد كانوا من المتطوعين الذين اندفعوا بحماس غير منظم ولا مزودين بأي استعداد للمعركة، بل وليس لهم من سلاح ولا زاد غير الأمل في "الشهادة والجنة" والذين كانوا يقبرون جماعات وأفرادا بملابسهم ليدخلوها عملا بنياتهم وليس بفتوى المتفيقهين من أشباه العلماء الذين لم يذكروا أنهم غرروا بهم وبالسلطان معهم غير مدركين لقوله تعالى "واعدوا لهم ما استطعتم" الأية،..."ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة". الاية. إلا أن شيئا من ذلك لم يتم بالشكل المطلوب كما نستنتج في رسالة الأمير العباس بتاريخ 6 ربيع الثاني، وفيها يتكلم عن الصلة والشعير وجمع المجاهدين من قبائل الجبل،...إلخ.

بل المؤسف الأليم أن هذا الجيش القليل سينتهي ومعه عشرات الآلاف من

(87) المصدر السابق 112/4.

المتطوعين إلى هلاك، وكثير منه إلى موت محقق مادامت الدولة لا تتوفر حتى على ما يقرب من الضروري من الذخيرة والسلاح والتموين، بل اضطرت القيادة إلى الاستعانة برجلين أنجليزيين جلبا من جبل طارق اقترحهما قنصل المغرب به وقتها، الحاج سعيد جسوس، بل وكل ما زود به المقاتلون هو خمسون قنطارا من البارود ومثلها من الخفيف والقنطار وقتها يزن عشر كيلوات حسب الرسالة التي وردت على الأمير العباس بتاريخ 8 ربيع الثاني، ولعل ذلك ما وجه للجيش الرسمي الذي كان تعداده أكثر من الألف بقليل، بل وإن هذا العدد من الجيش هو الذي خصص له كذلك من المال مائتا مثقال في اليوم، حسب رسالة السلطان إلى الزبدي بتاريخ 17 ربيع الثاني 14ـ11ـم، وكان قد مضى على إعلان الحرب من طرف الاسبان أكثر من ثلاثة أسابيع انتهى فيها تجمع المغاربة باسم الجهاد إلى عشرات الآلاف من بلاد أحمر ناحية مراكش، إلى مختلف الجهات الشرقية من الريف وبني يزناتن إلى فجيج وما حولها.

كان الاسبان قد أحضروا إلى الشاطئ المغربي أكثر من ثلاثين ألف مقاتل مدربين تدريبا كافيا مثل الفرنسيين قبل في معركة إيسلي بقيادة الجنرال بوجو، بل إن جيوش الاسبان كانت مصحوبة بأكثر من سبعين مدفعا من مدافع الميدان تسند ظهورهم وتؤمن تقدمهم، وقد عسكروا في تراب سبتة خلف الحدود الفاصلة في انتظار الأوامر، كان نزولهم يوم السبت 15 ربيع الأول عام 1276هـ/13ـ10ـ1859م الأمر الذي دفع أهل أنجرة ولما تصلهم أية مساعدة من الدولة ولا حتى جيشها القليل والذي كانت قيادته قد اختارت للنزول المكان المعروف بـ "رمال بن قلي" بحجر جبل الزينة من أعمال طنج(88) مما دفع أهل أنجرة إلى الاستنجاد بمن حولهم من القبائل فيهب لنجدتهم نحو الخمسمائة أو الآلف لم يفعلوا أكثر من أنهم شغلوا الأسبان لمدة ما يقرب من نصف الشهر(89) سقط فيه صرعى من الأسبان ضعف ما قتل من المغاربة، لأن حرب الأسبان كان زحفا بالصف، وحرب المغاربة حرب عصابات بحيث كان مطاردة بالكر والفر، فرادى وجماعات

---

(88) المصدر السابق ص 89.

(89) راجع الاستقصا 86/9.

هنا وهناك، الأمر الذي دعى الأسبان إلى التحرك من سبتة والخروج منها يوم21 ربيع الثانيه هـ/19-10-1859م أي قبل إعلان الحرب بثلاثة أيام، حيث دارت المعارك بين الجانبين ودون مشاركة جيش الدولة بالقرب من "البيوت" من أرض قبيلة أنجرة ثم منها إلى "كدان" ومنه إلى "الفنيدق" وهي كلها أماكن لا تبعد عن الساحل حسب اختيار الأسبان حتى يكونوا على مقربة من السفن الحربية الأربعة عشر التي كانت تمونهم عن طريق البحر، الذي هو للمواصلات أحسن لهم من البر الذي ليس فيه طريق معبد(90) للعربات، وإذا كانت الحرب قد دامت بين الجانبين مدة شهر، فإن أحدا من جانب الدولة لم يظهر فيها كجيش رسمي غير خمسمائة من الشراردة أهل فاس، كما إلتحق بعد أولئك الذين قدموا مع المأمور الزراري، وللأسف لم يكن لهم كبير أثر لأنهم كانوا غير مدربين ولا منظمين تنظيما يليق بالمعركة، الأمر الذي فت في عضد المجاهدين، بل الأمر الذي أدى بالأسبان أن يقدموا نحو هدفهم بقدر ماكان المغاربة يتأخرون، حتى انتهوا إلى المكان المعروف "مجاز الحصان" ومنه إلى "النيگرو" بالكاف المعطشة، بحيث كانت تحركات الأسبان إلى الأمام تقوم على الضبط والتركيز لوجودهم في الأماكن التي يحتلونها، حسب خريطة الميدان التي أبانت أن خير مجالها هو الاتجاه صوب مدينة تطوان التي عملوا بواسطة جواسيسهم ثم تأكدوا من فوضى المغاربة أنها تركت عارية ومكشوفة، فأخذوا طريقهم نحوها مرورا بوادي "سمير" ثم وادي "النگرو" ورغم مساعدة الطبيعة للمغاربة في قتالهم، وقد هاج البحر وفاض النهران معا، مما قطع حد الأسبان حين كانوا بلا تموين ولا مواصلات مع الشاطئ الذي كانوا يستمدون منه كل الضروريات، حتى بيع قرص الخبز أو "الكليطة" كما قيل صباحا ببسيطة،(91) وعشية بريال،. وكان هذا بعد إسراف من قيادتهم في التموين الذي كان يستعمل بطريقة فيها فوضى، حتى يظهروا للمغاربة الذي كانوا يمرون وقتها بفترة عصيبه من أثر الجفاف، أنهم أقوى وأحسن، وفي نفس الوقت وكان المؤرخ المغربي الذي سجل هذه الحقائق يريد أن يؤكد عدم صلاحية القيادة العسكرية وسوء التسيير وقتها، إذ يقول "وأيقنوا بالهلاك لو وجدوا

(90) يقول الناصري في الاستقصا 86/9 انهم انتقلوا بحرا من سبتة الى الفنيدق وهو غير مقبول.
(91) هي الوحدة النقدية للأسباب حتي اليوم وتنطق بالزاي.

من ينتهز فيهم الفرصة، لكن سرعان ما سكن البحر وانفش الواديان بعد ثلاثة أيام وجاء المدد مماثلا للحماس الذي كان الشعب الأسباني يقابل به أخبار قتال الكفار على حد قول إيزابيلا الأولى التي اقتدت بها الثانية والرهبان المعتصبون، فانبهر المغاربة أكثر ثم تقهقروا إلى قرية القلالين التي بينها وبين تطوان نحو نصف ساعة، أما الأسبان فإنهم آخر الليل عبروا الوادي ثم توجهوا نحو المكان المعروف بـ"المضيق" لوجوده بين جبلين والمعروف بـ"دقم العليگ"(92).

وهنا تقول المصادر فارقوا الشاطئ وتوجهوا إلى مدينة تطوان، حيث بدأت المعارك الساخنة التي خاضها المغاربة مثل خوضهم للمعارك مع الفرنسيين فوضى بلا نظام ولا قيادة واعية بأساليب الحرب، بل وبلا سلاح صالح كذلك، لكن هذه المعارك تختلف عن تلك بظهور بطل عظيم من بين صفوف المجاهدين كان متطوعا تحت لواء الأمير العباس، ذلكم هو الحسن أبو ريالة من أيت يمور(93)، والذي قيل في حقه "أن ما قام به لم يعرف إلا مما روي في حق بعض الصحابة، وذلك مبالغة في الوصف، إذ حكى من حضر يقول صاحب الاستقصا(94) انه كان معلما براية صفراء يضمها إلى صدره ويسددها نحو العدو... وفي يوم العليگ كان ملحوظا من طرف الأمير العباس الذي كان ينوه به ويبعث بالطبل ليقرع على باب خيمته، وأصابته في هذا اليوم جراحة خفيفة بعدما قتل في هذه المعركة من أهل تطوان نحو الخمسمائة وهي رواية انفرد بها صاحب الاستقصا كذلك.

كانت الحرب حامية جدا من طرف آلاف المغاربة الذين اندفع بعضهم بروح الجهاد في سبيل الله وحقوق الوطن، بل والذين سقط منهم الآلاف بسبب ما عرفناه من عدم الاستعداد، دون أن يتعرف التاريخ على أسمائهم ولا حتى على الذين تقدموا الصفوف كقادة، ولو في الجيش النظامي القليل، ذلك لأن الأسبان في معركة تطوان كانوا هم سادة الموقف مثل الفرنسيين في معركة إيسلي، فقد مكنوا لاستحكاماتهم بالمرسى من ميناء تطوان ثم استولوا على برج مارتيل وما حوله حتى يؤمنوا جانب البحر الذي كانوا

---

(92) الدقم بالقاف المعطشة يطلق عند أهل الشمال المغربي على الفم. والدقمة بالفتح مقدم الفم، وأدقم فاه كسر مقدم أسنانه، والدقم الغم الشديد راجع المعجم الوسيط 291/1 ط 1960م.

(93) فخذة من صنهاجة موقعها الأطلس المتوسط..

(94) 89/9.

يستمدون منه الذخيرة والتموين، وبقوا كذلك لمدة ثلاثة عشرين يوما، تمونوا فيها بحرا بما يحتاجون إليه دون أي تشويش، من المغاربة وقيادتهم العليا المتمثلة في الأمير العباس بن عبد الرحمن الذي لا ينكر أنه كان في المستوى خلقا وسلوكا، بل وشدة بأس وعزة نفس، وما دون ذلك، فقد تعرض كما تعرض المقاتلون جميعا في تلك المرحلة إلى سوء الظن وخيبة الأمل في رجال الحكومة التي لم تنجدهم بما يليق بالمعركة وقد كان في الإمكان أحسن مما حصل رغم ما كانت تعيشه البلاد وقتها من أزمة اقتصادية عبر عنها الأمير العباس حكاية عن أخيه السلطان الذي قال له : إن أهل المراسي أخبروه أن لا مال عندهم هذه السنة، وسنرى ذلك بعد نهاية الحرب وفرض الغرامة على المغرب الذي سيستعمل كل وسيلة للحصول على ما يسدد به دون جدوى، ويعني هذا أن ما يقرب من الخمسين ألف من المقاتلين(95) دفعوا للإنتحار دفعا، وذلك ما دفع بالأمير العباس إلى محاولة التفاوض المبكر، ومع ذلك صمم الأسبان على عدم قبول التفاوض إلا بعد أن يكونوا قد حققوا النصر الكامل في الميدان الحربي الذي استمرت معاركه، حيث قدم الأمير أحمد في جيوشه العشرة آلاف الذين نزل بهم في المكان المعروف بـ"فم الجزيرة" لكن الموقف لم يتغير، بل استمر التقهقر حتى أن الأميرين العباس وأحمد تعرضا لمباغتة "الجنرال بريم" الذي أطبق عليهما من الجهتين، فلم يفعل الأمير العباس أكثر من اختراق المدينة التي اتخذها فاصلا بينه وبين قوات الجنرال بريم التي فر أمامها ما كان من الجنود مع الأمير أحمد مخلفين معسكرهم كما خلفه الأمير العباس، بما فيه غنيمة للأسبان الذين أصبحت هزيمة سلاح المغاربة وسياسة حكومتهم ـ وليس الرجال ـ أمامهم حقيقة وواقعا عجلوا بإبلاغها للشعب الاسباني وملكته إيزابيلا التي كانت تنتظر ذلك الخبر مقابل ما قدمت من حلي ومجوهرات اقتداء بالأولى وقت سقوط غرناطة.

وإذا ما اقتدى الشعب الاسباني بروح التعصب الصليبية التي تجسمت في ملكته وحكومته وجيشه ورهبانه، فإنه كذلك تلقى خبر الانتصار بروح دفعت إلى توحيد الصف

(95) ذلك ما ورد في تاريخ تطوان الذي أورد فيه 32000 من المشاة و9000 من الفرسان ثم رفع هذا العدد إلى أن تم رفعه إلى سبعين ألف مكتفيا بما قال عنه : مصادر أجنبية وهي تلك التي أخذ عنها، والتي لم يكن في وسعها التحقيق راجع ج 133/4 ـ 136ـ213 وعند صاحب الاستقصا 94/9 وحماية اسبانيا في المغرب لعلال الفاسي ص 8.

والتراجع عما كان عليه من تطاحن بين المنتصرين للملكة والمنتصرين لعمها، وعرف الأسبان نفسا جديدا من الغطرسة بعد دخول تطوان التي اقتحموها ضحى يوم السبت 11 رجب 1276هـ/24 ـ2 ـ1860م وذلك بعد ما ألقوا عليها وابلا من القنابل فتنوا بها الناس وأحدثوا بينهم من الفوضى ما مكنهم من الاستيلاء عليها بكل سهولة تحقيقا لأهدافهم السياسية والاقتصادية(96).

كانت مدينة تطوان قبل اقتحامها قد عرفت حركة مفتونة من النساء والأطفال الذين هاجروا منها إلى جبل بني حزم كوقاية بتوجيه من بعض العلماء والأشراف يتقدمهم عبد السلام بن علي بن ريسون الذي كان له موقف مشرف وإدراك سياسي متزن شبه متفق مع النائب الخطيب، لمعرفته بظروف الدولة والشعب معا، لكن وقد انتهت الأمور إلى ما انتهت إليه، فقد انقلب إلى مشجع على الجهادس(97) والدفاع عن الكرامة دون تعريض الأبرياء من النساء والأطفال لأذى، لكن المتطرفين مؤيدين بأمر الأمير العباس إلى عامل المدينة تزعموا منع أهل تطوان من إخراج النساء والأطفال، فكانت النتيجة أن عرفت تطوان وقت الهزيمة موجة عارمة من الفساد والإفساد الذي قيل عنه النهب، وهتك الأعراض والاعتداء والغدر من الرعاع والمفسدين الذين كانوا ينتظرون هذه الفرصة، مما دفع بعضهم يتقدمهم الحاج أحمد أبعير الطنجي، أن يتوجهوا برسالة إلى قيادة الأسبان ممثلة في الجنرال أودنيل لينجدهم مما حل بهم، وقد كانوا تعرضوا لرد فعل من بعض الذين استنكروا منهم ذلك الاتجاه الذي ظهر منذ اتفقوا عليه في الاجتماع الذي تم بإشراف ذوي الحمايات وبعض الأعيان بتاريخ 15 ربيع الثاني عام 1276 /12ـ11ـ1859م أي قبل اقتحام المدينة بخمسين يوما، وإذا كرامة الذين تنبهت ضمائرهم أو بدافع الخوف

---

(96) راجع البستاني 153/6 وفيها أن ميناء تطوان بعد عرف نشاطا استمر إلى سنة 1873م التي تردد فيها على الميناء 211 سفينة وارداتها 11565 ريال وصادراتها 55776 ريال.

(97) ورد في كتاب تحفة الراغب لأحمد بن الهاشمي م خ ع ص 33 إلى 35 مخطوط أن السلطان محمد بن عبد الرحمن استفتى علماء فاس الذين اجتمعوا يوم 28 رمضان 1276هـ بخزانة القرويين ثم قدموا قاضي مدغرة محمد الصادق بن محمد الهاشمي بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الحسني الذي صادق على فتوى علماء فاس في حتمية الجهاد، المصدر المذكور ص 35 مخطوط ميكروا فيلم شريط رقم 475 خ ع ومحمد الصادق العلوي هذا هو الذي سيفتى في موضوع تنظيم الجيش من طرف السلطان محمد بن عبد الرحمن يقول الأستاذ محمد الهادي المنوني الحسني في مظاهر يقظة المغرب 263/1 ط الرباط 1973.

مما حصل، حال دون أن يكون أحدهم رسولا في مثل تلك المهمة التي لا تعنى أكثر من وجود طابور خامس داخل المدينة وبين أهلها، قبل اقتحامها فإنهم قدموا لها رجلا غريبا عنها ويحمل إسم مدينة عرف أهلها وقتها بالحمايات قبل أن يقبل عليها الناس، ذلك هو "أبعير الطنجي".

دخل الجنرال أودنيل بقواته إلى المدينة المنكوبة التي كان قبل قد جمع كل المعلومات حولها وحول أهلها، ولما استقر هو بدار المخزن(98)، ثم اختار لهيأة أركانه منازل بعض الوجهاء كآل المفتى، والرزيني، واللبادي (99) وغيرهم والتي فرشت بما انتزع من المواطنين قهرا، ووقتها أصبحت المدينة معسكرا لعشرة آلاف من الأسبان فعلوا فيها وبأهلها عكس ما وعد به أودنيل حين قال لحامل الرسالة أبعير «سأفعل معكم ما لم يفعله الفرنسيون مع أهل الجزائر وتلمسان» وكان الأغنياء يحسبونه خيرا، بيد أنه كان أكثر عتوا من الفرنسيين وأرعن، إذ زاد عليهم بأسلوب الأسبان المفضوح، والذي تميز أكثر بحقد الصليب على الهلال، تمشيا مع الرغبة العامة الجامحة بين الأسبان والملحة وقتها، والتي لم تجد الحكومة الإسبانية أمامها وسيلة للإثارة غير ذلك الأسلوب الذي دفعهم للتنكيل بـ"الكفار" وتحويل ضريح على البقال، ومسجد الباشا، ثم مسجد القصبة، ومسجد على بركة، وزاوية الحاج، إلى كنائس ومرابط للخيل ومارستانا، بل ما استقر أودنيل بمقر سكناه حتى أخذ يحول في معالم المدينة بهدم الدور الملاصقة للسور لأسباب قالوا عنها استراتيجية، مما يستدل به على نيتهم في دوام احتلال تطوان المدينة ذات النشاط الاقتصادي المتحكم في المنطقة والذي أسال لعابهم وشدد حقدهم منذ عهد بعيد، بل والذي دفع أودنيل إلى التظاهر بالعجرفة من أول القاء مع الأمير العباس والخطيب يوم أول شعبان 1276هـ/23-2-1860م بل مبالغة في ذلك أمر قواته البحرية، بالتوجه إلى العرائش وأصيلة، قصد القيام بجولة للترهيب، ولمدة ثلاثة أيام في البحر المحيط، حتى قيل إنه لولا رداءة الطقس لتوجه إلى سلا والرباط، لكن زيارة حاكم جبل طارق لمدينة

(98) في بعض الروايات أنه نصب قيادته خارج المدينة.

(99) كل هذه العائلات لا تزال معروفة بأسمائها التي عرفت بها وقتها في تطوان، ذلك أن مجتمع تطوان من أكثر المجتمعات محافظة كان ولا يزال كرد فعل ضد تطرف الأسبان الكاثوليك في الشاطئ المقابل، والذين عرفوا كذلك بالتشدد في المحافظة على أصولهم وتقاليدهم التي منها عداوة الإسلام.

سبتة يوم 5 شعبان 2/27 بلا شك هي التي وضعت الحد لاستمرار ذلك التهور والطيش الذي عرف به الأسبان إن هم وجدوا السبيل لذلك(100).

بعد اقتحام تطوان وضرب العرائش وأصيلة ثم تدخل الأنجليز الذين هم بلا شك اتفقوا أخيرا مع الأسبان على تحقيق ما كانوا يهدفون له من مكاسب اقتصادية صمموا على عدم التراجع دون تحقيقها، وقتها بقيت حالة لا سلم ولا حرب بين الجيشين مدة ما يقرب من الشهر، أو بالتحديد إلى يوم 2 رمضان 1276هـ/25-3-1860م وهو الذي وقع فيه المفاوض الأسباني وثيقة توقيف القتال، ثم وثيقة معاهدة الصلح الذي تم كذلك بعد شهر، أي بتاريخ 4 شوال و26 أبريل،(101) والتي وقعها نيابة عن المغرب الأمير العباس بن عبد الرحمن صنو السلطان.

لقد بالغ الأسبان في غلوهم حين قدروا أن احتلالهم لمدينة تطوان سيحقق لهم ما يريدونه من المغاربة بما فيهم السلطان الذي أصبح حسب زعمهم في موقف حرج ولما يمض على تنصيبه غير شهور أصبحت فيها مدينة من أهم مدن بلاده محتلة وأهلها بين منكوب وجريح ومشرد، بالإضافة إلى عشرات الآلاف من المجاهدين قتلى وجرحى، أمام هذا الوضع كانت تصرفات الأسبان تدل على سوء ما انتهوا إليه في مجال الخلق السياسي والعسكري، بل والاجتماعي، ومدى تعقيدهم نحو المغاربة، فزيادة على التظاهر بالاستعلاء المتكلف من أودنيل الذي قابله الأمير العباس بمنتهى التعقل والاتزان حتى اضطره إلى تهذيب أخلاقه، وبعد عدم التفاهم في اللقاء الأول إلى درجة أن الأمير كتب إلى السلطان معبرا عن ذلك بروح ملؤها الشهامة، وبصفته الراغب في استمرا ر القتال مهما كان الموقف مادام القوم يظهرون أنهم الأعلون ولا يريدون غير الحرب، بل إن الأمير العباس كتب رسائل الدعوة إلى الجهاد ثم وجهها إلى كل من صنهاجة وغمارة، وتازة، ونواحيها قبل أن يستجيب له السلطان، وما ذلك منه إلا كرد فعل على غطرسة أودنيل.

---

(100) راجع الاتحاف لابن زيدان 439/3 وبه نص المعاهدة ص 487 وقد أورد لها ترجمات متعددة في تاريخ تطوان 264/4 إلى 295.

(101) يقول التعارجي في الاعلام ج 336/5 ـ 372 ترجمة السلطان محمد بن عبد الرحمن إن أودنيل الذي سماه "أردنيل" نقلا عن صاحب الاستقصا الذي وقع في الخطأ إملاء، أن أودنيل تأدب وقت اللقاء مع الأمير العباس ص 359...

كانت مطالب الأسبان الدالة على رغبتهم في انتهاز الفرصة وإذلال المغرب حتى يحققوا ما أوحت به المعاهدة المغربية الأنجليزية بعد الفرنسية المغربية التي وقعت تحت الضغط والإكراه كما يلي :

1) دفع غرامة الحرب التي قدروها بـ 25 مليون دورو أي 500 مليون قرش أو مائة مليون بسيطة.

2) تسليم مدينة تطوان والمنطقة الفاصلة بينها وبين سبتة.

3) إقامة مركز لسفارتهم في مدينة فاس.

4) الحصول على معاهدة تجارية مثل الأنجليزية.

5) حق المبشرين من رهبانهم الفرنسيسكان في التبشير بالمغرب وتعهد السلطان بحمايتهم.

6) الحصول على منطقة صيد على الشاطئ الصحراوي في الجنوب المطل على المحيط الأطلسي "سانتاكروز".

وللأسف فإن نفسية الجميع كانت منهارة بما فيهم السلطان نفسه الذي قبل جميع المطالب باستثناء مدينة تطوان التي تشدد في عدم تسليمها، فقد قبلت تلك المطالب المبالغ فيها، بل كل من قنصل الأنجليز هاي، ومثله الأمريكي، يلحان على المغرب في الإسراع إلى التفاهم الذي يستنتج من زيارة حاكم جبل طارق لسبتة وقت اقتحام تطوان وضرب العرائش، وأصيلة أنه قام بدور يمكن أن نقول عنه تعهد بدفع المغرب إلى قبول مطالب الأسبان التي كان من الواضح أنها ستقتفي أثر الأنجليز الذين حققوا من المكاسب أكثر من غيرهم، بيد أن مطالب الأسبان زادت عليها، ومهما يكن فقد رفض مطلب تسليم مدينة تطوان والأرض الفاصلة بينها وبين سبتة.(102) وعدل المبلغ إلى عشرين مليونا الذي لم تكن خزينة الدولة تتوفر حتى على نصف المطلوب أداؤه وماتم قبوله من السلطان كان على مضض، بعيدا عن إرادة الأمير العباس الذي كان بحق في المستوى كما تشهد الوثائق(103) لكن الظروف والتيار كان ضد المغرب، وقد علل السلطان محمد

(102) قيل عنها مقدار مرمى المدفع عيار 24.

(103) كتب الأمير العباس رسالة إلى السلطان مؤرخة بـ 26 رجب 1276 هـ يستدل منها على ما كان الأمير المذكور يعيشه من مرارة ويعانيه من صلف الأسبان وقساوة شروطهم «ويعلم سيدنا أن ما شرطه ـ الأسبان ـ لا يقبل ولو بقي من الإنسان إلا نفسه» راجع تاريخ تطوان 224/4.

بن عبد الرحمن القبول لتلك الشروط في رسالة التفويض التي بعث بها إلى النائب الخطيب(104) ومع ذلك لم يخرج الأسبان من مدينة تطوان إلا بعد سنة من تاريخ إبرام الصلح، وبعدما تركوها حطاما مخيفا هدموا الدور وحوروا المعالم وبدلوا الجميل قبيحا، وكان السبب في بقائهم بها هو شرطهم الحصول على مبلغ الغرامة الذي حار فيه السلطان ولم يجد لأداء المطلوب منه وهو النصف، وسيلة غير مداخيل الموانئ التي كان المغرب يعتمدها أكثر في اقتصاده، خصص نصف ريعها للأسبان الذين أصبح لهم الحق كذلك أن يتواجدوا في مختلف الموانئ لا كممثلين سياسيين، بل كمشاركين متحكمين، وتلك لعمري فضيحة الفضائح التي عرف المغرب من جرائها البخس والذل والهوان زمنا غير قصير، بل إن الدول المزاحمة فرنسا وبريطانيا اعتبرت ذلك رجحانا فاز به الأسبان في المغرب، وحققوا به ما لم يكتب لغيرهم، حتى أصبحت المعاهدة الآنجليزية المغربية، وهي أكبر كسب حققته بريطانيا، أقل اعتبارا بالنسبة لما حققه الأسبان بعد احتلالهم لتطوان، الأمر الذي أثار اهتمام فرنسا خصوصا بعدما عقدت إسبانيا مع المغرب معاهدة تجارية بتاريخ 20-11-1861م، شبيهة بالأنجليزية التي أبرمت سنة 1856م اعتبرت فرنسا نفسها وكأنها رغم أنها فرضت وجودها في المنطقة - أصبحت في وضع لا يمكنها من السير في خطتها المرسومة لعلاقتها بالمغرب، بعدما كانت قد حققت الكثير بتواجد رجالها في البلاط المغربي وعملها على إضعاف النفوذ الأنجليزي بين رجالاته، ولدى السلطان نفسه، كما أن بريطانيا هي الأخرى وقد وقف قنصلها الذي توسط بين المغرب والأسبان وهو المطلع على كل أحوال المغرب وأسرار دولته، والذي وقف وقت اشتداد الأزمة مع الاسبان ذلك الموقف الذي جر وزير خارجية بلاده إلى ذلك التصريح الذي أطاح بغلواء الأسبان، لكن ما حصلوه من مكاسب أدت إلى مشاركتهم الإشراف على الموانئ المغربية، دفع به كذلك إلى التفكير في وسيلة يحقق بها ولو بعض تلك المشاركة والتواجد مزاحمة للاسبان. ولتحقيق ذلك تقدم القنصل هاي باقتراح حتى يحصل المغرب على قرض أنجليزي حر تضمنه حكومة بلاده، ولكن القرض لم يتم بسبب علو الفائدة، وبذلك أصبح قنصل الانجليز يرى أن مركز بلاده أصبح دون مركز الأسبان والفرنسيين

(104) نفس المصدر 339.

في المغرب، وظهر هذا بزوال النائب محمد الخطيب(105) التطواني صديق الأنجليزي هاي وتولية الحاج محمد براكاش الذي كانت له علاقة طيبة مع فرنسا التي عملت جهدها لإبرام معاهدة مع الأنجليز قبل حول حرية التجارة، وذلك سنة 1860م حتى تتوجه بكليتها إلى تحقيق مقدمات برنامجها في المغرب بواسطة المعاهدة التي ستبرمها معه يوم 19ـ1ـ1863م ولم تكن في الواقع غير نسخة من الأنجليزية التي نسجت على منوالها كل الدول التي عرفت بمعاملاتها التجارية بعد مع المغرب، بل والتي جرت عليه كل ما عرف بعدها من مآسي.

وهنا وجد الأنجليز أن سياستهم إزاء المغرب في حاجة إلى خلق نشاط آخر يعيد لهم ما كانوا عليه من امتياز وحظوة، وما كان لهم من امتياز ولو بطريقة الدس والكيد الذي اكتشفوه في زعيمهم وما ادعوه أيام رئاسة الصهيوني دزرائيلي 1804 ـ 1881م من اضطهاد اليهود، وهو عمل لم يكن بالقدر الذي زعموه، وربما ظهر شيء من ذلك بسبب تخلف اليهود في تطوان وقت إحتلالها وتعاونهم مع العدو، وذلك ما دفع فرنسا قبل بريطانيا إلى الإكثار من إعطاء الحمايات للمواطنين، والدفع بهم إلى الخروج عن دائرة حكم السلطان، طبقا للمعاهدات السابقة، لكن الأنجليز لم يستفيدوا من هذه السياسة مثل فرنسا كما سنرى، وإنما أثاروها فتنة ضد المغرب وسلطانه الذي لم يعد في مقدوره التحكم في ذوي الحمايات من اليهود وما يملكون، حتى حصل بذلك العجز في مختلف النواحي المالية منها والإدارية، وإنما أصبح المغرب فقط عبارة عن مصدر للمواد الأولية وسوق مفتوحة لكل من مرسيلية، وباريز، ومدريد، ولندن، ومنشيسطر، وهي البلاد التي أصبحت تتوفر على أعداد كبيرة من المحميين المغاربة الذين كانوا السبب في كل ما انتهى إليه المغرب، وهو ما سنراه في الفصل الخاص بموضوع الحمايات.

---

(105) توفي الوطني الغيور محمد الخطيب رحمة الله عليه يوم 21 شوال 1288 هـ/1871م. وقد كان مثالا حسنا يذكره التاريخ بالتقدير والإكبار، وبالمثل كان خلفه وطنية وسمو أخلاق.

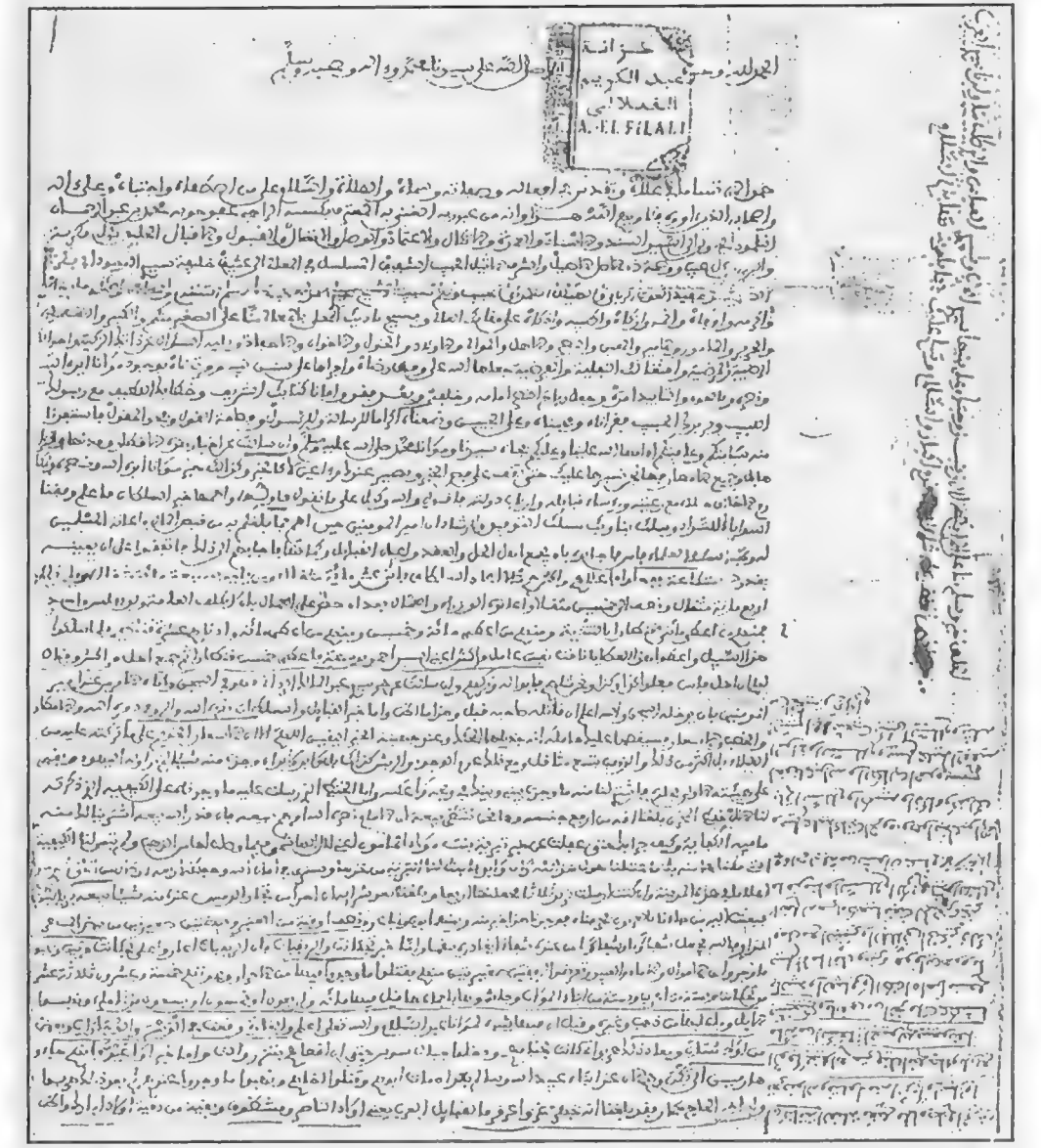

الرسالة من أحد الفيلاليين التجار كان قد توجه إلى مدينة مراكش اثناء الحرب مع الأسبان وقد كتب رسالة إلى أحد احفاد العالم الكبير الشيخ احمد الحبيب اللمطي. فيها يخبره أن عامل مدينة مراكش وهو المرحوم احمد بوستة ساهم في المجهود الحربي بما قدره خمسون قنطاراً والقنطار عبارة عن عشرة آلاف مثقال، كما أن غيره ممن لم يذكر اسمه ساهم بـ 200 قنطار.

الأمير العباس بن المولى عبد الرحمن يوقع وثيقة الصلح بعد حرب تطوان1276هـ 1860م

المارشال ابْريم الذي قاد حرب الاسبان

ضد المغرب 1859

30 CENTIMES LE NUMÉRO

L'UNIVERS ILLUSTRÉ

12e Année — N° 733 — 30 Janvier 1869

A. PÉLIX, Rédacteur en chef

NOUVELLES ET SPLENDIDES PRIMES GRATUITES

OFFERTES JUSQU'AU 28 FÉVRIER 1869

CHEFS-D'ŒUVRE DE LA GRAVURE MODERNE

SUPERBE ALBUM, du prix de 20 fr. en librairie; CINQUANTE-SIX MAGNIFIQUES PLANCHES IN-FOLIO,

CHEFS-D'ŒUVRE DU THÉATRE MODERNE

LES ŒUVRES DE JEUNESSE

DE H. DE BALZAC

ŒUVRES DE JEUNESSE DE H. DE BALZAC

L'ALBUM

ŒUVRES DE JEUNESSE DE BALZAC

المارشال بريم الاسباني قائد الحرب ضد المغرب 1859

تطوان حيث تظهر مدرسة لوقش التي حولها الاسبان إلى مربط للبهائم وقت احتلالهم للمدينة 1276هـ 1860م

الأمير العباس بن عبد الرحمن في مفاوضاته مع ملكة الاسبان
عن مجلة لويستر ص1 بتاريخ 1861/11/21 رقم 184 ت ع227.

قتلى الحرب مع الاسبان أو الحضارة الغربية

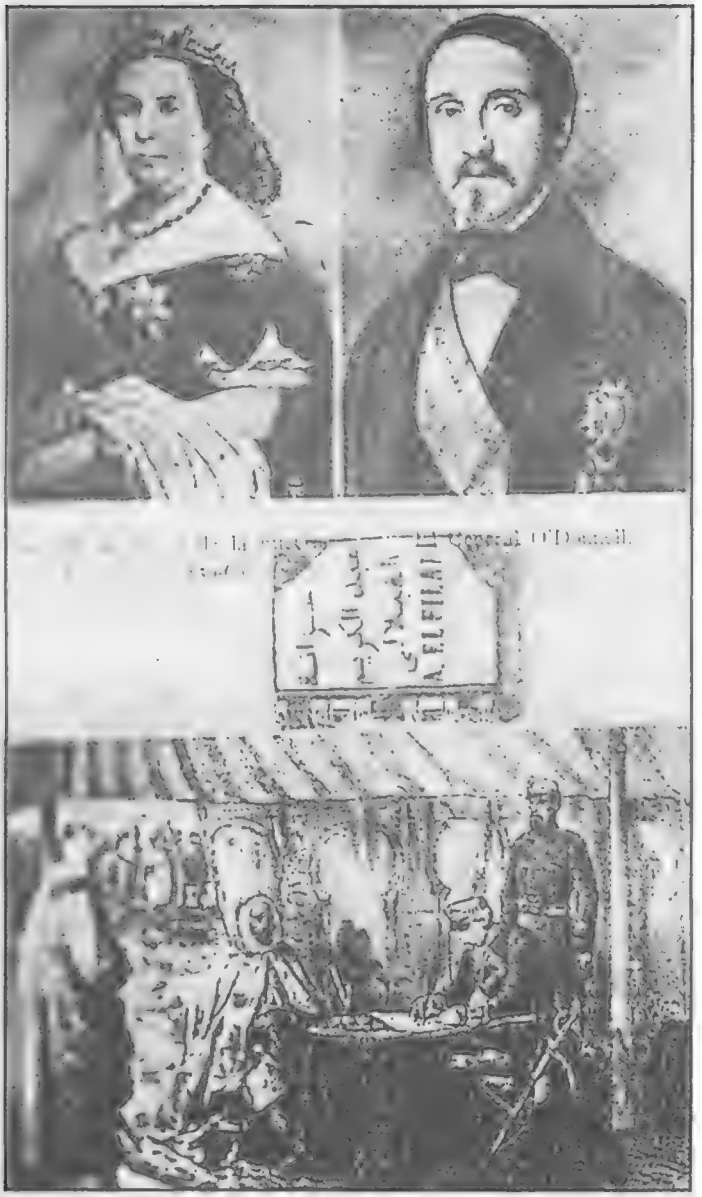

العباس بن عبد الرحمن يوقع اتفاق الهدنة بعد حرب تطوان

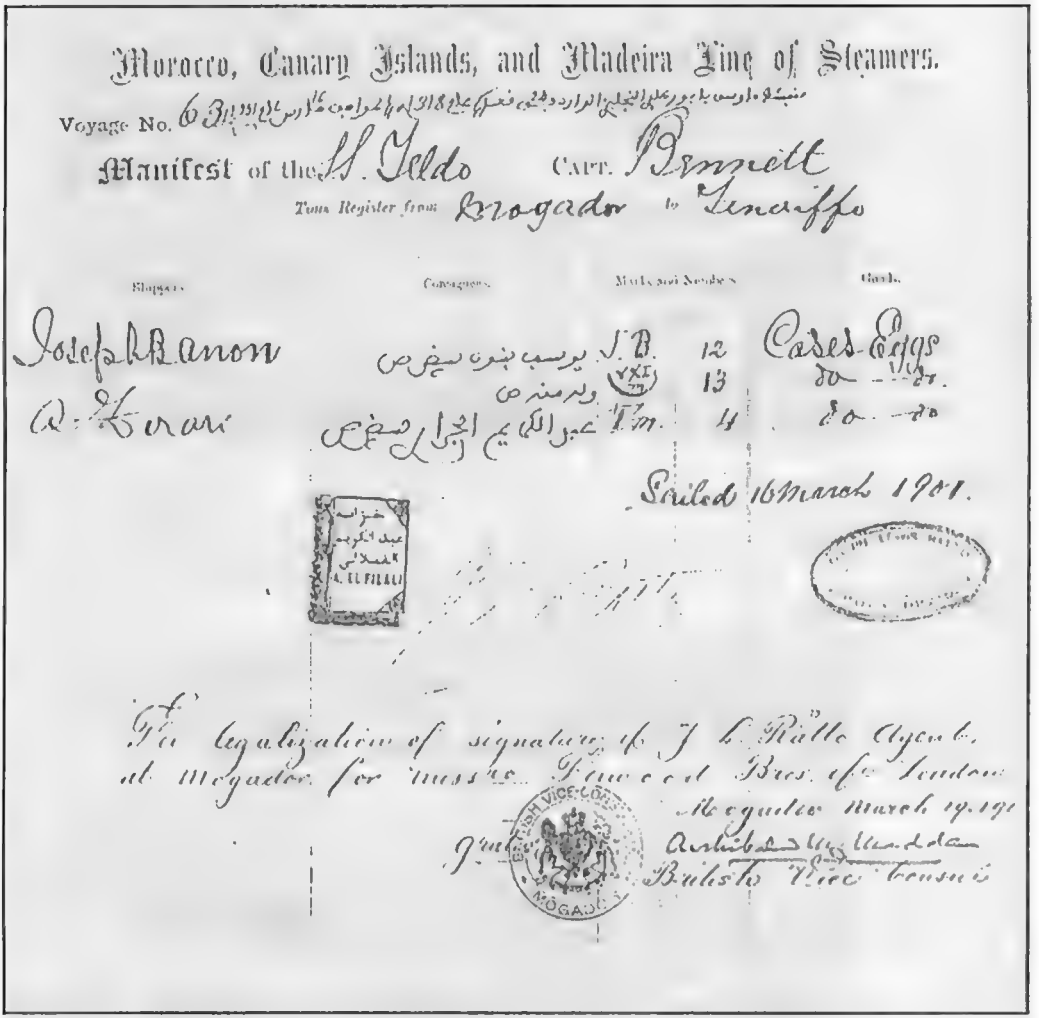

Morocco, Canary Islands, and Madeira Line of Steamers.

Voyage No. 63

Manifest of the S. Teldo Capt. Bennett

Tons Register from Mogador to Tenariffe

Shippers	Consignees	Marks and Numbers		Goods
Joseph Banon	يوسف بنون سيفرص	J.B.	12	Cases Eggs
	ولد منه ص	(VXI)	13	do do
A. Zerari	عبد الكريم الجراري سيفرص	Tm.	4	do do

Sailed 16 March 1901.

For legalization of signature of J. L. Ratto Agent at Mogador for messrs. Fenwood Bros. of London

Mogador March 19. 1901

Archibald McMaddan

British Vice Consul

ما يلى من 224 إلى 232 نماذج من أعمال المشرفين على الجمارك المغربية ومداخيلها باسم الغرامة التي فرضت على المغرب بعد حرب إيسلي وحرب تطوان، وفي مجموعها نجد الكثير من الاختلاسات التي اضعفت الدولة وعرضتها للقروض التي هدت كيانها والتي اتخذ الفرنسيون والانجليز منها الضربة القاضية

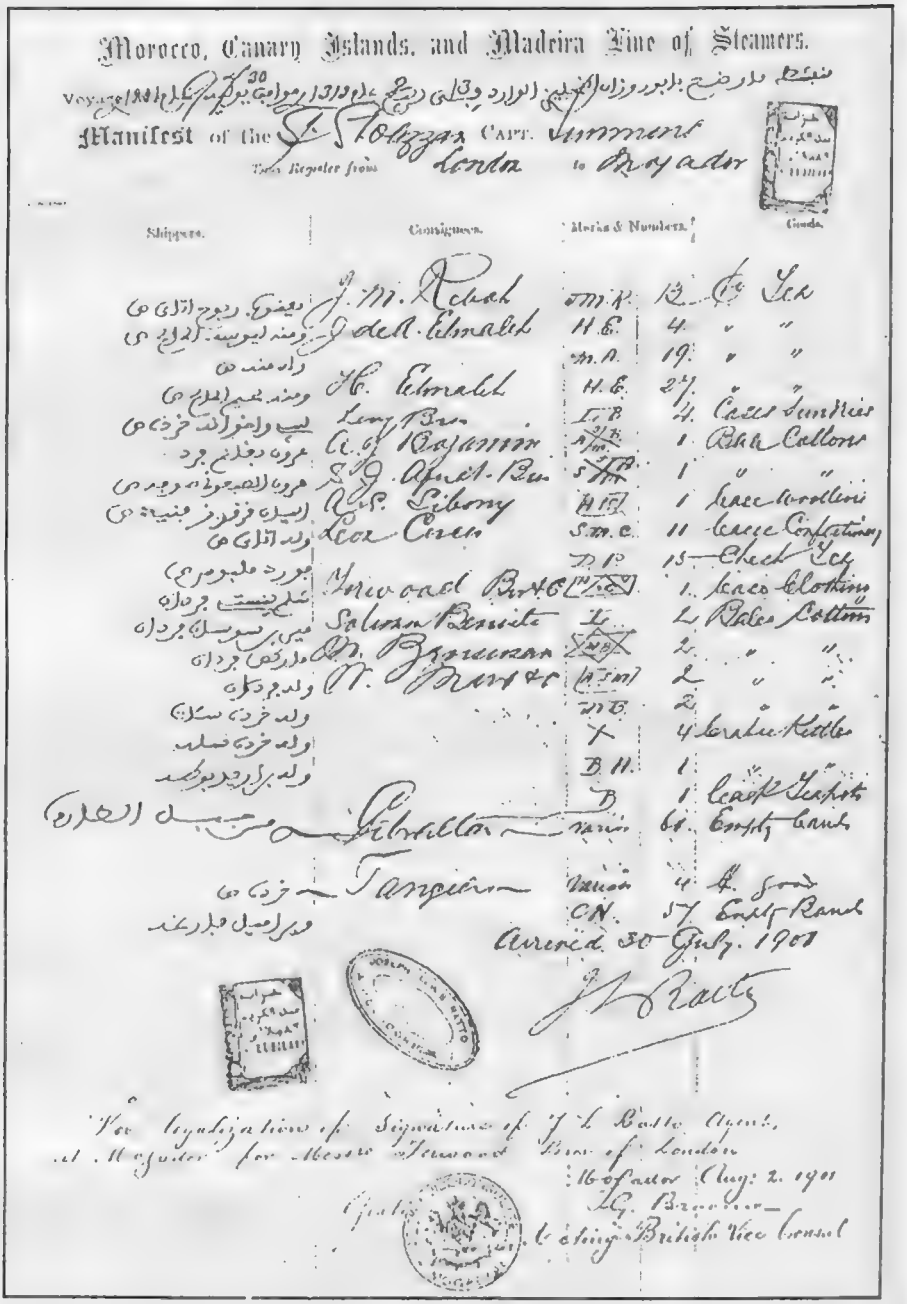

Morocco, Canary Islands, and Madeira Line of Steamers.

Voyage 1901 [illegible] 30

Manifest of the S. Stolzzar Capt. Summers

Tons Register from London to Mogador

Shippers.	Consignees.	Marks & Numbers.		Goods.
[illegible]	J. M. Rebah	J.M.R.	13	Cs Tea
[illegible]	J. de A. Elmaleh	H.E.	4	" "
[illegible]		M.A.	19	" "
[illegible]	H. Elmaleh	H.E.	27	" "
[illegible]	Levy Bros	L.B.	4	Cases Sundries
[illegible]	A. J. Bojanin	A.J.B.	1	Bale Cottons
[illegible]	S. J. Aguet-Bros	S.J.B.	1	" "
[illegible]	A. S. Libony	A.S.L.	1	Case Woollens
[illegible]	Leon Cohen	S.M.C.	11	Cases Confectionery
[illegible]		D.P.	15	Chest Tea
[illegible]	Forwood Bros & Co	[illegible]	1	Case Clothing
[illegible]	Solomon Benoite	L	2	Bales Cottons
[illegible]	M. Bensusan	[illegible]	2	" "
[illegible]	N. Mars & Co	[illegible]	2	" "
[illegible]		M.B.	2	
[illegible]		X	4	Crates Kettles
[illegible]		B.H.	1	
		B	1	Cask Teapots
[illegible]	Gibraltar	Various	61	Empty Bands
[illegible]	Tangier	Various	4	Cs Good
[illegible]		C.N.	57	Empty Bands

Arrived 30 July 1901

J. L. Ratto

For legalization of Signature of J. L. Ratto Agent, at Mogador for Messrs Forwood Bros of London

Mogador Aug: 2. 1901

G. Broome

Acting British Vice Consul

التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير (الجزء الخامس)

منفسط ماوضع بابور رطابه النجليز الوارد في 15 صفر عام 1319 الموافق يونيه 3 عام 1901

Voyage No.

Manifest of the Orotava Capt. Beauchant

Tons Register from London to Mogador

No. of B.L.	Shipper	Consignees	Marks and Numbers			Goods
	فورد ملبوس	Fowoods Bros	HYC		1	Cf clothing
	شمعون الى كوري براميل فارغه	Simon Zagury	MQG		14	Empty Barrels
	وردن اتاي	Order	SW	1/20	20	Cf tea
	وردن نحاس قطعه	"	DC	1	1	bol. metal
	وله مند قطعه	"	—	2	1	" "
	اليان قرقوز خردة	Leon Corcos	SMB	21	1	Cf trunks
	وله اخر		CC	22	1	" "
	يوسف الحاج ارزخ	J. A. Elmalek	JAE		90	Bags rice
	شلم كسعد خيلسي فارغه ايلاميه	Salm Cahesa	CC		30	Bdls. Bags
	جامطر كيكس براميل	Johnston	MLP	38/45	6	Bl. biscuits
	الدهان واخوانه اتاي	Dahan Bros	JBD	551/690	140	Cf tea
	وله جرابه جرود		.	1/4	4	Bl. Hides
	وله سبغه برميلان		.	1/2	2	Cks Paint
	دانيان كوهيب جرابه جرود	L. J. Cohen	DTC	1/3	3	bale Hide
	يعقوب ربوح اتاي	J. M. Rebob	JR	1/5	15	Cf tea
	وله مند	"	MR	1/8	11	" "
	لبيب واخوانه مند	Levy Bros	LB	1/5	5	" "
	وله مند		HF	1/7	7	" "
	وله اخر		AF	1/6	6	" "
	وله اخر		MF	1/10	10	" "
	وله اخر		FR	1/20	20	" "
	ومند لجاوي يوبي اخر	R. Guly Jr	RY	801/32	33	" "
	ومند لليان قرقوز اخر	Leon Corcos	HM	1/31	21	" "
	وردن حديد براك	Order	AB		1500	bars Iron

Mogador 3 June 1901

[signature]

Copy

منفسط ماوس بابور وازن الخليج الوارد في ٥ رجب عام 13.8 موافق 3 نوفمبر عام 1910

Voyage No. 88

Manifest of the S.S. Kaytan Capt. Coulthurst

Tons Register from Mogador. to London November 1910

Number.	Shippers.	Consignees.	Marks and Numbers.		Goods.
22	Solomon P. Seby.	سلم طوبي صناديق بيض	S.T.	1/3	5 Cases Eggs
23	A. Zarari.	عبد الكريم الجراري سلة دجاج	L.M.	1	1 Coop fowls.
24	Messrs. J. Bendahan	مرزي بن الدهان صندوق بيض	M.J.B.	1/2	2 Cases Eggs
25	Joseph Bauon.	وله منه صناديق	J.B.	1/19	19 Cases Eggs.
		[illegible]	"	1	1 Coop fowls.
26	P. Seby.	[illegible]	S.T.	1	1 Bag Spices.
27	Tanners de Vinda de Hallaud Halle	[illegible]	"	1/491	491 Bags Beans

Total 530

For legalization of signature of J. L. Reale Agent at Mogador for Messrs. Forwood Bros. of London

Mogador Nov. 10. 1910

[illegible]

British Vice Consul

Voyage No. [illegible]

Manifest of the S/S Warran Capt. Coulthurst

Town Receipt from London to Mogador

No. of B. L.	Shippers.	Consignees.	Marks and Numbers.		Goods.
		Drake	RB 4/12	15	B/s Hides
		J. Belinha	[illegible] 359	1	n/f
		J Belinha	[illegible] 2013	14	B/s
			JBL 1/20	40	C. Candles
		S Levy	[illegible] 1401	2	B/s
		A. Amado	[illegible] 3/20	3	B/s Goods
		S J Afriat & Bro.	[illegible] 26	1	Parcel
		R Gabay & Co	[illegible] 4/12	50	C/ Tea
		"	RVL 1/20	250	C. Candles
			120/1	2	B/s Cotton
		J J Levy	JJL 7/20	22	C. Tea
		Drake	SSB 17	7	C. Confects
		J Richmond	ASI 12	1	C. Provisions
		Mrs Gerrish	Gerrish 1	1	C. Do
		M. Attias	[illegible] 1/10	10	B/s Salampores
		J A Levy	JAL 734	1	B/ Cotton
		Vanzin & Afriat	[illegible] 2	2	Do. Do.
		J L Levy	JSL 763	1	Do. Do.
			764	1	Do. Do.
			765	1	Do. Do.
		Bergami Reuteman	B [illegible]	17	B/ Tea Buckets
			ASI	1	parcel papers
			B 4/4	3	Crates Kettles
			43	1	Do. Do.
		Drake	[illegible] 1/6	6	C/ Whisky
		"	7	1	Case Do.
		"	7	1	C. Chocolate
		J B Kahana	JBD 1/20	86	B/s Tea
		W. Mars & Co	[illegible] 1/20	2	B/s Cotton
			ACM 81	1	" "
			JSL 122	1	" "
		Drake	MR 4/10	10	C. Confects
		M Roville	[illegible] 36	1	B/ Cotton
		Salomon Acosta	[illegible]	2	Do. Do.

Copy

مبلغ ما وضع بلاد ورازن النجليز الوارد و رجب عام 1318 موافق 3 نوامبر سنة 1900

Voyage No. 99

Manifest of the S/S Wazzan Capt. Coulthurst

Tour Registered from London to Mogador

No. of Bill	Shippers	Consignees	Marks and Numbers		Goods
	وردان فرد	Ordre	[illegible] 19	1	B/ Cotton
	وفرد		20	1	do. do.
	اشلوم بن البيع فرد	J. Belisha	[illegible] 1	1	do. do.
	اشلوم افرياط فردين	J. Apiat Bro	[illegible]	2	do. do.
	ليون قرقوز صناديق اتاو	L. Corcos	[illegible]	7	Cs. tea
	ومنه صناديق		[illegible]	6	" "
	ومنه صناديق		[illegible]	8	" "
	ومنه صناديق		[illegible]	12	" "
	وصناديق شمع		[illegible]	48	" Candels
	وصندوق مجار		HC 14	1	Cf. E'ware
	وصناديق قصدير		[illegible]	50	Cf. tin plates
	ولفافه		[illegible]	1	Parcel papers
	وصناديق قصدير		SMC	20	Cf. tin plates
	وصناديق لك بالخطر البان		— 1/5	5	Cf. Gum
	قونسوا النجليز زنبيل زيت	H. M. Consul	[illegible]	1	tin oil
	وصندوق الماكولات		"	1	Cs. provisions
	ولفافه			1	Parcel
	ليان قرقوز صناديق قصدير	L. Corcos	[illegible] 1/40	48	Cs. tin plates
	شمعون الزنوري صناديق اتاو	J. Zagury	[illegible]	50	Cf. tea
	ومنه صناديق		"	10	do. do.
	ومنه صناديق			10	do. do.
	ومنه صناديق		[illegible]	10	do. do.
	ومنه صناديق			10	do. do.
	ومنه صناديق			10	do. do.
	ومنه صناديق			12	do. do.
	وبراميل فارغين		[illegible]	12	Empty [illegible]
	وصندوقين صابون		[illegible] 1/2	2	Cs. Soap
	ومنه صندوقين		[illegible]	2	do. do.
	يعقوب قرقوز فرد	J. Corcos Bro.	[illegible]	1	B/ Cotton
	وخرقوم خشاشي		[illegible]	6	Bags [illegible]
	ولفافه كاغيد		—	1	Parcel papers
	وصندوق الخطاطيف		— 136	1	Cf. Gum
	ومنه صندوق		137	1	do. do.
	ومنه صندوق		138	1	do. do.

[illegible]

منبسط ماوس بابور كروزا الانجليز الوارد في 4 رمضان عام 1900 الموافق 27 جنبر على 1900

Voyage No. 5

Manifest of the Morocco Capt. Bennett

Tons Register from Mogador to London

No. of L.L.	Shippers	Consignees	Marks and Numbers		Goods
	S. S. Mimeam	شلم ميمران خناشي لوز	TZC	1/4 / 94	61 Bags Almonds
	"	وله منه آخر	TI	32/29	8 " "
	"	وله منه آخر	PI	43/72	30 " "
	M. S. Attias	مسعود بعيه زكاب لوز	AC	34/72	39 Lerons Almonds
	"	وله منه آخر	MA	44/47	4 " "
	Simon Zagury	شمعون الزكوري بوطة من الترنج	Z	1/26	26 Cacks Citrons
	Isaac A. Levy	اسحاق اليوم براميل علك	SS	1/3	3 Barrels Gum
	Samuel Rendan	شمويل بن الدهان صناديق بيض	ZZ	1/41	41 Cases Eggs.
	Mier Benisan	مير بن سوسان براميل شمع	HP	21/23	5 Barrels B'Wax.
	"	وله براميل علك	MB	1/4	4 D. Gum Sangre
	V. Lumbroso	لمبروز صناديق بيض	[illegible]	28/39	111 Cases Eggs.
	Salomon Cabessa	شلم كبيسه زكاب علك	[illegible]	1/5	5 Lerons Gum
	"	وله منه آخر	GH	1/6	6 " "
	W. Jaap.	ياب صناديق بيض	K.C	1	6 Cases Eggs.
	"	وله منه آخر	"	2	6 " "
	"	وله منه آخر	"	3	3
	N. J. Afriat Bs.	نفتالي افرياط براميل زيت	MHB	25/26	7 Barrels Olive Oil
	"	وله صناديق بيض	—	27/49	21 Cases Eggs.
	Hamed Elrais	احمد الرايس صناديق بيض	MTA	1/11	11 " "
	Joshua Belisha	يوشع بن اليشاع زكاب لوز	SSL	13/91	79 Lerons Almonds.
	"	وله منه آخر	IBL	1/3	3 " "

كناريه

— To Tenerife —

A. Jerary	عبد الكريم الجراري صناديق بيض	IM	2	Cases Eggs.
Isaac Zagur	اسحاق زكاة قرد مرايح	IL	2	P'ses goods
Joseph Banon	يوسف بنون صناديق بيض	JB	6	Cases Eggs.
Salomon Hoby	شلم طوبي خناشي بول	STC	65	Bags Beans.

Mogador 27 December 1900

J. L. Rutter

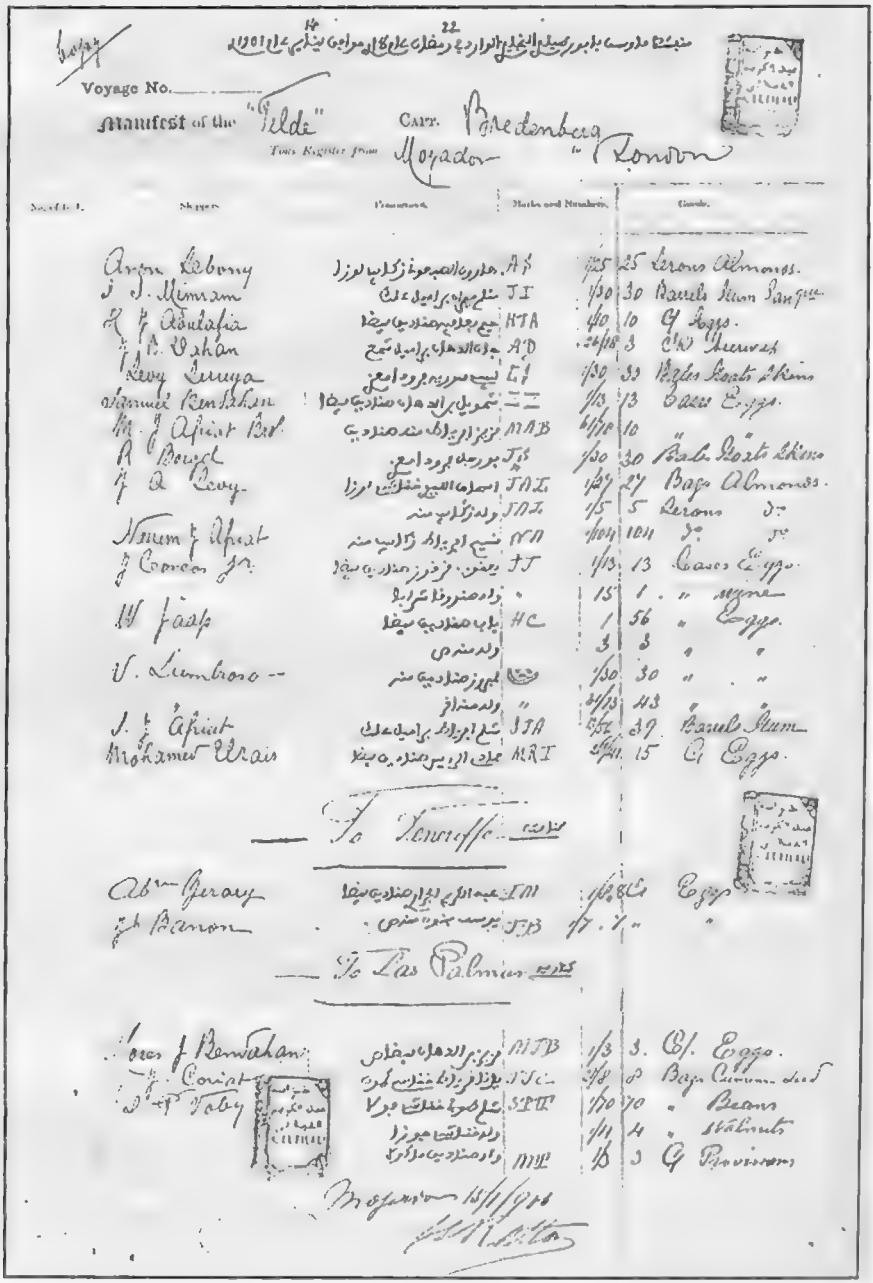

Voyage No.

Manifest of the "Felde" Tons Register from Mogador Capt. Bredenberg "London"

Number.	Shipper.	Consignee.	Marks and Numbers.	Goods.
	Argon Lebony	هارون العبوني زكاب لوزا	A L	25 25 Cerons Almonds.
	J. J. Mimran	شلوم جاي بن اميدا ن ت	J I	30 30 Bales Uncut Sanguine
	R. & Abdalafia	جميع بن عبد الله بن اميدا بيضا	H T A	10 10 Cases Eggs.
	A. Uzhan	حاييم الدهان بن اميدا بيضا	A D	3 3 Cases Anchovies
	Levy Zunuga	ليفي صروجه بن اميدا بيضا	L Z	33 33 Bales Goats Skins
	Samuel Benhakon	شموئيل بن الدهان صنادق بيضا	S B	13 13 Cases Eggs.
	M. J. Afriat Bro	موسى ابن يزاك ن صنادق بيضا	M A B	10 10 "
	A Bengel			
	J. & D. Levy	يهودا بن يعقوب ليفي	J L	30 30 Bales Goats Skins
		اسماعيل العبي خلفان لوزا	J A L	27 27 Bags Almonds.
		ولد زكاب منه	J A L	5 5 Cerons do
	Nahum & Afriat	نحوم ابن يزاك زكاب منه	N A	101 101 do do
	J. Corcos Jr.	يهشع . ن خزوز صنادق بيضا	J C	13 13 Cases Eggs.
		زاده ضرورة كرابا	"	1 1 " Wine
	W Faelp	بابا صنادق بيضا	H C	56 56 " Eggs.
		ولد منه ش		3 3 " "
	V. Lumbroso --			30 30 " "
		ولد منه ش		43 43 " "
	J. & Afriat	شلوم ابن يزاك بن اميدا ن ك	S J A	39 39 Bales Sumac
	Mohamed Uzais	محمد ابن الريس صنادق بيضا	M R I	15 15 Cases Eggs.

To Tenerife

Abm Gerary	ابراهيم بن اميدا بيضا	I M	8	Cases Eggs
J. & Baron	يوسف بن صنادق	J B	1	"

To Las Palmas

Moses & Benwahan	موسى بن الدهان بن فخار	M B	3	3 Cases Eggs.
J. Coriat	يهودا بن يزاك خلفان كرت	J C	8	8 Bags Cummin Seed
D. & Toby	شلوم بن يزاك خلفان فول	S T	70	70 " Beans
	ولد خلفان جوزا		4	4 " Walnuts
	واد صنادق بيضا وكرت	M E	3	3 Cases Provisions

London 15/11/1901

Modèle n° 3

N° 2 — AGENCE de

منبسط ما وضع بابور كوري الافرانسيسي الوارد في 13 جمادى الاولى عام 1319 موافق 29 غشت عام 1901

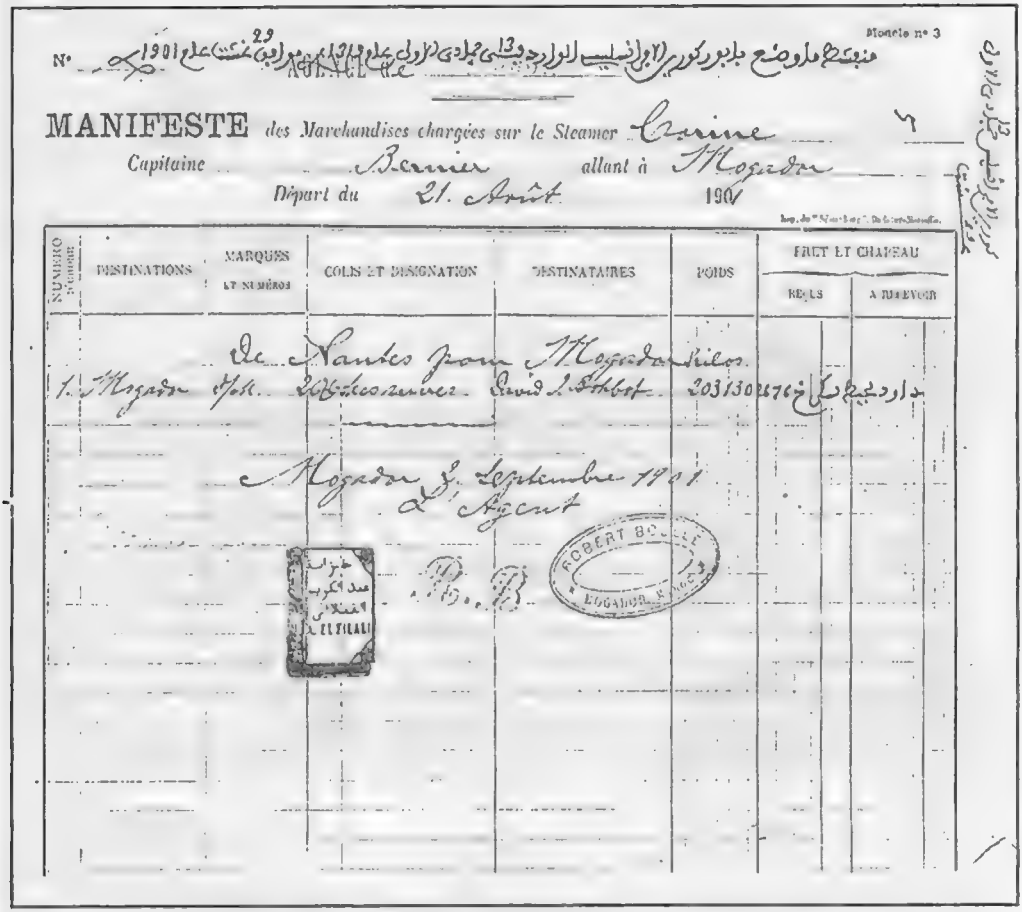

MANIFESTE des Marchandises chargées sur le Steamer Corine

Capitaine Bernier allant à Mogador

Départ du 21. Août 1901

NUMÉRO D'ORDRE	DESTINATIONS	MARQUES ET NUMÉROS	COLIS ET DÉSIGNATION	DESTINATAIRES	POIDS	FRET ET CHAPEAU REÇUS	FRET ET CHAPEAU A RECEVOIR
			De Nantes pour Mogador		Kilos		
1.	Mogador	4/ch.	26 Kilos sucre	David J. Dobbot	203130	2676	داود بجبط سكر خ

Mogador 3. Septembre 1901
L'Agent

ROBERT BOULLE — MOGADOR

نماذج من أعمال المشرفين على الجمارك المغربية ومداخيلها باسم الغرامة التي فرضت على المغرب بعد حرب إيسلي وحرب تطوان، وفي مجموعها نجد الكثير من الاختلاسات التي اضعفت الدولة وعرضتها للقروض التي هدت كيانها والتي اتخذ الفرنسيون والانجليز منها الضربة القاضية

الفصل الرابع والستون بعد المائة

محاولة الصحو (106) في المغرب المريض وتونس السليبة وتنظيم الجيش بواسطة الخليط من الأجناس الذين تآمروا على المغرب

مع كثرة المآسي التي عرفها المغرب في القرن التاسع عشر الميلادي، والتي تزاحمت كما رأينا، لم نتمكن من التعريف حسب العادة بشخص السلطان محمد بن عبد الرحمان قبل، وفي عهد تنصيبه على العرش، بل هو الآخر لم تمهله المآسي حتى يقدم نفسه بطريقة أو بأخرى كما فعل الذين سبقوه، ومع ذلك، فقد جاء الوقت الذي لا بد فيه ولو من تعريف موجز لهذا السلطان الذي توفر على صفات لم يشاركه فيها غيره، كما أن العهد والظروف التي تولى فيها الحكم لم يسبق أن عاشها غيره،ومع ذلك ما كادت الحرب بين المغرب والأسبان تضع أوزارها وتنتهي بالمغرب ومآسيه إلى ما انتهى إليه، حتى فكر هذا السلطان في إصلاح المغرب بصفة عامة، ودواليب الدولة بصفة أخص، بل والخروج بالبلاد مما هي عليه من حياة القرون الخوالي في الوقت الذي أصبحت الشعوب والدول شرقا وغربا تعرف تطورا متجددا، وتقدما في مختلف نواحي الحياة كماحصل لليابانيين الذين بدأوا نهضتهم بقسم الامبراطور على ذلك سنة 1868م(107).

كان محمد بن عبد الرحمان الذي عرف أحيانا في عصرنا بمحمد الرابع، والذي صعد إلى الحكم في سن التاسعة والثلاثين فجأة بعد موت والده المولى عبد الرحمان - متأثرا بداء الكلي، وقد كان على جانب مهم من الثقافة الإسلامية التي كانت رائجة في عصره وبين طبقة خاصة طبعا من مواطنيه، وهي طبقة العواصم ذات الأصالة مثل

---

(106) صحا : النائم صحوا، استيقظ ويقال صحا القلب، تيقظ من هوى أو غفلة واليقظة بالفتح : الانتباه من النوم، أو خلاف النوم.

(107) راجع هجرة الأفكار لجلبرت هايت ص :15،38، ط القاهرة 1955م.

سجلماسة ومكناس وفاس، ومراكش، وغيرها، ذلك لأنه كان لوالده به اهتمام خاص يقول بعض المؤرخين، ولأنه أكبر أولاده الذين ولدوا له أيام وجوده بقصر آبار بتافلالت عام1238هـ/1822 ومن رجالاتها كان معلموه الذين أشرفوا على تعليميه في فجر صباه وهم 1) قدور الصوصي (108) 2)حمزة بن عمر اللمطي(109) 3)العربي الوديي 4)الطيب بن اليماني بوعشرين، إذ على هؤلاء تعلم القرآن والقراآت ومبادئ العلوم، كما درس مختلف الفنون على 5)التهامي البوري 6)وابن الطاهر الفيلالي 7)وبسير الرباطي قاضي مكناس. 8)ومحمد بن الحسن "إذا" 9)والعابدبن كيران 10)وأبو بكر بن الطيب بن كيران.

وقد سجل الذين اهتموا بسيرة هذا السلطان أنه كان من الذين لهم رغبة صادقة في التزود بالعلوم والمعارف والإقبال على ذلك بطريقة لها ذكر في مجال التاريخ، وعند المتأدبين من معاصرين أيام شبابه، وفي عهد خلافته لوالده بمراكش، حيث جمع حوله من الفقهاء والعلماء أحسن ما كان وقتها بمدينتي فاس ومراكش، وكان مماتخصص فيه من العلوم فضلا عن الأدب الشعبي "الزجل" الذي كانت له فيه صولات مع كل من قدور العلمي دفين مكناس والمتوفى يوم 26 شعبان 1266هـ/1849م، والتهامي الحسناوي، الوجيهي المعروف بالمدغري، دفين "أبو نافع بفاس" والمتوفى في ضحوة يوم الأحد 21 محرم فاتح سنة 1237هـ/1874م.

لقد كان السلطان محمد بن عبد الرحمن بارعا في الحساب والتوقيت وعلم الهيأة، والتعديل، وأستاذاه في هذه المواد هما : على بن عبد الواحد الزجلي(110) والحاج محمد بن الطاهر بن أحمد الحبابي الفيلالي البوعامي رئيس المؤقتين بالقرويين كما يخبرنا المراكشي في الاعلام(111) أن أحمد بن الأمين الوداني اليعقوبي(112) نسبا كان من

---

(108) نسبة إلى قصر صوصو بتافيلالت.

(109) نسبة إلى قصر الماطي المعروف بتافيلالت حتى اليوم وهو قصر الشيخ أحمد لحبيب والذي درس فيه أحمد بن عبد العزيز الهلالي المعروف بكتبه المتعددة

(110) ج2/215ـ 216. ط 1936م وفيه ما قاله الوداني من شعر في السلطان بمناسبة ختم الأخير لكتاب إقليدس في علم الهندسة.

(111) راجع ظهير التوقير والاحترام من السلطان المذكور بتاريخ 4 قعدة 1285 هـ لأحفاد الشيخ المذكور والمنشور بكتاب "أعيان المغرب الأقصى" تأليف مارشي ص 550ط باريز 1939، وذلك في ترجمة محمد الزجلي محافظ الدار البيضاء في عهد ما قبل الحماية.

(112) وهؤلاء اليعقوبيون هم من أبناء عيسى ابن إدريس حسب المعروف تاريخيا وكما نص عليه ظهير السلطان محمد بن عبد الله المشار إليه قبل في المجلد الأول حين كلامنا عن الأدارسة، وتاريخهم وهو بتاريخ 1201 ثم راجع العز والصولة جـ2/109ـ110.

جلساء السلطان وأنه كان معلما بمراكش في علم الهندسة وأن المعلم الحقيقي إنما هو السلطان المذكور الذي كان يعد الدروس ثم يعطيها للواداني كي يلقيها، و«تحقق الطلبة من ذلك عندما، مرض الوداني ولم يكن أمام السلطان غير القيام بالواجب حتى لا يتعرضوا للضياع، ولما شفى الوداني وعاد لمهمته وأخذ بعض الطلبة يراجعونه فيما استعصى عليهم من بعض ما تلقوه من دروس لم يستطع الإجابة... إلخ؟ كما قيل إنه كان له كبير اهتمام بالحديث حتى قيل إنه حاول التأليف بالشرح على الجامع الصحيح(113) وموضوع الأحاديث المكررة والرواة، وذلك بطريقة غير التي قيل انه نهجها جده محمد بن عبد الله في "الفتوحات الالهية". والثابت أن محمد بن عبد الرحمان كان على نهج ما كان عليه سلفه، كان يبدأ دراسة صحيح البخاري في شهر رجب من كل سنة وينهيه في 17 رمضان، وكان من سواد مجلسه ذلك : المدني الغرفي(114). وعبد القادر الدباغ مفتى مراكش، وأحمد بن إدريس الشبيهي الزرهوني، والحبيب الصوصي الفيلالي وغيرهم.

ولئن كان عصر هذا السلطان بالنسبة للمغرب كما ذكرنا هو عصر المآسي وتزاحم دول الاستعمار وتطاحنها من أجل الغنائم، فإنه كان بالنسبة لأوربا عصر تطور وتقدم بعثتها ثورة الصهاينة الثورة الفرنسية في مختلف المجالات، سواء السياسية منها أو الاقتصادية أو الاجتماعية، وتعدى ذلك إلى ما كان ظاهرا من دول الشرق العربي وقتها، مثل آل عثمان ودولة محمد علي بمصر، ثم دولة الباي محمد بن حسين بتونس، وهي البلاد التي تعرضت فكريا لغزو الأنجليزيين والفرنسيين بإسم الإصلاح والدفع إليه والحث على تنفيد ما اقترح من وجوهه، ولئن كانت أخبار تلك المجتمعات ترد على المغرب ومن مختلف الاتجاهات، سواء بواسطة حج إخوة السلطان أيام والدهم كما سبق، أو بواسطة ماجد "من مواصلات البحر وارتباطهم بالمعاملات التجارية التي ظهرت على

---

(113) هي للإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سدرة بن الطحال السلمي البوغي الترميذي الضرير أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث كان حيا بين سنوات 209ـ279هـ/ 824 ـ 892م وكتابه ثالث الكتب الستة في الحديث خ. ع 2166د.

(114) نسبة إلى قصر بالغرفة بتافيلالت. توفي الطيب بن اليماني بمراكش عشية يوم الخميس 14 شعبان 1286هـ/1869 ودفن داخل ضريح عبد الله الغزواني، راجع فواصل الجمان لغريط ص 71ـ75ط فاس 1347هـ.

أيدي الذين فتحت لهم الأبواب كرها من الأجانب الذين ارتبطوا هم كذلك بالمغاربة في أطراف المجتمع وعلى أرصفة مختلف الموانئ فاستمد المغاربة منهم ومن الاحتكاك بهم النقد وعدم الرضى بالوضع الذي انتهى إليه المخالطون والمحميون، وما جروه على البلاد من ويلات ومآسي، بل وإذا كان للسلطان نفسه استعداد لحب الاستطلاع وإن لم يكن بالقدر الذي يميز مقاصد القنصل الأنجليزي هاي، فإنه كذلك لم يرضه ما كان عليه الوضع في بلاده، فكان هو الآخر يطمح إلى تحقيق ولو بعض الإصلاح إذا لم يكن في مقدوره التغيير الشامل.

كان محمد بن عبد الرحمان يعرف ما يريد لبلاده، ولذلك بدأ أول ما بدأ بإصلاح الجيش الذي بواسطته يتمكن من فرض وتحقيق ما يريد، وإذا كانت العناصر التي تسربت عن طريق الجيش هي التي مزقت الشمل وحطمت الجهود وكشفت العورات. فإننا لذلك أخرنا الكلام على هذا العنصر من جوانب الإصلاح الذي كانت المحاولة الأولى لتطويره قد ظهرت نظريا إثر معركة إيسلي ومنذ 1845م.

لقد أنكر السلطان محمد بن عبد الرحمان أن يستمر شعبه وحكومته على الوضع الذي كان قبل معركتي إيسلي وتطوان، وإذا هو كان عليه أن يعمل شيئا من أجل تغيير ذلك الوضع، فإن عليه أن يبدأ قبل الجيش بإصلاح الحكومة التي كان التسيير فيها يعتمد على وزير واحد بدلا من مجموعة من الوزراء، ولذلك أعاد تنظيمها وتنظيم مختلف دواليب الحكم بطريقة تمكن معها من التسيير أحسن، بحيث نصب على الصدارة الطيب بن اليماني بوعشرين، وهو من أساتذته الأولين، درس عليه القرآن وعلم القراآت وعاش معه محنة ما بعد معركة إيسلي التي كادت تعصف بالأمير نفسه من ولاية العهد، بسبب ما لحق المغاربة فيها من دمار، وقدكانوا بقيادته، مما أدى بالمرجفين إلى الدس له ولأستاذه عند والده الذي طوح باستاذ ولده الذي كان معه أيام خلافته بمراكش. فأصبح الرجل بعد عز يقاسي الضائقة والحرمان بمدينة مكناس التي لم يرحمه فيها أحد من الناس، ولولا اعتراف يهودي بالجميل يقول صاحب الفواصل، لكان موقف الرجل الطيب النزيه بشهادة الأنجليز أشد إحراجا وأكثر إيلاما بعد ما ترك للضياع طيلة خمس سنوات قبل أن يعتلي العرش صاحبه الذي ما كاد يبايع، حتى فكر في معلمه الأول،

فعينة مكان الصدارة في الوزارة ثم وضع على وزارة العدل التي عرفت وقتها بـ"المظالم" محمد بن عبد الله الصفار التطواني(115) كما أحدث وزارة للحرب عرف صاحبها بإسم "العلاف الكبير" وعين عليها صهره محمد الصغير الجامعي، ووزارة لمالية أطلق على صاحبها "أمين الأمناء" والواقع أنها قط لم تعرف رجلا أمينا، بل ولا أمانة في كل من أسند له هذا المنصب، والدليل ثرواتهم التي لم تقف عند حد، والتي تعرضت بعد للإتلاف، ثم وزارة الداخلية، وكان على رأسها موسى بن أحماد السوسي والد الحاجب الداهية بعد، أحماد بن موسى الذي سينصب عبد العزيز الطفل سلطانا عام 1311 ، ثم يباشر جميع السلط باسمه إلى 1318 هـ/1900م. ثم وزارة الخارجية، وقد تولاها الحاج محمد برقش، بعد محمد الخطيب التطواني الذي كان بدار النيابة بطنجة، وإذا كان السلطان قد نظم الحكومة على هذ الشكل حتى يحقق بواسطة أفرادها ما كان يهدف إليه من إصلاحات، بل وإذا كان لأعضائها أثرهم في الحياة السياسية، فإن بعض المصادر تنص على أنهم لم يكونوا على رأي سلطانهم فيما يرجع لاستيراد الإصلاح من الغرب الأوربي الذي ما عرفوا منه غير الكيد والدس والمكر. ولسوف ينتصر رأيهم هذا تاريخيا وإن كان أغلبهم سيتنازل عنه مقابل بريق الرشوة التي ساهم الأنجليز والفرنسيون في نشرها والتمكين لها. ومع ذلك فإن تلك المشاريع التي كانت من وحي الأجانب وتوجيههم مضاف إليها الظروف التي صنعها الأجانب كذلك، قد حملت في طيها الفشل وضياع الجهود التي بذلها السلطان محمد بن عبد الرحمان، دون إدراك منه لما كان يدبر لبلاده من بعيد، وإن كان خلفه المولى الحسن الذي عاش جل تحركات والده في هذا المجال، قد أفاد نوعا من ذلك في حياته، عندما اعتلى العرش كما سنرى بعد، وإن لم يكن بالقدر الذي يرجى، ولا كما فهمنا قبل بدافع العواطف ونكاية في الاستعمار. لأن أوربا وقتها كانت قد زحفت أشواطا طويلة وبعيدة في المجالات الصناعية والتجارية، لا قبل للمغرب والمغاربة بمسايرتها، أو حتى إدراك السيء من تدبيرها، ومكايدها، كما هو الشأن اليوم إذا

---

(115) توفي كذلك بمراكش أواسط ذي القعدة 1298هـ/1880م ودفن بدار ولد زيدوح بتادلة، راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية.. ملف أدباء عهد الدولة العلوية ثم المصدر السابق ص 70، والاتحاف لابن زيدان 206/2 وذلك في الرحلة السابقة للمولى الحسن الذي ولى مكانه علي المسفيوي.

قورنت شعوب العالم المتخلف بشعوب أوربا التي اختلقت ما شاءت من الأزمات السياسية في الشرق الأوسط، والشرق الأقصى، بل والاقتصادية من أجل استرجاع ما تدفع للعرب مقابل ما بأيديهم من طاقة ومواد خام...إلخ

وهكذا سنرى أن كل ما أفاده المغرب إن لم نقل محمد الرابع وخلفه من تنافس المتنافسين، إنما هو تأخير استقلال فرنسا بالمغرب عن كل من بريطانيا وألمانيا وإسبانيا، فترة من الزمن ستتقلص بعد مؤتمر مدريد، وتنكمش ثم تنعدم بعد موت المولى الحسن 1311هـ/1893م وخادمه أحمد بن موسى 1318هـ/1900م.

لقد تنوعت مشاريع السلطان محمد الرابع التي عرفت في مجال الاقتصاد(116) والإدارة، والثقافة، فكان من ذلك أن أصدر القوانين التي عززت المداخيل في الأسواق الداخلية وأبواب المدن، وإن كان والده قبل بدأ بذلك، كما خطط للزراعة التي حاول تطويرها في تجاه صناعة القطن، والسكر، الذي أسس له معامل قامت على زراعة القصب، وأخرى لصناعة السلاح، كماكان أول من جلب، فن الطباعة للمغرب، وكل ذلك لم يكن بتخطيط وطني، ولا هو صادر عن اقتناع أو اجماع. بل كان وحيا من رجل واحد هو قنصل الأنجليز هاي، لرجل واحد هو السلطان محمد بن عبد الرحمان، الذي لم يكن في وسعه اقناع أفراد حكومته، فضلا عن الشعب الذي لم يكن له به كبير اتصال، إلا ما كان من طبقة بعض العلماء وعلية الموظفين في المدن، الخاضعة لنفوذه، ولذلك كان دهاقنة الاستعمار يطالبون بتحقيق ما قالوا عنه إصلاحات،حتى يطمئنوا على مصير تجارهم وتجارتهم، وحتى يحققوا المكاسب المطلوبة لبلدانهم كما فعلوا في بلاد أخرى، وكانت الوسائل التي يتذرعون بها خصوصا الأنجليزيون(117) منهم والفرنسيون - للتدخل في شؤون المغرب، هي الدعوة إلى الإصلاح تظاهرا بحب التقدم والإزدهار للمغرب، وفي

---

(116) هو الذي أمر بضرب الدرهم الشرعي عام 1285هـ/1868م وقد كان المغرب قبل سوقا رائجة لمضاربات أنواع العملات الأوربية التي أرهقت الاقتصاد المغربي وذلك منذ ما بعد موقعة إيسلي وحرب تطوان، ثم جلب المطبعة راجع خ.ع، 1115 د ص 138. ومظاهر يقظة المغرب للاستاذ محمد الهادي المنوني الحسني 1/157 ط1985.

(117) راجع تاريخ العلاقات الأنجليزية المغربية ص : 229 - 235. وقد كان الأنجليز يلحون في ذلك على سلطان آل عثمان خوفا من طغيان أمثال محمد علي وغيره مما يجر التمزيق لدولة آل عثمان فتضعف وبالتالي تتأثر مصالح الأنجليز ونفوذهم كما سنرى ذلك مع تونس، وما جرته عليها فرنسا بإسم الإصلاح في آخر هذا الفصل.

الواقع قصد التمكين لنفوذهم بواسطة منفذى المشاريع، ولتجارتهم وحماية رعاياهم والمحميين من اليهود والمسلمين بالمغرب، وهو نفس الدور الذي كان يقوم به ليون روش سفير فرنسا في تونس مع الباي محمد بن حسين ووزيره الخزندار، ذلك أنه في المغرب بعدما اتسع نفوذ الأجانب بعد معركتي إيسلي وتطوان، فإنه بالتالي جر معه التابعين لدول أوربا التي هي بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا وبلجيكا، والتي أوعز كل منها إلى التجار ورجال الأعمال كي يقصدوا موانيئه، حيث توجد فرص المغامرات، بل أوعزوا لهم بشراء العقارات بواسطة اليهود المغاربة والشركة في تربية المواشي مع غيرهم من سكان البوادي القريبة من الموانئ مثل تطوان وطنجة والعرائش والبيضاء، وزعير، والجديدة، وآسفي، والسويرة، وذلك بعدما كانوا محرومين من ذلك قبل زمن المولى سليمان الذي قطع حدهم بطنجة، فلا يعرفون غيرها، أصبحوا كما ذكرنا، بل إن المولى عبد الرحمان وخلفه كانا كثيرا ما يرفضان طلبات نواب الدول لهما بالمقابلة، وذلك تفاديا لما كانوا يقدمون لهما من مطالب لا تتفق والسياسة المتبعة في عدم السماح للأجنبي بالملكية وإذا ما استشعر الأجانب من رجال الدولة والشعب الاتفاق على كراهية الأجانب بسبب ما عرف عنهم من عمل ضد مصلحة البلاد، ومحاولة السيطرة عليها، فإن قناصل تلك الدول وإن اختلفوا فيما بينهم على أشياء، فإنهم اتفقوا على أخرى ومنها جر المغرب ولو إلى قبول ما يقترح عليه بإسم الإصلاح على لسان هاي قنصل الأنجليز، كما كان الفرنسيون يفعلون مثل ذلك مع كل من محمد علي بمصر، والباي في تونس، ولم يكن لهم جميعا من هدف غير هدم السيادة المغربية بالكشف عن عيوب المسؤولين، ثم القضاء على نفوذهم بكثرة الحمايات، وبيع الأسلحة والبارود للأهالي، ولئن عرفت الإدارة وقتها نهاية التخلف وآخر درجة في الانحطاط الشامل اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، فإن ذلك انعكس على الحياة العامة بشكل كان له أكبر الأثر، بحيث عرف المغاربة أخطر المتاعب من واقعهم وما فعلوه بأنفسهم وبلادهم أكثر مما عرفوه من تدخل الآخرين الذين استغلوا تلك الظروف وما نتج عنها من وضع ازداد تفاعلا بما جروه على البلاد من تدخل سافر عندما انتشرت الفوضى وعدم الخوف من سلطان الدولة والرعب الكثير من القبائل التي أصبح بعضها يهاجم البعض بسبب انعدام الإنتاج وقلة الأمطار وانتشار المجاعة حتى أدى ذلك إلى

الموت الجماعي في مختلف جهات المغرب، ومن لم يتأثر وبقي بيده ما يفيد الآخرين لم يجد طريقا آمنا كي يوصله إليهم، سواء كانوا من المنهوكين أو الحكام المتهالكين.

وهكذا كان للحروب والثورات والمجاعات والأوبئة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، من الأثر على انحطاط المغرب كذلك أكثر مما كان لها من الأثر قبل، يضاف إلى كل ذلك ضعف الوازع الوطني الناتج عن عدم المعرفة وتكوين الشعور العام إزاء المصالح المشتركة، والذي تلاشى سواء بالنسبة للمسؤولين أو الشعب معا، وإنما كان قبليا محضا، فكانت النتيجة التردي في الفوضى والفساد حتى أصبح المغاربة عموما وكأنهم غير الشعب المتحدث عنه عبر التاريخ، أو قبل نصف قرن فقط، الثورة في كل ركن، والفتن في كل حي، ناهيك وأن روح القبلية ذات الزعامة الفردية التي أذكاها الوضع، والمتحكمة في مصير الفرد والجماعة، هي التي سادت في هذه المرحلة، وأصبحت القبيلة التي لا تملك ما يسد حاجيتها، أولها ذلك وتريد الحيطة من المستقبل المخيف ترى من حقها غزو جارتها وانتهاب مالها، مما زاد الطين بلة بانتشار الذعر والخوف بين المستضعفين، وتمكنت هذه الروح أكثر بين المتبربرين في الأطلس الكبير والمتوسط، ضد بعضهم البعض، ثم بينهم وبين العرب في أقصى الجنوب والشمال الشرقي، مما دفع إلى تكوين الأحلاف بين القبائل المتجاورة أحيانا. والمتباعدة أخرى. وكان أكبرها حلف آيت يافلمان، بالأطلس المتوسط وهي قبائل متعددة ضد حلف آيت عطا، والأول من قبائل ما بعد وادي أنكزمير جنوبا، بأرض آيت عياش إلى إقليم تافيلالت، باستثناء السفلة وأهل أبو عام الذين كانوا هم الآخرين مناوئين للحكومة، والثاني وهو من آيت عطا مجموع قبائل وعمائر وبطون وأفخاذ وفصائل ممتدة من غرب تافيلالت إلى وادي درعة وجبل صاغروا كما سنرى.

وهكذا فعلى مدى مائة وخمسين سنة أو تزيد لم تنقطع الحروب بين الطرفين إلا في الفترة 1304هـ التي استطاع أن يجمع بينهما الشيخ محمد العربي الهاشمي العلوي ساكن مدغرة وصاحب قصر كاوز، بعد المعارك الطاحنة حول قصر تلوين(118) التي

(118) هو قصر يقع بين فزنة بالجرف ووادي غريس، وهو غير تاليوين الواقعة ضمن عمالة وارزازات، فذلك بكسر التاء وسكون اللام وهذا بالفتح مع المد وكسر اللام تاليوين.

انهزم فيها آيت عطا على غير العادة في حروبهم مع آيت يافلمان، وقد تنبأ لهم الشيخ بذلك عندما تحدوا رغبته في الصلح الذي دعى إليه بين الطرفين مما قوى عزيمة خصومهم فانتصروا عليهم، وإثرها رجعوا إلى الشيخ الذي وحد بين الحلفين، وتلك غاية لم يدركها أحد من الملوك السابقين رغم كل الوسائل، التي بذلها المولى سليمان ، ومن وقتها أصبح في إمكان الشيخ محمد العربي أن يتحكم في الموقف حتى انتهى به الأمر - وقد تمكن نفوذه إلى الدعوة للجهاد بواسطة المنشور المشهور 1305هـ الذي أثار الضجة، ومنها كتابات المولى الحسن بالتحذير مما دعى إليه الشيخ محمد العربي كما سنرى بعد، وبالتالي فقد عاشت تلك القبائل وغيرها في حروب مستمرة عاقت تحقيق فكرة الإصلاح سواء في ناحية مراكش وما حولها(119) حيث تأسست معامل السكر(120) والسلاح، أو في الشمال والشرق وما بينهما، حيث قبائل بني يزناتن، والريف، وبني سادن وبني وراين، والدسول، وبني زروال، وصنهاجة، وغمارة، وهوارة، ومكناسة، وغيرها وبالتالي كل ما خرج عن الطريق التي يمكن لجيوش السلطان الوصول إليها، كلها كانت تغلى بالثورات، وكل ما يحتاج لاستمرار تلك الثورات من سلاح وبارود، كان الشعب يتوفر عليهما، فرغم احتكار الدولة كانت الأسواق التي نعددت في جل المراسي وعلى الحدود الشرقية، تعج بالتجار الأجانب وسماسرتهم الذين لم يكن لهم من هم غير التنافس في الدفع بالمغرب إلى هاوية أكثر عمقا حتى يصبح في الإمكان أسره والانقضاض على ما أمكن منه والإجهاز بعد على ما تمنع من أراضيه وأهله، كما تمزقت الجموع في جهات أخرى بدافع أخذ الثأر، ومن لم يستطع ذلك كان يشتري من يقوم له بذلك، حتى أصبحت الضعيفة منها ترحل من مكانها ولا تتجمع إلا بالقرب من حليفتها، وإذا أضفنا لذلك ظلم الولاة وفحش استغلالهم للتي بقي فيها ما يستغلون لفائدتهم أولا، ثم لفائدة حاشية

(119) راجع كل مصادر تاريخ هذه المرحلة مثل الجيش العرمرم والاستقصا وفواصل الجمان وكذا كتب الزياني المتعلقة بفترة المولى عبد الرحمان.

(120) عندما أسس مـ مل السكر مستقدم ـه بعض المكانيكيين مثل المهندس جوهين كلاكسون بو سطة محمد الدكالي الرباطي وذلك بتاريخ 1862/10/8 كما استقدم بعض آلات معمل السكر راجع الاتحاف 367/3 ـ 370

وكذا المطحنة البخارية بطنجة ومنار طنجة ومعمل تزديج البارود بمراكش وقنطرة، وادي أم الربيع : الاتحاف563/3 ـ 565..

السلطان التي كانت تجارتها مكشوفة في الوظائف وغير الوظائف، والتي لم يكن لها من مرتب غير ما يفرض على الناس وينتزع منهم قسرا وبحد السيف، بل إن الوظائف ذات الاعتبار كانت تعرض للبيع بالمزاد، وتشتري أحيانا من الحاجب الذي يعرض الثمن على السلطان مباشرة، وكان يفوز بها المتمول مهما كانت درجته من الجهل والعتو والفساد وسوف يمتد هذا إلى عهد المولى عبد الحفيظ فيصبح عيسى بن عمر وزير للخارجية وكل امكاناته الذهب النضار، والجهل والقسوة والاستكبار، وأحيانا كان المشتري الذي يسرع إلى رد ما دفع والزيادة عليه أضعافا بقوة الحديد والنار، حتى إذا قامت عليه الفتنة انقلب عليه الحاجب والسلطان ثم يتعرض إلى مالم يكن في حسابه، فيقبض عليه وتصادر أمواله وممتلكاته ثم يقضي بقية حياته في السجن وأسرته في التشرد وأسواق النخاسة، بل إن كثيرا منهم كانوا يضطرون إلى النزوح من دائرة حاكم إلى آخر بحثا عن الظلم النسبي مادام المرء غير متوفر على حماية قبيلة أو من يقوم مقامها، ذلك لأن العدل في هذه المرحلة اختفى كلية حتى بين القضاة الذين أصبحوا في الجهات النائية وفي هذه المرحلة أقل درجة من الولاة بعدما كانوا فوق كل سلطان ماداموا يمثلون الشريعة الإسلامية، حتى إن السلطان نفسه في عهد الحق والعدل وسيادة الخلق كان يقف إلى جانب المواطن أمام الشرع سوا بسواء، كلما حصل ما يستوجب ذلك(121) لكن بعيدا عن السلطان كانت الإدارة لا تعرف بغير الظلم والفساد، والقضايا لا تكتسب إلا بقدرة الطرف المقابل للدفع أكثر وذلك ـ ما يعيشه المغاربة ونحن في عام 1980م حيث الرشوة والمحسوبية والفساد الإداري والخلقي ولا حسيب ولا رقيب.

في هذا الجو المفعم بجراثيم الأمراض المشار إليها أراد محمد الرابع تحقيق بعض الإصلاحات في الإدارة والجيش وغيرها، وتطوير بعض المرافق، خصوصا وأن نغمة

---

(121) تقول الرواية إن السلطان محمد بن عبد الرحمان لما أراد بناء داره جوار نزل جده محمد بن عبد الله بمدينة الرباط سنة 1281هـ وأراد زيادة على السور الخارجي الذي كان للمولى عبد الرحمان، أقام عليه جماعة دعوى أنه يريد بناءها في ممتلكاتهم فوكل من يقف باسمه أمام القضاء كطرف مدعى عليه، وكان القاضي بالعدوتين محمد العربي بن أحمد بن منصور الزياني الحسني المتوفى 11 جمادى الأولى 1285هـ وانتهى الموضوع بالصلح بعدما دفع السلطان ثمن الجنات، راجع الاعلام لابن العباس التعارجي المراكشي ثم السوسي وقد أخذ عن الاتحاف لابن زيدان جـ 372/3 ولوالده المولى عبد الرحمن بن هشام موقف طريف أكثر من موقف ولده.

الإصلاح التي أوحى بها قنصل الانجليز أصبحت تردد على ألسنة كل ذوي المصالح، حتى الفرنسيين الذين لم يكن يرضيهم غير بقاء المغرب على ما هو عليه.

لقد كان على السلطان حتى يحقق ذلك أن يقضي على الثورات التي ظهرت في مختلف الجهات، خصوصا التي يمكنه الوصول إليها، وهي القريبة من عاصمتي الشتاء والصيف، مراكش وفاس اللتان تعرضتا للنهب والسلب من القبائل المجاورة لهما، فمراكش تعرضت لقسوة الرحامنة منذ ما قبل حرب تطوان وأثناءها مما أدى إلى قيام منازع للسلطان بسبب انشغاله بمواجهة الثوار، وهو ابن عمه سليمان بن عبد الرحمان الذي ظهر بناحية فاس، والذي كان والده أيضا قد قام ضد المولى عبد الرحمان(122) كما ظهر ثائر آخر قبل سنة 1278هـ/1861م هو الجلالي الغرباوي المعروف بـ "المعكاز" والذي لم تقف ثورته إلا عند ما توجه مستحرما بضريح المولى إدريس، وداخل الحرم بزرهون انقض عليه أحد العلويين ثم طعنه بخنجر جر بعدها إلى حيث النافورة فذبح وقطع رأسه(123)، وإذا كان هذا الثائر أيضا قد استمد قوته من الرحامنة فإن هذه القبيلة لما استشعرت الخطر بعد تفرغ السلطان لها واجهته بعنف أجمعت عليه حتى كادت تحول بينه وبين الدخول إلى مدينة مراكش التي قطعوا بها بعض رؤوس كبارهم، ثم أرغم الباقون على التنازل على بعض الأراضي التي كانت تابعة لهم، وهي بلاد،آيت سعادة، وغواطيم(124) والوداية، لكن الرحامنة لم يستسلموا ودبروا للمدينة كمينا هزها هزا طارت به أشلاء ثلاثمائة من سكانها، وسقطت الدور القديمة، كما تضررت المدينة ضررا كبيرا، وقيل عن الكمين «هدة البارود» التي وقعت يوم السبت

---

(122) راجع الاتحاف 2/145 ـ 47.46.فهو سليمان بن عبد الرحمن بن السلطان سليمان وقد تطوع رجال قبائل آيت يوسي وبني سادن بإلقاء القبض عليه ثم الذهاب به سجينا إلى فاس ثم إلى السلطان عام 1290هـ وذلك بعد ما حاول التعجيل بتدخل الفرنسيين الذين اتصل بهم بعد ما فشل اتصاله بأهل فاس الذين وعدوه بالنصر لولا مبادرة القائد فرجي الذي هزمه وقضى على أنصاره ففر إلى الفرنسسين الذين كانوا في رحلة عمل ببني يزناتن والذين لما علموا منه الخروج عن المبايع أقبلوا عليه لكنهم لم يجدوا موافقة من دولتهم فتخلوا عنه بعدما أعطوه مالا...

(123) فواصل الجمان 73 مصدر سابق.

(124) ملّك السلطان محمد بن عبد الرحمن بعضها بعد لأخيه بناصر، حسب الوثائق التي بيد حفدته، ومنهم ابن إدريس الذي يعمل اليوم أجيرا لدى بعض شركات البناء، وهو اليوم 1975م من سكان مدينة سلا، وقد كان جده المذكور بقصر الدار البيضاء بتافيلالت.

14 شعبان1280هـ/1863م، كما قامت بعد ذلك فتنة بفاس حيث قتل التاجر جبيب بن هاشم بن جلون، بيدشخص مجهول وهو يصلي بجامع القرويين، وفي تادلة قامت الحرب التي قام لردعها السلطان نفسه في نصف رجب 1289هـ/1872م، ضد بني موسى الذين أعلنوا العصيان ضد عاملهم الغزواني بن زيدوح، فقطع منهم نحو الخمين رأسا علقت على أسوار مدينة مراكش، وجر أربعين من كبارهم إلى السجن. كما عادت مراكش إلى الفتنة بسبب تصرف عاملها أحمد بن داود، الذي كان السلطان ينتصر له ضد أهل البلد المتظلمين، رغم عدم استقامته، لكن العامل أخذه الله إثر عودة السلطان إلى مدينة مراكش وهي المدينة التي كان الخليفة بها هو ولده المولى الحسن، الذي كان إلى جانب أهل المدينة ولو بالقول الحسن لكبارهم، وبالتالي فقد كانت المعارضة ضد السلطان بسبب انتشار الظلم وانعدام العدل منتشرة وقوية، حتى إنه في شهر شوال من سنة 1282هـ/1865م أصيب السلطان بمرض ما كاد ينتشر خبره حتى قالت المعارضة إنه توفي، وبالغ خصوم الحمايات في ذيوع تلك الفرية حتى تتحول البلاد إلى فوضى تمزق المحميين وحماتهم، ذلك أنه فقط في قبيلة أولاد حريز وحدها كان أكثر عدد المحميين فيها إلى درجة أنهم كانوا يعدون بـ 1600 محمي وكلهم مشاركون مع الفرنسيين في المواشي والأراضي، وفعلا اختل الأمن والنظام في كل الجهات القريبة من الساحل، حيث أصبح الأجانب في الموانئ عرضة للهجومات غيرالمنتظمة، وبالتالي فقد قضى محمد الرابع سنوات حكمه الأولى في تمهيد البلاد من جديد، وفي القضاء على الثوار وتنظيم بعض المرافق والبحث عن مداخيل جديدة استمدها من مختلف أنواع التجارة، التي كانت تروج بين سكان المدن وأهل البادية في مختلف المواد كالحيوانات والجلود والأصواف والحبوب، وما فرض علي الأسواق والأبواب حيث أصدر تشريعا خاصا يفرض ضريبة خاصة(125) وأما الأسلحة والبارود والكبريت فقد احتكرتهما الدولة مع العلم أن التشريعات لم تثمر إلا في الأماكن التي كان للدولة فيها نفوذ.

في هذا الجو ورغم كل ما سبق كان السلطان على صلة أكثر بقنصل الأنجليز"هاي" الذي عرفنا الأدوار التي قام بها. سواء بعد حرب إيسلي أو أثناء حرب

(125) راجع المرسوم الذي وجهه إلى أمناء الدار البيضاء والمؤرخ في22 رجب 1277هـ/1860م.

تطوان، ثم قبلها وبعدها، وعندما انتهت إلى ما سبق، تقدم باقتراح إلى السلطان ضمنه مذكرة أرسلها بتاريخ 6 ماي 1862م(126) 1279هـ، تعرض فيها لذكر الإصلاحات كوسيلة من وسائل التنمية والزيادة في مداخيل المغرب في مجال الفلاحة واستغلال الثروات المعدنية، كما كان محمد الرابع يطمح إلى النهوض بمختلف مرافق الحياة، لكن جل مشاريعه تعرضت للفشل لأنها كانت ضد مصالح الدول الغربية وقتها، فقنطرة أم الربيع التي استوردها ولد مصطفى الرباطي كان المقاول الذي كلف بها أنجليزي، ولما استقدمت قامت من أجلها ضجة ثم وجدت قصيرة وغير صالحة للوصل بين ضفتي الوادي، وميناء أسفي الذي حاولت شركة إنجليزية إصلاحه بشرط أن يكون لها امتياز للحصول على ضريبة خاصة من مداخليه تعرض هو الأخر لمعارضة الأسبان مما أدى إلى توقيف العمل به وبميناء الجديدة، ومشروع زراعة القطن ومعامل النسيج والسكر وزراعة القصب، كلها تعرضت للإفشال رغم الاستنجاد بالمصريين(127) لأنها أسست بتفكير غريب واقتراح غريب، وإشراف غريب ولم ينجح إلا مشروع منار البحر على رأس سبارتيل الذي شاركت فيه كل الدول التي كانت لها معاملات تجارية في البحر مع المغرب، وكانت سفنها تتضرر من عدم ما تسترشد به، ووقع الاتفاق بينها على إنشائه من طرف المغرب سنة 1277هـ 1860م وأشرف على إنجازه مهندس فرنسي أتمه بعد سنة ثم بدأ العمل به في التي تليها.

والمطبعة التي أنشأها بفاس قصد نشر العلوم والمعارف، والتي أرسل واستقدم من أجلها البعثات إلى مصر لتتكون في فن الطباعة أيام سعيد باشا، والخديوي إسماعيل(128) سرعان ما تعرضت هي الأخرى إلى التثبيط، والإدارة التي عرفنا كيف

---

(126) تاريخ الاتحاف 563/3 وبالتالي ترجمة محمد الرابع ما بين صفحات 366-577.

(127) تاريخ العلاقات ص : 229 ط البيضاء 1981م مصدر سابق. الاتحاف 563/3 وبالتالي ترجمة محمد الرابع ما بين صفحات 366 ـ 577.

(128) راجع مظاهر يقظة المغرب للأستاذ محمد الهادي المنوني الحسني ص : 46 ط الرباط 1977م ثم راجع الشهادة الممنوحة لمحمد بن عبد السلام العلمي أحد أفراد البعثة المغربية إلى مصر، بكتاب أعيان المغرب الأقصى المذكورقبل ص : 474.

وفيه نص على أن العلمي المذكور ذهب لتعلم الطب الذي أجازه فيه حسن عودة الحكيم الدمشقي عام 1291هـ/1874م.

كانت فاسدة بسبب ذيوع الرشوة التي كان للأوربيين دخل في ذيوعها والتمكين لها بين رجالات الدولة وحاشية السلطان، حتى أصبحوا يطلقون عليها "الحلاوة" حاول السلطان القضاء عليها ولو نسبيا بين الذين لهم علاقة بالأجانب من الأمناء في المراسي، وغيرهم من الموظفين الذين رتب لهم مرتبات شهرية، بعد ما منع عليهم الجمع بين العمل الإداري والتجارة، ومن أجل ذلك أحدث إدارة خاصة بالتفتيش مهمتها محاربة أنواع التعطيل والفساد، لكن ذلك كله لم يجدي لأن الأجانب كانوا قد عرفوا الداء فحالوا بينه وبين الدواء.

بل يقال إن محمد الرابع الذي كان واسع الأفق فكر في إنشاء مصرف وطني تابع للحكومة المغربية تستطيع الدولة بواسطته أداء الغرامة الإسبانية المفروضة عليها بعد حرب تطوان، التي كانت الدافع الأكثر بمحمد الرابع إلى محاولة البعث والإصلاح الذي بدأه بتجديد نظام الجيش الذي أخرنا الكلام عنه كما أشرنا.

لقد كان لتجديد نظام الجيش أثره في حالة البلاد وما آلت إليه بعد من نكبات دبرها الاستعمار الذي كان على الأبواب، فإن ذلك كان حسب رواية بعض المؤرخين في عهد المولى عبد الرحمان، وعلى يد نجله محمد الرابع بعد إثر هزيمة وادي إيسلي، حيث كان جيش المغرب يتكون من مجموعات قبلية إلى جانب البواخر، أو بالأحرى بقية جيش البخاري الذي كان قد مزقه محمد الثالث لأسباب سياسية أشرنا إليها قبل ـ وكانت هذه المجموعات هي : الشراقة ـ أولاد جامع ـ الشراردة(129) ـ الوداية ـ سوس ـ المنشية ـ ثم جيوش الثغور الريفية. من هؤلاء كان جيش الفرسان الذي لم تكن قط بين أفراده مودة، بل تنافر وخصام قبلي، كان يذكيها القواد وما بينهم من تحاسد، أما المشاة فإن الدولة كانت تعتمد على الاستنفار وما يتبعه من فوضى، وتلك من أسباب وعوامل الهزائم التي مني بها الجيش المغربي في حربه مع الفرنسيين والأسبان. لأن ذلك الاستنفار في الغالب لم يكن يعتمد على غير القهر والضغط والإكراه من العمال والولاة الذين يجدون فيه فرصتهم المرجوة في الأغنياء وذوي اليسار الذين ليس لهم من ظهائر التوقير والاحترام ما يحميهم من "الكلف المخزنية"، وحين انتقلت السلطة إلى محمد بن عبد الرحمان الذي ذاق مرارة الهزيمة للمرة الثانية في حرب تطوان بعد معركة إيسلي، والذي أدرك أن السبب لم يكن في الرجال بقدر ما كان نتيجة لعدم النظام وقلة السلاح، ولذلك حاول إنشاء جيش من المشاة وتكوينه حسب الطريقة الحديثة، وما كاد الخبر ينتشر حتى ظهر من يعارض الفكرة ويثير البلبلة حولها. ممادفع بالسلطان إلى استفتاء بعض العلماء(130)، فأفتوه بالجواز، وحتى يتحقق من اقتناع الشعب بالنظام الجديد أصدر

(129) قاموا قبل بثورة كادوا يخلعون بها المولى عبد الرحمان، وقد كانت ولا تزال منازلهم قرب فاس، وهذا ما دعاه إلى اختيار الإقامة بمراكش راجع الاستقصا 9/ وفواصل الجمان في ترجمة سعيد بن موسى بن أحماد ص : 87،88م والاتحاف 2/500ـ 3/567إلى 83ـ156 ـ 249.

(130) ذكر أسماءهم محمد الهادي لمنوني في المصدر السابق 1/263 ـ 273. وهم القاضي محمد بن عبد الرحمان العلوي "المدغري" وأحمد المرنيسي الفاسي، والقاضي محمد الصادق بن محمد الهاشمي العلوي "المدغري"، والشيخ عبد السلام بوغالب الفاسي، والقاضي محمد المهدي بن الطالب بن سودة، وأخوه الشيخ عمر، والشيخ محمد بن محمد بن حمادى الحمادى، المكناسي، والشيخ محمد مسواك التازي، والقاضي الحاج محمد بن محمد الفيلالي، والشيخ أحمد كلا بن أحمد بناني الفاسي ثم راجع ملخص مذكرات الرحالة الإسباني خواكين غاثيل، تأليف فرناندو ريلد براما مرتينيت ط تطوان 1954.

ظهيرا بتاريخ 22 رجب 1277هـ/28 يوليه 1861م وهو نفس التاريخ الذي أصدر فيه ظهير المداخيل المشار إليه قبل، وهذا فرض به عددا معينا من الرجال على بعض القبائل التي عرفت بولائها قدر بألفي رجل لكل قبيلة، وإذا لم يكن له من طريقة غير هذه التي حملت معها روح القبيلة وما تنطوي عليه من تنافر لأتفة الأسباب، فإن ذلك ما عرفه الجيش ونظامه الجديد الذي حمل في طياته بذرة فساده وانحلاله.

بدأ الجمع بأهل تافيلالت وما حولها من حراطين لبلاغمة ولبطاطحة الذين كان المولى إسماعيل قبل، قد أخذ منهم آيت حمو "ثم أهل سوس، ودكالة والسراغنة، وعبدة، حتى تجمع له ما أراد ثم أخذ ينظمهم في فرق عرفت بالطابور، وعلى رأسه قائد المحلة وهذا تعداده ألف رجل ينقسم إلى قسمين، واحدهما يعرف ب "الرحى" تعدادها 500 لكل مائة ضابط يعرف بقائد "المائة" له خمس "مقدمين" يشرف كل واحد منهم على عشرين، وحتى يحصل الإغراء للذين لم يقبلوا على التجنيد خصص لهم لباس مقتبس مما لآل عثمان شكلا، ومن الثياب الأنجليزي المعرف ب "الملف" ومن وقتها أصبحوا يعرفون ب "عسكر النظام" أصبح لهم مدربون وقواد، لكن محمد الرابع لم يؤخره أجله حتى يبني أو يتم البناء الذي بدأه في مجال تنظيم الجيش، بل توفي زوال يوم الخميس 18 رجب من عام 1290هـ/17-9-1873م بسبب مسهل كان استعمله، ودفن ليلا بضريح جده المولى علي الشريف بمراكش، قرب ضريح القاضي عياض من باب أيلان، رحم الله الجميع.

لقد أشرنا إلى أنه تمكينا لهذا الجيش وعسكر النظام، كون له وزارة خاصة عرفت باسم «العلاف الكبير» وحتى يكون له من السلاح ما يرفع معنوياته أنشأ معملا للذخيرة بمراكش، كما أرسل بعثات لتتكون في ميدان الجندية والسلاح(131) بجبل طارق ثم بمصر كما استورد ما كان بهذا القطر الشقيق من خبرة في هذا المجال، لكن ذلك كغيره من مختلف المشاريع تعرض للفشل وخيبة الأمل،بسبب العنصر الدخيل الذي اندس دون أن يدرك المسؤولون قصده وأهدافه،بل والذي سيظهر بعد ذلك أن السلطان في المقدمة وغيره من المغاربة اغتروا بأولئك الذين فروا من الجيوش الأوربية إسبانيين، وفرنسيين، وانجليز، قصد المغامرات التي كانت تستهويهم وقتها، والتي من أجلها ومن أجل

(131) راجع الإتحاف 2/465 ـ 509

اكتشاف المجهول كان الكثير منهم يعلنون إسلامهم خداعا كما فعلوا مع الأمير عبد القادر بالجزائر حسبما سبق، حتى قيل إن الإسبانيين وحدهم بلغ عددهم في صفوف الجيش المغربي ومدفعيته نحو المائتين وخمسين نفرا، ومن الفرنسيين نحو الخمسين، مما أدى إلي تذمر الكثير من ضباط الجيش المغاربة، خصوصا عندما تعددت عناصر الأوربيين كضباط كبار لهم من الأوامر مالا قبل للمغاربة الجنود وضباطهم بمخالفتهم، أو العمل بغيرها، كما لم يعتمد في تسليحه على بلد خاص من بلاد أوربا، وإنما على كل من باريز، ولندن، وبرلين، وبروكسل، وهي التي كان يستورد منها كذلك كل التجهيزات لتنفيذ بقية المشايع، وما عرف المغرب من مصانع للسكر والنسيج والزراعة، ولئن أدرك المولى الحسن هذا الخطأ وحاول التحرر والتقدم بإحداثه وزارات للخارجية، والعدل، والحرب، والبحرية، والمالية، كما عمل على تكوين الأطر من المغاربة بعد ما رتب للجنود والضباط المغاربة مرتبات لم تقتصر عليهم وإنما انتقلت في شبه ممتلكات أرض(132) «مخزني» تنقل بعدهم إلى أبنائهم وأراملهم، وحتى يدفع بهم إلى الأمام في المجال العسكري، كان محمد الرابع يرسل كل عام بعثة إلى جبل طارق يقدر عدد أفرادها ما بين 150 و200 جندي طالب، وكانوا يعودون ليعينوا كل فيما يحسن، وزود الجيش بالمدافع الثقيلة التي اشترى دفعات منها من بلجيكة وعلى عهد المولى الحسن الذي زود بها خفر السواحل كما زود فرق المشاة بعربات جلبت من فرنسا(133)، لكن الذي حصل بعد وكان له الأثر السيء هو انخداع المولى الحسن نفسه لقنصل الأنجليز الذي لم يسترح إلا بعد ما زوده

(132) بقي استغلال الأرض باسم الجيش ولا يزال في بعض النواحي تمارة في الرباط، والشراردة ناحية فاس ومراكش حيث تعرف أرض الجيش، وقد اقترحنا تمليكها لمستغليها الذين طال استغلالهم لها منذ أكثر من 100 سنة وفي الرباط 200. اقترحنا ذلك على منصة البرلمان عام 1964م ومثلها أرض الأوقاف. بدلا من استيلاء ذوي الامتيازات عليها وتشريد مستحقيها من المستضعفين الذين تعرضوا للتشريد ناحية الرباط بالاخص حيث تكون من أرضهم حي الرياض الذي تاجرت فيه الحكومة والخواص بعد ما شردت المآت من الأسر والعائلات التي أصبح أفرادها عالة على المجتمع، في الوقت الذي كانوا قد دفعوا ثمن تلك الأرض من دمائهم ودماء السلف والخلف منهم من غير أن تعترف لهم الدولة التي حافظوا على استمرارها، بل انتقم منهم خصومها ولا من يحرك ساكنا أو يرحم ضعيفا تشرد أبناؤه وعياله الأمر الذي أساء إلى الدولة. ثم أفقد المتعلقين بها روح التطلع والالتزام. كما زرع في أبنائهم وخصوصا المثقفين منهم أشد الوان التطرف السياسي.

(133) راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية بالرباط ومديرية الوثائق الملكية.

سنة 1294هـ/1877م بأول ضابط أنجليزي، انضم إلى الجيش المغربي وهو الملازم الأيقوسي «هاري ماكلين» الذي كان يعمل بجبل طارق، وقد استطاع هذا الضابط أن يصبح قائدا للحرس السلطاني الخاص، وبذلك أصبح نفوذه أكثر لا في الحاشية، بل على السلطان نفسه، وإذا كان الفرنسيون قد تعرفوا على أجواء القصر بعد معرفتهم لأحوال الجيش الذي خبروه منذ ما بعد معركة إيسلي، فإنهم في عهد المولى الحسن الذي مر بتجربة قاسية (134) قوامها تسعة عشر رحلة شملت المغرب شرقا وغربا شمالا وجنوباكان جلها حروبا تأديبية، انتهى فيها إلى هزيمة في الحرب التي خاضها ضد الثائر الهبري، ومعه التسول والبرانس وما حول تازة من القبائل(135) وكان الفرنسيون قد استدرجوا السلطان حين وصل مدينة وجدة 1293هـ/1876م إلى مشاهدة فرق من الجيش الفرنسي قامت باستعراض أمامه فأعجب بتدريبها وتنظيمها، مما دفع به دون انتظار إلى طلب مجموعة من الضباط الفرنسيين لمساعدة الجيش المغربي وتكوينه بطريقة تتفق وما رأى، وذلك ما كان الفرنسيون ينتظرون من وراء ما فعلوا فزودوه بمجموعة من الضباط لم يحسن استعمالهم حين وزعهم على حاميات وجدة وفاس، والرباط، ومراكش، كما ضم البعض إلى الحرس السلطاني، وحفاظا على "التوازن"، كما هي وقتها استورد الضابط الأنجليزي ماكلين المشار إليه ضباطا آخرين من الأنجليز، ومعنى هذا أن الجيش المغربي أصبح يتوفر على عناصر مختلفة من الأوربيين وإذا أصبح بعضها حتما

(134) راجع الإتحاف 115/2 إلى 549.

(135) راجع ثورة الهبري وهو الفتان أبو عزة بن عبد القادر العامري الشرگاوي بكاف معطشة نسبة إلى الجزائر شرق المغرب وهو من هبري، بلدة بين أم عسكر ومستنغانم كما ذكر في الاتحاف 153/2، مما يستدل به على تجارب فرنسا التي تعددت بإثارة الفتن من أجل هدم كيان المغرب ومع ذلك سيبقى الفرنسيون المنحلون هم المفضلون عند بعض المغاربة لأنهم يجدون في دعارتهم وبائعات الهوى من بناتهم ما يلهثون خلفه من فسق وفجور أنتجوا به جيلا من أولاد الخنا، يعلم الله ما سيجره على المغرب والمغاربة من خراب وضياع بدأ ولسوف يتقوى ويتمكن بحكم الوراثة وعلى المدى البعيد. وهذا ما يدفع بنا إلى التسجيل حتى لا تحكم علينا الأجيال المقبلة بالغفلة وعدم الإدراك بل نبهنا لذلك وعلى منصة البرلمان حيث اقترحنا قانون من أين لك هذا بتاريخ 1964/10/19 وكنا نقصد جماعة على رأسها احمد رضا كوديرا الذي كشفت الأيام حقيقته وما كان عليه بدافع الوراثة والنشأة الفاسدة كما سنرى بعد حين تعرضنا له ولا مثاله زمن نفي محمد الخامس طيب الله ثراه بل والذي اشترى بعد لزوجته الفرنسية مريضة الثدي بالسرطان منزلا بشارع هنري مارتان بباريز بمليارين ونصف المليار وهو المعدم ابن التهامي المعدم وفاطمة بوعلو .بل وولد زنقة الزكي بدرب الزناگي بالرباط والمتفسخ كما يعرف الكبير والصغير.

يحرس تحركات البعض الآخر، فإن وجود الفرنسيين في جهات متعددة مكنهم من تحقيق ما لم يحققه غيرهم، خصوصا الأسبان والأنجليز، فبعد ما كان تواجدهم كغيرهم قاصرا على الموانئ أصبحوا في أهم مدن المغرب وفي أعلى الوظائف التي يتوددهم بحكمها، كل ما حولهم من المغاربة أقوياء كانوا أم ضعفاء وكان الضباط الفرنسيون داخل الجيش يقومون بدور خطير ضد المغاربة، حتى يدفعوا بهم إلى النقمة على الوضع الذي هو من صنع السلطان وحاشيته، كلما وجودا الفرصة لذلك، ولم تكن في غير أوامر السلطان بتنفيذ أمر إداري ضد جماعة أو قبيلة وذلك في الوقت الذي كانوا لا يقربون إلى السلطان من الظاهر إلا ما يؤكد زيادة الإقبال عليهم وعلى ما يجلبه التجار والأجانب مما يقال عنه إصلاح الاقتصاد المتدهور والإدارة التي أخذت تتطور، وفعلا كانت الإصلاحات الإدارية التي بدأها السلطان محمد الرابع قد أخذت تثمر حين عززها خلفه، وتحسنت حالة الموانئ التي تمكن السلطان من استخلاص نصف مداخيلها من يد الأسبان بدفع ما تبقى من الديون دفعة واحدة، وبتطور نفقات القصر(136) وازدهار ما كان حول السلطان دون بقية الشعب الذي كان مشغولا بتطاحن قبائله هنا وهناك، تارة فيما بينها وأخرى ضد حاكم من حكامها، ولذلك ظهر للسلطان وكأن ما تحقق حوله إنما هو ثمرة من ثمرات عمل الضباط الأجانب في الجيش الذي أصبح في مقدوره ردع وقهر ما تمنع من الجهات التي لم تكن الدولة تستخلص منها الضرائب، ولم يكن ذلك حقا في غير السواحل وما بها من الموانئ، بل إن السلطان بعد سيرسل عمه سرور بن عبد الرحمن عام 1305هـ/1887م ليستخلص من قبيلة آيت شخمان الأعشار السنوية فيقتل ظلما ويقطع رأسه ورؤوس 55 معه كما سنرى.

لقد عرفت فترة تنافس الضباط الأجانب داخل الجيش المغربي نوعا من الاستقرار المصطنع الذي يكون عادة من رعب الآخرين وخوفهم من تسلط القوى القائمة، وذلك ما كان يحصل كلما ظهر ما يستوجب ذلك، حتى يثبتوا للسلطان أن النظام الجديد تحت إشرافهم أعطى من النتائج ما يبعث على التمسك به والإقبال على المشرفين عليه، كما

(136) راجع الإتحاف المصدر السابق في ترجمة المولى الحسن جـ 115/2 إلى549.

حقق تواجد فرق من الجيش النظامي بالمراسي نوعا منتظما من المداخيل كان في الواقع نتيجة التنافس بين الدول الخمس على الإستيراد والتصدير للمواد الخام التي كثر التهافت عليها من كل من بريطانيا وفرنسا، واسبانيا، وألمانيا، وبلجيكة، وهي الدول التي كان تنافسها وشدة إقبالها على ما للمغرب من إنتاج زراعي ومواد خام قد زاد في قوة العرض والطلب بالمغرب، وبذلك ارتفع إيراد الجمارك التي عرفت الرواج بعدما أصبح موظفوها والأمناء بها لاحق لهم في الاتجار المضاربة ماداموا يتقاضون مرتبات قارة، تم هم خاضعون لتفتيش، بل أصبحت الدولة تتوفر على مداخيل ظهر أثرها أكثر بين المسؤولين حول السلطان، كما عرفت البلاد بما جد من المواصلات علاقات أكثر اتصالا مع الخارج، حيث قصد المغرب أيضا من طرف أعداد متوافرة من الأجانب قدموا عليه بواسطة تدخل القناصل، واخرون بواسطة ضابط مقرب، وغيرهم بقول أن للبلاد نظاما وجيشا قويان لا يخشى معهما من وجود الأجانب إلخ.

وهكذا فإن ما كان يرجى من تجديد نظام الجيش وتطويره حتى يصبح قوة للبلاد وسندا للشعب، انقلب بسبب ما أصبح للضباط الأجانب من نفوذ دسوا به على السلطان من جانب، ثم خدموا به مصالح بلادهم من جانب آخر، فكانوا بذلك عاملا قويا من عوامل التمكين لسياسة الاستعمار الغربي في المغرب، بل أصبح الأوربيون المتواجدون في المغرب هنا وهناك يعملون بحرية لتحقيق أغراض دولهم وهم آمنون مادام الجيش وسلطانه في قبضة الضباط الأوربيين، مما أثار كراهية الشعب المغربي بعنف ضد الأجانب الذين ظهرت نواياهم ونتيجة ما كانوا يدبرون عندما زال ظل المولى الحسن، كما سنرى، وهو ما أدركته المعارضة السياسية التي بلغت النهاية في الدعوة إلى العنف ضد وجود الأجانب بصفة عامة وفي الجيش بصفة أخص، وهي السياسة التي كان يتزعمها محمد العربي الهاشمي(137) العلوي شيخ الطريقة الدرقاوية بمدغرة، والشريف مصطفى بن الحنفي العلوي، وأحمد بن الحسن السبعي الإدريسي صاحب تالسينت بالأطلس المتوسط، كما سنرى بعد في الفصل الخاص بمقاومة الاستعمار.

(137) راجع تحفة الراغب للعلامة الجليل أحمد بن الهاشمي دفين قصر قصبة المعاضيد تافيلالت جـ1/197 إلى 200 مصورة الخزانة العامة رقم 475.

وبالتالي فقد صدقت ظنون الشيخ محمد العربي العلوي الدرقاوي وصحت تنبؤاته وما كان يشيعه حول مآل وجود الأجانب في دواليب الدولة وبين صفوف جيشها الذي تعرض للهدم من الداخل، والذي خابت منه آمال المآت من الذين كونتهم الدولة بواسطة البعثات، كما خاب غيرهم من الذين تكونوا في مختلف المجالات، والسبب ما ذكر من كيد القناصل والضباط وجنودهم الذين اندسوا هنا وهناك، باسم الإصلاح ومساعدة المغرب على التطور، وما تلك إلا وسيلة مكنت الأنجليزيين والفرنسيين من تحقيق مقاصدهم الاستعمارية في كل من مصر وتونس باسم الدعوة إلى الإصلاح، وهو مانتناوله بالبسط فيما يلي بالنسبة لتونس التي كان لصاحبها أحمد باي وما قام به من محاولات في مجال التطور صداه وأثره في نفس كل من السلطانين المولى عبد الرحمان، ومحمد بن عبد الرحمان، بحكم ما كان يتردد من صدى أعماله وما كان لعلماء المغرب وتونس وقتها من علاقات تمكنت منذ عهد المولى سليمان، ورسالة ابن سعود المستمدة من فكرة محمد بن عبد الوهاب التي وردت إلى المغرب بواسطة علماء تونس، كماكانت تونس على اتصال بما كان يدبره الأحرار الأتراك كذلك.

كان الدافع الأنجليز إلى تقديم النصح للمغرب قصد تحقيق ما قالوا عنه إصلاحات مثلما قدموا تلك النصيحة إلى سلطان آل عثمان من أجل مصالحهم، بل هم الذين سيحاربون الإصلاحات بطريق خفي عند ما يظهر أنها لا تحقق أغراضهم عندما يرون أن موقف السلطان المستقل ليس هو موقف محمد علي بمصر، ولا محمد بن حسين باي تونس، الواقعين في نزاع مع سلطان آل عثمان، والأول كان في صراع أدكى ناره الأنجليز والفرنسيون معا، أولئك خوفا على ممر البوسفور، وهؤلاء مزاحمة لهم وأخذا للثأر بعد موقعة أبو قير بمصر، أما باي تونس فقد كان الفرنسيون يدفعون به إلى الخروج حتى يستقل عن الباب العالي مثل حاكم مصر القولى تلك كانت رغبته، كما كان الفرنسيون قد خططوا للقضاء على ذلك الإستقلال عندما ينفصل الباي، وكان المجند لذلك قنصل فرنسا بتونس ليون روش الذي استدرج الباي، ووزيره المرابي اللص مصطفى الخزندار.

لقد وضع برنامج التهام تونس بعد الجزائر في مؤتمر القناصل الذي انعقد بباريز

ثم أنيط بالقنصل "ليون روش" تحقيقه. وذلك حتى يقطع الطريق على إصلاحات الباب العالي المزمع تنفيذها في تونس، والتي كان قد بدأها خير الدين باشا 1225 ـ 1308 هـ 1810ـ1890م الزعيم الإصلاحي المعرف(138) وقتها، والذي بدأ بإصلاح الجيش في تونس، واتخذ ليون روش لتحقيق أهدافه طريقة الدس والكيد وإغراق أحمد الباي في الديون من أجل نفسه وحاشيته كما استغل قضية إعدام اليهودي الذي حكم عليه بالإعدام لسبه الدين، كما حكم على إيطالي بنفس الحكم لأنه ثبت عليه الزنا، ووقتها تدخل القنصل الفرنسي "ليون روش" في الموضوع بطريقة أدت أخيرا وبعد صراع دس فيه لتونس وحتى يكون للأجانب فيها كيان ـ إلى وضع قانون أساسي للحكومة التونسية(139) عرض على نابليون الثالث وقت زيارته للجزائر، وبدأ تطبيقه يوم تلي في 10ـ9ـ1857م بحضور قناصل الدول الأوربية وكبار موظفي الإدارة التونسية، وهو شبيه بالدستور، لأنه أطلق عليه "النظام القانوني للمملكة التونسية" وبه 144 مادة ونشر بالعربية والفرنسية(140) وكان القصد منه قطعا إعلان إنفصال تونس عن الباب العالي، كما أسس مجلس بلدي لمدينة تونس من أجل الغاية نفسها، ولما توفي الباي محمد الثاني بن حسين وحل مكانه محمد الصادق، بن حسين يوم 11ـ9ـ1859م استمر ليون روش في نهجه الذي كان القصد منه قطع الطريق على الإصلاحات المقترحة من خير الدين باشا، والتي أشرنا إلى أنه بدأها بإصلاح الجيش، ولو كان هو الآخر وعلى رأى صاحب الحركات الاستقلالية(141) كان من المتأثرين بمبادئ الثورة الفرنسية، بل إن طبيعة محمد الصادق باي وما عرف به من لين وضع الزمام بيد العميل مصطفى الخزندار الذي أساء التصرف بعقد القرض

(138) راجع زعماء الإصلاح ص : 145.

(139) كان أول من وضع أسس هذا "التجديد" هو أحمد بن مصطفى الذي زار أوربا من 1261 إلى 1262 ثم تولى بعد محمد الثاني بن حسين يوم 12 رمضان 1271هـ/1854م وكان الأول هو الذي أسس مدرسة حربية إثر عودته من أوروبا التي جلب منها مجموعة من الأساتذة. والضباط الذين ساهموا في تطوير الجيش التونسي، كما أحدث مصانع للأسلحة وادارا لصناعة السفن وتكوين أسطول بحري، راجع هذه تونس للمرحوم د الحبيب ثامر، ص : 22 ط القاهرة 1948م، ونلاحظ أنه ورد في الكتاب المذكور نسبة تعديل ما سمي بالدستور إلى محمد الصادق والذي هو سلفه.

(140) راجع التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ص : 226 ـ 27ط 1905م.

(141) ص 42ـ44ط القاهرة 1948.

المنهوب. حيث قترض عام 1280هـ/1863م ما قيل عنه 35 مليون فرنك لم تحصل منه تونس على غير السدس، والباقي ذهب نهبا بينه وبين المرابين من أصحاب البنوك والشركات على يد صاحبه بن عياد الذي لما افتضح فر إلى فرنسا وتجنس كفرنسي، ولما قامت الضجة من أجل الديون شكلت لجنة مالية دولية لإدارة مداخيل تونس سنة 1286 برئاسة خير الدين حتى تؤدي ما عليها من ديون، بلغت 125 مليون، ووقتها أدرك الباي محمد الصادق سوء ما فعل وما هو مقبل عليه وبلاده من أخطار، فبادر بتعيين خير الدين باشا وزيرا مكان اللص المرابي مصطفى الخزندار، وكان هذا صهر لخير الدين بإبنته، وما كاد يتم تنصيب خير الدين حتى بادرت فرنسا بتعيين قنصل جديد مكان ليون روش، هو "روستان" الذي سينتزع موافقة جولفيري بتوجيه الحملة العسكرية ضد تونس باسم تأديب قبائل جبل الخمير على الحدود الجزائرية، بيد أن الغاية كانت الإجهاز على تونس والتضييق على بايها الذي عين المصلح خير الدين المؤيد من آل عثمان، حتى يقبل الرضوخ لما قيل عنه حماية، ولقد كان الشعب التونسي على جانب من الوعي حين قابل تلك التغيرات وذلك التصرف بالثورة التي تزعمها علي بن غذاهم 1281هـ/ 1864م والتي اجتاحت البلاد، وتظلم الأهالي إلى الباب العالي فأرسلت الدولة العثمانية مبلغ مليون ونصف المليون، مساعدة لتونس قصد خروجها من ضائقتها المالية، الأمر الذي دفع بالفرنسيين مقترحوا الإصلاحات الى التدخل قصد تحقيق برنامجهم الذي كان ضمنه القانون المذكور الذي أقسم على تطبيقه الباي محمد الصادق سنة 1276هـ/1859م(142)

(142) بدأت تونس تنفيذ مشاريع الإصلاح بواسطة الفرنسيين ففي سنة 1276ـ1278/ 1859هـ 1861م أنشأت مركزا ـ للتلغراف بعد ما كانت قد أنشأت مركزا بريديا قبل سنين، وحتى تصبح تونس تحت رحمة فرنسا بادرت هذه الأخيرة فأعطت لتونس قرضا سنة 1863م وقع عليه في باريز ضد إرادة الباب العالي الذي احتج لدى نابلويون 3 برسالة كتبها مصطفى عاصم ـ التحفة الحليمية ص 231ـ 232 لكن تونس أصبحت مقيدة بتوقيعها وأمكن لفرنسا بعدها أن تنشئ من المرافق ما يتفق ومصالحها، مثل الخط الحديدي الرابط بين تونس والجزائر، ثم بين سوسة وتونس وبنزرت وتونس كذلك، كما خطط للطرق والمنارات والأرصفة بالموانى، أما محمد الصادق الذي عرف كيف يستفيد من إمكانات الزعيم المصلح خير الدين فإنه بعدما عدل القانون التنظيمي الذي هو الدستور سنة 1278هـ/1861م، وفقا لمبدأ فصل السلطات وإقامة النظام البرلماني، وتأسيس مجلس تشريعي له سلطة واسعة، منها حق خلع الأمير إذا خالف بتصرفاته أحكام الدستور، ونظمت الإدارة المركزية، والإدارات المحلية تنظيما عصريا، كما نظمت البلديات والمحاكم الشرعية وشؤون الأوقاف، وسن قانون جديد يضمن للفلاحين حقوقهم، كما وضع=

وهي السنة التي تولى فيها محمد بن عبد الرحمان بالمغرب الأقصى، حيث تعرض هذا الاخير لنصيحة القنصل الأنجليزي هاي بشأن تطبيق ما أوحى به من وجوه الإصلاح التي تعرضنا لها، والتي كان للأنجليز نصيب في إجهاضها مادامت لم تحقق مقاصدهم التي كانت مرسومة، سواء بالنسبة لآل عثمان أصحاب مضيق البوسفور، أو المغرب صاحب مضيق جبل طارق، وهكذا فقد كانت كل من بريطانيا وفرنسا تهدفان إلى تعميق الجراح بترديد نغمة الإصلاح، لكن يقظة المغرب رغم مان كان يعانيه من أمراض فوتت على الاستعمار مؤقتا مقاصده، وذلك بالدور الذي قام به محمد الرابع حين اعتمد على فرض ضريبة جديدة استمد منها ما أراد تحقيقه من محاولات الإصلاح خلافا لتونس التي وقعت في الشراك بقبولها القرض المزعوم، والذي لم يتم إلا بعد ما اعترفت باستقلالها كل من فرنسا وأنجلترا والنمسا، وعقدت معها اتفاقات.

وهكذا فإن عهد محمد الرابع الذي عرف المغرب فيه أشد الظروف قسوة، وأعنف الحروب ضراوة، سواء من الاستعماريين، أو ما حصل بين المغاربة كقبائل وجماعات، وما جعل المغرب رغم ذلك يعرف مصيرا غير مصير كل من الجزائر وتونس غير ما كان يتمتع به الشعب المغربي، من روح عالية ضد التدخل الأجنبي. والتي كانت كذلك تتمثل في وطنية وصدق السلطان وسلامة طويته، رغم تعرضه لتلك الحروب القاسية من قبيلتي الرحامنة وأهل تادلة حتى أنه ليرجح عندي أنه تعرض للتسمم من الأولى التي كان لها عملاء وعميلات داخل القصر، وحيث قيل إنه شرب دواء مسهلا كان السبب في موته بعرصة النيل من القصر السلطان لمدينة مراكش زوال يوم الخميس 18 رجب 1290هـ، ثم دفنه ليلا بضريح جده المولى علي الشريف بباب أيلان من مدينة مراكش جوار المولى سليمان، وبذلك انتهت حياة سلطان الذي لم يهتم به المؤرخون بقدر ما قدم وما كان له من مواقف ترفعه إلى صف العظماء الذين صارعوا بشهامة وفي واجهات متعددة، ثم

= برنامج خاص لتوزيع الأراضي الزراعية الأميرية على سكان البادية، وأنشيء مجلس للعناية بالشؤون الصحية وإدارة لغابات الزيتون وإدارة الأوقاف، ونظمت مناهج التعليم بجامع الزيتونة، وأسست المدرسة الصادقية لدراسة العلوم الحديثة واللغات الأجنبية، كما أرسلت البعثات العلمية إلى إيطاليا، وفرنسا، وهكذا كانت تونس تسير بخطى واسعة في سبيل الرقي والتقدم إلى أن منيت بالاحتلال الفرنسي فأقامت فرنسا العراقيل في سبيل هذه النهضة وعطلت سيرها، وأعادت البعثات العلمية من أوروبا، وحولت مناهج التعليم بالمدرسة الصادقية إلى أن جعلتها مناهج لإخراج الموظفين والمترجمين فحسب راجع المصدر السابق هذه تونس ص :23.

خرج سالما رغم عنف المآسي التي عرفها المغرب، وأشدها عنفا مأساة الحمايات والمحميين التي هدت كيان المغرب بحق، والتي لم تختف حدتها في عهد خلفه المولى الحسن إلا لتظهر بجراثيمها الفتاكة بعد كما سنرى. والتي كانت بحق العامل الأكثر هدما وتعطيلا للمشاريع في مختلف النواحي السياسية والقانونية بل والاجتماعية والاقتصادية.

ذلك أن أصحاب الحمايات بعد أصبحوا يكونون طابورا خامسا داخل البلاد همته حسب توجيهات الدول الطامعة في المغرب - الاجرام وخلق الاضطرابات، والفوضي وتحدي سلطة الدولة والإدارة بشكل فيه نكاية، ثم خلق نوع متطرف من العصيان الذي كانت تقف وراءه المفوضيات والقنصليات ووزراء الخارجية في الدول التي تكالبت على المغرب ثم أخذ توزع الحمايات بين أهله. على أنه بمجرد مراجعتنا لمرحلة السلطان محمد بن عبد الله وما عرفته من طفرات كانت تعجل بالانهيار لولا جهاد رجالات البحر الذين كانوا يطلقون عليهم القراصنة أولئك الذين كانوا اقوياء في كل من الجزائر والمغرب إلى درجة انهم كانوا يرهبون دول أوروبا ويفرضون عليها الاتاوة. فلولاهم لكان ماعرفه عهد السلطان المذكور وما وزعه من امتيازات ومعاهدات هي مسجلة في تاريخ المغرب وأوروبا السبب مبكرا فيما انتهى إليه المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

هاري ماكلين الضابط الانجليزي الذي كان بالجيش المغربي على عهد السلطان المولى الحسن منذ 1877 والذي قام بأخطر دور في هدم المغرب وافقاره بالتهريب للعملة الذهبية، وبه اقتدى الاسبان والألمان والايطاليون والفرنسيون الذين كان الصراع بينهم فكان الفوز لفرنسا بعد تصفية الحساب مع الجميع والتنازل لكل جهة على حظها في الغنيمة.

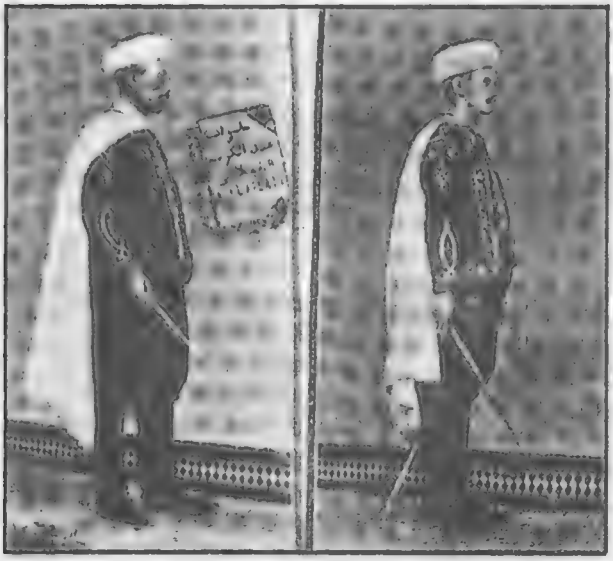

الفايد بيلتون وخليفته ريدْمان الانجليزيين وقد كانا إلى جانب ماكلين من عوامل تحقيق الاتفاق السري بين الدولتين فرنسا وبريطانيا 1904

الانجليزي "القائد بلتون" في حماية رجال المخزن متوجها من مدينة فاس إلى مدينة طنجة

الفصل الخامس والستون بعد المائة
فظائع المحميين وحكومات القناصل واليهود السرية بالمغرب

إن المعاهدة الأنجليزية المغربية لسنة 1267هـ/ 1856م وما تبعها من معاهدات نسجت على منوالها بين المغرب وكل من فرنسا وإسبانيا، فتحت أبوابا كثيرة ومتعددة من الحر والقر، ومن الشر وخلق الأزمات للدولة المغربية التي بقيت تعاني منها طيلة بقية حياة المولى عبد الرحمان وخلفه محمد بن عبد الرحمان، ثم المولى الحسن إلى نهاية عهد الاستقلال، ولقد قال بعضهم إنها جرت على المغرب نفعا تمثل في الصراع عليه من دول أوربا وعدم انفراد واحدة منها به زمنا، إذ بسبب تلك المعاهدة اندفعت فرنسا إلى التوسع في السودان كما فكرت إسبانيا في الحصول على إمتياز يضمن مصالها، ويحفظ لها القواعد المغتصبة من المغرب، سبتة ومليلية، وإذا هي لم تحقق شيئا من ذلك إلتجأت إلى ما إنتهى بها إلى حرب تطوان بعد، فكان ما حققته المعاهدة الأنجليزية المغربية من مكاسب للانجليزيين دافعا في نظرنا تلك المعاهدة هي التي مزقت حجاب الوقار الذي أسد له المولى سليمان على المغرب بحصره وجود قناصل الدول بمدينة طنجة، التي مكنتهم من الوجود في كل موانئ المغرب حتى انتهى « تشارلز إيوان سميث» إلى التطاول على المولى الحسن من أجل تعيين نائب للقنصل بفاس، متبجحا بما تضمنته بنود تلك المعاهدة، التي ضمنت أيضا للأجانب حق التملك للأراضي والمشاركة مع الأهالي وتوزيع الحمايات(143) التي تولد عنها الصراع المنهك الذي لم يكن للمغرب وقتها من الرجال من يسبرون غور البحار التي خاضها وقتها رجال أوربا سعيا إلى تحقيق

(143) راجع ما سبق بالنسبة للجزائر وكذا حول سياسة التجنيس ص : 79 من كتاب هذه تونس د ثامر . مصدر سابق.

الإمتيازات لبلادهم دون أن يدركهم البلل وهم مطمئنون لحصولهم على صيد سمين ولو باسم الحماية لمن يريدها من المغاربة، وظهر هذا الداء الفتاك في المرحلة التي عرف المغرب والمغاربة فيها قحطا وجفافا أديا إلى قيام الثورة في كل من زمور وبني مطير، كما تعرض كثير من جهات المغرب إلى تهديد لم يكن للدولة كبير استعداد لمواجهة ما سينتج عنه من فوضى بسبب احتياج الناس، كما تحول الرخاء العابر والمشار إليه ناحية الحوز والغرب إلى خنق وتذمر، حتى ارتفعت صادرات الأنجليز للمغرب إلى أكثر من200٪ عما كانت عليه، وبذلك أصبحت الدولة الأولي في التجارة مع المغرب وأصبحت نسبة الأنجليزيين الذين فتحت لهم الباب تلك المعاهدة يقدرون بأعلى نسبة من بين الأجانب قيل عنها 40٪ مما أدى بالأسبان وهم جيران المغرب المشاركين مع المغاربة أرضهم بالاحتلال القديم، أن يفكروا في كسب جديد، حين بدأوا يتحرشون بالمغرب، وفي نفوسهم حقد على الأنجليز الذين فازوا بالغنيمة المتمثلة في معاهدة 1856م التي فتحت لهم باب الحمايات وبها أصبحوا قوة في المغرب لا بكثرة الأنجليزيين وإنما بما انضم إليهم من اليهود والمسلمين باسم الحماية (144) لقد إتسعت أخطار هذه المعاهدة بشكل آخر حين أمكن بواسطتها ثم بواسطة المعاهدة الفرنسية المغربية التي أبرمت بتاريخ 1961/11/20م ومعاهدة 1863/9/19م وكلها نسجت على منوال الأولى كما عقدت كل من إسبانيا والنمسا وبلجيكا وألمانيا، وإيطاليا، وهولاندا، والدانمارك، والسويد، والبرتغال، وأمريكا(145) وهي الدول التي أصبحت ولها في المغرب امتياز، كلها عقدت معاهدات ضمنت لكل منها عدم الصدام فيما بينها من أجل ما حققته في المغرب الذي أصبح مصدرا للموارد المطلوبة

---

(144) بل إن السلطان المولى الحسن من شدة ما انتهى إليه من تضايق بسبب الدسائس وتدخلات الدول الأوربية أرسل سفارة إلى الباباليون 13 برئاسة الحاج محمد الطريس عام 1306هـ/ 1888م يطلب منه التدخل لدى الفرنسيين والاسبان حتى يضعوا حدا لتدخلاتهم في المغرب، ومع ذلك لم تجدي ولم تفد. ولوكان للعاهل المغرب من الخبرة بسياسة الكنيسة ما يكفي لما فعل.

(145) راجع الاتحاف2/421 – 22. على أن جل تلك الدول كانت مرتبطة مع المغرب بمعاهدات قديمة فمثلا ، مع انجلترا1830– 1760 ومع الدانمارك 1757م ومع إسبانيا 1767–1781 وأخطرها في مارس 1799م ومع الولايات المتحدة الأمريكية 1787 ومع فرنسا1631–1682م 1787م. ومع هولاندا 1610–1651–1683م ومع إيطاليا 1762. 1765م ومع البرتغال 1772– 1799 ومع السويد 1763م لكنها بعد جميعا تعلقت بما ورد في المعاهدة الأنجليزية 1856م وما فيها من دسائس.

من الجميع ، كما مكنت المعاهدات المشار اليها كل الأجانب الذين أصبح من حقهم إعطاء الحمايات لا للمواطنين في المفوضيات والقنصليات فحسب، بل لكل من ينوبون عنهم ولو كسماسرة في مختلف الموانئ.

وتهافت اليهودعليها ومثلهم من اقتدى بهم من الذين أثروا على حساب مصلحة البلاد، بل إن من اليهود من تمكن من التحول إلى ممثل لدولة أجنبية في وظيفة قنصل لها.

صحيح أن اليهود ليس في المغرب وحده عرفوا من القهر ورد الفعل الناتج عن تصرفهم المستمد من أثر الماضي السحيق وما تركز في عقولهم من حقد وكراهية للاخرين، منذ ما بعد عهد بختنصر، وبحكم ما اختاروه لأنفسهم من حرف، وما تعودوا عليه من سلوك كله غش ومكر وخداع ينطلي على ذوي الأغراض المتهالكين مثلهم على الحطام، تحسبا لما يرتقب من مستقبل مجهول، يقاس على ما سبق لهم من ويلات ونكبات شرقا وغربا بسبب ما يكشف من دسائسهم التي عمت من عهد الرومان إلى عهد دولة قشتالة في أرض الأسبان وما عرفوا في بريطانيا، وفرنسا، ثم ألمانيا، صحيح أنهم في المغرب عرفوا نوعا من الطقوس التي اندفع الشعب لفرضها عليهم في المدن الساحلية أكثر مما عرفت أو عرف بعضها في البادية، وكلها طقوس شكلية لاتمس الجوهر الذي كان اليهودي ولا يزال يتهاون في كل شيء من أجل الحصول عليه وهو المال، فقد كان اليهود يحترفون من الحرف أغناها ولا يزاحمهم فيها أحد أو ينكرها عليهم، بدءا من الذهب وصياغته إلى الإنتاج الفلاحي وتجارته، وحتى الطقوس المشار إليها كانت الغاية منها حصر دائرة الشر الذي جبل عليه اليهودي بدافع الخوف على نفسه من إثارة رد الفعل ضد ما عرف به من دس وكيد وادخار الثروات التي كان يستولي عليها في الظلام، ومن الخلف دون أن يعلم الذين كانوا عرضة لكيده ومكره ودسائسه، حتى داخل البيوت التي إصطلح المغفلون أن لا حرج من دخول اليهودي على الحريم فيها يتاجر ويعرض ما لديه من بضائع، كان ينتقي منها ما يستهوي النساء ويسلبهن الذهب والأموال اللائي كن يدخرنها لذلك دون علم الرجال، وكم في التاريخ لذلك من أمثال حتى إن بعض القصص عن المشرق لتجر إلى هدم الأسر التي تعرضت لهدم من خصومها بسبب ما كان لليهود

من حرية التجول والدخول على ربات القصور بلا خجل ولا وجل، خصوصا في مدينة فاس منذ عهد الموحدين(146).

وحتى نكون على بينة من واقع اليهود المغاربة وما كانوا عليه نستمد تلك الطقوس مما كتبه الأجانب أنفسهم مثل الرحالة الأنجليزي الدكتور« ارثرليرد» الذي جال في المغرب عام 1872م والذي يقول عن تلك الطقوس التي كان اليهود يعيشونها وهي أنه:

1) غير مسموح لهم بأن يلبسوا العمائم وهذا غير صحيح ففي البادية كان لباسهم لا يختلف عن المسلمين خصوصا في الأطلس المتوسط. وتافيلالت حتى أن الغريب ليخلط بين اليهودي والمسلم.

2) إذا كانوا في حضرة حاكم أو مارين بمسجد وجب أن يخلعوا المنديل الأزرق الذي يعصبون به رؤوسهم ؟!

3) يجب أن ينتعلوا بلغة « أحذية» سوداء بدلا من الصفراء التي ينتعلها المغاربة.

4) يجب عليهم حينما يغادرون الحي الخاص بهم إلى الأحياء التي يقيم فيها المغاربة أن يسيروا حفاة رجالا ونساء .؟! « كذب »

5) إذا مر يهودي بمغربي وجب أن ينحاز إلى اليسار ؟!

6) لا يجوز لليهودي أن يمر في المدينة راكبا.

7) لا يجوز أن يحملوا السلاح.

8) لا يجوز لهم أن يغشوا الحمامات.

9) يجب أن يمارسوا شعائرهم الدينية في منازلهم الخاصة(147).

ومع كل هذه الطقوس المزعومة أصبح اليهودي يمثل لا دولة أوربية كقنصل لها، بل يهودي واحد هو «بن سيتان» في مدينة أصيلة يمثل ست دول كقنصل لكل منها، وترتفع على منزله أعلامها جميعا، وهي إيطاليا وبريطانيا وإسبانيا والبرتغال والنمسا وبلجيكا، حتى إذا ما ظهر عهد الامتيازات وكما رأينا لم يذكروا أنهم عرفوا من المغرب الحماية

---

(146) راجع المعجب للمراكشي، وكذا تاريخ تلك المرحلة من هذا الكتاب.

(147) راجع جولات في مغرب الأمس ترجمة عبد المجيد بن جلون المتوفي رحمه الله بتاريخ 1981/7/2 وهي للدكتور آرثركيرد ص 96 ط الرباط .

التى لم يعرفوها في أوربا، فأصبح بعضهم خصوصا في مدن الساحل، والمدن الكبيرة معاول هدم وانتقام، خصوصا الذين كانوا يعملون كمترجمين،(148) في سفارات كل من انجلترا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وبلجيكا الأمر الذي تمكنوا معه من القيام بأخطر الأدوار في الحياة السياسية وأحيانا ضد استقلال المغرب، مما عرضهم للنقمة من طرف الشعب الذي كانوا يثيرونه قصدا، والذي انقض على بعضهم في بعض الجهات حتى إن أية دولة كانت تريد تحقيق هدف مالي أو تجاري تصنع مشكلا إما بواسطة يهودي يقدم ضحية في ناحية من النواحي. خصوصا وأن الكثير من اليهود بسبب العقد المتراكمة على نفوسهم، والتي ظهرت الحمايات بحل بعضها، أصبح الكثير منهم يستعمل من الوسائل الدنيئة ما كان يثير بها غضب المسلمين وغيرتهم، والذين كانوا يعيشون حياة قاسية تحت حكم استبداد الولاة وأحكامهم الصارمة التي استطاع أحقر اليهود وهم أهل الذمة التخلص منها بمجرد تجنسهم بجنسية أوربوية ضمنت لهم ولأسرهم ما ليس لغيرهم من المسلمين من الحقوق، وبذلك كان المتجنس ومن إنضاف إليه بتحولون إلى معاول هدم لكل ما ليس يهودي بدون رحمة ولا تدبّر، وأحيانا لفائدة الدولة المتجنس بجنسيتها حسب مخطط يرد من بعيد ويكون لليهودية العالمية فيه دخل وتدبير، وتنافست الدول الأوربية قبل أن تكتشف من المغاربة ويعرف من يقوم بذلك – في استعمال اليهود بشكل لم يعرف في بلد من بلاد الأرض مثل المغرب، كما وجد اليهود من بعض المغاربة ميدانا خصبا بدافع رد الفعل الذي أوجده اليهود لاستثماراتهم المالية المعروفة بالربا حيث استغلوا ذلك أفظع استغلال إلى درجة أن اليهودي الذي كان يقرض المسلم برسم عدلي، كثيرا ما يدعي أنه ضاع منه ويقبض ماله عليه بلا إشهاد وبعد مرور بعض الوقت يظهره ثم يدعي على صاحبه الذي كان قد سدد له ما اقترض منه، أو إن كان قد مات يقوم خلفه على المقترض، أو على ورثته، وهكذا عاش قناصل الدول دهرا طويلا في مساومة إدارة المغرب الخسف بسبب مثل هذه الترعات إلى درجة الإذلال كما سنرى.

وارتفع استغلال اليهود والأوربيين للمغاربة والمغربة عندما أنسوا من السلاطين حسن المعاملة التي لم يكن لهم بدّ منها ماداموا ليس في استطاعتهم عمل شيء، لا

(148) راجع نفس المصدر.

بالنسبة للداخل الذي انتشرت فيه «السيبة» إلى درجة أن قبيلة مثل « آيت مجيلد» لم تعرف حكم السلطان منذ وقعة ظبيان وآيت أمالو بالأطلس المتوسط في عهد المولي سليمان 1234هـ/ 1818م وهي أي قبيلة أيت مجليد على أبواب مدينة مكناس، فضلا عن سواها من القبائل المتاخمة للأطلس وما بعده، بل إن قنصل الأنجليز هاي هو الذي كان أكثر إتصالا وتأثيرا على محمد بن الرحمان وخلفه، كان ينصح لهما بالتنازل أكثر ما يمكن، لأنه ليس في استطاعة المغرب مواجهة أقل الدول في أوربا، وقد عرف اليهود ذلك واستغلوا المغرب أفظع استغلال، خصوصا عندما صدرت التعليمات من السلطان لصالحهم، عندما تدخل سالمون روتشيلد(149) الذي زار تطوان 1862م 1279هـ بعد تأسيس الإتحاد الإسرائيلي 1860م، والذي أوفد صهره المسمى موسى منتفيوري البالغ من العمر ثمانين سنة، والذي تنقل لنفس المهمة دفاعا عن اليهود بين كل من فرنسا وروسيا ومصر والشام، فوصل إلى المغرب حيث حل بطنجة ضيفا على القنصل الأنجليزي «جون درموند هاي » بتاريخ 11/12/1863م والذي كان يبذل كل جهد لجر يهود المغرب حتى لا يرتموا في أحضان فرنسا، ثم توجه موسى منتفيوري إلى مراكش التي وصلها يوم5ـ/1/1864م حيث استقبله السلطان محمد بن عبد الرحمان، ولما إستمع إلى ملاحظاته على ظروف اليهود بالمغرب، وعده بالنظر في ذلك، وفعلا أصدر وقتها ظهيرا ذكر فيه بما يجب في شأن معاملة اليهود. حمله معه منتفيوري إلى أوروبا بعدما وزّعه على قناصل الدول بالمغرب، مطالبا بمراقبة تنفيذه، مما دفع بعض اليهود إلى الزيغ والخروج عن الجادة أكثر، حتى إنهم شكلوا لجانا في أحيائهم لفصل قضاياهم بعيدا عن سلطان الدولة وعمالها، مما أدى ببعض المغاربة إلى رد ما حصل من توادد بين قناصل الدول الأوربية وبعض اليهود، خصوصا الفرنسيون والأنجليز إلى أنه عداء صارخ ومقصود ضد الإسلام والمسلمين، وبمثل ذلك كان السلطان يكتب لأولئك القناصل الذين بالغوا في إعطاء الحمايات، وأنهم إنما يدفعون إلى خلق الفوضى والقضاء على الأمن، في حين أن بعضهم رأى ما كان اليهود يقومون به مقصودا، وكتب بذلك إلى حكومته

(149) ذكرته بعض المصادر المغربية كالأعلام للمراكشي باسم رشابيل جـ 369/5. وهو يعني السير راسل روتشيل.

يحذرها من عدم ردع اليهود ودفعهم إلى إظهار الطاعة للحكومة المغربية، بل إن يهود المغرب لم يكتفوا بذلك واتصلوا وقتها بالمنظمات اليهودية في كل من فرنسا وبريطانيا وأمريكا، فكان أمثال ديزرائيلي في بريطانيا 1804– 1881م الذي تزعم حزب المحافظين 1844م، ثم أصبح وزيرا للخزينة العامة ورئيسا للوزراء 1867م، وبذلك تكونت جمعية للدفاع عن اليهود في العالم من مجلس العموم الأنجليزي، ومثله في أمريكا، وفرنسا ، وما هي إلا حركة اقتصادية وسياسية اكتشفت في المغرب المريض وقتها أسلوبا جديدا لتحقيق أكبر الثروات للمرابين خلف الاستعمار الجديد الذي اتخذ منهم مخلبا كذلك باسم الحمايات ، وحتى يكون لهم حظ في الغنيمة ركزوا عليها بدعوى أنهم متظلمون، وبقوا يرددون أغنية التظلم حتى عندما أصدر السلطان في حقهم الظهير المذكور(150) الذي انتزعه منتفيورى والسفير هاي، بتاريخ 26 شعبان 1280هـ 5/2/1864م والذي كان نتيجة ما قدمه بتدخلاته أثناء حرب تطوان(151) والأزمة التي مر بها المغرب، ثم إن الظهير في جوهره لم يأت بجديد وإنما ذكر بما كان وأنّب على التقصير فيه عما كان حتى من الأمراء كما حصل للمولى إسماعيل مع ولده المأمون(152) ذلك أن الإسلام بين حقوق أهل

---

(150) راجع نصه في المصدر السابق وفي الاتحاف لإبن زيدان ج 322/2، 326.

(151) بل إن هذا القنصل الداهية الذي كان عليه أن يتملق سطوة اليهودي دزرائيلي في بلاده وفي فرنسا وهو الذي كتب إلى وزير خارجية المغرب محمد بن عبد الله الخطيب التطواني حول اليهود وكأنه يحذر المغاربة نحوهم، مشيرا في كتابه إلى أن اليهود وقتها في أوربا « لهم أموال كثيرة وداخلين في الخدمة والمراتب العالية، وفي بلد فرنصيص زوج من اليهود وزراء، وعدد كثير منهم في مراتب عالية في عساكرهم، وأما بلدنا – يقول هاي – وإيالة أخرى اليهود أيضا لهم مراتب عالية ولهم جاه وكلمة لأجل ما لهم وصدقهم؟ في خدمتهم مع دولتهم... الخ» راجع الرسالة في تاريخ تطوان ق م 13/5. ولعله وقتها لم يكن قد عرف لهم « بروتوكولات صهيون، وهو الكتاب الذي يتنكر له اليهود والى أصل المترجم منه من بريطانيا. بل وكتاب صدى النبوات للدكتور ارسناي، وتمن اسرائيل وغيرها، بل لقد استطاع اليهود وقتها أن يكونوا لهم فلسفة ضد الشعوب التي كانوا يوجدون بها، ومن أجل ذلك كونوا لهم قيادات في أمريكا، كان باروخ هو صاحب الرأي في عهدي ولسون وروزفيلت، ومثله براندييس عضو المحكمة الأمريكية العليا. وفي إنجلترا كان دزرائيلي صاحب داوننج ستريت، وتشورشيل وكلاهما وصل مركز رئاسة الوزراء، وفي فرنسا كان روتشيلد، وبالتالي فإن اليهود كانوا لا يزالون ولعلة غير مجهولة في كل بلد أعداء البلد الذي يوجدون به ، وليس لهم في ذلك اختيار، فقد قال ناحوم جولدمان رئيس المنظمة الصهيونية: إن اليهود أعداء المسيحية أوجدوا لها الماسونية ذلك لأن القضاء والقدر حكما على اليهودي بأن يعيش في الجهات الأربع من العالم، فهو مع كل من قام حيثما وجد، لا لنصرة العلم وإنما لتفويض البنيان القائم. خصوصا إذا كان له إيمان، هذا مع أنه ليس ثمة من دافع لذلك غير الوهم والمراكب، بل راجع كتاب في الفكر اليهودي جمع الدكتور ج. هـ هرتس تعريب د الفريد يلوز ط دار مجلتي بمصر بدون تاريخ ثم راجع صدى النبوات لحليم ارسناي ط الفجالة بمصر 1951 وهو كتاب جدير بالقراءة ويتمعن كبير.

(152) راجع رسائله الخمس إلى ولده المأمون ص 43، ط الملكية الرباط 1967.

الذمة وإلى ذلك أشار السلطان في ظهيره الذي ورد فيه ما يؤكد أنه لا فرق بين المسلم وغير المسلم في أرض الإسلام في الأحكام.

" نأمر من يقف على كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره... سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا، أن يعاملوا اليهود الذين بسائر إيالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام، حتى لا يلحق أحدا منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام، ولا ينالهم مكروه ولا إهتضام، وأن لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم، لا في أنفسهم ولا في أموالهم ولا أن يستعملوا أهل الحرف منهم إلا عن طيب أنفسهم، وعن شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، ونحن لا نوافق عليه لا في حقهم ولا في حق غيرهم ولا نرضاه لأن الناس كلهم عندنا في الحق سواء، ومن ظلم أحدا منهم أو تعدى عليه فإنا نعاقبه، بحول الله، وهذا الأمر الذي قررناه وأوضحناه وبيناه، كان مقررا ومعروفا ومحررا، لكن زدنا هذا المسطور تقريرا وتأكيدا ووعيدا في حق من يريد ظلمهم وتشديدا، ليزيد اليهود أمنا، إلى أمنهم ومن يريد التعدي عليهم خوفا إلى خوفهم"(153).

ويؤكد المؤرخور ومنهم بعض الأنجليز(154) أنهم لما استلموا الظهيراستنسخوا منه نسخا وزعوها على اليهود في عموم المغرب واستغلوه أبشع استغلال، وكأنه نص على استقلالهم داخل المجتمع المغربي، حتى إنهم وخصوصا الذين هم بالمراسي أخذوا يتبجحون بالحمايات وعدم الرجوع إلى المحاكم المغربية، بل أخذوا يتظاهرون بعكس ما عرف من تقاليد راسخة في المجتمع المغربي، حتى اضطر السلطان إلى إصدار ظهير آخر يشرح أهداف الأول، ولعل من الذين كانوا يؤججون نار الفتنة بين اليهود في الخفاء سفير فرنسا أولا، عكس قنصل الأنجليز الذي ما تحول إلا عندما ظهرت حكومة ديزرائلي التي استوجبت منه التملق حفاظا على استمرار وجوده بالمغرب الذي لم يعد يطيق الحياة في غيره، فقد كتب هاي قبل إلى وزيرخارجية بلاده جون راسل

(153) راجع ما ورد في كتاب العز والصولة لابن زيدان جـ 114/2 ط 0962 والاتحاف جـ 370/5 - 71 - 72. ومركز الأجانب في مراكش ص 57-70 ط 1950م مصدر سابق.

(154) تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية 238 ثم راجع مغرب القرن التاسع عشر بدائرة شعوب العالم ط الأنجليزية جـ 3561/5 إلى 3591 لندن.

بتاريخ 1864/8/7م يقول (وقد وقفت على تهور اليهود وما ظهرت منهم من أعمال بسبب استغلالهم لقول السلطان الذي قصد به التذكير، – يقول القنصل في مذكرته لوزارة الخارجية « صحيح أن السلطان ووزراءه الرئيسيين ذوو نزعة إنسانية، غير أنني أخشى أن أي محاولة لاجبار موظفيه على تنفيذ هذا المرسوم الذي أصدره بناء على طلب السير موسى منتفيوري قد تؤدي إلى تعريض حياة اليهود للخطر، وسوف يؤدي التقدم التدريجي للحضارة والتجارة وزيادة نفوذ معتمدي الحكومات الأوربية إلى تحسن أحوال اليهود في تلك البلاد أفضل مما تؤدي إليه الإصلاحات الفجائية التي تعرض على شعب جاهل ومتعصب)(155) بل سيعرف المغرب الكثير من تدخلات الانجليز وضغوطهم لصالح اليهود عن طريق هاي نفسه بعدما يتعرض هذا الأخير إلى ما يشبه الإكراه، ولو على حساب المغرب ومصالح شعبه، بل سيصبح من اليهود نواب وموجهوا القناصل ضد المواطنين المغاربة عن قصد وسابق اصرار، خصوصا عندما بدأ اليهود يجنون ثمرات تآمرهم على الديمقراطية في أوربا التي أصبحوا يسهمون في دواليب الحكم بها عن طريق الأحزاب في كل من إبريطانيا وفرنسا، بل إن قنصل الأنجليز هاي الذي كان صاحب القدرة والأكثر تأثيرا على الدولة المغربية، والذي كان مقربا ومفضلا بسبب ما كان يغدق من رشاوى يسيل لها لعاب الجميع مما حول السلطان وتجعله يستهتر بالجميع كما يعترف هاي نفسه ، ما عدا الطيب بن اليماني الذي سلم من الرشوة والفساد كما يقول هذا القنصل الذي انتهى به المطاف وقد كشف الجميع إلى تقديم مجموعة من المطالب للسلطان بفاس في شأن اليهود بالمغرب، وقد أورد ابن زيدان(156) لائحة من المطالب قدمها القنصل المذكور بلهجة فيها قلة أدب، ولعلها تلك المورخة 1863/10/22. ولقد كان محمد بن عبد الرحمان يدرك ذلك ويتجاوز عنه لأسباب تتمثل في أن ذلك أهون مما كانت تهدف له كل من فرنسا واسبانيا، ثم إن السلطان أخذ ما كان قد قام به القنصل الأنجليزي من موقف إزاء حرب تطوان على أنه لوجه الصداقة القائمة بين المغرب وإنجلترا«؟!» مما جعل ضمير القنصل يوبخه في بعض المواقف التي أبدى فيها النصح

(155) تاريخ العلاقات ص : 232.
(156) الاتحاف 3/545 – 46.

للسلطان كما يخبرنا «جون هاي» نفسه في مذكراته للورد ستانلي بتاريخ 1968/12/2م والتي يقول فيها:

«يؤكد الإنطباع الذي خرجت به الرأي الذي كونته خلال السنوات الماضية عن طبع السلطان. ألا وهو أنه رجل عادل وشديد الذكاء، يرغب في الحفاظ على العلاقات الودية مع بريطانيا العظمى وسائر الدول الأجنبية، بيد أنه ينقصه طابع الإقدام، بينما يحيط به عدد من الموظفين المرتشين والفاسدين باستثناء الرئيس سيدي طيب اليماني الذي يبدو أن تأثيره على جلالته غير كاف إلى الحد الذي يمنعه من الاسترشاد بآراء المتعصبين الجهلاء(157).

ولقد كان في إمكان هاي أن يصدر مثل هذه الآراء بناء على خبرته ومعلوماته الكافية حول السلطان والحاشية، مادام قد أصبح له الحق الذي لم يكن لغيره إلى درجة أن السلطان طلب إليه بواسطة موسى بن أحماد السوسي الذي حل مكان إبن اليماني أن يكاتبه سرا كلما وجد الفرصة لذلك، بل إن «هاي» زاد أكثر فكون له وسيطا بينه وبين موسى بن أحماد، والذي كانت مهمته الجاسوسية أيضا، وهو التاجر بو بكر الغنجاوي(158) الذي قام بذلك مدة طويلة أثبت من خلالها كجاسوس ووسيط خبرته كمصدر غني من مصادر المعلومات للقنصل وحاشيته، والذي كان يزودهم أولا بأول عما يجري في حاشية السلطان، وبذلك كان هاي دائم التفوق على كل القناصل مما أدى بمنافسه قنصل فرنسا إلى الرعونة والتصرف بطريقة أزعجت السلطان وحاشيته، مما أدى إلى أن يرسل سفارة إلى نابليون الثالث سنة 1282هـ 1868م مكونة من خاله قائد الجيش محمد بن عبد الكريم الشركي، وعامل سلا محمد بن أحمد ابن سعيد

---

(157) المصدر السابق 234 – 235.

(158) سينتهي إلى احتراف ما يخل بالكرامة من إتجار في الرقيق والبغايا، وبذلك يجعل الانجليزيون نهاية لخدماته وخياناته سنة 893م، وقد كان السلطان هو الذي طلب ذلك سنة 892م، ثم راجع المصدر السابق297. حول مطالب يهود بريطانيا التي قدموها للسلطان محمد بن عبد الرحمان بواسطة السفير محمد الزبدي بتاريخ 25 يوليه 1876 وقد وقعها جماعة من كبار اليهود في بريطانيا.

الصنهاجي أصلا السلاوي موطنا(159) ومعهما محمد السدراتي السلاوي نسبة إلى آيت سدرات فرقة من آيت عطا الصنهاجية كذلك، وقبل هذه السفارة كانت سفارة محمد بن إدريس، والحاج عبد الله الحاجي ولما يمضي عليها غير قليل، بيد أن السلطان وجه هذه السفارة التي كانت من أجل وقاحة قنصل فرنسا، ويطلبون من نابليون إختيار السفراء الذين يوجهون للمغرب من عائلات أصيلة، حسبما ورد في الكتاب المؤرخ –22 ربيع الأول من نفس السنة، 1282هـ 1868م، والذي وصفه أكنسوس بالإبداع، بل إن السلطان نفسه اضطر تحت دعاية سماسرة الاستعمار كآل روتشيلد أن يوجه سفارات لمختلف بلاد أوربا، خصوصا/ التي كانت لها معاملة مع المغرب في مجال الأسلحة ليوضح موقف المغرب من اليهود، وأنهم مغاربة لا تختلف معاملتهم عن غيرهم في شيء، ورغم أن واقع اليهود وما كانوا يتمتعون به من حقوق في المغرب قبل أن يظهر ما يعكر الجو من حمايات وامتيازات، كانت تعرفه جل دول أروبا من خلال ما كتبه الرحالة من أبنائها الذين تعرفوا على مختلف الأقطار ثم وصفوا معاملة المغرب لهم وأنها عادلة منذ أن طردتهم محاكم التفتيش من بلاد الأسبان بعد ما قتلت منهم المآت، ومثلها أوربا ومنها بريطانيا نفسها التي أحرقت منهم المآت قبل ما افتروه عن هتلر(160) وإلا كيف يفسر وجود اليهود المغاربة عبر التاريخ في المغرب منذ ما قبل الإسلام وفي عهده، وأنهم لم يعرفوا غير المعاملة التي نص عليها الشرع الإسلامي إلا ما كان من بعض الفترات التي ظهرت خيانتهم فكان الجزاء من جنس العمل، مثل الذي حصل من الفاطميين بسجلماسة

---

(159) كانت له علاقة جد قوية مع المولى عبد الرحمان وسيتولى ولده عبد الله بعد منصب نائب وزير الخارجية 1317هـ–1899 م وعضو مجلس الأعيان وعامل سلا، راجع تاريخ العلاقات الانجليزية ص : 302. كما وجه في سفارة على رأسها ج محمد باركاش 1284هـ الاتحاف، 536/3، وقد أخبر محمد بن سعيد المتوفى 1310هـ/ 1892م أن نابليون الثالث طلب من السفيرين البحث له في المغرب عَن تاريخ بناء رومة، وما ورد عنه في كتب التاريخ المغربي، على أن ذلك لم يرد إلا عند الزياني بعد ابن خلدون ثم راجع كذلك حول السفارة المذكورة الأعلام لابن إبراهيم جـ 5 ط الملكية والذي حولوه إلى الجزء 6ط 1967 ص367، والاستقصا جـ 116/9ط البيضاء، والاتحاف 534/3،377/1 وتاريخ العلاقات ص : 362 وهذه السفارة باشرت قضية ولد حمزة ولد الشيخ بوسماحة من آل سيدي الشيخ ، الذي كان يقاتل الفرنسيين بالجزائر ولا عبرة بما ظهر أخيرا من كتبات مفتعلة حول أن عائلة ابن سعيد ترجع إلى الأندلس فذلك هراء إذ أول من قال ذلك من غير معرفة هو نعمة الله الدحداح اللبناني الأصل والذي كان في تطوان. الخ...

(160) راجع صدى النبوات للدكتور أرسناي ط 1951 وفي الفكر اليهودي للدكتور جـ، هـ هرتس ترجمة الفريد يلوز بدون تاريخ.

أيام إكتشاف عبيد الله من طرف المدرارين، بواسطة يهودي نقل خبر وجوده بها كما سبق، بل كيف يفسر وجود اليهود عبر التاريخ بين كل طبقات الشعب وفي جميع المدن و القرى وفي كل المجالات، منهم التاجر والصانع والفلاح، بل إن جل الحرف ذات الدخل المرتفع ومختلف أنواع التجارة كانت بأيديهم، شأنهم في ذلك شأن كل المواطنين، لهم مالهم، وعليهم ما عليهم إلا ما كان من بعض الأفراد الذين كانوا يتجاوزون الحدود، فكانوا يلاقون ما يتفق وأعمالهم، بل في جهات متعددة كانوا يتمتعون بامتيازات حققتها لهم نخوة المواطنين من المسلمين وتمسكهم بالعهود التي كانت تضمن لهم الحماية في الأماكن التي لم يصلها نفوذ السلطان، حتى كانت الحروب تقوم بين بعض القبائل من أجل الدفاع عن اليهودي، وأحيانا بين أبناء القبيلة نفسها من أجل ذلك، كما حصل بقبيلة آيت إزدك(161) زمن المولى الحسن، بل وفي عهد المولى عبد الرحمان بالذات، وهو عهد تفتح الاستعمار أكثر على شمال إفريقيا، بلغ اليهود درجات عالية في إدارة الدولة حيث كان منهم السفراء والأمناء بل صناعة الذهب وضرب العملة كانا مقصورين عليهم حتى استغلوا فيها فرصتهم لا في هدم اقتصاد المغرب فحسب، بل وضعوا شعارهم الذي هو خاتم سليمان على العملة المغربية عن قصد، ولغاية كانوا يدركون أهدافها، حتى إعتاده المغاربة عن جهل وأصبح عندهم الزخرفة التي تزين بها حتى ألواح قراءة القرآن في الكتاتيب، وهاهم اليوم أصبحوا يتهافتون(162) على تلك القطع النقدية التي لم تكن لتمثل فترة معينة من التاريخ المغربي، بل اعتزازا بما استطاعوا تحقيقه في ظروف لم تعرف لمثلهم وقتها في بلاد أخرى(163).

وهكذا فإن ما قدمه المولى محمد بن عبد الرحمان من ظهير أراد به جبر الخواطر،

---

(161) راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية ومديرية الوثائق الملكية.

(162) بل أصبحت القطعة ذات الخاتم من الوجهين لها قيمة عالية في عالم هواة جمع النقود من المعاصرين و...

(163) ما ضرب من نقود في عهود المولى عبد الرحمان ومحمد بن عبد الرحمان ثم المولى الحسن الذي توجد بعض القطع لعهده عند ابن زيدان في الاتحاف ج2/مقابل ص 430 وهي المضروبة بباريز 1266هـ 1881م وكذا في عهد عبد العزيز، وهي المضروبة ببرلين، أما عبد الحفيظ فلعله تنبه وحول الشعار إلى شبه أقواس زخرف بها الوجه الثاني للريال ونصف الريال.

لم يكن في نظر اليهود والانجليزيين كذلك ، بل أدى إلى التدخل الغير المقبول ، والذي تمادى إلى درجة القول البذئ والتهديد الصريح الذي سنراه في عهد المولى الحسن، وهذا ما دفع قنصل فرنسا « باكلر » إلى جر أكثر ما يمكن من اليهود وغير اليهود، وإعطائهم أكثر ما يمكن كذلك من الحمايات حتى أن أحد أعوان القنصل الفرنسي اسمه «آلارد» والذي كان محل اقامته يوزع الحمايات بطريقة حين يستعرضها المؤرخ كما حصلت تعتبر مما يزري بفرنسا وتاريخ علاقاتها بالمغرب والمغاربة بحيث كان هذا الذي لا شأن له ينصب خيمته بسوق خميس الزمامرة ثم يطلق السماسرة في السوق يعرضون على الناس بطاقات الحماية الفرنسية ثم يوجهونهم إلى الخيمة التي يجلس فيها المسمى الارد وعليها الراية الفرنسية حيث يبيع الحماية كما يبيع تجار المواد. وأكثر منه كان القنصل الفرنسي الذي ما ترك وسيلة من وسائل الإغراء بالحماية الا استعملها حتى كان المحميون الفرنسيون يعدون «بالمآت في كل جهات المغرب الساحلية، بل كان يغري على ذلك بالمال، مما جلب له بعض مسلمة اليهود في فاس، والسويرة، وطنجة وتطوان،(164) وكل ذلك كان منه قصد أن يكثر من سواد فرنسا ليزاحم به الأنجليزيين الذين تكاثروا وتكاثر محميوهم، وإذا علمنا أن إسبانيا كانت قد حصلت على معاهدة سنة 1861م، وهي التي مكنتها من مثل ما كان للأنجليز بمقتضى معاهدة 1856م فإن فرنسا كذلك أكثرت مما سبق إلى أن اضطر المغرب لعقد معاهدة جديدة معها بتاريخ 1863/9/19م حققت لها

(164) تمكن أحد الأمريكيين كان من سكان الدار البيضاء من أن يمنح الحماية لأربعين مواطنا مغربيا، مما أدى إلى الضجة من كثرة المظالم، اضطر معها قنصل الولايات المتحدة في طنجة إلى إصدار بيان بتاريخ 1887/4/25م تبرأ فيه مما سمع ثم حدد أجلا هو أول جوان ليراجع من بأيديهم وثائق تثبت حمايتهم الأمريكية، كي يراجعوا القنصلية، كما أشار البيان إلى أن لكل نائب الحق فقط في 5 من المحميين «مخزني وترجمان وكاتب، وخادمين، وللشركات التجارية حق حماية اثنين في كل مكان لها به تجارة، لكن الفضيحة التي اشتهر بها القنصل الأمريكي ريدليوس عام 1884م، والذي قبله والتي سببها البيع والشراء في الحمايات امتد لهيبها من المغرب الى واشنطن ولم يكن أشد منه فضيحة إلا القنصل الفرنسي وسماسرته من اليهود ذلك أن فرنسا لم تقتصر على ذلك وأصبح الفرنسي أو المحمي بفرنسا يوزع الحمايات أنى وجدو حيثما إتجه، حتى رجال البعثات العسكرية الذين لم يكن لهم من هم غير كتابة التقارير، والمهندسون أيضا، أصبحوا يدفعون الناس من الخلف لطلب الحماية إلى أن اكتشف أحدهم بالرباط إكتشفه المحتسب عبد الخالق فرج الذي كتب للمولى الحسن يطلب استبداله بألماني هو الذي أشرف بعد على بناء البرج المطل على البحر، راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية ومديرية الوثائق الملكية..

ما لم يكن لها قبل مما قيل عنه الحق لكل فرع من فروع الشركات المتواجدة في الموانئ التي كان لها الحق في اثنين من السماسرة من بين المغاربة، بل ويتمتعان مع أصولهم وشركائهم بالعفو من الخضوع إلى المحاكم المغربية ومن الضرائب، بل وحتى الخدم الذين يعملون في بيوت الفرنسيين أو المزارع التي أصبح لهم حق تملكها، الخدم فيها أصبحوا يتمتعون بإمتياز هو عدم إلقاء القبض عليهم أو محاكمتهم إلا بعد إحضار قنصلية فرنسا ، ولئن كانت كل من إبريطانيا وإسبانيا قد حققتا مثل هذه الامتيازات قبل، فإن فرنسا التي تأخرت عنهما قد بالغ قنصلها في استغلال هذه الامتيازات بطريقة دفعت قناصل الدول الأخرى التي تعرضنا لها وهي ذات الامتياز إلى نهج نفس الطريق الذي سلكه القنصل حتى أصبح كل القناصل وسماسرتهم يتنافسون من الذي له أكبر عدد من المحميين وتعددت الفضائح التي فاحت منها رائحة المرتشين من قناصل الفرنسيين واليهود الذين كانوا لهم سماسرة حتي أن القنصل الأمريكي وحده بلغ عدد محمييه عام 1888م ما يزيد على 800 محمي، بل يهودي اسمه سمطوب كان يعمل مساعدا بالقنصلية البرتغالية في مدينة الجديدة أمكنه أن يحمي 300 شخص ومثلهم كانوا في ملاح تطوان.إلى أن أفسدوا على الدولة المغربية نظامها المالي والاجتماعي، وعرضوها لأكثر من الإهانة لا من طرف اليهود الذين نشطوا في هذا المجال أكثر من غيرهم حتى أصبح للحمايات عندهم سوق رائجة بين جميع القناصل الذين لم يقتصر عليهم إعطاؤها، بل أصبح من حق كل محمي مهما كانت درجته من الإنحطاط ومستواه من المجتمع أن يصبح حاميا، ويكفي أن يقول أن هذا تابع(165) الى، وبيني وبينه معاملة، ثم يبلغ ذلك للقنصلية أو المفوضية أو نيابتها أو شركة من الشركات أو من ينوب عنها من السماسرة(166)، وبذلك يصبح المتخالف مع الذي قيل أنه محمي لا حق له في تقديمه للمحاكم المغربية، وإنما الذي له الحق في متابعته هو الحكومة المغربية، ولدى القنصلية المصرح بإتباعه لها، وهكذا أصبح في إمكان اليهودي الواحد أو شبه المسلم الواحد من مسلمة اليهود واعلاج النصارى الذين ارهقوا المغرب قبل مآت السنين والذين تباروا في

(165) راجع مركز الأجانب في مراكش محمد بن عبود ص 67 ط لقاهرة 1950 مصدر سابق.

(166) راجع المنشور الأمريكي بالإتحاف جـ 429/2. وقد نشره ابن زيدان كما هو باللهجة اليهودية.

توزيع الحمايات، أن يجر الواحد منهم العشرات، واندفع الناس في هذا الطريق المظلم رغم نتونته وأوحاله ومابه من أشواك ومخاطر، بسبب الإغراء والطمع أولا، وبسبب الظلم وفساد الوضع الذي كان طابع الحكومة والولاة ثانية، ولم يقتصر ذلك على طبقة دون غيرها من مجتمع مدن الموانئ والساحل، بل سرى حتي انتهى إلى كل موثور ومتظلم من أحد لا يقدر عليه، ونشط السماسرة بكثرة حتى يحقق كل منهم للدولة التابع لها، بل ولقنصلها ومن معه أكثر ما يمكن من الأتباع وتحقيق النفع المادي، وبذلك تعرضت أوصال الدولة المغربية للتمزيق، وتعرض كل من محمد بن عبد الرحمان والمولى الحسن إلى ظروف جد حرجة أدت إلى تطاول أمثال «تشارلز إيوان سميث» على المولى الحسن دون أن يفعل معه أكثر من رسالة مؤدبة وجهها السلطان إلى ملكة بريطانيا في حقه كما سنرى، بل ماكادت تنتهي سنة 1311هـ 1893م وهي السنة التي توفي فيها المولى الحسن، حتى كان تعداد المحميين في عموم المغرب قد بلغ أكثر من عشرين ألف منهم فقط في أولاد حريز(167) القبيلة المشؤمة ما يزيد على ألف وستمائة محمي امتد بواسطتهم نفوذ الأجانب إلى القبائل المجاورة وبذلك كانت تلك أكثر قبيلة سارعت إلى الحماية وهدم الذاتية المغربية في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ المغرب الذي انتهى إلى أحط درجات التدهور والسقوط فيما يتعلق بمكانته الدولية من جانب، وتصرفات قناصل الدول ذات الإمتياز والمحميين من جانب آخر، فقد كان هؤلاء وأولئك يتصرفون تصرفات شاذة أرهقت الدولة المغربية إلى درجة أنها أصبحت مشلولة أمام كل ما يقومون به من أعمال أقل ما توصف به أنها كانت قصدا لهدم الذاتية المغربية والتحقير من شأن الدولة التي لم يكن في وسعها القيام بشئ ضدهم، خصوصا وأنها أي الدولة المغربية– كانت قد تقيدت بنصوص معاهدات ضمنت لقناصل الدول ومفوضيهم والمحميين بهم الحماية وعدم التعرض لهم حتى لو كانت أعمالهم ضد القانون والسلوك العام، ودونك أمثلة على ما

(167) أولاد حريز بطن من يزيد من زغبة من بني هلال بن عامر راجع الجزائر للمدني 133، وعمر كحالة 263/1 وإلى سنة 1893 بلغ عدد الأجانب الذين كونوا لهم مركزا ممتازا في المغرب بفضل المعاهدات السابق ذكرها حوالي عشرة آلاف ينتمون إلى الدول التالية هي إسبانيا فرنسا بريطانيا إيطاليا البرتغال ألمانيا، وإلى جانب هؤلاء بلغ عدد المتعلقين بهم عشرات الآلاف، راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية ومديرية الوثائق الملكية.

سجله التاريخ في حق كل من فرنسا، وإيطاليا، وبريطانيا، وما قام به ممثلوها ضد المغرب في هذا المجال أيام المولى الحسن.

لقد كانت مساكن القناصل ومن ينوبون عنهم بل والمحميين بهم تتمتع بحصانة دبلوماسية، ومقابل ذلك أصبحت تلك المساكن عبارة عن متاجر لبيع الأسلحة وإخفاء المجرمين حيثما وجدت، وفي أي مكان من مدن المراسي، بل كانت كثيرا ما تصبح بعض الدور منها مثار فتنة بين قبيلة وأخرى، لأن أحد المحميين يقتل أحدا من المواطنين، ولما يلجؤ القاتل إلى تلك الدار لا أحد يمكنه إخراجه منها، وربما تكون تلك التي هي من أملاك الدولة أو أوقاف المسلمين المؤجرة، ولم يدفع إيجارها لمدة سنوات تعددت فيها مطالبة دار النيابة للقنصل أو حتى حكومة بلاده بسداد الإيجار فلم يستجب لها أحد، ومثل ذلك كان يحصل حتى في الأراضي الزراعية والضرائب، ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل زاد أن أصبحت أعلى مناصب السلطة عرضة لإهانة أحقر المتلبسين من المحميين، كما حصل لمحتسب مكناس مع اليهودي معير بن موشى كوهين(168) الذي كان يتمتع بالحماية الفرنسية، ولذلك لم يقف عند حد في اعتداءاته على الناس في أموالهم وأنفسهم، وكانت جنسيته الفرنسية تحول دون السلطة المحلية ومنعه من تلك الإعتداءات، وقد بلغت به الجرأة مرة أن قصد إلى مقر المحتسب الرسمي لمدينة مكناس، وانهال عليه بالسب الفاضح المهين على مرأى ومسمع من باقي الموظفين ومن كان حاضرا من أفراد الجمهور، ولم يجرؤ المحتسب على الرد عليه أو مسه بسوء وإنما لجأ إلى رفع الأمر إلى حكومته، وكان مقر المحتسب محكمة تختص بالنظر في بعض المسائل الخاصة بقضايا المهن وشؤون التموين والمخالفات في هذا المجال(169) وقد إهتم المولى الحسن بهذه المسألة،ولكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من أ يرسل كتابا إلى وزير خارجية حكومته في طنجة،كلفه أن يطلب من مندوب فرنسا العمل على وقف إعتداءات هذا

(168) مركز الأجانب في مراكش ص 67 ط القاهرة 1950.

(169) راجع العز والصولة جـ 71/2 والمحتسب ربما هو الحاج الطيب غريط الذي حل مكانه المختار بادوفي منتصف رمضان 1291 هـ 1874م راجع الاتحاف 155/2. كانت مهمة المحتسب دينية ودنيوية راجع الاتحاف 571/3 –460/4 –462 والعز والصولة 394/1 و 64/2 –70.

اليهودي، وذكر له في الخطاب أن من الواجب « كفه وتأديبه على تجاسره علي الحاكم المذكور، فإن الإغضاء عنه يجرئ أمثاله على التجاسر على الحكام، ويؤدي إلى إنحلال عري الأحكام ».

بيد أن مندوب فرنسا الذي كان يشجع التابعين له من المتجنسين وأصحاب الحمايات على مثل هذه الاعتداءات، لم يعر طلب الحكومة المغربية أي التفات، ومثل ذلك وأنكى حصل من الممثل الإيطالي مع محتسب مدينة طنجة. هو الآخر، ذلك أنه : حصل – أن فر سمسار مغربي من مدينة طنجة بعد أن بدد الأشياء التي سلمت له لأجل بيعها فلما رفعت القضية إلى محتسب المدينة أمر بإلقاء القبض على ابنه وزوجته للتحقيق معهما، وكانت هذه الزوجة تعمل خادمة في منزل ممثل إيطاليا الذي ثارت ثائرته عندما بلغه أن خادمته ألقي القبض عليها، فسارع إلى مقابلة وزير الخارجية وطلب منه أن يطلق سراح خادمته وأن يعزل المحتسب الذي أمر بإلقاء القبض عليها، وأن يسجن عقابا له على ذلك ، وهدد بإعلان قطع العلاقات بين البلدين، إذا لم تجب مطالبه في الحال، فأجاب له وزير الخارجية المطلبين الأولين، حيث أطلق سراح الخادمة وصدر قرار بتوقيف المحتسب عن عمله ، ولكنه اعتذر عن سجنه ووعد برفع الأمر الى السلطان.

وقد بذلت الحكومة المغربية مجهودا كبيرا واستعانت بمندوبي بعض الدول الأجنبية حتى استطاعت أن تقنع مندوب إيطاليا بأن يكتفي بعزل المحتسب من وظيفه وعدم سجنه(170) ذلك ما صدر من ممثلي فرنسا وإيطاليا أما بريطانيا التي كان ممثلها يعرف كيف يدوس كرامة المسؤولين المغاربة بالرشوة، فقد كانت تصرفاته أخس وأنذل إلى درجة أنه لم يكتفي بالإهانة فقط، بل كان يفرض من الغرامة المالية مايرد به أكثر مما دفع لذوي النفوس الساقطة، وإليك مثال من أعماله كما ورد في مصادرهم (171).

في سنة 1316هـ/ 1898م قام القائد الشتيوي حاكم مدينة أسفي بإعتقال ستة من الحميين بالحماية الانجليزية لسبب إقتضى منه ذلك، ومن أجلهم كتب السير آرثر إلى

---

(170) المصدر السابق ، والاتحاف لابن زيدان 2/373 –399، والعز والصولة جـ 2/321.

(171) تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية ص303ط البيضاء 1981م، ثم راجع مراسلات السلطان ودار النيابة أيام المولى الحسن وسلفه محمد بن عبد الرحمان في الاتحاف 3/377– 82–86–87–528– 545. وملف دار النيابة وما به من مآت ضمن وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية ومديرية الوثائق.

الحاجب أحماد بن موسى بتاريخ 1898/9/29 م مطالبا بإطلاق سراحهم وعقاب العامل(172) ودفع غرامة قدرها 12940 ريال قبل حلول أكتوبر، ولما لم يصل رد تحركت السفينتان الحربيتان « هو وسكيلا» من جبل طارق إلى مدينة الجديدة حاملتان خطاب تهديد مؤرخ ب 10/21 وفيه إذا لم يتحقق الرد قبل 28 منه فسيترك الأمر لقائدي السفينيتين الحربيتين، وعجل هذا التهديد برد أحماد بن موسى بتاريخ 7 جمادى 2 عام 1316هـ 1898/10/24م بالموافقة على المطالب الثلاثة تحت قوة الحديد والنار، ومن بريطانيا التي طالما نالت من المغرب وسلاطينه ما لم تصله دولة أخرى.

وهكذا فإن فظائع المحميين وحكومات القناصل واليهود، مما أرهق الدولة المغربية وقيدها بصورة أليمة أدت إلى شللها وعدم قدرتها على القيام بأي عمل من شأنه أن يدفع بالبلاد نحو التقدم أو التطور، ولذلك لم يكن أمام المولى الحسن الذي نفذ صبره غير اللجوء إلى طلب عقد مؤتمر مدريد الذي ساهمت فيه الدول ذات الامتياز من أجل الحد من ميوعة تلك الامتيازات التي انتهت إلى ما سبق.

لقد كانت الحماية في الأصل امتياز يعطى لبعض الدول الأجنبية لحماية رعاياها دولة أجنبية أخرى، ليس لها علاقات دبلوماسية مع المغرب، وذلك لأجل أن يتمتع رعاياها بنفس الحقوق التي يتمتع بها رعايا الدولة التي قبلت حمايتهم.

وهكذا إذا كان في الإمكان وجود مبرر لبسط أجنبي حمايته على أجنبي آخر، فمن المتعذر أن تجد أي أساس من القوانين الوضعية أو من القانون الإسلامي العام في حالة ما تكون هذه الحماية لمغربي من دولة أجنبية داخل بلاده وضد حكومته، مما كان يحصل معه إحراج للدولة، وتمزيق لسلطاتها، لأنها كانت تقف واجمة أمام مواطن مغربي مسلم

---

(172) لقد أصبحت نغمة معاقبة المسؤولين المغاربة محببة إلى كل مسؤول أروبي حصل ما يستوجب منه مراسلة وزارة الخارجية المغربية، راجع المصادر المتقدمة، ثم راجع ترجمة خون خؤن مجرم في تاريخ المغرب المعاصر عبد السلام بن العربي الوزاني الذي جر على المغرب أكبر المآسي رغم معاهدة مدريد 1880م التي حددت عدد المحميين بالنسبة لكل دولة، فقد حصل عليها هو سنة 1883م، 1301هـ ورغم أن المولى الحسن نصب للفصل في القضايا التي تعرض بين المحميين والأجانب وغيرهم من المغاربة، جماعة من العلماء نصبوا بطنجة وهم، عبد الله بن إدريس بن عبد القادر البدراوي الفجيجي الودغيري، وعبد السلام بن حسون الوزاني، ومحمد بن إبراهيم الرباطي، وأحمد بن سودة، فإن مشاكل الأجانب ومن على شاكلتهم من المحميين لم تعرف الحل بل ولا الإعتدال.

ممتاز، على مواطن مغربي آخر مسلم كذلك. ناهيك وأن المحمي كان يحتفظ بجنسيته المغربية، الأمر الذي يصبح معه المواطن خاضعا لقوانين دولتين، أم متنكر لها، وباغية إرتمى في أحضانها وكانت أو كار هؤلاء المجرمين تتكون في الغالب من مسلمة اليهود وأعلاج النصارى ثم اليهود سكان الملاح.

في أخريات حياة السلطان محمد بن عبد الرحمان، كانت سياسة توزيع الحمايات وتجنس الكثير من اليهود والمسلمين خارج المغرب بدون علم من الحكومة المغربية، ثم يعودون بجوازات سفر تابعة للدولة التي اعتنقوا جنسيتها، وما على الدولة المغربية إلا أن تعاملهم بما للأجانب من امتيازات، وكثر ذلك إلى درجة أنه أرهق الدولة التي نفذ صبر سلطانها أمام ما يعيش ويرى، ولم يكن للسلطان المذكور من يلجؤ إلى نصحه في مثل هذه المواقف غير قنصل الأنجليز «هاي» الذي أوحى إليه برفع مذكرة إلى قناصل الدول تتضمن التنبيه لما ذكر، وماآلت إليه الأوضاع التي لم يعد لها ما يبررها، لا من المعاهدات القديمة أو الجديدة، وكان تاريخ المذكرة قبيل إعلان الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا، بسنة، وفي الوقت الذي كانت فيه سياسة جولفيرى تتمخض عن مولود الحرام المشترك نسب إليه وحده في الجمعية الوطنية الفرنسية التي أنبه فيها كليمانصو على ما قام به في تونس، بعد كما سنرى، وإذا كان الصراع وقتها على أشده بين الفرنسيين والأنجليز، فإن الذي زاد من إهمال مذكرة السلطان هو ما علموه من أن الذي وراءها إنما هو القنصل، حتى أصبحت بريطانيا أكثر قدرة على غزو المغرب بحرا عن طريق تجارتها المنتشرة في مختلف المدن وجاليتها الكثيرة العدد، والمحميين من اليهود والمسلمين بها، حتى إنها أخذت تفكر في التخلي عنهم وستفعل تقربا للسلطان بتوجيه من هاي، خصوصا وأن مدن بريطانيا التي هي لندن ومنشيطر وليفربول(173) أصبحت تعرف تجارا مغاربة ضربوا الرقم القياسي في الإستيراد والتصدير إما لحسابهم أو كسماسرة لرجال التجارة الأنجليز، وأن ما يصدرون ويستوردون لم يعد في حاجة إلى وساطة جبل طارق، بل ورغم أن مرسيليا تحاول المنافسة فإنها بعد لم تحقق ما يزعج في هذا المجال،

(173) راجع مظاهر يقظة المغرب لمحمد الهادي المنوني الحسني جـ 1/79 – 83ط 173..

أما باقي دول الامتياز التي لها علاقة مع المغرب تجاريا كذلك، فإن اعتمادها على المحميين الذين أصبحوا يعدون بالالاف لم يحقق لهم أكثر من إضعاف الدولة المغربية وإغراقها في مشاكلهم المختلفة والمشتركة مع الآخرين الذين لم يكن لهم من دافع غير ما ساد البلاد وقتها من ظلم واستبداد وفساد، وذلك ما أغرى الكثيرين بطلب الحماية لأن المحمي كان يطمئن شكليا وربما نفسيا علي نفسه وماله وأهله بعيدا من نفوذ الحاكم المغربي العادل أو الظالم المستبد وزبانيته (174). وبعضهم بسبب ذلك كان يندفع إلي الانتقام والتشفي من الحاكم والمحكوم بأن كان يدعي بعد معاملته ماليا مع أجنبي أن ماله قد تعرض للتلف، وهو بذمة فلان الذي لا يجد كبير صعوبة في تزوير الأوراق عليه، سواء بواسطة العدول أو الموظفين الذين هم كذلك أصبحوا يتهافتون على الحمايات، بل أكثر من هذا، أصحاب الثروات الحيوانية في بادية ما حول المدن الساحلية، والذين كانوا يتعرضون لمضايقات العمال وغيرهم من المسؤولين بانتزاع ما يريدونه من أغنام الآخرين وأبقارهم، تارة لأنفسهم وأخرى باسم « الخليع: القديد» للسلطان، هؤلاء الذين يتعرضون لذلك كانوا يندفعون في طريق أظلم وأقبح إذ كانوا يشترون من الوثائق ما يستدلون به على أن ما عندهم من قطيع الماشية إنما هي للأجنبي صاحب الوثيقة التي تحمل إسمه وطابع القنصل وتوقيعه، وكان ذلك تحايلا حتى يتخلص المتلبس من مضايقات الحاكم أولا ومن واجبات الدولة ثانيا، وإذا لم يكن ثمة من الوعي ما يدفع المتلبس إلى التوثيق بطريقة تحول بينه وبين إنكار وتطاول المتواطئ ، فإن ذلك مادفع الكثيرين من المغامرين الأوربيين الذين اكتشفوا في المغرب مصدرا غنيا للثروة وتحقيق الأحلام، بل أصبح الكثير من قناصل الدول وموظفيهم بما فيهم الأنجليز الذين كشفهم ثم فضح ادعاءاتهم القنصل (سيروست ريدجواي) (175)، بل الذين لم يفضحوا وهم بالآلاف ولمدة ما يقرب

(174) وفي مراجعة ما كتبه أبو القاسم الزياني عن الوديني وابن الروسي وفظائع الأول في أعراض أهل فاس وقتها ما يكفي، راجع كتابنا: التاريخ المفتري عليه في المغرب 63–64 ومخطوط الخزانة العامة بالرباط 40 جـ ص : 46 والبستان الظريف ك.خ.ع 1577ص 14–15–16 فكان تشهير الزياني بالوديني سببا في زواله وسجنه وتوليه القائد الأحمر مكانه، وهو الذي أذاقهم البلاء الأكبر والوبال الأمر يقول صاحب فواصل الجمان ص 64، وفي ترجمة محمد غريط الذي بدأ عمله مع الوديني قبل أن يعمل في مجال النسخ بالقصر الملكي زمن السلطان محمد بن عبيد الرحمان.

(175) راجع تاريخ العلاقات ص : 297.

من الأربعين سنة تنكروا للمستغيثين بهم ثم إدعوا عليهم ملكية ما زور باسمهم حتى أصبحت دار النيابة ولا شغل لها غير الخسارة التي كانت الدولة تدفعها مرغمة بالإضافة للتمزيق والتحطيم، حتى أصبحت عاجزة لا عن تحقيق شيء من الإصلاح بل على حفظ الأمن وضمان الاستقرار وقد رأينا ما حصل في كل من الرحامنة وتادلة وغيرها من مختلف جهات المغرب، وما سيحصل إلى عهد المولى عبد الحفيظ الذي سنقرأ أشعره في الحماية والمحميين، بل ورغم تعدد سفارات السلطان محمد بن عبد الرحمان لمختلف دول أوربا في موضوع الحمايات فإن شيئا من مطالبه لم يتحقق، وبقي الحال على ما هو عليه إلى أن رحل من الدنيا فجأة (176) وفي قلبه أشد الحسرات على أمته وبلاده كما حملها قبله سلفه الذي هو والده المولى عبد الرحمان بن هشام .

توفي محمد بن عبد الرحمان كما سَبق بداره في مراكش، وزوال يوم الخميس 18 رجب 1290هـ =1873/9.11م وقيل بسبب مسهل ؟!ورغم الظروف القاسية التي عاشها فإنه حاول محاولات صادقة بالنسبة لوضع أسس التجديد والإصلاح في مجالات مختلفة أشرنا إلى بضعها قبل، كما كون لولاية العهد رجلا جمع الكثير من المقومات الضرورية لرجل الدولة رغم أنف القنصل « ريد جواي» وما وصفه به(177) مما يكون بلا شك قد استقاه من جاسوسه « بوبكر الغنجاوي» « نسبة إلي قصرتا غنجاوت بتافلالت » والغنجاوي هذا هو الذي كان المولى الحسن نفسه قد كشفه كمتاجر في الرقيق والبغايا كما سبق.

وإذا صح أن المولى الحسن من مواليد 1247هـ 1831م فإنه حين نصب بعد أبيه يكون قد بلغ الثالثة والأربعين، وليس هذا ببعيد رغم أن القنصل الأنجليزي المشار إليه

---

(176) راجع الاتحاف 577/3 والشائع أنه مات غرقا بيد أنه مات بمسهل أو إن شئت قل بسم.

(177) المصدر السابق 292 – 93. بعيد أن يختلق الانجليز مثل تلك الأوصاف التي أدلى بها «ريد جواي» في تقريره إلى وزير خارجية بلاده اللورد روزبري بتاريخ 1893/1/18م ما لم يعتمد فيها على مصدر مغربي، ناهيك وأن هذا القنصل الذي حل مكان المشهور تشارلز إيوانَ سميث الذي أفسد العلاقة بين البلدين أمكنه أن يعيدها إلى شبه ماكانت عليه.

قال وبعد سنتين إنه في السابعة والعشرين(178)، ومهمايكن فقد كان المولى الحسن طموحا ومتفتحا، وله من الاستعداد ما جعله يتقبل ولا يغضب من التوجيهات الحبية من مختلف القناصل الذين قدموا له التهاني بمناسبة إعتلائه العرش، وبالأخص أولئك الذين كان !نضباط من أبناء جلدتهم قد أصبحوا قوادا في مختلف وحدات الجيش، وفي الطليعة الأنجليزي هاي الذي دامت خدماته لبلاده بالمغرب واحدا وأربعين سنة، تدخل أثناءها في كل شيء بما في ذلك الحث على إصلاح السجون والرقيق، ولم ينقطع تدخله إلا بمغادرته للمغرب واعتزاله السياسة بعدما تجاوز السبعين سنة 1886م ليحل مكانه « وليم كيربي جرين» وهو المستشرق والحاذق مثله لسياسة المغرب وأحواله ، بشهادة هاي قبل أن يبحر من ميناء طنجة يوم 14/ يوليوز قيل مخلفا وراءه «أشد الحزن» في نفس السلطان حسب التعبير الذي تطوع به وزير الخارجية السكير محمد بن لمفضل غريط(179)، وأكثر من ذلك في جالية بلاده وفي اليهود، والذين حقق لهم وبشهادة كل قناصل الدول ما لم يحققه غيره، مما يعتبر هدما للدولة المغربية، إلا أنه كان يغطي كل ذلك بما كان يوزع من الرشاوي باتفاق مع حكومة بلاده التي كانت تقبض وتبسط حسب مستوى الصفقات، وهو ما أهمله المؤرخون المغاربة، لكن مذكرات القناصل ووثائق وزراة الخارجية لبريطانية، لم تهمل شيئا(180)، ولئن كان التنافس أصبح شبه مكشوف بين قنصلي بريطانيا وفرنسا، فإن ما كان الأول يحققه بارتشاء رجالات الدولة، كان الثاني يعتمد فيه علي التهديد بالإحتلال شرقا من جانب، وبالضغط الذي كان يباشره الضباط

---

(178) لعل ماورد في المصادر المغربية أصح لأن المولى الحسن عرف من عناية جده المولى عبد الرحمان ما تعرض له صاحب الاتحاف 2/115-16. وبالتالي كان له من سلوكه الذاتي ما يجعله عند المؤرخ الثبت أجدر بالتقدير رغم بعض الهناة التي عرفت بها مرحلة سلطانه مع بعض القبائل وجماعة الشيخ محمد العربي الهاشمي الدرقاوي مما نتج عنها تصرف قبيلة آيت شخمان التي قطعت رؤوس 56 من رجاله فيهم عمه سرور بن عبد الرحمان .

(179) المصدر السابق تاريخ العلاقات270، في حين أن هاي لم يكن غير مثبط آخر أكثر مما نفع بالنسبة لمشاريع الإصلاح التي حاول السلطان إنجازها، راجع المصدر السابق، بريطانيا وسياسة الحسن في التحديث ص242. ثم راجع ترجمة أحمد باي تونس دائرة المعارف الإسلامية جـ1. والإتحاف 2/326م جـ 3/213 -5/417

(180) حتى وثيقة تعديل معاهدة 1856م التي مزقها نشارلز إيوان سميث 4/331- 337 352 - 494 تعبيرا عن غضبه من الفشل الذي انتهى إليه أمام المولى الحسن ، حتى هي لا تزال باقية ضمن وثائق وزارة الخارجية الانجليزية راجع المصدر السابق.

الفرنسيون المنبثون هنا وهناك، وضمن المشاريع المقترحة من الانجليز أنفسهم ، وبالتالي بما كان يغدق على الآخرين من كثرة الحمايات التي كان المغاربة ينجرون إليها بإغراء من اليهود الذين شبه استغنت عنهم بريطانيا أخيرا، ومن الضباط والتجار الفرنسيين الذين كانوا يكيدون للجيمع وهم داخل البلاد، وفي أهم مراكزها، وكل ذلك من أجل الحصول على نفوذ أكثر في المغرب مما انتهى بالسلطان أخيرا إلى أن يدرك مقاصد القوم، فعمل هو الآخر على أن يضارب بينهم بطريقة ظهرت من الصراع الذي احتد بين قنصلي الأنجليز وفرنسا، قبل وبعد مؤتمر مدريد 1880 الذي لم يحقق للمغرب شيئا أكثر مما قيل عنه الاعتراف باستقلاله ووحدة أراضيه، وهو ما ستتفق الدولتان ضده ثم تجر الدول بعد لتمزيقه ثم تركه فريسة لفرنسا ما لم تحدث معجزة(181) حسبما ورد في تقرير جيربي لوزير خارجية الأنجليز اللورد "ايد سلييه" إثر تنصيبه الأول بالمغرب يوم 7/10/1886م، وقد علل ذلك بدعوة الجرائد المتكررة بالحاح في كل من فرنسا والجزائر تطالب بالاستيلاء على المغرب، خصوصا وقد أصبح لها فيه من المحميين ما ليس لغيرها حتى إن « شريف » وازان وقومه وأنصاره ارتموا جميعا متطارحين تحت ظل الحماية الفرنسية(182) سنة 1883م بعدما قام بجولة لفائدة العدو شرقا وفي إقليم توات قبل سنة، لكن أخذه الله بعدما كشفه وأمر بتخليد لعنته بعد وفاته في شهر سبتمبر 1893م 1311هـ لأنه جر على بلادنا من الويلات ما لم تكن قادرة على دفعها كما سنرى.

وأخيرا حاول السلطان وبطريقة أخرى التخفيف من حدة مشاكل الحمايات ولو بالرجاء، حين أمر غريط بالكتابة، إلى الأنجليز كي يعملوا على جر الدول التي لها علاقة سياسية وتجارية مع المغرب إلى إصدار تصريح بضمان حياد المغرب، لكن جاء رد "اجرين" مستمدا من تعليمات وزير خارجية بلاده أنه، لا يمكن إصدار مثل ذلك التصريح قبل إجراء الإصلاحات التي تؤدي إلى استقرار أحوال المغرب، ذلك أن الفوضى الداخلية

---

(181) تاريخ العلاقات 273.

(182) تقول رواية الأنجليز إن أرملته لما فشلت في الحصول على الحماية الأنجليزية تحولت إلى الفرنسية مثل زوجها، وقد وعدها الفرنسيون بمنحها بدلا ماليا إذا ما وافقت على أن يتلقى أبناؤها تعليما فرنسيا ، راجع المصدر السابق ص 293.

قد تؤدى إلى تدخل إحدى الدول الأجنبية(183) ومعنى هذا أن أحوال البلاد لم تكن قد إستقرت ، وتاريخ الجواب كان يوم 1887/9/7م، أي قد مضى على تنصيب السلطان أربعة عشر عاما وعلى مؤتمر مدريد سبع سنوات، لم يترك السلطان خلالها ناحية من المغرب إلا وتوجه لها على ظهر جواده ولم يبق له غير تافيلالت التي ستكون الرحلة إليها هي آخر رحلاته 19 في حياته.

وعلى كل حال إنها نغمة الأنجليز التي كانوا يريدون منها تحقيق المشاريع التي تنجز بواسطتهم وبأموالهم التي تجر إلى الاحتلال كما فعل الفرنسيون في تونس وهم في مصر وغيرها، والتي كان المولى الحسن متيقظا لها، وربما ورث تلك اليقظة من والده الذي عاش ورأى ما حل بتونس أيام الباي محمد الثاني بن حسين ، ووزيره الخزندار،

---

(183) نفس المصدر 273،274، بل باسمه وما علم للفرنسيين واليهود ، أصبح الواردون منهم من الجزائر يدعون الانتساب لآل وازان، حتى عرف الأطلس المتوسط وإقليم تافيلالت منهم الكثير من أبناء السفاح الذين أصبحوا أشرافا، بل منهم من أصبح سلطانا لكنه إنكشف، كما حصل للمدعو «مولاي الحاج» الذي حكم أهل المعاضيد بأرفود تافيلالت لكنهم أخيرا لما عرفوا أصله ومقاصدة أحرقوه بالنار، ولما حكمت فرنسا انتقمت منهم، ومثله اليهودي الأصل أمبارك بن لحسن التزونوني كما في المعسول ج16/263 وهو الذي أصبح سلطانا في تافيلالت عام 1918م، عرف باسم مولاي محمد ومعه كان بلقاسم النكادي الذي اطلق عليه اسم محمد وأما الفتنة وعدم الاستقرار اللتين أشار إليهما وزير ابريطانيا التي كان سفيرها كثيرا ما يلازم السلطان في رحلاته والتي كان يلاحظ أن رحلات المولى الحسن التي كان يقصد من ورائها تحقيق الأمن وبعث الاستقرار، لم تكن نتيجتها كذاك أنى إتجه وحيثما قصد، لأنه كان يسعى لذلك بأشد أنواع العنف وأعنف وسائل التدمير كما رأينا ، من خلال النشرات التي كان يوجه بها لعماله ، بل أكثر من ذلك كان بعد ما يفرض على القبيلة من المال مما يؤدي بها إلى الفقر ثم يشردها، وبذلك عرف المغرب فترات من الفوضى كانت السبب في إحراق البقية الباقية مما كان له من أمل في الإصلاح والتطور، راجع الاتحاف جـ 214/2 قبائل سوس وآيت باعمران وص 241 قبيلة انتيفة 248 – 249 وبني مجيلد 252–53–54–58، وذلك حول ايت إزدك، وآيت شخمان وآيت إحديدو، وآيت مرغاد، وآيت يعقوب وعيسى، وأحيانا كانت الصاعقة تنزل على قبيلة ما ، لأنه أرادها لها نوغرض، كما كان لمحمد أحمو مع آيت شخمان وآيت مجيلد وغيرها، لهذا نجد قنصل الأنجليز بل ووزير خارجيتهم يجيب السلطان بما سبق، إن ما علق بالنفوس من شر مقابل ذلك ستنعكس آثاره على الوضع أيام المولى عبد العزيز وعبد الحفيظ، بل وفي عهد المولى الحسن نفسه حيث قتل ابن عمه ورسوله إلى آيت سخمان وهو سرور بن عبد الرحمان حفيد المولى سليمان كما سبق وكما سنرى بل إن المولى الحسن نفسه وكما يخبرنا ابن زيدان في الاتحاف جـ 157/2–162 أثناء غزوه لقبيلة غياتة تعرض لحصار كاد يقضي عليه هو ووزيره موسى بن أحماد بتاريخ 26جمدى الثانية عام 1293م وذلك بسبب الفتنة التي أثارها عامل تازة محمد بن طاهر والدليمي، وابن البشير، والتي أدت إلى ردم السلطان ووزيره مما عقده ثم دفع به إلى ما صدر منه بعد نحو القبائل المذكورة والتي كانت رحلاته 19 كلها بسبب عدم الاستقرار.

كما وأن المولى الحسن الذي ركز على مشكل الحمايات كان يعلم أنه السبب في عرقلة كل ينشد من إصلاح، ولذلك حاول تنظيم وتحقيق ما أمكنه من إصلاحات ثم بادر بإرسال البعثات إلى أوربا من أجل التخفيف في موضوع الحمايات وضغط الدول وتزاحم مصالحها أرسل إلى كل من فرنسا وإيطاليا وبريطانيا، وبلجيكا قصد الإتصال بملوكها وكانت البعثة برئاسة ج محمد الزبدي وج المعطي بن المدني والطيب بين اليماني بتاريخ جمادى الأولى 1293هـ 1876م (184)، تم اتصال بال عثمان(185) ولعله ما فعل إلا ليبرهن للإنجليز علي أنه سيستقى من نفس النبع، لكن الشمس كانت على أطراف النخيل(186) كما أراد أن يبرهن للملاحظين علي الفوضى وعدم الأمن بالرحلات التي لم تقف، وبالسماح لكل من أراد من القناصل زيارته في إحدى العاصمتين فاس أو مراكش، وما يلاقيه في طريقه من أمن وحفاوة، وأنه لا فرق في ذلك حتى لو ذهب من شاء من وجدة إلى سوس، لكن الواقع كان غيرما يحسبه السلطان وأن قناصل أوروبا لا يعرفون الحقيقة، بل كانوا يعرفون أن سلطانه فقط إنما كان يمتد حيث يتردد صدى ما معه من سلاح مستجد من مدافع كروب التي قهر بها ثورة فاس التي قامت ضد المكس قبل يوم 11 رمضان 1290 هـ مايو 1874م.

وأخيرا ولا أحد يقرر إن كان ما قصد به إثارة الإنتباه بعنف ضد المغرب أكان من صنع الأجانب أم عفوا وبدافع التذمر، ذلكم هو إحراق اليهودي، الذي قيل بسبب(187) جرم إرتكبه في آنفا 1880م وقد رأينا ما يدفع لذلك في موقف محتسب مكناس الذي أهين من طرف يهودي محمي هو « ميعير بن موشي كويهين» ومن أجل إحراق المجرم واليهودي، ثارت ثائرة إسبانيا العدو التقليدي لليهود قديما وحديثا، والتي لم يكن لليهود في أرضها وجود يعتبر منذ عهود محاكم التفتيش، واعجبا اسبانيا التي لم يكن لها ذلك ولا اعتبار بين دول أوربا منذ مؤتمر باريز 1858م والتي انتهت أو ستنتهي مهمة وجودها

(184) راجع الاتحاف 281/2 – 304.

(185) نفس المصدر جـ 359/2 – 365

(186) لأن خبث ومكايد عبد الحميد ضد رجالات الإصلاح وتراجعه، فيما يرجع إلى الدستور والبرلمان، كانت قد إنكشفت أو في طريقها إلى الافتضاح، وبذلك لم يعد له ما يفيد به المغرب غير هدايا الرقيق.

(187) راجع تاريخ العلاقات 256 وفيه أنه جلد حتى الموت.

في موانئ المغرب الذي إزدهر إقتصاده، وأدى لها من الغرامة ما أثقلت به كاهله زمنا طويلا ، واسبانيا تريد أي شيء يثير انتباه الآخرين حولها ولما لم يجد ما فعلت رجعت إلى المطالبة بالود والتقرب من السلطان، إلى درجة أنها ستقترح عقد المؤتمر الذي سيخصص لمدارسة مشكل الحمايات بعاصمتها حتى يكون لها ما تريد من الذكر، ولعل ما انتهت إليه إسبانيا كان متفقا عليه بين كل من بريطالنيا، صاحبة جبل طارق، وفرنسا المحتلة للجزائر، لأن أي إنتعاش وتمكن للأسبان في المنطقة يكون خطرا على مصالح الدولتين.

وهذه مجموعة من الرسائل(188) تتعلق بمشاكل ذوي الحمايات صادرة عن السلطان المولى الحسن لدار النيابة بطنجة ولمختلف العمال.

(188) مصدرها خزانة المولف، ثم راجع تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية الفصلين 7-8 ص: 230 - 263-246.

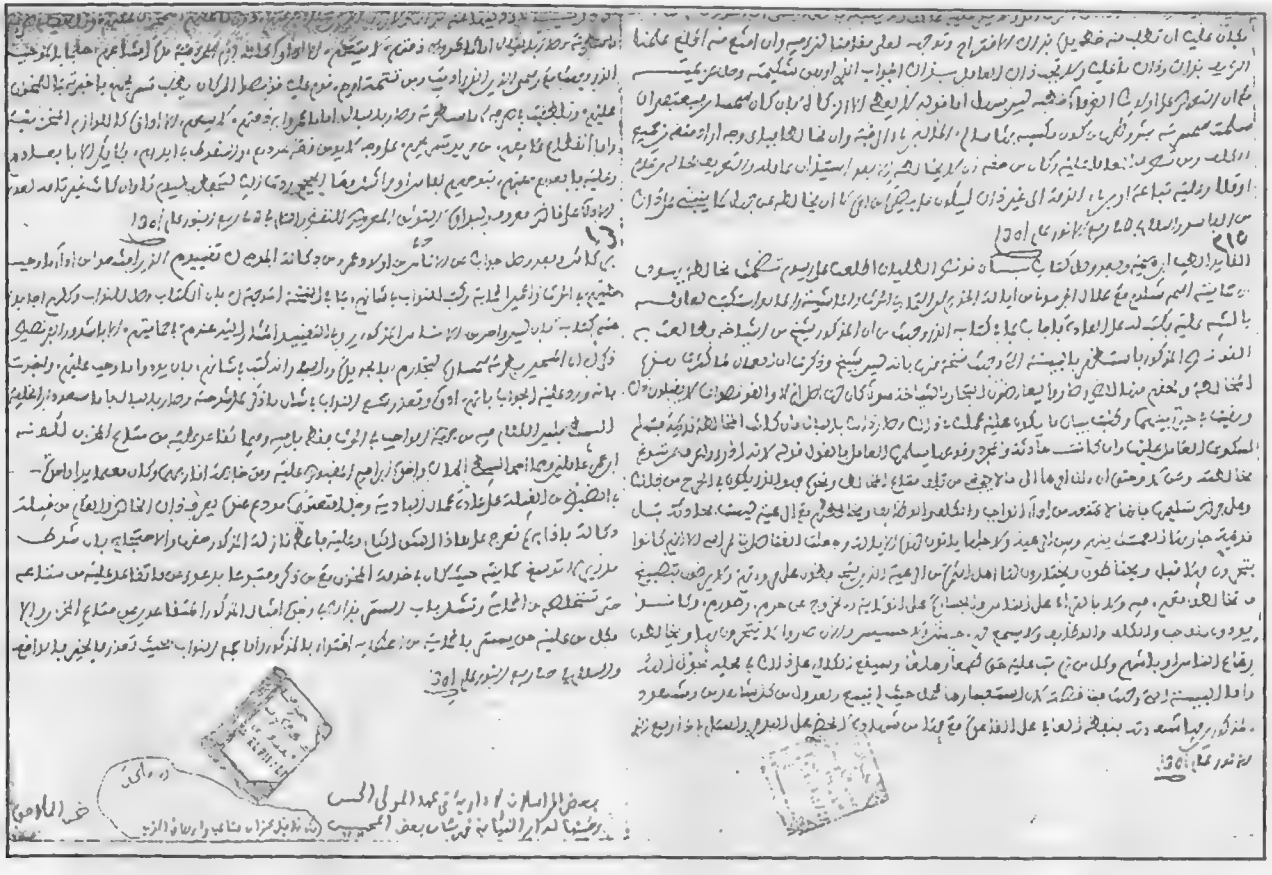

في الصفحات الأربع التالية مجموعة من الرسائل تمثل صراع المغرب مع ذوي الحمايات وموزعي الحمايات في عهد المولى الحسن بن محمد بن عبد الرحمان.

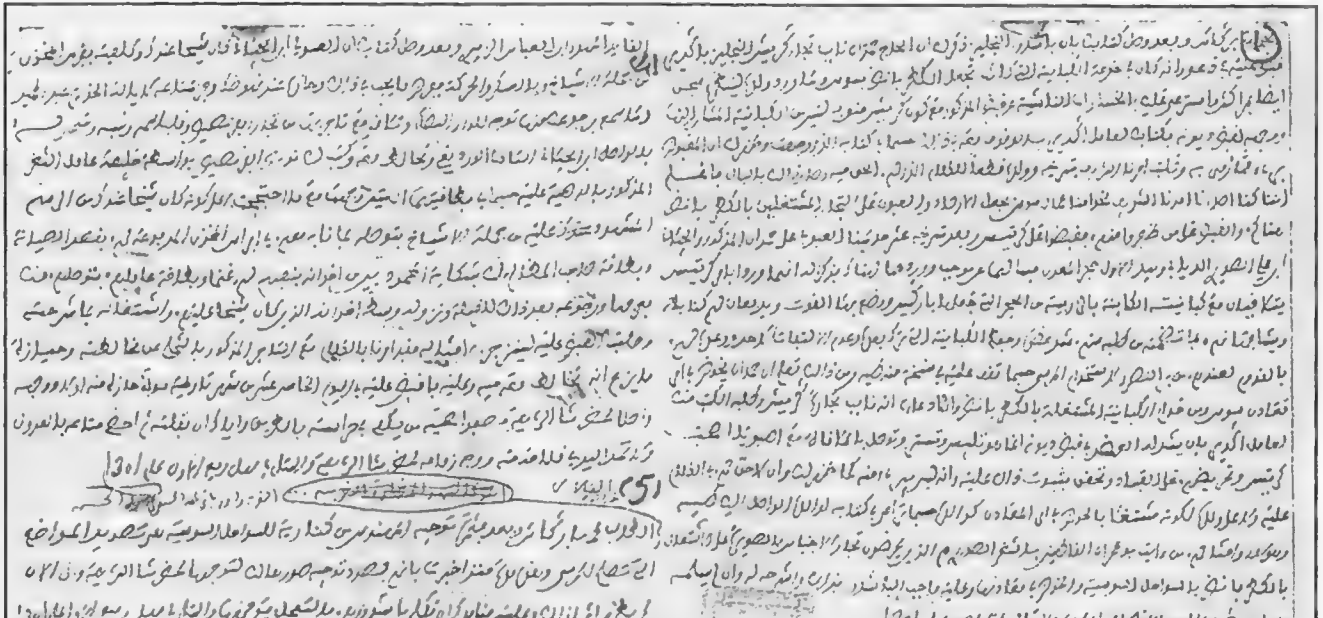

في الصفحات الأربع أعلاه مجموعة من الرسائل تمثل صراع المغرب مع ذوي الحمايات وموزعي الحمايات في عهد المولى الحسن بن محمد بن عبد الرحمان

يهودي مغربي من مدينة صفرو

يهودي مغربي بربري الأصل من
الأطلس المتوسط

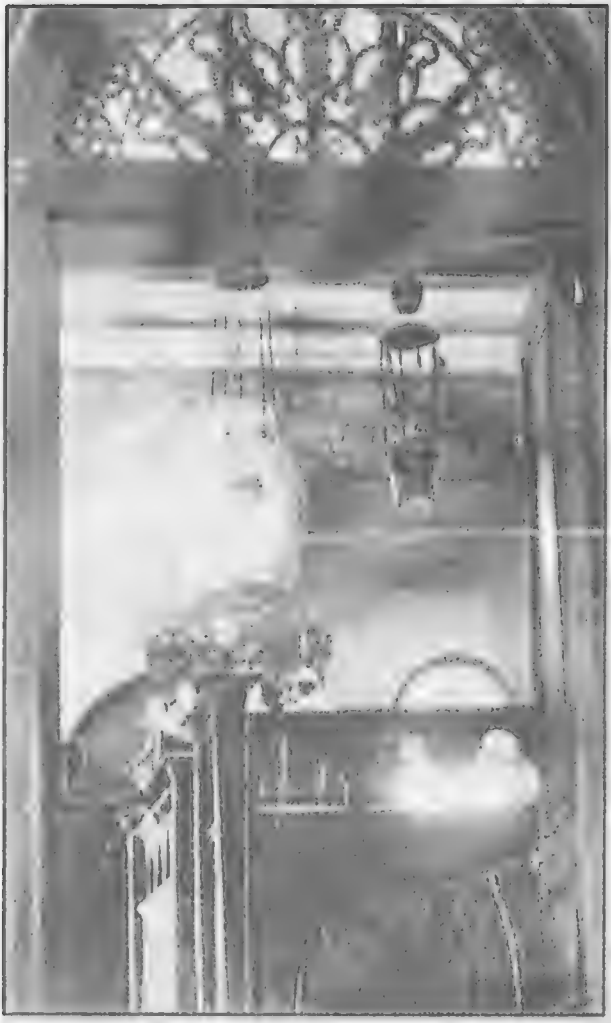

داخل بيعة اليهود بمدينة الجديدة

مدخل لبيعة اليهود بمدينة الجديدة

مشهد بيعة يهودية في تونس

يهودي مغربي يتعبد داخل بيعة لليهود

اليهود والوضع الذي كانوا عليه كمغاربة
موقع حارة اليهود قبل في فجيج

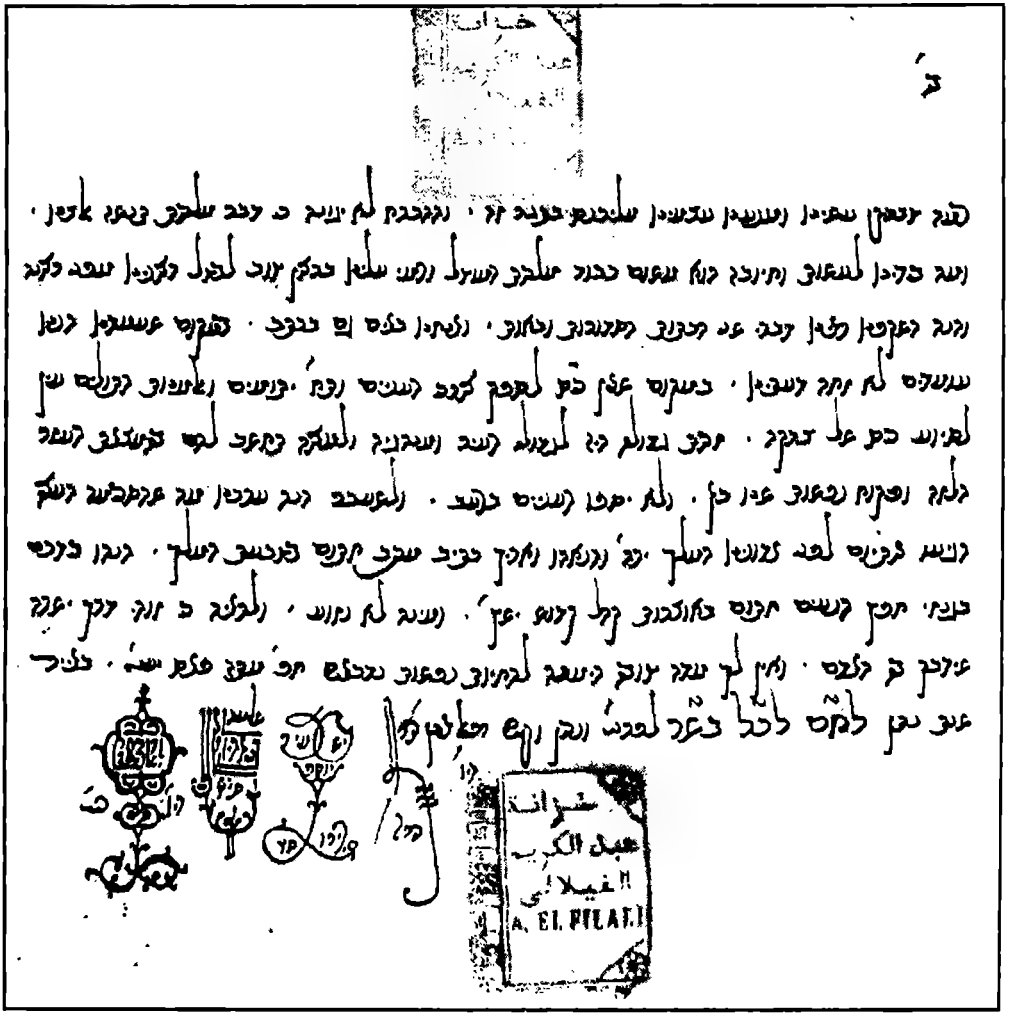

هذه الوثيقة تتعلق بحرية ابداء الرأي حسب عرف المغرب القديم
وهذا دلالة على نظام دولة الاسلام في المغرب. والموضوع هو مسايرة أمر السلطان في الضرائب المضافة ورأيهم هو: أن الزيادة في سعر اللحم على السعر ان كان الكيس "كذا" يحرم، وان عدم فلا تحرم.
والوثيقة تحمل توقيعات أربعة من قضاة اليهود بفاس وهم 1- الحزان رفائل أبنسور. 2- يوشع سيريرو. 3- شلوموبن دانان. 4- لم يعرف.

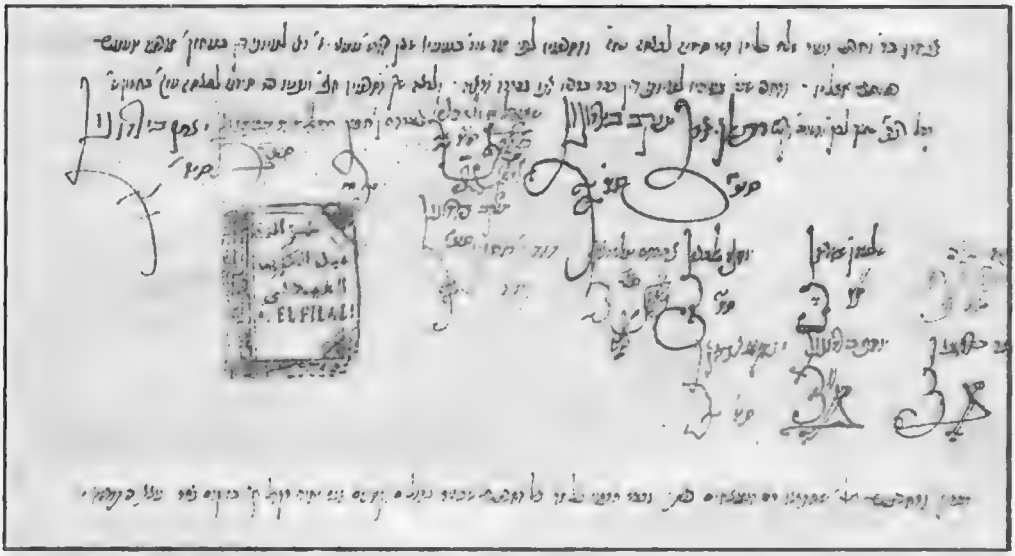

اليهود والعدالة في ظل الإسلام حيث كان الرأي لقضاتهم فيما يتعلق بأحوالهم الشخصية

اليهودي بن شيتان الذي كان ينوب كقنصل عن أربع دول أدت مبالغاته بتوزيع الحماية إلى غزو اليهود بفاس انها صورة اليهودي الذي يمثل المستوى الذي انتهى إليه المغرب

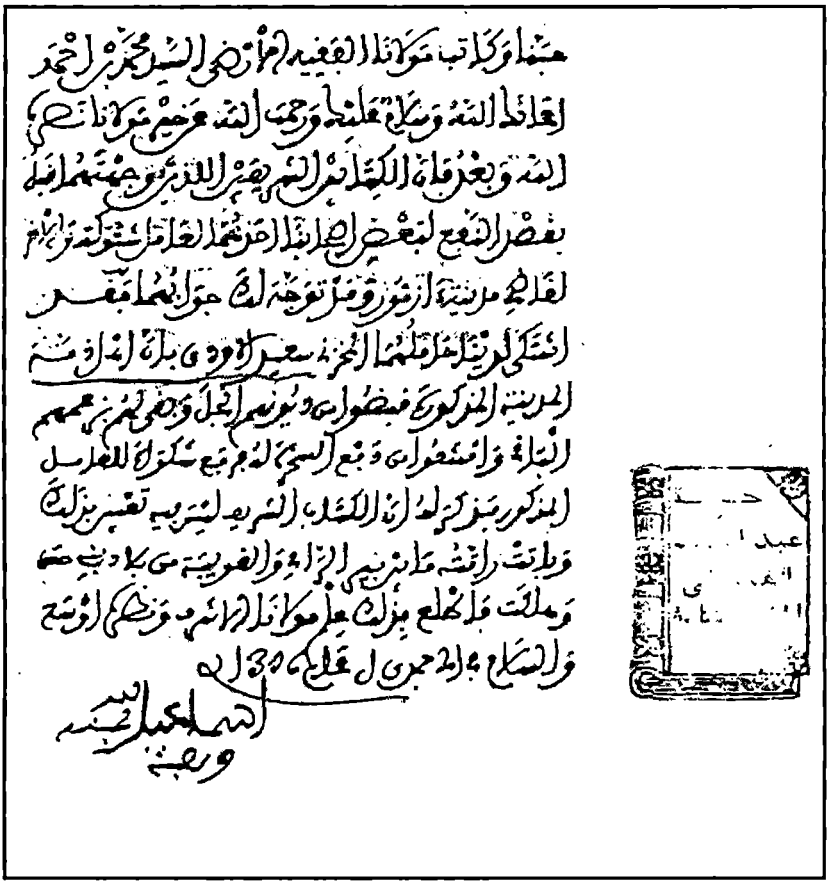

وأصبح اليهود يستعملون امكانات الدولة في استخلاص مالهم على الآخرين من ديون كانوا أحيانا يدعونها دون دفع تكاليف عمل المساعدين حسب العرف والتقاليد والتوقيع للخليفة اسماعيل بن السلطان جد الخليفة الحسن بن المهدي

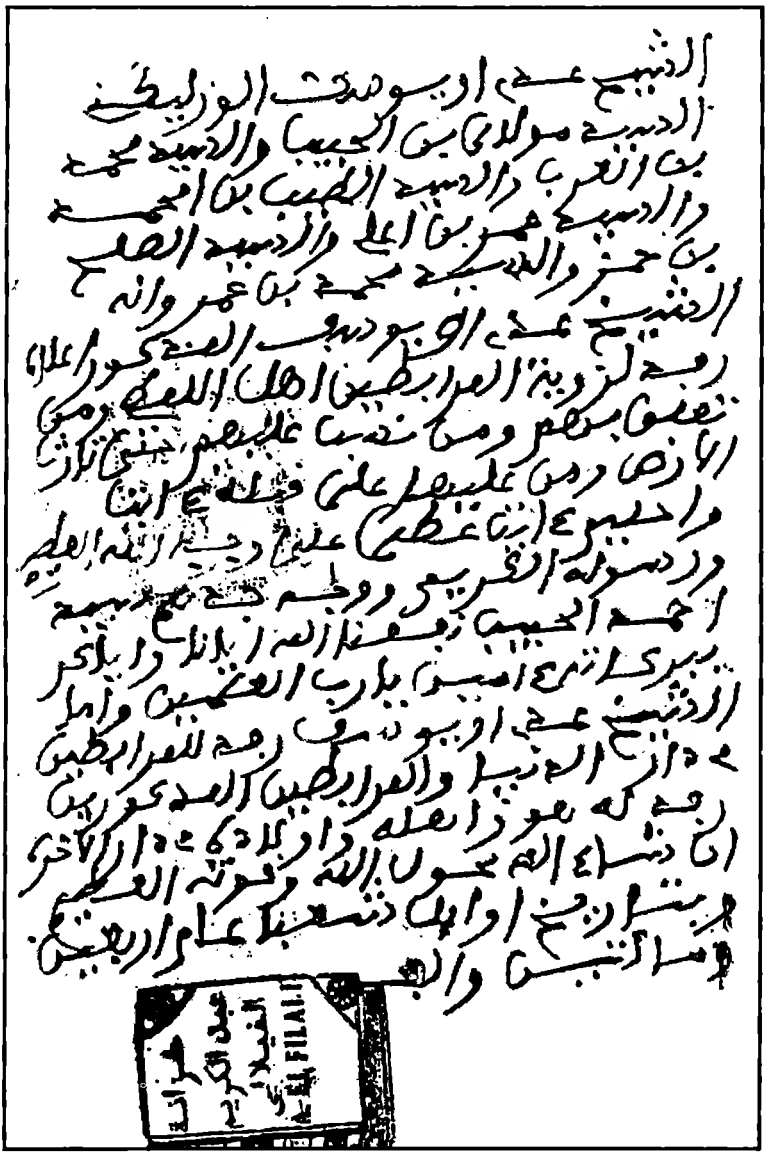

أحد رجالات القبائل يحمي أهل زاوية من زوايا العلم بتافيلالت زمن السيبة

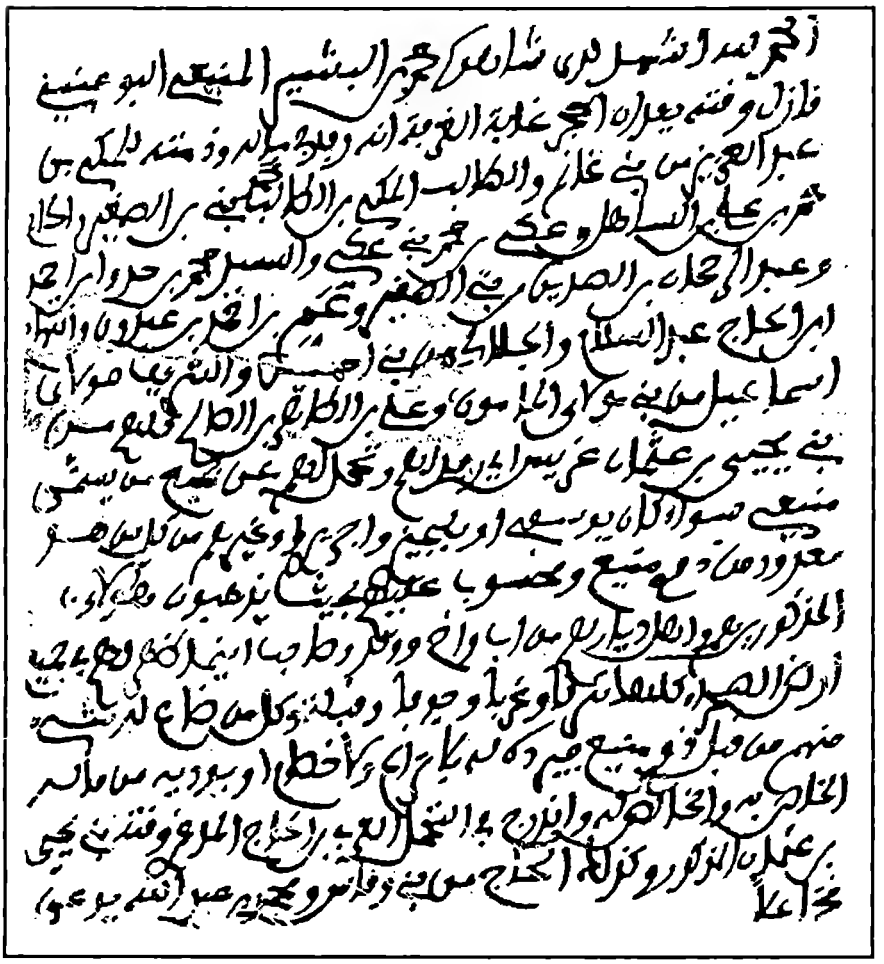

نوع من الحماية التي كان كبار القبائل يوفرونها لمن طلبها منهم من أرباب الزوايا وغيرهم
وهي تمثل أحوال السيبة التي عرفها المغرب منذ منتصف القرن 17م

الوثيقة تتعلق بشؤون اليهود كذلك وما يرتكبه المسمى يعقوب احنا
من مخالفات بزعمه انه يتمتع بالامتياز الذي ميزته به الدولة وهو العفو من ضريبة الذبح

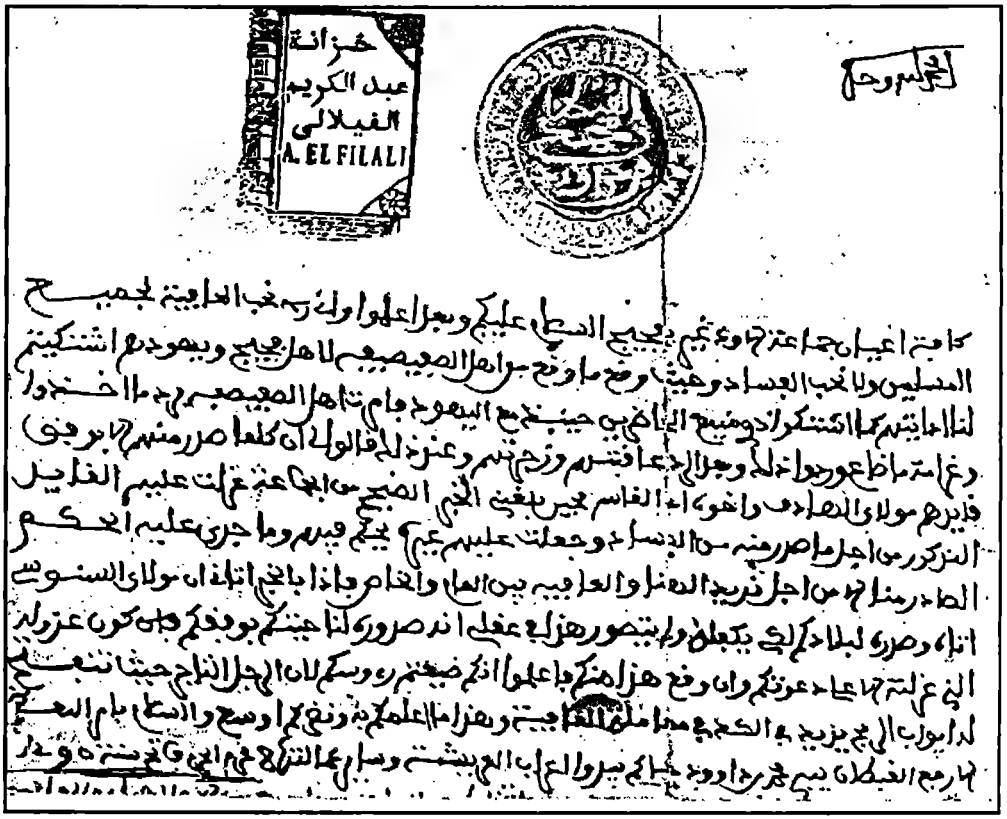

رسالة من حاكم العين الصفرا إلى الوادغيريين بفجيج
في شأن اعتداء أهل الصفيصيفة على يهود فجيج وهي بتاريخ محرم 1290هـ

الباب الثامن عشر
متاعب المغرب العربي الكبير وإرهاقه من أثر التنافس الدولي أواخر القرن 19 ومطلع القرن 20

الفصل السادس والستون بعد المائة

مؤتمر مدريد وأبعاده الاستعمارية

كان ممثلو دول أوروبا بمدينة طنجة قد استشعروا التذمر من السلطان المولى الحسن في موضوع الحماية الذي بلغ النهاية في إلحاق الضرر بمصالح الدولة وبالشعب معا، حتى أصبح الناس يتوجسون خيفة من كل تحركات المحميين الذين كثرت مشاكلهم في كل مدينة من مدن الساحل شمالا، بل إن بعض القناصل أنفسهم أدركوا أنهم بالغوا في الأمر، خصوصا عندما استطاعوا أن يتحايلوا على موافقة الحاج محمد باركاش ممثل المغرب بدار النيابة بمدينة طنجة على ما اتفقوا عليه من تكوين شبه مجلس بلدي منهم أصبح يتحكم في المدينة إلى درجة أنه تولى المراقبة الصحية والجمارك، حتى إنه قطع الطريق على بريد السلطان نفسه، مما دفع إلى إرسال توبيخ لمحمد باركاش بتاريخ 24 شوال 1295هـ(189) ولذلك فكر أخيرا في توجيه رسائل تتضمن تقريرا به اقتراح

---

(189) الإتحاف 2/397ـ398 بل أصبح المجلس الذي شكل بطنجة يطلق عليه «مجلس نواب الدول» راجع الاتحاف 2/321. ولقد كان السلطان المولى الحسن يحاول ما أمكنه حتى لا تتعقد العلاقة مع الأجانب في ما يرجع إلى معاملاتهم مع الأهالي، ومن أجل ذلك كون مجلسا شوريا من بعض العلماء كلفهم بالفصل في القضايا التي تحدث بين الأهالي والأجانب ومقره طنجة، وهؤلاء العلماء كما عرفنا قبل هم النقيب عبد الله الودغيري البدراوي، وأحمد بن سودة وعبد السلام إبن حسون الوزاني، ومحمد بن ابراهيم الرباطي.

وقبل كان الذي يباشر الشؤون السياسية مع السفراء والقناصل الذين كانوا يقيمون بطنجة هو عاملها نيابة عن السلطان. وكان آخر هؤلاء، العمال هو بوسلهام بن اعلى أزطوط العرايشي، وعندما أصبح للمغرب وزراء ومنهم وزير الخارجية أطلقوا عليها دار النيابة ومركزها مدينة طنجة، وقد كان أول من أسند إليه هذا المنصب هو محمد بن عبد الله الخطيب التطواني. وذلك على عهد المولى عبد الرحمن بن هشام. وقد دام محمد الخطيب إلى سنة 1276هـ/1859م تولى مكانه محمد برقش «بركاش» إلى عام1300هـ/1882م ثم تولى مكانه محمد العربي الطريس كنائب عن بركاش إلى أن توفي بركاش عام 1303هـ ثم بقي الطريس إلى عام 1326هـ/1908م وقبل أن يتوفى محمد العربي الطريس عرفت دار النيابة بطنجة جمعية للقيام بالمهمة مكونة من : الرئيس محمد العربي الطريس. وعضوية عبد السلام أحرضان الطنجي، عبد الله بن سعيد السلاوي وبناصر غنام الرباطي، وعبد الحفيظ برادة، ومحمد بن العباس القباج. ثم عدلين هما : عبد القادر الدكالي، والطيب بن كيران المراكشي إلا أن الجماعة لم تتفق مع =

بشأن تعديل ما هو قائم مما يتعلق بموضوع الحماية، وكانت الرسائل التي وجهت للجميع تحمل وقائع حقيقية ظاهر أن مسؤوليتها ترجع إلى بعض القناصل ومفوضيهم وما حولهم من سماسرة وتراجمة، وتعددت المراسلات سواء من السلطان إلى دار النيابة أو من النائب إلى القناصل، ومنهم إلى دولهم، وتبين بوضوح أن الذي كان متورطا أكثر إنما هو القنصل الفرنسي الذي كان على طرفي نقيض مع الأنجليزي هاي، الذي كان أول موافق على رغبة السلطان في التخفيف والتغيير في موضوع الحماية، لأن ذلك لا يمس مصالح بلاده، وذلك ما سيحقق أهداف هاي الذي ظن أنه إذا ما تحقق للسلطان ما أراد من الحيلولة دون متاعب الحماية، فإنه لا محالة سيهتم بموضوع الإصلاح الذي لم يكن يقصد منه غير ما يعود بالنفع على المعاملات التجارية بين المغرب وبريطانيا على المدى البعيد، ومنه طبعا تنفيذ بعض المشاريع بواسطة الأنجليزيين والأموال الأنجليزية، وتلك تجربة أثمرت لفرنسا في تونس، ولذلك بادر هاي بالموافقة على كل اقتراحات السلطان بشرط بسيط هو : عدم الإعتداء على الذين كانوا يتمتعون بالحماية إذا ما جردوا منها، وضمان ذلك من السلطان نفسه، فرد هذا الأخير كذلك فورابالقبول الذي حمله عبد الكريم بريشة التطواني، والذي بين فيه كيفية ضمان استقرارهم وعدم المساس بهم، وذلك باستعمال كل منهم فيما يحسنه من طرف السلطان، حتى الذين هم في مجال الفلاحة ينضمون إلى فلاحته، كما أمر باركاش إن هو توصل لحل مع القناصل أن

= الطريس فتفرقت عام 1320هـ/1909م، ثم عين عبد السلام التازي في آخر جمادى الأولى عام 1322هـ/1904م وعين خليفة له عبد الله بن سعيد لكنه لم يعمل بها سوى فترة وجيزة، وكان من مهمة دار النيابة تسجيل المحميين من المغاربة من أية جهة أو قبيلة والدولة التي يرجعون إليها في حمايتهم، ومن لم يسجل لا يقبل منه ادعاء ولا ممن يزعم ذلك من الأجناس. وقبل موت احماد بن موسى عرف ميدان المحميين نفس الخطة التي كان عليها المولى الحسن بل أشد، وحتى إذا ما توفي أحماد بن موسى 1318هـ/ 1900م تبدلت الأحوال وتغير النهج إلى أسوأ.

ووقتها بدأ التدحرج نحو الهاوية حين أسندت مهمة دار النيابة إلى محمد "كاباص" المعروف بالجباص وهو الأسباني الأصل التلمساني الموطن المغربي النشأة، والذي عمل بلا تحفظ لصالح الاستعمار الفرنسي، حيث أصبح في تنافس مع الإسلامي عبد الكريم بن أسليمان، والعباس الفاسي من يخلص للفرنسيين أكثر، حتى يتقرب أكثر، فكان الفوز للجباص الذي بلغ القمة في الخيانة وخدمة الاستعمار الفرنسي حين أسند له الوقوف على رسم الحدود بين المغرب والجزائر 1902-1903والتي أصبحت الجزائر وقتها وحسب زعم الفرنسيين أرض فرنسية وتمثل قطعة من التراب الفرنسي ولذلك سنرى الجباص يصبح إثر توقيع الحماية هو الصدر الأول في مقدمة الوزراء إلى عام 1918 حيث يتولى مكانه زميله في الصنعة محمد المقربي التلمساني الذي تفوق عليهم في الوفاء للفرنسيين والتعلق بهم.

يقوم بحصر وتسجيل أسماء المحميين الذين ستنزع منهم الحماية في سجل، وإن أمكن حتى اليهود، وذلك حتى لا يقع خلط ولا تحصل إدعاآت، مما يستدل به على أن السلطان كان يحسب أن الموضوع سهل وأنه إذا ما راجع المسؤولون عنه أنفسهم وأدركوا أخطاءهم سرعان ما يصلون مع دار النيابة إلى حل سليم، ناهيك وأن قنصل الأنجليز ومعه قوة أكثر، وربما يمثل نصف الأصوات لأنه كان يمثل دولا مختلفة ومتعددة بالنيابة، وهو الذي سارع إلى القبول بالشرط المشار إليه.

كان لقنصل الأنجليز حق النيابة على كثير من الدول، مثل النمسا والدانمارك، والأراضي المنخفضة، ومثله قنصل البلجيك الذي كان له به ارتباط قوي، والذي كان ينوب هو الآخر على السويد والنرويج، وإذا ما سارت ألمانيا في نفس الإتجاه قبل مؤتمر برلين، فإن الذين بقوا في صف المعارضة إلى جانب فرنسا هما فقط ممثلا إيطاليا وإسبانيا، وهؤلاء، هم الذين أظهروا التمسك بإبقاء ما كان على ما كان، بل دافع قنصل فرنسا على الحماية بمختلف مآسيها، دفاعا قويا، لكن تباين المواقف بين القناصل وتزعم هاي، ثم وضعية طنجة الجديدة التي كان أكثرهم يريد الحفاظ عليها، كل ذلك أظهر أن الموضوع في طريقه إلى التدويل، وهو ما لم يكن المغرب يحبذه، لكن السلطان أخيرا وبقدر ما عاش من مرارة الحماية فضل أن يتجه في تدويله بدلا مما هو عليه أمام تصرفات قنصل فرنسا "أورديجا" الذي تجاوز كل حد.

كانت المراسلات بين دار النيابة ومجموعة القناصل في الموضوع قد بدأت بنوع من الإنفعال في شهر مارس من سنة 1877م/1294 وحصلت اجتماعات متوالية بين القناصل من حين لآخر إلى شهر أوت، كانت تدور حول النقاط المقترحة مراجعتها من السلطان وهي :

1) حرية القناصل في اختيار الموظفين باستثناء موظفي الحكومة المغربية، وقد كان بعض هؤلاء لا يجمعون بين الوظيفة والعمل في إحدى القنصليات ولما حصل تذمر من الدولة فضلوا جانب الحماية مادام لم يحرمهم من الجنسية المغربية.

2) على القناصل أن يخطروا الحكومة المغربية كتابيا بأسماء الذين يقع عليهم الإختيار، لأن عدم ذلك كان يفسح المجال لمفوضي القناصل والشركات وغيرهم، كي يدعوا الحماية لكل من حصل منه ما يدفع إلى حسابه وعقابه.

3) الذين تمنح لهم الحماية مما ذكر وإن كانت تشمل الزوجة والأولاد فإنها لا تكون وراثية.

4) تحديد عدد المحميين بناء على المعاهدات وأن المحميين لاحق لهم في إعطائها لغيرهم.

5) المغربي الذي يتجنس بأية جنسية خارج المغرب ثم يعود إليه تجرى عليه القوانين المغربية بمجرد عودته إليه.

6) على ممثلي الشركات التجارية مع السماسرة أن يدفعوا الضرائب التجارية والفلاحية هم وسماسرتهم، وكانت هذه النقطة التي تشدد فيها قنصل فرنسا، مما أطال مدة المداولات حول الاقتراحات، كما كانت من عوامل جر كل من قنصل إيطاليا وإسبانيا لصف فرنسا، فتمددت الدراسات إلى سنة 1878م بدعوى طلب موافقة حكومات القناصل، ولم يكن غير القنصل الفرنسي الذي كان ضد موقف المغرب، لكن موضوعا ملحا اضطر إلى استعجال هو موضوع المتجنسين من المغاربة بجوازات غير مغربية، والذين بلغهم ما اقترح في شأنهم، ثم هم أخذوا يتخوفون بل يتذمرون وقد كانوا كثرة من اليهود، وبعض مسلمة اليهود. ومن أجل ذلك عاد القناصل إلى الاجتماع يوم 21-2-1879م حيث أخذ الموقف دورا ساخنا من المناقشات لمدة خمسة أشهر كان للمغرب فيها القول الفصل، مادام قد وضع المتجنسين أمام مسؤولية اختياراتهم، مما دفع لاقتناع الجميع ما عدا ممثل فرنسا(190) الذي لم يبق معه غير ممثل إيطاليا(191) لأن فرنسا كانت تحسب تدويل مثل تلك المشاكل يزعزع مركزها ويعرض برنامجها التوسعي للتوقف والجمود، خصوصا وأن ألمانيا المنهزمة في حرب 1870م كان يهمها عدم اهتمام فرنسا بالألزاس واللورين، ومن أجل ذلك كانت تدفع بها للتوسع نحو شمال إفريقيا، لكن الجميع كانوا قد وافقوا على إيقاف تجنيس المغاربة، وإن لم يفعلوا سيعرضوهم لنزع الجنسية المغربية،

---

(190) وقد كتب باركاش إلى السلطان بذلك، راجع الاتحاف 2/411-12-14-15 ووثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية ومديرية الوثائق ملف دار النيابة.

(191) نفس المصدر السابق 416.

وبعد ذلك ما فائدتهم إن لم يتعرضوا للاضطهاد من الشعب، بل إن المجنسين سارعوا كل إلى الدولة التي كانت خلفه حتى تساعده على الخروج من المأزق مما دفع إلى إتفاق القناصل، كما اتفقوا على وجوب دفع الأجانب للضريبة الفلاحية، وما بقي إلا أن توافق الحكومات، ولذلك اقترح أن يكون الاجتماع مادام قد أصبح دوليا في بلد آخر خارج المغرب، وإذا كانت إسبانيا وهي التي افتعلت الضجة حول اليهودي المقتول بالمغرب ثم هي وقفت موقفا معاديا وأنها دخلت مع المغرب في نزاع حول «سنتاكروز» وأنها ستدخل في مداولة من أجلها مع المغرب،فإن الفرصة أصبحت مواتية كي تقترح عقد المؤتمر بعاصمتها مدريد، وفي ذلك أيضا كسبا لها أمام فرنسا التي أصبحت تمثل خطرا عليها بما حققته في الناحية الشرقية من المغرب.

وتقرر عقد المؤتمر حسب رغبة الأسبان الذين رحب ملكهم بذلك بتاريخ 15 جمادى الثانية عامة 1297هـ/عام1880(192) وقرر أن يمثل المغرب فيه الحاج محمد باركاش، وعبد الكريم بريشة التطواني الذي حمل رسالة الاعتماد من السلطان(193) المؤرخة بـ 22 جمادى الأولى من نفس السنة، وإذاما دام المؤتمرون في اجتماعاتهم مدة ثمانية عشر يوما، فإنه انتهى يوم 24 رجب 1297هـ/3 يوليوز 1880م وذلك بعدما اتفق على ثمانية عشر فصلا قيل عنها معاهدة مدريد نذكر منها ما يلي :

1) مشكل الحماية، فعلا تقرر عدم منحها للمغاربة بصورة غير قانونية ولا رسمية.

---

(192) راجع الاتحاف 2/408.

(193) المصدرالسابق 414 وفي هذه المرحلة استطاع الحاج محمد باركاش أن يحصل على نسخة عجيبة من حالته المدنية ربما يكون قد أمر بإنجازها له ملك الاسبان اشتملت على تاريخ أسرته أصولا وفروعا حتى الاصهار الذين ترجع أصولهم إلى رومانيا فيما ذكر لأنني رأيتها رؤية خاطفة وهي مترجمة إلى العربية إلى جانب أصلها المذهب المكتوب بالأسبانية في ملكية حفيده الحاج مصطفى باركاش.

أما عبد الكريم بن محمد بريشة فهو من مواليد تطوان 1246هـ/1830م وبها توفي يوم 10 محرم 1315هـ/17ـ7ـ1897م ثم احترف التجارة بمنشيستر بعد رحلة لمصر ثم أمينا وسفيرا في عدة دول فرنسا وبريطانيا واسبانيا حيث حصلت له حادثه مع جنرال اسباني قيل إنه مختل العقل تقدم إلى بريشه وهو في الموكب كسفير بمدريد ثم صفعه على قفاه الأمر الذي أحدث مشكلا سياسيا بين الدولتين تمسك فيه أحمد بن موسى بوجوب اعتذار ملك الأسبان إلى ملك المغرب بطريقة رسمية تحفظ للمغرب كرامته، راجع وثائق الحادث ضمن وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية أو مديرية الوثائق الملكية.

2) الاعتراف بملكية الأجانب للأراضي في المغرب شريطة الإذن من الحكومة المغربية ف 11.

3) المتجنسون : حددت إقامة المتجنسين من المغاربة الذين يعودون إلى المغرب بجوازات أجنبية بنفس المدة التي قضوها في البلاد التي اعتنقوا جنسيتها ثم يختارون، ف15.

4) الضرائب وقد تقرر أن يدفعها الأجانب أو السماسرة على الفلاحة، ف 12ـ13.

5) حرية العبادة ... وقد كانت كما رأينا في التاريخ منذ عهد على بن يوسف بن تاشفين، ولربما المغرب من بين مختلف بلاد العالم الإسلامي من وقتها الذي عرف هذا النوع من الحرية، ما لم يكن كما أراد له نابليون بونابارت الذي حول الإرساليات إلى جمعيات للتجسس والهدم، وهو ما يختلف فيه لبروتو ستانت عن الكاثوليك، الذين عرفت إفريقيا منهم ما لم تعرفه بلاد أخرى، وأما اليهود ففي مدينة مراكش وحدها كانت عشرون بيعة دور للعبادة عام1862م كما أخبرنا الاسباني "جواكين غاثيل" الذي كان ضابطا في جيش السلطان محمد بن عبد الرحمان "رجالات وامصار" لفرناندو بلديراما" مرتينيت ص : 122 ط تطوان 1954م، بل يخبرنا نفس المصدر عن مدارس اليهود التي كانت بنفس المدينة، والتي يتولاها"شيخ" يهودي مكلف بشؤونها الداخلية، ومثل ذلك كان في مختلف المدن الرباط، ومكناس، وفاس، حيث كانت تعرف "حارة اليهود"بجي "الملاح" بل يخبرنا نفس الكاتب أن يهوديا واحدا فقط كان يروج من التجارة أيام حكم الجلالي بن حم لمدينة مراكش عام 1863م ما دفع من أجلها كضرائب سنوية قدرها 14000 مثقال عن مواد الاستهلاك، وعن التبغ مبلغ 82000 مثقال وعن بيع البن 5000 مثقال، مما يستدل به على مدى الحرية التي كان يتمتع بها اليهود، ولئن كان موقف فرنسا عرف التشدد أكثر مما يجب حتى أنها استطاعت أن تقحم التمسك ببعض ما ورد في معاهدتها مع المغرب 1863م في بعض فصول معاهدة مدريد "الفصلين6و10"(194) وذلك فيما يرجع للسماسرة وأسر المحميين ومن تحت رعايتهم، فإن فرنسا أكثر من غيرها كانت تعمل لتكون في المغرب أقوى من غيرها.

---

(194) الإتحاف 2/425ـ426.

ومهما يكن من هذه الضجة الكبيرة التي استمرت أكثر من سنتين وعرفت الكثير من اللجج، والتي قيل إن المغرب خرج منها بمكسب، فإنه في الواقع لم يخرج بغير تقرير ما كان قبل بمقتضى المعاهدات لو لم يركب بعض القناصل رؤسهم، ويحاولوا تحقيق المكاسب بالطرق التي أقل ما يقال عنها لصوصية حقيرة، بل المغرب بحكم اعتراف سلطانه بتدويل مثل تلك المشاكل، أصبح مقيدا ولا قدرة له مما على حل مثلها، ما يعتبر من شؤنه الداخلية دون إذن من تلك الدول الثلاثة عشر، التي منها من لم يتنازل عن امتيازاته إلى أن استقل المغرب بعد فترة الحماية التي تحولت إلى استعمار مدة 44 سنة، بل إن اتفاقية مدريد وإن كانت قد نصت على عدم التدخل في شؤون المغرب الذي كان عرضة للتمزيق باسم الحماية، فقد أصبحت الحماية وقد تحددت باثني عشر محمي لكل دولة، وكان لا حصر لها ما دامت معاهدة مدريد قد بقيت جامدة، واستمر ما كان على ما كان، لأن حكومة المغرب رغم كل ما بذله السلطان حول إصلاح الجيش بواسطة الضباط الأنجليز والفرنسيين والإيطاليين والبلجيك والألمان، بل وبالأسلحة المتنوعة، التي كانت في حاجة إلى ذخيرة متنوعة كذلك، بقي عاجزا عن السهر على تنفيذ ولو ما ورد في تلك المعاهدة المشوهة النسج والتركيب والتي اختلطت فيها لهجة اليهودي المغربي بلهجة المسيحي اللبناني، والتي كانت وسيلة المستشرقين لتحركاتهم في بلاد الإسلام(195) حتى تفسيرها لم يعد سهلا ولا قدرة لأحد عليه، سواء من الذين وضعوا عليها أختامهم وأسماءهم، أو من الذين تظلموا وحسبوا أنها من وسائل رفع الظلم.

كان ممثل المغرب في مؤتمر مدريد هو الحاج محمد باركاش الذي كان بحق في المستوى قبل وبعد ومن خلال الوثائق، لكن الواقع الذي أفقد الإتفاقية فعاليتها، أو بالأحرى فعالية بعض نصوصها، لم يكن ما اتصف به المغرب مما أشرنا إليه من ضعف وظلم وفساد وتنوع الضباط الأجانب في جيشه فحسب، بل كان إلى جانب ذلك التخطيط الأوربي الذي كان بعد لم يتفق عليه، والذي وضع لتقسيم الأقطار المتخلفة إلى مستعمرات خرجت منها بريطانيا قبل ذلك بنصيب الأسد شرقا وغربا، وكان دهاقنتها

(195) راجع الإتحاف 2/423.428، تاريخ العلاقات 257.

يديرون الحبال وقتها على عنق مصر وزنجبار وبلاد أخرى، كما كانت فرنسا تقاتل في الجزائر ومدغشقر والفتنام، ثم هي اتجهت نحو تونس التي كانت قد رصدت لاحتلالها غربا مبلغا ماليا قدر بـ 5.695.272 فرنك قامت حوله ضجة في البرلمان، ثم قيل إنه لحفظ الحدود التونسية الجزائرية، ورغم استجواب كلمنصو للوزير جولفيري وقتها بقوله : لقد أخفيت حقيقة الأمر عن البرلمان، وتجاوزت غايتك فلم تقف في حملتك عند حد جبال الخمير، بل تماديت إلى تونس دون أن تقوم بواجبك في طلب موافقة البرلمان .

معاهدة القصر السعيد
(باردو) 12 مايو سنة 1881

إن دولة الجمهورية الفرنسية ودولة سمو باي تونس لما كان من غرضهما ان يمنعا إلي الأبد حدوث قلاقل كالتي حصلت أخيرا بحدود الدولتين وسواحل المملكة التونسية وان يستحكما علائق ودهما القديم وروابط حسن الجوار قد اتفقتا على عقد معاهدة من شأنها تحقيق مصالح كلا الجانبين الساميين المتعاقدين. وعليه فإن فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية قد سمى نائبا مفوضا من طرفه جناب الجنرال "بريال" فاتفق جنابه مع سمو الباي المعظم على الشروط الآتية :

الفصل الأول ـ ان معاهدة الصلح والمودة والتجارة وجميع المعاهدات الأخرى الموجودة الآن بين الجمهورية الفرنسية وسمو باي تونس قد وقع تأكيدها وتجديدها.

الفصل الثاني ـ لأجل تسهيل القيام بالوسائل التي يتحتم على دولة الجمهورية الفرنسية اتخاذها للوصول للغرض الذي يقصده الجانبان العاليان المتعاقدان، فقد رضى سمو باي تونس بأن تحتل الجنود الفرنسية المراكز التي تراها صالحة لتحقيق النظام والأمن بالحدود والسواحل، وهذا الاحتلال يزول عندما تتفق السلطتان الحربيتان الفرنسية والتونسية وتعترفان باتحادبأن الإدارة المحلية أصبحت مقتدرة على المحافظة على دوام الراحة والأمن العام.

الفصل الثالث ـ تتعهد دولة الجمهورية الفرنسية بتخويل مساعدتها المستمرة لسمو الباي وحمايته من كل خطر يمكن أن يتهدد ذاته أو عائلته أو يعبث براحة مملكته.

الفصل الرابع ـ تتعهد دولة الجمهورية إجراء العمل بجميع المعاهدات الموجودة بين الدولة التونسية والدول الأوربية على اختلافها.

الفصل الخامس ـ ينوب عن الدولة الفرنسية لدى الباي وزير مقيم وظيفته السهر على تنفيذ أحكام هذه المعاهدة ويكون هو الواسطة في علائق الدولة الفرنسية مع الإدارات التونسية في كل النوازل التي تهم الجانبين معا.

الفصل السادس النواب السياسيون والقنصليون لفرنسا بالبلاد الأجنبية مكلفون بحماية المصالح التونسية ورعايا العمالة وفي مقابلة ذلك يلتزم سمو الباي بأن لا يجري أي عقد ذي صبغة عمومية دون اعلام الدولة بذلك والحصول على موافقتها.

الفصل السابع ـ تستبقى الدولة الجمهورية الفرنسية ودولة سمو الباي لنفسهما حق الاتفاق على وضع الأساس لترتيب مالي بالعمالة من شأنه الوفاء بخدمة الدين العمومي والتكفل نحو دائني العمالة.

الفصل الثامن ـ تضرب غرامة حربية على القبائل العاصية بالحدود والسواحل.

الفصل التاسع لأجل ممتلكات الجمهورية الفرنسية بالعمالة الجزائرية، فإن دولة سمو الباي تتعهد بأن تمنع كليا إدخال السلاح والذخائر الحربية على طريق جزيرة "جربة" ومرسى و"قابس" والمراسي الأخرى بالمملكة التونسية.

الفصل العاشر ـ سيقع عرض هذه المعاهدة على الدولة الجمهورية الفرنسية ويسلم نصها بعد ذلك لسمو باي تونس في أقرب وقت ممكن.

الامضاء محمد الصادق باي

الامضاء الجنرال بريار

اتفاقية المرسى
(8 يونيو 1883)

لما كانت عناية حضرة الباي المعظم متجهة إلى تحسين الأحوال الداخلية في القطر التونسي وفقا لأحكام المعاهدة المنبرمة في الثاني عشر من شهر ماي سنة م،1881م وكانت حكومة الجمهورية راغبة خالص الرغبة في تحقيق مراد حضرته توثيقا لعرى الوداد الميمون الكائن بين القطرين العامرين اتفق الفريقان على عقد اتفاق مخصوص لهذا الشأن واعتمد رئيس الجمهورية في ذلك على مسيو بيار بولس كامبون وزيره المقيم بتونس الممتاز بنيشان اللجيون دونور من صنف أوفيسيي، ونيشان العهد ونيشان الافتخار من الصنف الأكبر إلخ. فقدم الوزير المومى إليه المحررات المؤذنة اعتماده في هذه الخطة ولما وجدت في تمام احكام الانتظار أبرام مع حضرة الباي المعظم الشروط المبينة في الفصول الآتية :

(الفصل الأول) ـ لما كان مراد حضرة الباي المعظم أن يسهل للحكومة الفرنساوية اتمام حمايتها تكفل بإجراء الإصلاحات الإدارية والعدلية والمالية التي ترى الحكومة المشار إليها فائدة في اجرائها.

(الفصل الثاني) ـ الحكومة الفرنساوية تضمن قرضا يعقده حضرة الباي لتحويل أو لدفع الدين الموحد البالغ 125 مليون فرنك، والدين السائر الذي لا يمكن أن يتجاوز17.550.000، فرنك ولكنها هي التي تختار الزمن والشروط الموافقة، لذلك وقد تعهد حضرة الباي المعظم أن لا يعقد قرضا في الاستقبال لحساب الايالة التونسية دون الحكومة الفرنساوية.

(الفصل الثالث) ـ يأخذ حضرة الباي المعظم مداخيل الإيالة ـ أولا ـ المبالغ اللازمة للقيام بمقتضيات القرض الذي تضمنه فرنسا ـ ثانيا ـ راتبه السنوي الملكي وقدره مليونان من الريالات التونسية أي 1.200.000فرنك، ومازاد على ذلك يعين لمصاريف إدارة الإيالة ودفع مصاريف الحماية.

(الفصل الرابع) ـ هذا الاتفاق مكمل ومثبت للمعاهدة المنبرمة في 12 ماي 1881م فيما يحتاج منها إلى التثبيت والتكميل ولا تتغير به التراتيب التي سبق وضعها فيما يتعلق بتقرير الغرامة الحربية.

(الفصل الخامس) ـ يعرض هذا العقد على الحكومة الفرنساوية لتوقيعه، وتعاد حجة التوقيع إلى حضرة الباي المعظم بما أمكن من السرعة وإيذانا بصحة ما تقدم حرر هذا الرسم وختمه الموقعان بختمهما.

وكتب في المرسى في 8 يونيه سنة 1883

التوقيع ـ علي باي
التوقيع ـ بولس كامبون.

وهكذا احتلت تونس باسم معاهدة باردوالتي وقعت يوم12ـ5ـ1881م، وقد قيل عنها أنها من أجل استقرار الفرنسيين وأمنهم في الجزائر، ثم اتبعت بمعاهدة المرسى التي ستوقع يوم 8ـ6ـ1883م، وما كادت الأخبار تصل إلى المغرب حتى بادر السلطان فأرسل إلى القنصل الأنجليزي هاي الذي توجه إليه وقد كان بمراكش، حيث عقد معه اجتماعا خاصا يوم 13ـ4ـ1882م يقول هاي. ولم يكن الدافع وراء هذه الرغبة ما كان يجري مؤخرا من مشاكل على حدود المغرب مع الجزائر فحسب، بل ما جرى من احتلال فرنسا لتونس في ماي 1881م، والذي نظر إليه السلطان باعتباره فالا سيئا، وقد أبلغ هاي السلطان بأنه قد صدرت التعليمات إلى السفيرالبريطاني في باريز لطلب إيضاحات حول العلاقات الفرنسية المغربية، وكان الرد الذي تلقاه يعبر عن الرغبة الفرنسية في الحفاظ على العلاقات الودية مع المغرب، واحترام استقلاله ووحدة أراضيه، وقد استراح المولى الحسن بهذه التأكيدات، وإن كان قد أبلغ هاي بأنه يعترف بأنه سوف يكون عاجزا تماماعن مقاومة الجيش الفرنسي في الجزائر إذا ما هاجم المغرب، وأن موانيه سوف تكون تحت

رحمة أية قوة بحرية تهاجمها(196)" على أن تصرف الوزير الفرنسي المفوض بطنجة أورديجا كان عكس ما حمله القنصل الأنجليزي هاي إلى السلطان من أخبار استراح لها، ذلك أن أورديجا لم يترك وسيلة من وسائل الخوض في شؤون المغرب، وإحداث الفتن، إلا بحث عنها، وسينتهي به الأمر إلى التصريح للقنصل الأنجليزي ضد السلطان بعد كما سنرى.

تظاهرت فرنسا أنها غير مهتمة بالمغرب أمام الأنجليز، أو هذا ما قيل لهم حتى لا تنضم عداوتهم إلى عداوة الألمان والإيطاليين الذين حصل معهم ما حصل من أجل أحلامهم التي تحطمت في تونس، كما وأن ألمانيا كان يعنيها كذلك أن تضارب بين الفرنسيين والأسبان، من أجل شمال المغرب، في الوقت الذي كانوا فيه منشغلين بقضية تونس التي كانوا شبه استأذنوا من أجلها ألمانيا في مؤتمر برلين عام 1878م ولئن كان بسمارك يود لفرنسا أن تنشغل بما تريد بعيدا عن الألزاس واللورين، فإن مايشبه ذلك كان بالنسبة لابريطانيا التي كانت تفتل حبال تقييد مصر. كما كانت متحمسة لصالح مؤتمر مدريد حتى تحقق للسلطان وبه ما تَريد من دفع نحو سياسة الإصلاح التي سنرى حقيقتها يوم يكشف عنها القنصل الذي يخلف هاي، وهو "تشارلز ايوان سميت" الذي لم تكن له من المميزات الأنجليزية ما تميز بها هاي.

كل ذلك أبان وكأن فرنسا خرجت بنتيجة من مؤتمر مدريد، ناهيك وأن ألمانيا والنمسا وإيطاليا، عادت فأظهرت عدم الابتسامة لنهج فرنسا في شمال افريقيا، في الوقت الذي كانت بريطانيا في طريقها إلى التفاهم مع فرنسا، بعدما سحبت الأولى سفيرها من تونس، وهو الذي كان سببا في تعكير الجو أكثر هناك، ونفس الخطة كان ينهجها ممثل فرنسا بطنجة ضد القنصل الأنجليزي بها. كانت فرنسا قبل قد خطت خطوات في الجزائر التي لم تعد تجد فيها من يضايقها كثيرا، إذ أنشأت السكك

(196) يقول صاحب التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ص : 234ط1905 ان الذي فتح الباب لفرنسا نحو تونس هو سالسبوري في مؤتمربرلين الذي انعقد في شهر جويي 1878م والذي كان من أجل بلغاريا ورومانيا والذي وزعت بعده الغنائم، حيث أخذت بريطانيا قبرص، وفرنسا تونس، وإيطاليا كانت في الطريق لطرابلس، وكل ذلك على حساب الدولة العثمانية التي عرفت التمزيق علي أيدي الأوربيين خصومها التقليديون، ثم راجع تاريخ الدولة العلية المذكور قبل ص 389ـ405ط1912، وهذه تونس للمرحوم الحبيب ثامر ط القاهرة 1948.

الحديدية، وشقت بعض الطرق في اتجاه تونس، ثم في اتجاه المغرب نحو وجدة. وكذلك التلغراف، وبعض المشاريع الزراعية، وفي غفلة من المغرب أخذت توجه البعثات للاستكشاف منذ 1877م نحو غرب إفريقيا، حيث توجه "أوسكار لينز" بقافلته إلى تمبكتو التي حل بها ثم بالنيجر 1880م أي أثناء عقد مؤتمر مدريد، كما أرسلت الضابط "فلا تزر" يقود قافلة المخططين بقواته وجنوده من أجل وضع تصميم للطريق الذي يصل بين شمال إفريقيا وغربها، فكان ما انتهوا إليه أن لابد من مرورها بأرض المغرب توات، وداخل حدوده التي لم تكن معاهدة ما بعد موقعة إيسلي 16 غشت 1845 قد حددتها بصفة عامة وإنما اقتصرت على مائة وخمسين كيلومترا إلى ثنية الساسي، وما بعدها بقي بدون تحديد، وطيلة الأربعين عاما لم تنقطع مطالبة المغرب بتحديدها، ولولا ظهور قوات المجاهدين من اتباع الشيخ محمد العربي الهاشمي العلوي الدرقاوي صاحب قصر جاوز بمدغرة تافيلالت ورفيقه العالم الجليل أحمد بن لحسن السبعي الادريسي الحسني صاحب تالسينت، ومولاي مصطفى بن الحنفي صاحب قصر الجرامنة، وكذا آل سيدي الشيخ بقيادة بوعمامة، لحصل توسع من فرنسا أكثر مما فعلت في الجنوب الغربي على حساب المغرب، لكن الذي وضع حدا لذلك هو قضاء رجال الشيخ المذكور أولا بقيادة علي أوحدا العطاوي، على فلاتزر وجماعته الذين أبيدوا دون استثناء سنة 1309 هـ/1891م إذ علي وحدا هذا هو الذي نظم الهجوم علي الفرنسيين في مترفة وتيميمون، تقول المصادر(197)، الأمر الذي دعى الحكومة الفرنسية إلى أن توجه قنصلها بطنجة أورديجا إلى مدينة مراكش ليطلب من السلطان حق الإذن في تعقب المجاهدين، حتي تتمكن فرنسا من تحقيق مشروع السكة الحديدية، وفعلا أعطاهم السلطان ذلك الحق، بل كتب إلى قبائل الناحية الشرقية حتى يستقبلوهم باللطف لكنه في نفس الوقت رفض مرور الطريق بأرض توات، الأمر الذي أكد مغربيتها مادم الفرنسيون لم يستطيعوا عمل شيء

(197) أكوزد دائرة المعارف الإسلامية جـ 9/203-204 وسنتعرف أكثر على علي أوحدا وإخوته الثلاثة لحسن ومحمد ويوسف حين الكلام على محمد العربي الهاشمي، وتاريخ المقاومة في الأطلس المتوسط، كما وأن علي أحدا هذا هو الذي سيسند له حكم آيت عطا بتافيلالت مقابل امتثاله أوامر السلطان المولى يوسف المزورة عليه من طرف الجباص واليوطي بعدم مقاومة الفرنسيين 1914 بعد توقيع الحماية كما سنرى.

هناك، بالإضافة إلى تحركات جديدة واهتمام أكثر بالمنطقة، في هذه المرحلة نجد الكثير من الظهائر توجه لصالح كثير من العائلات وسفارات السلطان كذلك تتكرر، سواء بواسطة بعض قواد الجيش أو بعض الأشراف العلماء من آل الرشيد يين بفجيج(198) كما كان المولى الحسن يلح في القضاء على ما عرف بالمغرب من سوء تصرف ممثلي الدول ذات الامتياز، فكان حسب المراسلات التي كثرت وقتها مع دار النيابة ثم مع القناصل، يتطلع لذلك بروح ملؤها الطموح والآمال العراض، وكأنه بعدما ينتزع من القناصل ما انتزع سيعض عليه بالنواجد، وسيهيئ القوة التي تسهر على الحق المسترجع وتمكن له، لكن ما آلت إليه البلاد من أحوال سيئة شارك في صنعها الجميع حطمت كل ما سبق، وأقبرت آمال السلطان ثم صيرته غير قادر على السهر من أجل تحقيق المقررات، وبالتالي عرضت كل محاولاته الإصلاحية لعكس ما كان يهدف ويتمنى، ذلك لأن شغف المسؤولين بجمع الثروة وتكديسها كان أرجح من الجهود التي بذلها السلطان، بل إن جهوده لم تكن جماعية ولا هي محاطة بعناية ورعاية الجميع، بعد أن يكونوا قد اقتنعوا بها، ولست هنا أقصد بالجميع الشعب، لأنه بعد وفي بلاد كثيرة وقتها لم يشرك في أي شيء، بل أقصد النخبة من الوزراء والعلماء والولاة، بل تلك الجهود كانت فردية وغير ناضجة مصدرها السلطان فقط، وحسب اجتهاده الذي كان يصيب ويخطئ، وكثيرا ما كانت مسايرة فقط، لأنها صدرت عن سلفه، أو لأنها من نصائح بعض القناصل وفي المقدمة هاي قنصل الأنجليز.

فالجيش وتنظيمه كما سبق بواسطة جنسيات مختلفة، ماذا يعني؟ وشراء الأسلحة من لندن وباريز، وبروكسل وبرلين، وليبج، وتوجيه البعثات إلى هذه العواصم، ثم جبل طارق أكثر، وشراء السفن من ليفربول بإبريطانيا، وإصلاحها في جبل طارق، ومعمل الأسلحة من إيطاليا، وآلة صك النقود من فرنسا إلخ كل ذلك كان في زعم السلطان من

---

(198) أشرنا قبل إلى أن الدور الذي قام به آل الرشيدي كان منذ عهد قيام الدولة العلوية ويتوفر تاريخ فجيج على الكثير من آثارهم في مختلف العصور، فهم سدنة العلم ورواده بعد آل عبد الجبار في المنطقة منذ قرون، ويعرفون بأولاد محمد أو الرشيديين كما سبق أن بينا قبل أصولهم.

أجل إبعاد التنافس عن المغرب، والواقع أنه كان أكثر العوامل التي قربت التفاهم بين دول الاستعمار للاتفاق على المغرب وغير المغرب.

ماذا يعني كل ذلك وقد بدأت العمليات منذ ما قبل تولية المولى محمد بن عبد الرحمان إن لم تكن تعني " التنافس من أجل الحصول على الثقة أكثر، وتحقيق المصلحة أكثر، والسعي بكل الطرق والوسائل إلى الاحتكار أكثر، وبالتالي هدم وعرقلة عمل وجهود الآخرين من أجل الظهور أكثر، فتكون النتيجة المحافظة على المظهر وعدم تحقيق أية فائدة في المخبر والجوهر.الأمر الذي فسح المجال لفرنسا ثم دفع بها إلى العمل من أجل السيطرة أكثر.

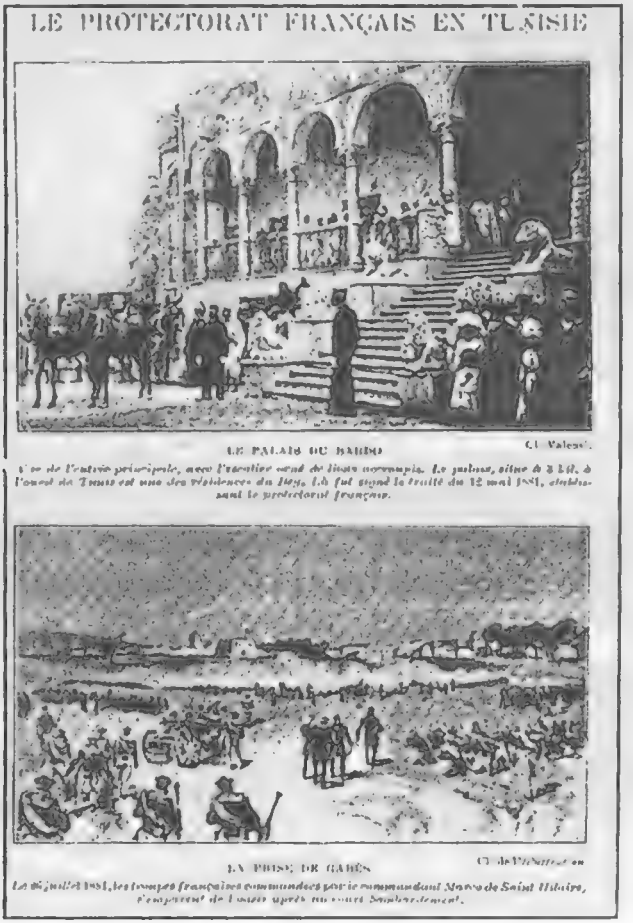

مدينة الوطنية الأولى إنها مدينة سوسة بتونس قبل فرض الحماية

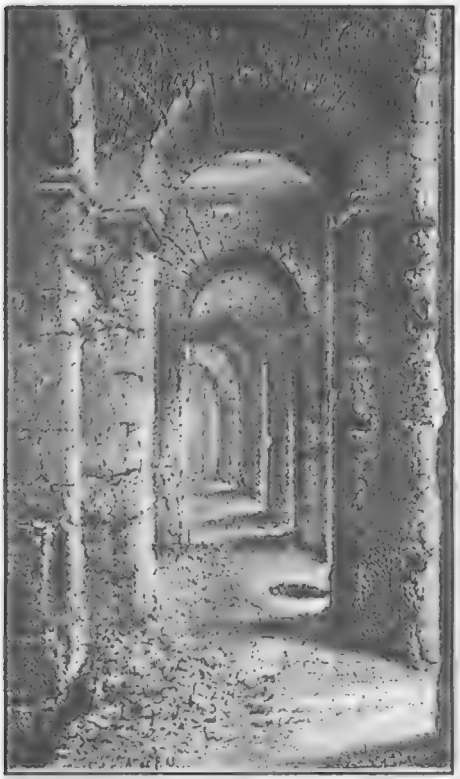

الجم بتونس وهو من آثار الرومان

احتلال مدينة سفاقن

قصر باردو من الخلف

قصر باردو بتونس وهو الذي وقعت فيه معاهدة الحماية التي فرضت على الشعب التونسي1881

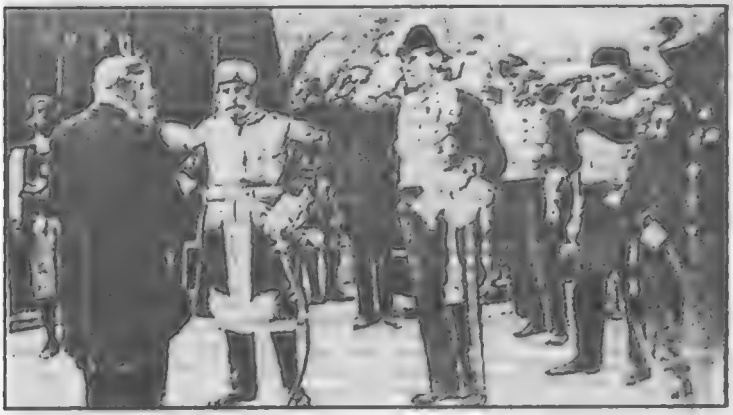

الباي التونسي «محمد الحبيب» مع المقيم العام الفرنسي «مانسرون»(1881)

كانوباس ديلكاستيو الوزير الأول الإسباني الذي تولى رئاسة مؤتمر مدريد حول مشكل الحمايات 1880

الخازن دار

محمد الصادق باي صاحب عهد الامان

الشيخ خير الدين الزعيم
التونسي المصلح

جول فيري هو الذي خصص لاستعمار تونس 5,695,272 ومن أجل ذلك قامت ضجة في البرلمان وما قاله كليمنصو في استجوابه «لقد أخفيت حقيقة الأمر عن البرلمان، وتجاوزت غايتك فلم تقف في حملتك عند حد جبال الخمير، بل تماديت إلى تونس دون أن تقوم بواجبك في طلب موافقة البرلمان»؟؟!

صورة مؤتمر مدريد الأول المنعقد سنة 1880 ويرى فيها نواب الدول المشاركة فيه ومن بينهم النائب المغربي محمد بركاش اثناء عرضه وجهة نظر المغرب في مشكلة حق منح الحماية للرعايا المغاربة.

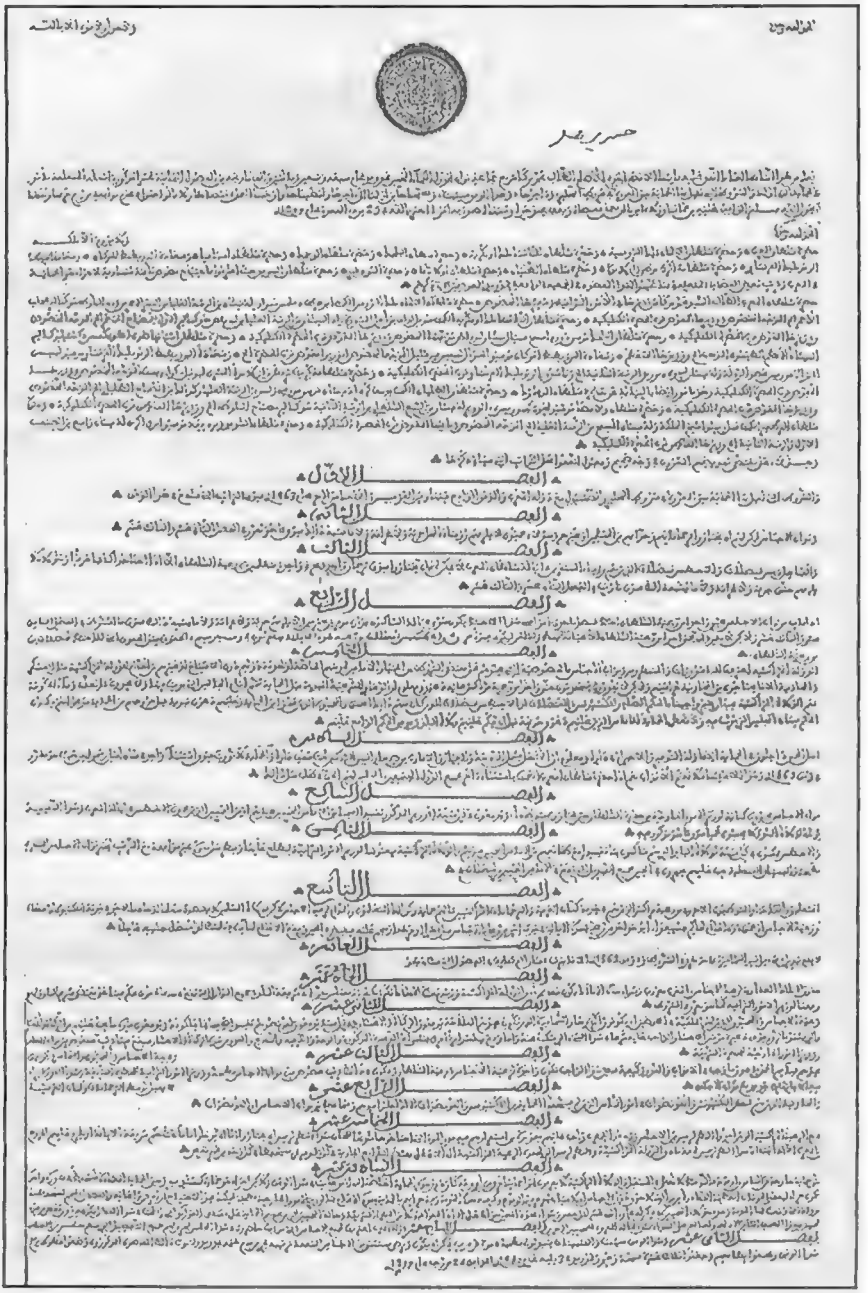

عقد الاتفاق الذي تم في مؤتمر مدريد حول الحمايات عام 1880

الفصل السابع والستون بعد المائة
فرنسا وسياسة التوسع ضد المغرب

لعل التحليل التاريخي في هذا الموضوع صعب على نفس كل من يعرف الغيرة الوطنية والحب الصادق للدين والوطن اللذين كان يتمتع بهما المولى الحسن، لكنه بالنسبة لمجتمعه وإدارته، وما حققه التنافس الدولي ضد المغرب، وبالنسبة للنتيجة التي ظهرت واضحة بل انكشفت عارية بعد موته، وبالتالي فقط اثر موت أحماد بن موسى، لا يمكن للمؤرخ أن يحكم على كل تلك المشاريع بغير أنها تعرضت للخيانة من بعيد ومن قريب، بسبب ما عرفت به الإدارة وحاشية السلطان قبل وبعد من عدم الوفاء والرشوة كما قرر ذلك السفير الأنجليزي هاي، ثم بسبب تنافس الأفراد الأوربيين داخل البلاط، من مختلف الجنسيات كعملاء لدولهم، مما كان له أكبر الأثر في هدم البقية الباقية، لا في ذلك المجال فحسب، بل وما كان للمغرب من اعتبار في نظر الذين كانوا يرهبون الدعوة إلى الجهاد بين أبنائه، حقا لقد عرف المغرب كما أشرنا قبل فترة وجيزة من الازدهار الاقتصادي وقتها، لكنها بالإضافة إلى ما أنعم الله به من محاصيل كانت مصطنعة ولم تعمر إلا قليلا حسب خطة المتنافسين وفي مقدمتهم فرنسا التي كان مخططها محكما، وله نفس طويل من أجل غزو المغرب والمغاربة أرضا وبشرا، والتي استطاعت شراء ذوي النفوس الساقطة بثمن أكثر من غيرها كما سنرى بعد من اجرام عبد الكريم بن سليمان ومحمد الجباص "كاباص" والعباس الفاسي وعبد الله الفاسي والمهدي لمنبهي وآخرين غيرهم.

وهكذا إذا كانت الظروف بين مختلف الدول المتفتحة على الاستعمار وقتها، وهي بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا، قد عرفت نوعا من التأزم بعد حرب السبعين التي ذلت فيها فرنسا ومعاهدة سان ستيفانو، فإن الإنفراج بدأ أثناء وبعد مؤتمر برلين، وعلى حساب دولة آل عثمان وتونس ثم طرابلس والمغرب بعد، رغم الزوبعة المفتعلة بين

"سالسبوري" وزير خارجية بريطانيا، وبين "وليم هنري ودنجتون" وما وراءه من صحافة فرنسية بسبب الاتفاق الذي تم بين بريطانيا، والباب العالي، من أجل قبرص، ولما اتفق سرا على تونس وطرابلس زال الخلاف الذي تحول إلى وفاق على حساب الآخرين، ومع ذلك رأينا ما أدلى به هاي من تصريح للسلطان المولى الحسن حين استشاره خصيصا بعد حادثة تونس، ألم يكن يعلم شيئا مما جرى سرا بين الدولتين؟؟!!.

لكن مهما جرى فإن المغرب سلطانا وحكومة لم يكن لهم علم بما جرى، ولا بما كان ينشر في الجو مطلقا، بل حتى ظروف الدولة العثمانية وما تعيش من تمزيق لم يكن للمغرب علم بذلك ولا بصدى الجامعة الإسلامية الذي انتقل إلى المغرب متأخرا، لأن سلطان المغرب في مراسلة وزير خارجية آل عثمان محمد سعيد وقتها، إنما هو "حكمدارفاس" مع العلم أن كتاب(199) شيخ الإسلام حسن خير الله الذي وجهه إلى الحاجب موسى بن أحمد بتاريخ فاتح ربيع الأول 1294هـ وصفه فيه ب"الذي طرز بساط السلطنة المغربية وفيه الدعوة إلى الاتحاد الذي جاء متأخرا، لأن تلك الدعوة لم يكن لها أثر في الحياة السياسية، سواء بين ولايات الأتراك، ولا في المغرب لأن التحرك في أي مجال إنما كان قاصرا على السلطان وحده، ولما ظهر من يشاركه الحركة" كان مآلهم التشرد على يد عبد الحميد خان(200) المعاصر للسلطان المولى الحسن الذي كان مستهدفا لحرب الوزير الفرنسي المفوض بطنجة "أورديجا" بطريقة تدل على حقد كبير وعنيف، ربما لم يكن له من سبب غير ما كان بين السلطان وقنصل الأنجليز من تجاوب طالما عبر عنه السلطان ومن حوله بطريقة تجعل هاي يفاخر ويباهي على أمثاله، كما كان

---

(199) دعاه فيه إلى فكرة الجامعة الإسلامية راجع الاتحاف لإبن زيدان 2/359ـ63 ثم ترجمة جمال الدين الافغاني في مختلف المراجع المعاصرة.

(200) خلع مراد خان لخبل في علقه ثم تولى مكانه عبد الحميد يوم 18 شعبان 1293هـ/6ـ9ـ1876م، ولما كانت حركة الإصلاح قد انتشرت منذ عهد مدحت باشا وساعد على انتشارها الشاعر نامق كمال بك، الذي توفي في سجن ماغوسة، إلى أن تكونت جمعية الاتحاد والترقي التي استهوت العسكريين وغيرهم فقويت وتمكنت مما دفع عبد الحميد وبتأثير من وزرائه المخلصين له إلى تنظيم مجلس عمومي "برلمان" بتاريخ 5 شوال 1293هـ/2ـ11ـ1876م مكون من مجلسين منتخب وسمي "مجلس" المبعوثان" وبتعيين سمي مجلس "الأعيان" وكانت الدولة العثمانية بذلك العمل في إمكانها العمل لو استمر عبد الحميد في نفس الاتجاه لكنه سرعان ما تضايق وتراجع إلى أن حل به وببلاده ما سجل التاريخ عليه من ظلم وخزي. راجع تاريخ الدولة العلية 328 إلى 411 مصدر سابق.

أفراد حاشيته يذيعون ذلك فيتردد صداه بين جنبات مقرأورديجا وبين أتباعه، ثم يطير إلى رؤسائه الذين هم بلا شك كانوا يَرون أثر انعكاس ذلك على تجارة الأنجليز وعلاقاتهم السياسية مع المغرب، ومقابل ذلك كان أورديجا، يبحث عن كل وسيلة لخلق الفتن التي تكدر صفو السلطان وتجعله يروم لفرنسا المجاورة شرقا، بدلا من الأنجليز، ولئن كان برنامج ما قبل مؤتمر مدريد في هذا الإتجاه لم ينطلق للأسباب السابقة، فإنه بعد احتلال تونس والاتفاق السري مع بريطانيا، على قبرص وتونس، لم يعد أمام أورديجا غير أنه يحقق تقدما أو ينسحب.

كان أورديجا بعد صراع قد انتهى إلى تحقيق صفقة فاسدة، لكنه حسبها مربحة، تلكم هي حماية أخون خؤن مغربي في القرن 19 أجرم في حق دينه وأمته ووطنه، وهو عبد السلام بن الحاج العربي الوزاني الطنجي، الذي تزوج من الأنجليزية "إميلي كين" التي كانت تعمل مربية في أسرة آل "بير ديكاريس" الثري الإيطالي الذي أسره الريسوني، كما أن عبد السلام الوزاني الذي نبذه قومه وحقره مواطنوه، تجنس بالجنسية الفرنسية سنة 1301هـ 1883م بعد ما تعرض للرفض والمقت من قنصلي بريطانيا واسبانيا اللذين عرض عليهما أعماله ضد المغرب(201) لأنه كان يعاني من ضائقة مالية كادت تنتهي به إلى التشرد لولا الارتباط الذي هيأه له القنصل الفرنسي أورديجا سنة 1302هـ 1884م مع بعض رجال الاقتصاد الفرنسيين في مجال البنوك والمعادن والملاحة والصحافة من الذين كانوا متحمسين لتدخل فرنسا بالقوة في المغرب، بعدما نجحت العملية في تونس، أولئك هم الذين اشتروا منه بعض الأراضي التي ترامى عليها بقوة حمايته وجنسيته في منطقة بني حسن وناحية وازان. بل بفضل حمايته وجنسيته الفرنسية أصبح يترامى على أراضي الزاوية الوزانية المنتشرة هنا وهناك، بل والتي وجدت حتى في إقليم توات الذي جرته إليه فرنسا حتى يقوم ومن على شاكلته برد فعل المجاهد الدرقاوي محمد العربي العلوي ورجاله، وبحكم ما كانت تجتازه البلاد اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، وبحكم ما ساد وقتها من ظلم الولاة وطغيان المستبدين، وعدم قدرة

(201) راجع تاريخ العلاقات مصدر سابق 263.293والاتحاف 127/2 وكتاب الزوايا لكوبولاني 268.269 ط 1897م.

الحكومة على إيقاف أمثال هذا المجرم الخؤن عند حده، استطاع أن يجد له من الاتباع وفي كل ناحية، بل ومن موظفي الدولة أنفسهم من كان يطمع في تحقيق المنافع بواسطته، خصوصا عندما احتد الصراع وظهر بوجهه عاريا ضد السلطان نفسه، والذي أصبح الوزير المفوض "أورديجا يحركه كيف شاء ويوجهه حيث يريد، بل استطاع عبد السلام الوزاني بواسطة خيانته وخيانة الذين اغتروا به، أن يحدث جدالا بين الاستعماريين من رجال "الجمهورية الثالثة" فيعطف رجال "الكي دورسيه" وصحافة فرنسا، على الذي قيل إنهم بواسطته أوجدوا قوة ضد السلطان في المغرب، وأنّ زعيم تلك القوة متحرر ضد تجارة الرق إلى غير ذلك مما تحفظه صحافة فرنسا التي أعلنت حملتها المسعورة وقتها ضد السلطان الذي لم يجد بدا من إصدار بيان ضد الوزاني وأتباعه، كما قام ضده جانب آخر من أهل وازان الموالين للسلطان بزعامة عبد السلام بن إدريس بن زين العابدين، وما كاد منشور السلطان يصل مسامع العامة حتى أصبح أورديجا وقد سقط في يده، ثم في أيدي الذين انتصروا لأكبر خائن مجرم في تاريخ المغرب السياسي، وبعدما كان أورديجا يشيع أن لفرنسا من الاتباع ما تستطيع بهم محاربة السلطان الذي قال في حقه للقنصل الأنجليزي هاي في شهر مارس 1883م أو بالأحرى يوم تبرع على الوزاني بالحماية ثم بالجنسية بمقتضى البند «16â من اتفاقية مدريد وقتها قال إنه يعتقد أن نفوذ السلطان يتأكد بسرعة، وأن فرنسا لن تحتمل لوقت طويل تلك الحالة من الفوضى التي تسود المغرب، وأضاف أورديجا أنه «مما يسر الفرنسيين أن تقوم بريطانيا أو أية حكومة أخرى بفرض سيطرتها على المغرب، حتى يتمكن الفرنسيون الموجودين بالجزائر من التعامل مع أشخاص موثوق بهم» وزاد "المسيو" أورديجا بعد ذلك بأنه «إذا لم يحدث ذلك فلن يتأخر الوقت الذي تضطر فيه الظروف فرنسا إلى السيطرة على ممتلكات السلطان(202) بربك أي حقد أشد عنفا من هذا الذي ملأ قلب أورديجا، وبلا شك قلوب أمثاله من الفرنسيين على المولى الحسن الذي لم يكن له من ذنب غير علاقة الود الملغوم مع القنصل الأنجليزي هاي.

(202) تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية ص 262.263 ونفس المصدر يقول إن قنصل الانجليز هاي قام بنشاط إعلامي لصالح السلطان ظهرت آثاره في لندن وعواصم أوربا.

وبلا شك أن وزارة خارجية فرنسا احتفظت بنفس الخطة ضد المغرب وملوكه، والتي أوحي بها فساد مزاج أورديجا ضد المولى الحسن، إلى أن وقع فيها أمثال المارشال جوان فجر لتطبيقها كلا من اليهودي شومان وبيدو مع العبد الآبق الجلاوي، ضد العاهل العظيم محمد الخامس كما سنرى ونعيش.

لقد حاولت فرنسا بواسطة المجرم في حق دينه ووطنه عبد السلام بن الحاج العربي الوزاني في كل اتجاه، رحلت به إلى إقليم توات(203)إحياء لذكر سلفه حيث جمعت حوله ما استطاعت من العملاء المستضعفين، بل ومن اليهود المتفرنسين والفرنسيين المغامرين، الذي تظاهروا بالإسلام على طريقته والانتساب لأسرة عبد السلام بن الحاج العربي الوزاني، فاستطاعوا أن يندسوا في الجنوب المغربي من آيت عيسى بنى تاجيت إلى تافيلالت وما حولها خصوصاقصور الغرفة وقصر المعاضيد الذي تسلطن فيه أحد الفرنسيين زمنا باسم "مولاي الحاج" الوزاني، إلى أن افتضح ثم قتل وأشعلت فيه النار عام 1909م بل وغيره اليهودي الأصل "التزونوني"السوسي من آل بداح الذي عرف بـ"مولاي محمد" وبذلك أنشأ له سلطنة عام 1918م ثم قتل كبار رجالات الفلاليين وفي طليعتهم الأمير عبد الله بن الرشيد صاحب قصة بن زاكور وعبد الواحد القاضي وحبر اليهود كما سنرى، لكن كل ذلك لم يحقق لفرنسا ما كانت تهدف إليه من خلق دولة في المنطقة ضد السلطان وحتى تفرض عليها ما تريد تحقيقه من مشاريع بعد ما تكون قد حققت للدولة المزعومة حدودا تضم أقاليم توات وتافيلالت ثم درعة إلى وادي نول وقد انتهى بها السعي لتحقيق ذلك إلى أن رفعت شكوى، ضد عامل تافيلالت أحمد الدليمي

(203) كان المدعو أحمد الوزاني قد قام برحلة إلى توات عام 1008هـ 1599م أيام أحمد المنصور السعدي، حيث استقبله أهلها بكل حفاوة، ثم جمعوا له الكثير من الصدقات، لكنه تعرض لنهب قبيلة لغنانمة الذين نهبوه لولا نفوذ شيخ زاوية كرزاز الذي رد عليه ما نهب منه، ومن وقتها تراجع لغنانمة وأصبحوا من اتباع الطريقة الطيبية الوزانية التي دفعت الفرنسيين إلى أخذ عبد السلام بن الحاج العربي إليهم والذي جرهم إلى حظيرة فرنسا دون وعي منهم، فكانت النهاية أن أجمعت جميع قبائل الصحراء على هدم قصورهم وتشريدهم، وحتى نتبين الظروف التي عاشها المغرب آخر عهد المولى الحسن وما عرفه من خيانة عبد السلام بن العربي التي ورثها عن والده ثم خلفها لسلفه بشهادة الفرنسيين أنفسهم كما رأينا عند كوبولاني الزوايا الدينية الإسلامية ص 268.269 ط 1897م ولم ينافسه في هذه الرّذيلة سوى آل التجاني بعين ماضي كما رأينا في حرب الأمير عبد القادر، وسنرى بعد كذلك عنهم وعن آل الكتاني.

عام 1309هـ/1892م، وهي السنة التي وجهت فيها عبد السلام بن العربي الوزاني كتجربة إلى اقليم توات قبل أن تحميه فلم يكن من السلطان إلا أن حقق للفرنسيين رغبتهم في طرد عامل الإقليم، ومع ذلك من وقتها ورغم رحلة السلطان إلا تافيلالت كما سنرى لم يعرف الإقليم مسالمة للفرنسيين إلى عام 1353هـ مارس 1934م كما سنرى.

ليس ذلك فحسب بل إن الصراع اشتد بين الوزانيين أنفسهم حتى كاد بعضهم يفتك بابن عبد السلام لما قدم به بعضهم وندرج هنا ما كتبه كل من : اكتاف دوبو وكرافييي كوبولاني في كتابهما : "الزوايا الدينية الإسلامية ص 268-69 ط 1897م فقد جاء في هذا "المصدر" من الناحية السياسية، إن علاقاتنا مع الطريقة الطيبية ترجع إلى عام1843م، استجابة لإلحاح المارشال بوجو Bugeaud ففي نفس السنة قام قنصلنا العام بطنجة، بناء على الأوامر التي تلقاها لربط علاقات مع رئيس الطريقة الذي كان ذلك الوقت السي الحاج العربي ومحاولة استمالته لجانبنا ...

وفي أواخر سنة 1891م، جاء شريف وزان السي عبد السلام بن العربي إلى الجزائر العاصمة، حيث مكث حوالي شهرين، وعرف كيف يواجه الضغوط التي ما فتئت بعض القوى الأجنبية تمارسها عليه، ففي الجزائر العاصمة أعطى البرهان الأول على نفوذه حيث أقنع الگورارريين" نسبة إلى اقليم گورارة بتوات وعاصمته تيميمون، "كان قد فتحه المنصور عام 991هـ/ 1495م" الذين حضروا إلى العاصمة بالدخول الفعلي تحت حمايتنا والمساهمة لتحقيق أهدافنا وأكثر من ذلك، وكأنها توبة على أفعاله. فإنه بعد مفاوضات، إلتزم بما لا يترك أي شك في نواياه نحونا، نظرا للطبيعة الدبلوماسية لهذا الإلتزام، فليس بالإمكان الإعلان عنه، وكل ما يمكن قوله هو أنه أعطى لفرنسا نفوذا عاليا على دار "وزان" وأن الأفعال التي جاءت بعد ذلك تغنينا عن كل تعليق.

في شهر فبراير 1892م ذهب مولاي عبد السلام مصحوبا بگومي من أولاد سيدي الشيخ لزيارة زوايا توات واستخلاص الزيارات، وإن الذين يعرفون أن هذه العطاءات ذات الطابع الديني لا يمكن استخلاصها إلا بموافقة السلطة الشرعية المغربية، يفهمون الدعم المعنوي الهائل الذي يعطيه لنا في هذه المناسبة شريف وزان، فإن مجرد عبوره الجزائر ذهابا وإيابا يعتبر اعترافا لسيطرة فرنسا على الواحات، فليس هناك شك أنه

بإثبات حمايتنا الرسمية لأتباع شرفاء وزان، وكذلك أولاد سيدي الشيخ تقلل من أثر السلطة المغربية على الواحات وتمهد الطريق لعملية مباشرة، حينما ترى حكومتنا أن الحالة الصحية والسن المتقدم لمولاي عبد السلام لم تسمح له بإطالة سفره، عاد إلى الجزائر ثم إلى المغرب، وتوفي بعد وقت قصير، وقبل وفاته ببعض الشهور جاء ابنه الذي عينه بتوصية شيخا للطريقة الطيبة، إلى الجزائر في غشت 1892م، وتم استقباله في قصر مصطفى، حيث أعلن بتأكيد أنه يريد الاستمرار في الوفاء بالتزامات أبيه... وجد مولاي العربي عند أتباعه أصداء معاملتنا لهم، واقتنع بأن أقوالنا صادقة، وصرح بأن ما شاهده ذكريات لم تنسى...

فحينما نتذكر الدور الذي لعبه مولاي العربي بالنسبة لسلطان فاس الذي استغل نفوذه للاعتماد على الطيبية في إرساء سلطته، نلمس أهمية سفره إلى الجنوب، وتوات بالنسبة إلينا، وعند إقامته بالجزائر تم توشيحه بوسام فارس جوقة الشرف لقد أصبحنا الآن حماة دار وزان... إلخ -(204).

وأمام هذه التحديات كان على السلطان المولى الحسن أن يكاتب المسؤولين المغاربة في توات وعلى رأسهم القائد حسون وأخيه محمد عبد الرحمان وكما أورد المصدر المشار إليه، كانت الغاية هي الجواب على شكاية أهل توات من تصرفات الوزاني حين مر بگورارة فهاجمه المواطنون وقد كان جواب السلطان كما يلي بتاريخ 28 رمضان 1309هـ-26-14 1890م.

"إلى خدامنا قواد توات :

بلغ إلى علمنا الشريف أن العرب قاموا باعتداءات على قصور گورارة حينما عبروا هذه البلاد، واستحوذوا على ما وجدوا : نأمركم بإتخاذ الحذر من هذه التصرفات والضرب على يد كل من يعمل على بث الفتنة.. قاوموهم وحاربوهم كرجل واحد ليكفوا عن أعمالهم"

وحول الوزاني صدر الكتاب التالي :

إلى خدامنا الأوفياء قبائل وسكان اقليم توات:

---

(204) المرجع كتاب الزوايا الدينية الإسلامية: ص 268-271 تأليف أكتاف دوبو وكوبولاني بإشراف كانبو الحاكم العام للجزائر ط1897، والترجمة للأخ أبو وكيل الأستاذ بكلية الحقوق - جامعة ممد الخامس.

توصلنا بكتابكم الذي ينص على أن الحاج عبد السلام الوزاني وصل إليكم قادما من بلاد الشمال مع عشرة أشخاص ومائة فارس كان فيهم كثير من الفرنسيين المتنكرين وقافلة من 300 جمل تحمل مؤونتهم، وأنه أقام قرب قصر أولاد اسعيد وأنه كتب إلى السكان، وأن هؤلاء لم يجيبوه نظرا لتصرفاته الغير المعقولة وأنه وصل صمولة Sam-mola وعزم على الرجوع دون زيارة القصور الأخرى، وأن أي شخص لم يخرج لمقابلته نظرا لما نعرفه من أغراضه.

أضفتهم أنكم تعلمون حضرتنا بما جرى بعد أن صرحتم له أن شؤونكم متعلقة بنا وتطلبون حمايتنا، وذكرتم أن العرب قد اعتدوا على قصور تيگورارين أخذنا هذا بالاعتبار.

ومأأجبتم به الوزاني والاستقبال الذي خصصتم له يعبر عن وفائكم وإخلاصكم، وثبات إيمانكم، وصمودكم فحمدا لله لقد حققتم ما أردناه. إلخ.

وما طلبتم من حماية سنعمل بكل الوسائل للمحافظة على مصالحكم.إلخ

ان المفاوضات مستمرة بيننا وبين الفرنسيين في شأنكم، وأن حضرتنا ستعمل على نجاتكم، وأنه لن يمسكم ضرر منهم بقوة الله لأنهم يعرفون أننا معكم...إلخ

أما العرب الذين اعتدوا عليكم، فقد أصدرنا أوامرنا للمستخدمين الساهرين على مصالحكم للضرب على أيديهم وإبعادهم عنكم» أما تاريخ الكتاب فهو يوم 28 رمضان 1309هـ/26.4.1892م.

ولقد أجاب قائد تيمي (Timmi) عن هذا الكتاب بما يلي :

إلى مولانا الحسن بن محمد بن عبد الرحمان بن هشام.. مع عبارات التمجيد لكل سلطان يذكره)

بعد وصول الخدام الأربعة الذين حملوا إلينا رسائلكم. أخبرنا السكان بفحواها، وفرحنا بها وفهمنا ما جاء فيها، وامتثلنا لأوامركم. واعلموا أن ما ذكرتموه عن ابن الحاج العربي، فليس بيننا وبينه شيء فنحن في طاعتكم. وتحت رعايتكم، وكل ما تأمرنا به نفعله، أما هو فليس بيننا وبينه إلا السبحة التي أخذناها عن أجداده وليس عنه، فلو كنا هنا حين مروره لرأى منا مالا يعجبه، ولكن كنا عند حضرتكم في ذلك الوقت فقلد

وجدنا خدامكم في طاعتكم ينتظرون أوامركم، فلو اقترب منهم (الوزاني) لرأى منهم مالا يسره. ولقد شرحنا كل شيء لخدامكم. والسلام عليكم من خادمكم القائد حسون وأخيه محمد عبد الرحمان وجماعتهم من المعيز (MAIZ) إلى اغيل (ghil) والسلام من محمد بن محمد الهاشمي بن محمد عبد العزيز الإدريسي كاتب القائد حسون(205) 24 ذو القعدة 1309هـ/20يونيو 1892م206).

وأما خيانة هذا الضال الذي تعرض للنقمة حتى من الوزانيين أنفسهم فقد اشتد الصراع بين الطائفتين الطيبية والتهامية حتى أن بعضهم كاد يفتك بعبد السلام وولده العربي مما دفع بهذا الأخير إلى أن يبحث له عن مكان يستقر فيه بعيدا عن مدينة وزان الأمر الذي دفع أورديجا إلى يلصق ذلك بعامل المدينة فيصر لدى السلطان على طرده وعقابه، وفعلا طرد حتى لا يحصل بين الوزانيين من سكان المدينة ضرر؟، بل وفي هذا دلالة على واقع المغرب وما كان عليه وقتها من إفلاس، بل وأمام هذه التصرفات لم يجد السلطان بدا من إرسال سفارة إلى فرنسا تحمل كتابا إلى الرئيس الفرنسي إكريفي(207) يرأسها عبد الملك السعيدي عامل وجدة السابق، وعضوية عبد الواحد بن الموز وذلك بتاريخ ربيع الثاني 1302هـ/1884م، وفي رسالة الاعتماد أشار السلطان إلى الثقة التي يتمتع بها السفير، وأنه سيقص الحقيقة، أي ما عاش ورأى من أعمال الوزاني، والسفارة الثانية برئاسة المعطي بن عبد الكبير لمزامزي، وعضوية أحمد الكردردي، والأمين ابن المدني بنيس، وكان رئيس الجمهورية، "كارنو" لكن كل ذلك لم يغير من خطة الاستعماريين الفرنسيين شيئا، وظهر جليا أن الصراع بين السلطان والفرنسيين لا يزداد إلا حدة، لكن السلطان كان لا يتحرك بقدر ما كان الفرنسيون يعملون جادين، سواء بواسطة البعثات العسكرية أو جماعات الاستكشاف، وكان وجود هؤلاء وأولئك دون أن يجدوا رادعا من قوات الدولة مما كان يدفع المواطنين قبل إلى الاعتماد على أنفسهم، وأصبحت الصحراء الشرقية ميدانا لحرب العصابات التي كان ينظمها المجاهدون، بل

(205) القائد حسون هذا هو الذي عمل الفرنسيون جهدهم حتي قتلوه في معركة خاضها ضدهم.

(206) راجع كوبولاني مصدر سابق ثم وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية ومديرية الوثائق، ملف توات والجنوب الشرقي.

(207) راجع الاتحاف 2/315،16.

أصبحت مقبرة لكل من سولت له نفسه أن يغامر من بين أولئك المتحمسين من الفرنسيين، وإذا كان منشور السلطان المشار إليه ضد الوزاني والذين انضموا إليه من الغنانمة قد أعطى نتيجة مرضية، فإن الحماس لم يقف عند حد امتثال أوامر السلطان بسلوك سياسة حسن الجوار،؟ بل انتقل إلى اصطياد كل من يقتحم الحدود، وكان بين هؤلاء الرحالة الفرنسي "بالات" الذي بلغ به التحدي مع بعض الأدلة من الغنانمة إلى عدم الإكتراث، فكان ومن معه من الضحايا الذين لاقوا مصرعهم على أيدي المجاهدين في حاسي الشيخ عام 1304هـ /1886م ولم يكن هذا طبعا مما يرضي السلطان الذي أرسل رسائل متعددة إلى تلك النواحي يحذر أهلها من أي عمل مسلح ومن قام بشيء من ذلك فسيعاقب(208)، مما أدى إلى تخوف وبلبلة في صفوف المجاهدين والذين كانوا وراءهم بالمال والعطاء، وإذا ما أحجم أهل تافيلالت لأنهم قوم وأهل السلطان وبالقرب من صنو السلطان، وهو المولى الرشيد، ولا يقبل أحد أن ينقل في حقه أنه تحدى تحذير بل وعد السلطان ووعيده، فإن آيت عطا كعادتهم لم يحفلوا بذلك، واستمروا في إعداد قوافلهم من أجل الجهاد، إلا ما كان من بعض سكان الرتب منهم، فهم الذين كانوا لا يتحركون ولا يقومون بعمل ما في هذا المجال إلا بأمر الشيخ محمد العربي المعني الأول برسالة التحذير، والذي أصدر الأمر توا لأنصاره بالتوقف، لكنه إلى جانب ذلك حمل التبعات التاريخية للمسؤولين عنها، وإثر أوامر الشيخ وتوقف توجيه القوافل إلى اقليم توات الذي عرف فراغا اضطر رجالاته أن يكونوا وفدا منهم توجه إلى السلطان من كبارهم وأعيان قبائلهم والقبائل التي حولهم، ثم توجهوا يصحبهم نقيب الأشراف العلويين من أبناء عبد الواحد أبو لغيث الذين هم في سالي، وعلى بن سليمان العلوي عميد زاوية كنتة، ولا شك

---

(208) راجع ترجمة الشيخ محمد العربي الدرقاوي في هذا الكتاب بعد، وتاريخ الرسالة الملكية التي نص فيها بالإسم على الذي نادى بالجهاد من درقاوة، وقد حملت الرسالة الملكية على من تزعم ذلك.. إلخ. ولست أدري ما الدافع بالسلطان إلى ذلك التحامل وقتها، وقد كان هذا الشيخ الوقور قد دعى للجهاد منذ 1280هـ/1863م، راجع مجلة تاريخ المغرب العدد الأول ص : 105 ط الرباط بتاريخ يناير ـ فبراير 1981 وكذا معلمة الصحراء ملحق 1 الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، عبد العزيز بن عبد الله،ص : 158 ـ159، وج 9 دالمعارف الإسلامية في حين كان منشور الشيخ الأخير هو الذي ظهر 1305هـ/1887م عنه أنشئت الرسالة الملكية الموجهة للعموم، راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية أو مديرية الوثائق الملكية، وما هو منشور في هذا الكتاب.

أن حديث السلطان الذي كان وقتها بفاس عندما اتصل به وفد الصحراء، كان حول المنشور الذي دعى إلى الجهاد بل والاستعداد لطرد الفرنسيين الكفار من أرض الإسلام الجزائر وهو ما نص عليه المنشور وصاحبه الذي كان محل إكبار وتقدير من الجميع الشيخ محمد العربي الهاشمي صاحب قصر جاوز بمدغرة هو الذي كان السلطان قد تلقى في حقه ما ينفرسياسيا ويبعث على الريب من حالته وما يتمتع به من إقبال القبائل - حتى المتنافرة فيما بينها عليه، مثل آيت يافلمان وآيت عطا كما أسلفنا، في الوقت الذي لم يكن قبل ولا بعد للسلطان نفسه مثل ذلك من آيت عطا، هذا مع العلم أن رسائل التوجيه الديني والتأليف بين القبائل التي كان الشيخ محمد العربي يبعث بها إلى مختلف الجهات شرقا وغربا من حدود الجزائر شرقا إلى تخوم سوس والتي نتوفر على العديد منها، كلها كانت تختم بالدعاء للسلطان، وكان الرجل بدهائه السياسي يقصد ذلك ليفوت على الحاسدين المنافقين والمتجسسين الأغبياء من أهل مدغرة مقاصدهم الخبيثة ولم يكونوا من غير بعض أهله ومن أبناء عمومته بمدغرة، أولئك الذين سد أمامهم إسم الشيخ كل منفذ للشحاذة بين القبائل وابتزاز الآخرين باسم الانتساب لبعض آل عبد الله بن علي بن طاهر الذي اشتهر بالعلم والتقوى وحسن الخاتمة، تعرض إسمه لأحقر وأخس النعوت بسبب المفترين المسترزقين الذين تخلى عنهم الناس عندما ظهرت مدرسة محمد العربي الهاشمي التي كانت تضم ألف رجل لا يقبل الزيادة عليها، تقيم محيطة بقصرى زاويته رحمة الله، ونعمة الله، وضمن رجالاتها من يتقنوا كل الحرف والمعارف، في انتظار أن يعود الذين توجهوا لقتال العدو في أرض توات، ومدة جهادهم أربعة أشهر، يعودوا بعدها ليحل مكانهم المنتظرون، وهكذا ذواليك، تمر السنة، وتموين القوم ما كان يجمع من القبائل من أعشار وتبرعات باسم الجهاد، وتلك مهمة قوافل متعددة تغدو وتروح في مختلف الاتجاهات خصوصا التي لم يكن للسلطان فيها نفوذ.

ذلكم هو محمد العربي الذي لا شك أن وهم السلطان نحوه كاد يزول لولا ما قيل بعد من أن أنصاره هم الذين قتلوا عامل السلطان على آيت يوسي محمد والطالب بسبب الجريمة التي ارتكبها بزعمه حين انتزع أجمل فتاة يتيمة هي "يطو لقضيب" من زوجها كما سنرى لأن جمالها أحق به ولده عمر، فكان جزاؤه القتل والحرق بعدما قدم رجال

آيت إزدك وصغروشن العشرات من الضحايا من أجل ذلك أمام قصر «طيط ورماس»، غرب لقصابي والجنوب الشرقي لميدلت كما سنرى بعد حين تناولنا لتاريخ المقاومة وشيخ المقاومين محمد العربي الدرقاوي.

ومهما يكن فإن محمد العربي الذي قال عنه"الكومندار مارتان ص : 227"(209) الذي لاحظ أن الطريقتين، الدرقاوية في مدغرة غربي تافيلالت،(210) والسنوسية التابعة لزاوية جغبوب في الصحراء الشرقية، كانتا ضد كل تدخل مسيحي في البلاد، وكان نفوذ الأولى في طول الصحراء وعرضها، بينما يقتصر نفوذالثانية على گورارة» إلخ.

مهما يكن فإن الدفاع عن المنطقة انتقل إلى السلطان الذي كان يفضل الطريقة الدبلوماسية، ومع أنها لم تكن السبب في تأخير غزو الفرنسيين، فإن جميع القبائل أجمع زعماؤها على تحقيق رغبة السلطان الذي أغدق عليهم بالمناشير، كما وجه لهم من عنايته ما جعل الفرنسيين يتدبرون الموقف ويخططون له من جديد، وفي سنة 1307هـ/ 1889م أرسل السلطان أحد القواد إلى منطقة توات قصد الجباية وهو محمدالدليمي(211) عامل تافيلالت وبعدما وجه أحد العلماء من رجال بلاطه الذي قيل إنه الكاتب السلطاني وهو الشريف محمد امحمد الرشيدي الفجيجي(212) الذي رافقه العامل المذكور أيضا والذي زار المنطقة مرتين الأولى سنة 1305هـ/1887م، والثانية بالتحديد يوم عشرة شوال عام 1308هـ/20 ماي 1891م وإذا ما وجد السلطان ولأول مرة حكم كل من وادي الساورة وتوات تحت قيادة رجل واحد هو محمد بن الحسن الدليمي ثم عززه بقائد من الجيش هو

---

(209) المصدر السابق الموسوعة ص 158.

(210) نفس المصدر والواقع أنها شرقا وعلى بعد 56ك م من الريصاني.

(211) وقد تلقى ضمنها واجب بوعمامة، يقول نفس المصدر،

(212) راجع الموسوعة المغربية معلمة الصحراء ملحق1 وأولاد محمد هؤلاء من الأشراف الحسينيين أهل أرشيدة، وقد أصبح لهم في قصر الودغيريين بفجيج شأن عظيم جدا لأنهم أدركوامن العلم والجاه ما لم يحققه غيرهم وفي عهد الدولة العلوية منذ عهد المولى الرشيد الذي أسند منصب القضاء إلى أحد رجالاتهم ثم أكده المولى إسماعيل وفي عهد المولى سليمان كان أحد رجالاتهم رفيقا له في الطلب وكانت بينهما مودة عظيمة. استمرت إلى عهد المولى الحسن، وهؤلاء الأشراف أولاد محمد لهم ذكر جميل في تاريخ فجيج منذ القديم بحيث لا يمكن لمن يؤرخ لمنطقة فجيج أن يهمل ذكرهم وما كان لهم من أثر في مجال العلم والسياسة. راجع فجيج تاريخ وثائق ومعالم للعربي هلالي الودغيري ط 1981م ثم واحة فجيج تاريخ وأعلام بنعلي محمد بوزيان ط 1987.

بوعزة السريفي مصحوبا بالطالب العربي المنيعي بن المقدم، فقد كان من أوليات عمل هذا الثالوث القيام بحملة مؤيدة برسائل سلطانية لمحو أثر الجراثيم التي فاحت رائحتها من نتونة عبد السلام الوزاني والتشهير بأعماله المنافية للإسلام.

كانت كل هذه التحركات الجادة من السلطان والتي سيختمها بزيارته لإقليم تافيلالت حتى يثبت للفرنسيين وبالاتصال المباشر أنه لم ولن يسمح لهم بالاعتداء، وأن الأقاليم الصحراوية شرقا جزء لا يتجزأ من المغرب، وحتى إذا ما توفي السلطان بعد ظهرت المطامع الأوربية فعرفت سوس إخوان "مانسماه" كما عرفت تنافس كل من إسبانيا وفرنسا وانجلترا من أجل البحث عن المعادن، بل انتهى تنافس الدول المذكورة إلى وضع قانون للتنقيب عن المعادن في المغرب، وضعه مجلس دولي عام 1910م بعدمؤتمر الجزيرة الخضراء كما سنرى بعد بل ولحماية هذا القانون،وستندفع ألمانيا إلى إرسال باخرة البانثر بعد إلى مدينة أجادير عام 1911م فتثير بها ضجة مفتعلة ولا قصد لها غيرالتهريج والابتزاز من غليوم راكب حصان الخشب كما فعل مع السلطان عبد الحميد آل عثمان.

سفارة محمد بن موسى إلى فرنسا ويظهر في الصورة مع محمد بن اليمني ورجال المخزن
ويظهر في الصورة أوسخ مجرم خدم الاستعمار وهو قدور بن غبريط

كريفي جول رئيس جمهورية فرنسا 1879-1887م وهو اشتراكي معتدل م.ع 625. هو الذي كاتبه المولى الحسن ثم وجه إليه سفارة عبد الملك السعيدي ربيع 1302م عندما اشتدت الازمات التي اختلقها 1884 الوزير المفوض روديجا بواسطة الخائن الكبير عبد السلام بن جَ العربي الوزاني

الفصل الثامن والستون بعد المائة

المغرب بين غدر الأنجليز وتحرش الفرنسيين وفساد الوضع

في تلك الظروف القاسية تعرض السلطان لطعنة غادرة من الخلف، كانت من بريطانيا التي لم تقف عند حد محاولة مغامر اسكوتلاندي ظهر في الجنوب الغربي من المملكة المغربية، حيث أراد أن يطبق في المغرب ما نهجه قومه في المشرق عن طريق الشركة الشرقية بالهند، ذلكم هو "ما كدونالد ماكنزي" الذي أنشأ مركزا للصيد في القطر السوسي.. "أساكا" حوله إلى مركز تجاري في رأس جوبي 1879م/1297هـ، وقد كان ماكنزي بالسويرة (213) قبل أن ينتقل بواسطة أحمد السباعي إلى قبيلة اصبويا، حيث تعرف على امبارك بن أحمد، وبدأ علاقته بالأهالي بواسطة التجارة في المكان المسمى "إركسيس" وقد أخذ يغري سكان المنطقة بتقديم ما يطلبون من مواد غذائية وغيرها، دون أن يستعمل الحساب التجاري، حتى استهوى الكثيرين فأصبح له مركز شيده حسب الطريقة التي فعل أمثاله المغامرون في بلاد أخرى من المشرق الذي عرف الاستعمار الأنجليزي، لكنه ما كاد الخبر يصل إلى السلطان حتى نبه القنصل هاي الذي أجاب على ذلك برسالة لموسى ابن أحماد مؤرخة بـ فاتح دجنبر1879م يخبره فيها، أن ليس من حق الحكومة المغربية التدخل في شؤون الأوربيين الذين ينزلون في المناطق الواقعة جنوب وادي نول والتي لم تشكل أبدا قسما من أملاك السلطان(214) ذلكم هو القنصل هاي الذي كان قدصرح له السلطان نفسه أن كل ما يصدر عنه يعتبره صدق

---

(213) راجع مذكرات النقائد الناجم بالمعسول للمختار السوسي رحمه الله جـ 11/20 ورغم تحريف الناجم لبعض الأسماء فإن عدم إهماله للموضوع يدل على وعيه رغم تقدمه في السن رحمه الله .

(214) تاريخ العلاقات ص : 259.

وصحيح، وأنه يرتاح له ولأخباره أكثر من الآخرين، هاي الذي كان بحق يعرف كيف يخدم بلاده ومصالحها بطريقة تخدير أعصاب الآخرين والغدر بهم دون أن ينكشف أمره مثل الآخرين لأنه كان يعرف ما يقصده، بقدر ما أصبح يعوف بمرض المغاربة كذلك، فهل كان هاي يجهل حقيقة أن قبيلة أصبويا خارجة عن حدود ممتلكات السلطان، أم أنها طريقة الأنجليز في فن الاستعمار، ومع ذلك يدخل معه الحاج محمد بركاش في جدال طويل بالمراسلة(115) لكن الذي سيحسم كل ذلك هو السلطان نفسه الذي أرسل ولده محمد أولا ثم جشم نفسه عناء الرحلة إلى المنطقة التي توجه إليها سنة 1299هـ/1881م، وما كاد يصل حتى وجه رسالة قرئت على رجال القبائل في المنطقة بواسطة القائد محمد بن الطاهر، كما أرسل مالا وزع عليهم لأن ظروف القحط والجفاف كانت قاسية بطولها أربع سنوات قبل، كما أرسل على الأنجليزي الذي أحضر أمامه ثم سأله بلطف عن عمله التجاري بدون ترخيص، لكنه لم يتلق جوابا.

كان بعض الفقهاء من أهل البلد ومن قبيلة أصبويا بالذات، قد اتصلوا بالقائد محمد بن الطاهر، ثم طلبوا منه إلقاء القبض على التاجر المذكور ليكون تحت حمايته منذ أن بلغ خبرالتساؤل عنه وعن جره إلى تلك المنطقة من طرف الإدارة المركزية بمراكش، وذلك حتى لا يتعرض للاعتداء من المواطنين عموما، أو من الذين تبادلوا معه التدليس أمثال الحبيب(216) ولد بيروك الذي كان السبب الأول في التمكين "لما كدونالد ماكنزي"

---

(215) راجع المصدر السابق وفيه يقول روجر إن هاي كان ينقل إلى السلطان رأي الحكومة البريطانية، بأن الأراضي المغربية لا تمتد وراء وادي درعة، غير أنه لم يكن مقتنعا تماما بالأسس التي يقوم عليها هذا الرأي... إلخ راجع ص : 259ـ 60. من كتاب العلاقات المصدر السابق.

(216) سماه روجر في تاريخ العلاقات ص 258 محمد والواقع ما ذكرنا، وهناك دحمان بن بيروك التكني من قواد سوس. ذكره في الاتحاف 242/2 وفي الاتحاف كذلك جـ1/381 نجد البشير ولد بيروك من أهل الطرفاية، ووالد هذا البشير وهو بيروك الوادنوني التكني الذي كان في عهد المولى عبد الرحمان بن هشام هو الذي تواطأ مع بعض النصارى على البناء يقول صاحب الاتحاف نقلا عن رسالة من محمد بن عبد الرحمان إلى أخيه العباس، وأن أولاد بيروك الواد نوني سلكوا نفس النهج في التعامل مع النصارى، ومنهم الأسبان.. إلخ وبذلك تعرض آل بيروك للنبذ والتحقير من كل قبائل المنطقة الذين طاردوهم والأسبان معهم تقول رسالة بتاريخ 11 ربيع الأول 1278هـ/1861م. ثم راجع المعسول المشار إليه، جـ20/358و60، ط 1961م وفيه نلاحظ أن السلطان لما عاد من رحلته إلى السوس أكثر من تسمية الولاة في سوس، أعود فاذكر أني كتبت حول القائد الناجم لكنني افتقدت ما كتبت من خزانتي بعدما دخلتها الشرطة ثم صادرت منها وبأمر ظالم كل ما هو مكتوب بخطي بعد جرد للخزانة دام 22 يوما، =

ثم ربطه مع الأهالي الذين أصبحوا زبناء شركة ماكنزي التي أطلق عليها "شركة شمال غرب افريقيا" والتي بواسطتها أراد جر الاستعمار الأنجليزي للمنطقة حين كتب بذلك إلى حكومة بلاده التي أمرت وزارة الخارجية فأرسلت الكابتن "بريدج"في السفينة الحربية "اسبيجل" سنة 1881م/1299هـ ليعد لها تقريرا على مستوطنة "رأس جوبي" الذي قال عنه ماكدونالد ماكنزي أنه يليق لتأسيس مركز تجاري، ولعل هذه التحركات هي التي دفعت المولى الحسن للقيام بالرحلة إلى سوس ومعه من المهندسين من أمرهم بالبحث عن مزاعم الأسبان والأنجليز معا، خصوصا وأن أمر شركة، "شمال غرب افريقيا" تحولت 1879م إلى "شركة السوس وشمال افريقيا للتجارة" ومركزها لندن، وأن هذه الشركة اقترحت إقامة مركز تجاري لها في إفني الواقعة شمال رأس جوبي، وحصلت مراسلات بين دار النيابة ووزارة الخارجية الأنجليزية في الموضوع،وحذر بركاش من أي نشاط تقوم به الشركة المذكورةفي الأراضي المغربية،نشر التحذير بتوقيع النائب المذكور على صفحات جريدة التايمز، الأمر الذي دفع الحكومة الأنجليزية، وقد رأت وعلمت موقف المغرب أن تعود إلى صوابها فتؤكد تحذير النائب باركاش بتاريخ أول مارس 1882م حيث حذرت فيه "مدراء الشركة بأن الأراضي التي ينوون الاتجار معها تقع ضمن ممتلكات السلطان، وأنه إذا ما اتخذت السلطات المغربية الإجراءات لمنع تجارتهم غير الشرعية فعلى "شركة السوس وشمال افريقيا للتجارة" ألا تتوقع من الحكومة البريطانية أية حماية، لكن مدراء الشركة لم يهتموا بالتحذير واستمروا في عملهم حيث رست سفينة محملة بالبضائع في المكان المسمى "اركسيس "جنوب إفني بتاريخ فبراير 1883م، وبمجرد ما بلغ الخبر إلى السلطان أمر بتطبيق التحذير الذي نشره باركاش وأكدته حكومة الأنجليز فصودرت البضائع وألقي القبض على إثنين من التجار الأنجليز الأول إسمه كيرتس والثاني

= من يوم 1968/6/14 بحثا فيها عما قيل أنه يخل بالأمن العام من كتاباتي. وهو ما يعني الشياطين الخمس الأعور والاقرع والأعرج والأسود وقزم الرباط، ومع ذلك سأحاول ولو بإيجاز بعد حين تأريخي للمقاومة ضد الاستعمار الفرنسي بعد فرض الحماية، والتي كان من أبطالها القائد الناجم الباعمراني أن أكتب عن هذا البطل الذي تعرض لنكران الجميل في عهد الاستقلال مثل جل المقاومين الذين حرروا هذا البلد ليرتع فيه الدخلاء والعملاء ودعات الرذيلة الذين خلفهم المستعمر وهم يحملون أوسخ النعوت أصبحوا هم كل شيء بقوة الحديد والنار ولا حسيب ولا رقيب، وبجولة خاطفة في تراجم الذين أفسدوا كل جميل وحطموا كل القيم في مغرب ما بعد الاستقلال يؤكد كل ما سبق.

أندروز؟. وترجمان معهما، ثم أرسلوا إلى دار القائد الحسن بن عليات بعدها نقلوا إلى دار القائد الحاج أحمد الگسيمي بإنزكان وهو الذي ذهب بهم محروسين إلى السويرة التي أبحروا منها بتاريخ جويي 1883م، وإثرها أرسل السلطان حامية لترابط بآيت باعمران يرأسها القائد بوعزة السريفي البخاري، ومعه خمسة من القواد بجنودهم، وبعدها بسنتين كرر الرحلة إلى إقليم سوس سنة 1303هـ/1885م وذلك بعدما كان قد انتهى إلى حل المشكل القائم أيضا مع الأسبان والذي اتفق فيه على توجيه الخبراء من الجانبين ليقولوا رأيهم في ادعاء الأسبان كذلك أن لهم مركزا قديما في المنطقة لكنه تبين عدم ما زعموا (217) وبذلك قضى المولى الحسن على كل أثر للاستعمار المتلبس بالمنطقة، كما حل مشكل حدود مليلية (218) كذلك.

كان السلطان قد أمر بهدم ما وضعه الأنجليز من بناء بعدما طردوا تنفيذا للتحذير الذي علمت به حكومة الأنجليز وأكدته ثم تبرأت من كل تدخل لمصالح الشركة وصاحبها "ما كدونالدماكنزي"، ولما طرد هذا الأخير وأريل أثر اعتدائه ثم أمر السلطان ببناء برج للحراسة(219) في عين المكان تراجعت الحكومة الأنجليزية فتقدمت إلى السلطان بطلب

---

(217) راجع الاتحاف 2/326.44

(218) نفس المصدر44.54.

(219) أورد صاحب تاريخ العلاقات ص : 276.78. أن الشركة شيدت قلعة على صخرة متاخمة للبحر نقلت إليها بضائعها، وفيها سيقتل مديرها المدعو موريس بأيدي المغاربة ويجرح اثنان من رفاقه وقد طالبت الحكومة الأنجليزية بتعويضات عن موت موريس وجرح زميله، كما طالبت بمبلغ خمسين ألف جنيه مقابل الخسائر التي لحقت بمتاجر الشركة وذلك بكتاب إلى وزير خارجية المغرب مؤرخ بـ 10.11.1888م فرد المغرب بقبول تعويضات موريس وزميليه أما مبلغ الخمسين ألف جنيه فقد أجاب أن المغرب سيوجه من يدافع عنه في لندن مادام غير ملزم قانونيا بذلك، لكن الحكومة الأنجليزية لم تقبل الاقتراح ودفع المغرب مبلغا للتعويضات هو 25 ألف ريال =5 آلاف جنيه لموريس وزميليه، ثم بقيت المسألة معلقة إلى أن تم دفع الخمسين ألف بطريقة تحايل موزعة على خمس سنوات، بل ستظهر مغامرات أخرى إثر موت المولى الحسن وهي عبارة عن محاولة نصب واحتيال، دفعت بعض المغامرين وهم عبارة عن خمسة رجال منهم ألماني، وبرتغالي، ويهودي، واثنين من الأنجليز قالوا إنهم يمثلون "رابطة المضاربة" التي زعموا أنها حصلت على احتكارات تجارية وتعدينية في سوس مما أسمته مجلس رؤساء القبائل وذلك في شهر نفمبر 1896م الأمر الذي دعى أحماد بن موسى إلى أن يكتب بعد إلى السير أرثر نيكلسون بتاريخ 14 رجب1314هـ/ 20ديسمبر 1896م يبلغه بعدم موافقة السلطان على ما تدعى النقابة..ثم أتبعه بكتاب آخر بتاريخ مارس 1897م ينبه فيه إلى أن أي محاولة من جانب أي شخص لإنزال أي بضائع على ساحل السوس سوف يترتب عليها اعتقال لصاحبها وتسليمه للقنصل البريطاني، وفعلا ذلك ما حصل للميجر "سبيلسبوري" الذي تحدى ذلك بل حتى أوامر نيكلسون متعللا =

تعويض قيمته خمسون ألف جنيه "حسما للنزاع" طلبته باسم شركة ماكنزي، واستعدادا لهذا الموقف الحقير من الحكومة الأنجليزية بدأت اتصالاتهم مع فرنسا للتفاوض على حساب المغرب الذي علمت أن لا أمل لها فيه، ودامت تلك الإتصالات إلى أن تم الإتفاق السري بين الدولتين بتاريخ 5.8.1890م نص على أن الجزائر وما خلفها تخضع لفرنسا وكان القصد بما خلفهاإقليم توات والساورة، الأمر الذي دفع فرنسا هي الأخرى إلى أن تطمئن لتوغلها في المنطقة انتي أشرنا إلى أنها وجدت مبررا لذلك عندما قتل الجاسوس الفرنسي بالاتPALAT ومعه اثنين من أهل توات لغنانمة بحاسي الشيخ منذ 1304هـ/1886.

وهكذا نجد أن بريطانيا اختارت لعملها المفضوح ضد المغرب ظرفا أصبح المولى الحسن فيه يعاني صحيا وقد ظهرت عليه أعراض مرض أليم في الكبد والكليتين، وذلك من كثرة ما طال ركوبه على الفرس الذي جال به المغرب شرقا وغربا، شمالا وجنوبا حتى استقباله للسفراء الذي اشتكى منه بعض الأنجليز كان على ظهر جواده، الأمر الذي انتهى أخيرا إلى اقتناع أمثال القنصل ريد جواي، اقتداء بهاي أن يقرر أن : عرش سلطان المغرب هو جواده، ومن أجل ما أصيب السلطان به أصبح يسير شؤون الدولة أكثر بواسطة آل الجامعي أخواله ثم بواسطة أحمد بن موسى بن أحماد، وإذا ما كثرت مشاكل الحدود الشرقية بسبب حملات المجاهدين التي وضع لها حد بأمر صارم، لكن ذلك لم يزد الفرنسيين إلا تماديا إن لم نقل تحديا، ورغم أنه وجه العناية لتلك الأقاليم بالقدر الذي أمكن، فإن قوة العمال لا تجدي ولاتحول دون تحديات الفرنسيين المتكررة في المنطقة، وإذا كان اهتمام الفرنسيين بالمغرب قد تزايد في السنوات الأخيرة، فإنهم لم يتركوه دون جو اسيس ممن هم على شاكلة عبد السلام الوزاني الذي كان عملاؤه يحملون الأخبار من كل جهة حتى من داخل القصر مقابل ما كانت قنصلية فرنسا قد

= بمعاهد 1856م، لكنه ألقى عليه القبض والمشار إليهم ثم حوكموا صوريا..إلخ، راجع تاريخ العلاقات ص : 300ـ 301 ـ 302 والإتحاف 1/382.383 وفيه خلص أجمد بن موسى تلك القلعة التي شيدت بالطرفاية المسماة «نرف وست أفرك» ببلاد قبيلة تكنة بمقابل من يد الأنجليز هو خمسون ألف جنيه في الاتفاقية ذات الخمسة بنود، المجاب عنها بتاريخ 16 رمضان1312هـ. راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية أو مديرية الوثائق ملف «سانتاكروز».

رصدته لذلك من عمولة لم يتورع الوزاني في الجهر بها، وهو ما كان حديث الساعة وقتها، وقد انشغل به السلطان نفسه، وبرد الفعل الذي أحدثته أوامره المعاكسة لمنشور الجهاد الذي دعى إليه محمد العربي الدرقاوي، ثم قضية قتل وإحراق محمد والطالب اليوسي التي كان سببها أنصار الشيخ الذين أشعلوا فيه النار، ثم قضية آيت أمجيلد وآيت شخمان الذين قتلوا ابن عم السلطان سرور بن إدريس بن عبد الرحمان ابن السلطان المولى سليمان ثم قطعوا رأسه و55 معه لمجرد أنه ذهب لجباية الخراج منهم عام 1305هـ/1887م وهم سدنة الشيخ محمد العربي وأتباعه الذين لم تصلهم أوامره التوجيهية بعدما عاد المجاهدون منهم من الذين كانوا ملازمين لداره وملتزمين بالجهاد ضد الفرنسيين بأمره، عادوا إلى خيامهم ليجدوها نهبا لمحمد احمو الزياني الذي ما كاد يتحقق من أوامر السلطان ضد منشور الجهاد حتى أطلق أيدي أصحابه لنهب ديار وأسر الغائبين، ولما رفع الخبر إلى السلطان لم يفعل شيئا، لأن أحمو كان عمدة له في المنطقة، وإن كان لم يحقق أكثر من ولاء قومه الذين كان مسيطرا عليهم بجنود الدولة البالغ عددهم ستمائة، وضعوا رهن إشارته، وبجانبه آيت امجيلد التي لم تكترث به ولا بسلطة المخزن، وإنما ولاؤها وأوامرها من بومية شمال أنكزمير إلى أمريرت وعين اللوح ثم أزرو للذين كانوا أندادا لمحمد احمو وهم واعزيز المطيري الذي طالما كتب الرسائل المطولة إلى السلطان ضدمنافسه محمد أحمو فلم يلتفت إليه، ولذلك تحولت منطقة آيت مجيلد وبني مطير الممتدة عشرات الآلاف من الكيلومترات المربعة بغاباتها وجبالها وسهولها الغنية، إلى شبه مستقلة لم تصلها أحكام السلطان التي كان يعترف بها واعزيز(220) ثم هو يدعى العجز بدهاء مما كان محمد احمو يكذبه ويثير السلطان ضده لا بالمراسلات المؤيدة زورا من الجيش(221) المرابط بأرض محمد احمو فحسب، بل وبما كان يرسل من آلاف الأغنام ومآت البقر المنهوبة من الآخرين(222) إلى بيت المال والحاشية حتى إن رسل محمد احمو الزياني إلى السلطان في المناسبات كانوا يلاقون من عناية الجميع ما لم يعرفه سواهم، وذلك طمعا في ما كان يأخذ ويعطي.

---

(220) راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية.

(221) المصدر السابق وفيه رسائل التظلم من إيشقيرن وآيت شخمان ثم مراسلات واعزيز وآيت امجليد.

(222) نفس المصدر.

كان السلطان قد انتهى إلى اقتناع بفساد قبيلة آيت مجيلد ورفضها الطاعة حسبما توفر لديه من مراسلات محمد احمو المشار إليها، والتي حقق في شأنها وبواسطة باشا مكناس، حم بن الجيلالي(223) الذي تابع الهوى حتى لا يغضب الحاشية أما محمد احمو فقد كان معه على طرفي نقيض بسبب تظلم بعض آيت عرفة وجماعة لحسن البومدماني لمطيري من جماعة محمد احمو(224) وهكذا لم يبق أمام السلطان وقد انتهى من مشاكل أساكا وأركسيس ثم هو علق مطالب الأنجليز بالتعويض عن القصبة إلا أن يهتم بالجانب الشرقي من المملكة حيث الفرنسيون وهذا الاهتمام يجب أن يكون من قريب ولا مكان أقرب من تافيلالت، لكن قبل أن يفعل وجب ان يتدبر أمر آيت مجيلد التي أصبحت سائبة والتي توجه إليها يوم الأحد 15 شعبان عام 1305هـ/1887م بأكبر قوة كانت تتوفر عليها الدولة وقتها سواء في الجيش أو السلاح بما فيه المدفعية الثقيلة ولم يكتف بذلك بل استنفر القبائل المجاورة ضدها(225) ثم أمر الجميع بتدمير القرى وإحراق الزراعة واقتلاع الأشجار بعدما فر أهلها مشردين إلى الجبال، بحيث لم يبق في أرضهم من مظاهر العمران غير تلك التي لم تصلها أيدي الجنود والمستنفرين، ولما حقق السلطان فيهم ما أراده محمد احمو الزياني كتب بذلك وصفا مسهبا في شكل نشرة إعلام بعث بها إلى الولاة في مختلف نواحي المغرب(226)، وكان قبل سنة قد فعل مثل ذلك برجال قبيلة نتيفة كانوا قد رفضوا طاعة عاملهم عبد الله الزناكي(227) وكان على السلطان بعد

---

(223) المصدر السابق.

(224) الإتحاف 2/249، وحول ما أنجزه في المنشور الموجه إلى حمو بن الجيلاني باشا مكناس في نفس المصدر ص: 244 وحول الإتفاق على التعويضات مع الأنجليز جـ 1/382.83.84.

(225) راجع الإتحاف 2/249.54.

(226) المصدر السابق 252 وخزانة المؤلف وفي مقدمة المنشور الذي يعترف السلطان فيه أن الأحكام لم تشملهم منذ وقعتهم الشنعاء مع السلطان المولى سليمان عام 1234هـ، ولعل المنشور هنا لم يثبت كاتبه لأن الوقعة كانت مع آيت شخمان فهم المتهمون بقتل ولي العهد إبراهيم بن سليمان في الوقعة التي عاشها المؤرخ أبو القاسم الزياني إلى جانب السلطان كما عاش مثلها مع نفس القبيلة أيام السلطان محمد بن عبد الله، من أجل رفضهم تولية محمد بلقاسم الزموري، راجع البستان والترجمانة. ثم الروضة السلمانية.

(227) الإتحاف 2/248.

كل ماسبق وحتى يضع قبيلة آيت مجيلد في موقف لا تحسد عليه أن يخلق لها عداوة مع بقية القبائل المجاورة، بل وفيما بين أفخادها كذلك، ولم تكن له من وسيلة غير إلزام الذين يحل بينهم، بين مرحلة وأخرى أن يقوموا بتموين المحلة، وبذلك ينقمون على الذين جروا عليهم سياسة النهب والتفقير، وهكذا بدأت العملية من أغر ديس جوار آيت يحمد التي ينطقها اللهجة البربرية هناك بالنون وفيهم فرض التموين على آيت الربع منهم، وعاملهم، المسؤول هو القائد حم وعزيز، ومنه لآزرو، وبلاد نصف آيت "يحند" قائداهم القائد زايد، والقائد المختار، ومنه إلى تيمد غاس بلاد شقيرن، آيت يعقوب وعيسى، وقائداهم ولد العريف ومحمد وبناصر، ومنه لتنغيرت بلاد إشقيرن آيت أحمد اعيسى وإمزناتن وآيت إسحاق، وقائد آين أحمد اعيسى غدان، وامزناتن القائد بوعزة العبد الكريمي،والقائد على ألحسن البويعقوبي، ومنه لادخسان بلاد القائد محمد احمو الزياني، ومنه لقصر آيت سيدي العربي إيالة القائد محمد بن الطيب الزياني المرابطي والقائد محمد بن عمر الزياني، ومنه لمنطقة وادي يفران التي لم يمون فيها أحد، ثم إلى جروان وبني مطير، ومنه لأمغاس، والتموين أيضا مشترك بين جروان وبني مطير، ومنه لأداروش كذلك، ومنه لأخنيك كذلك. ومنه للبريدية، جروان ومنه لمدينة(228) مكناس وبذلك كانت هذه الجولة بالإضافة إلى ما حل بآيت امجيلد وسيلة لإضعاف القبائل المذكورة وكسر شكوتهم، مما مكن السلطان بعد من التفرغ للسياسة الخارجية التي كان الأنجليزيون وقتها قد شعروا بالضعف في موقفهم الذي انتهى إلى غير ما تعودوه من السلطان، ويعود إلى أسباب كان القنصل الأنجليزي الذي أزمن في وظيفته طيلة واحد وأربعين سنة قد انتهى إلى نهاية العقد التاسع من عمره، وكان عليه في هذه المرحلة أن يفسح المجال من تلقاء نفسه لمن هو أصغر سنا وأقدر على خوض ما يستقبل من المعارك، وحل ما هو قائم من المشاكل التي منها مشكل تعديل معاهدة 1856م التي أصبحت في بعض امتيازاتها التجارية شبه مزاحمة من الآخرين، وكذلك مشكل ماكنزي وشركة شمال غرب إفريقيا

(228) المصدر وثائق خزانة المؤلف، ثم راجع الإتحاف 248/2 أما أقسام آيت امجيلد الكبرى فهي : آيت عبدي، وآيت إلياس، وآيت مرغول، وآيت امحمد الحسن، وآيت واحي، وآيت مولي كما أشرنا وهي التي عمها نكال السلطان 1305هـ/1887م.

ومشكل ضريبة الصادر والوارد وما يرجى لهما من تخفيف،إلخ.. وكل ذلك خاضه السير هاي، سواء مع وزارة الخارجية التي على رأسها غريط محمد بن المضل، أو مع السلطان نفسه الذي يقول هاي وبكل مرارة إنه لم يعد يشعر بما كان له وما يحفظ من ثقة وصداقة منذ عهد المولى عبد الرحمان، ونسي السير درمند هاي، أنه كشف نفسه سواء بالنسبة للسلطان أو حتى للذين كان يذلهم بأنواع الرشاوي، كما أبان حين وقف ذلك الموقف من قضية ماكدونالد ماكنزي، التي أنساه الدفاع عنها ظلما وعدواناكل خلق وكل مروءة إلى درجة التصريح للمغرب سلطانا وحكومة أن ما خلف وادي درعة ليس من المغرب ولا هو من ممتلكات السلطان، مع أن حكومته أخيرا اضطرت أن تستفتي مستشاريها في موضوع الدفاع عن الشركة المذكورة، فأجيبت بعدم المشروعية، وكان على هاي وهو المحنك أن يعرف ذلك وينبه له، بل وأن يكون إلى جانب السلطان المستمسك بالحق، لكن فكرته الاستعمارية والطاعة لتخطيط دهاقنة الاستعمار الذين ألفوا نشر ألوية بريطانيا في العالم باسم التجارة التي تسبق الاحتلال، جعلت السفير ينساق ثم ينسى علاقة الود والثقة كما أشار مدة أربعين سنة، وكما عبر في رسالة التوديع التي بعث بها إلى غريط بتاريخ فاتح يونيه 1886م/1304هـ، والسلطان وقتهافي رحلته السوسية، وقبل أن يكتب ليودع، كتب استقالته ثم اقتراحه بالذي يليق مكانه وهو "كيربي كرين" الذي كانت شهادة وترشيح هاي يكفيان لجعله في نظر حكومة بلاده أهلا للقيام بالمهمة التي كان يقوم بها هاي، والذي رغم كل ما سبق فقد كان إذا قيس بكل الذين قبله أو بعده من مختلف القناصل الأوربيين فهو أحسنهم "مروءة ودراية". عند السلطان وبعض حاشيته؟!

قدم كيربي كرين أوراق اعتماده إلى السلطان بمراكش يوم 20.4.1887م "1305هـ" ثم قدم معها هدية إلى أحد أبناء السلطان الذي قيل إنه كان يبلغ من العمر ثمان سنوات، وهي عددا من الأفراس السيتلاندية الصغيرة، التي قيل أدخلت السرورعلى قلب السلطان، لكن كرين لم تكن مكانته مثل سلفه الذي عاصر حياة الجد والإبن والحفيد من السلاطين، ولذلك لم يكن لآرائه ولا لنصائحه سواء المكتوبة أو المنطوقة أي أثر، وبذلك كتب كرين إلى وزير خارجية بلاده اللورد سولسبوري في المذكرة التي وجهها بتاريخ

25ـ1887م وفيها ما يستدل به على عكس ما توسم فيه هاي لأنه تجاوز الحد أى فرض نفسه على السلطان أو كما توهم أن من واجب السلطان استشارة القنصل الأنجليزي في كل عمل يريد الإقدام عليه مع دولة أخرى، وحول ذلك يقول كرين "إن السلطان قد وافق على أن يؤجر للفرنسيين منطقة بالقرب من فجيج، وأنه قد أعطى تصريحا بإقامة سوق بالقرب من وجدة، يكون مسؤولا عن إجراءات العدلية به موظفان أحدهما فرنسي والآخر مغربي، وقد شكا كرين أن المولى الحسن قد اتخذ هذه القرارات دون استشارته أو إبلاغه قبل اتخاذها، مخالفا بذلك التعهد الذي كان قد قطعه على نفسه للسير جون درمند هاي؟ وكان هذا الوعد يقضي بوجوب استشارة السلطان للوزير البريطاني، في المغرب، بالنسبة للمشاكل التي تنشأ حول الحدود مع الجزائر؟؟

هذا ما افتتح به كرين حياته كقنصل بالمغرب، وهو في رسالته بتاريخ25ـ1887م يعترف أن مثل هذه الآراء إنما يستمدها من معلومات بوبكر الغنجاوي مندوب القنصلية بمراكش، وإن كان يقرر في نفس الرسالة تزعزع مكانة الغنجاوي، وعدم فعاليته كذي قبل زمن هاي، وكأنه حسب قول كرين إنما كان يستمد ما كان له من القنصل المذكور، وتلك هي الحقيقة لأن هاي كان يوزع الرشاوي بواسطة الغنجاوي، وكرين لم ولن يفعل لأن وزارة الخارجية لا تمده بذلك.

وهكذا إذا ما قر في ذهن كرين أن الحكومة المغربية وعلى رأسها السلطان الذي لم يعد الأنجليز عنده كما كانوا بالأمس فإن ذلك ما سجلته عليه وزارة الخارجية التي أصدرت تعليماتها إلى كرين للتشاور مع زميليه الأسباني والإيطالي في طنجة، والحصول على موافقتهما بتقديم مذكرة ثلاثية إلى السلطان، وقد قبلت الحكومتان الأسبانية والإيطالية الاقتراح وتم إرسال المذكرة بالفعل في 12ـ3ـ1887م وجاء فيها : إن التعليمات قد صدرت إلى الوزراء الثلاثة من حكوماتهم، وهي تقضي بتنبيه السلطان أن هدفها الأساسي هو الحفاظ على استقلال المغرب ووحدة أراضيه، وكان مفروضا أن السلطان سيرحب بالمزايا التي يمكن الحصول عليها من قبول ما تعرضه عليه تلك الدول، ومن ثم طلب ممثلوها من جلالته الشريفة التعهد رسميا بأنه لن يوافق في المستقبل على تقديم أية تنازلات إقليمية دون التشاور المسبق مع ممثلي الحكومات الصديقة الثلاث"وامغرباه"؟؟؟

أية محنة تلك التي أصبح المغرب يقاسي منها وأي مستقبل هذا الذي كان ينتظرالمغرب بعد مؤتمر مدريد الذي أصبح المغربي معها وكما قلنا قبل لا يستطيع التحرك داخل داره دون إذن أو استشارة، حسب رغبة كرين الذي توفي المسكين فجأة دون أن يحقق شيئا مما ظن هاي أنه سيقدر عليه، وذلك بتاريخ آخر فبراير عام 1891م/1309هـ ليحل مكانه "تشارلز إيوان سميت" الذي عين يوم 16ـ5 ثم حل بطنجة يوم 3ـ12ـ1891م لكن سميت كان يختلف عن سلفه، فقد كان ولربما قد ألبس ثيابا أكبر منه حجما، وكلف عملا أكبر من عقله إذ قبل أن يصل إلى المغرب بما يقرب من سنة كان قد حصل اتفاق أنجليزي فرنسي في لندن بتاريخ 7ـ8ـ1890م حول ترك زنجبار وممبسا لحماية الأنجليز، ومدغشقر لحماية فرنسا، وبسبب ذلك أشيع أن الإتفاق تم بين الدولتين على ترك المغرب لفرنسا، وهذا بلا شك كان من الإشاعات التي روجت قصد تعكير الجو في طريق القنصل الجديد سميت، وإن كان الذي وجه إليه وزير الخارجية غريط الاستفهام حول صحة الخبر بأمر السلطان إنما هو القائم بالأعمال قبل قدوم القنصل وهو "هوايت" لأن الكتاب بتاريخ 22صفر1309هـ/27ـ9ـ1891م وكان هوايت هذا قد تلقى رسالة من الغنجاوي بتاريخ 9ـ9من نفس السنة يقول فيها "إنه تسري إشاعة في البلاط السلطاني بأن الفرنسيين والبريطانيين قد عقدوا فيما بينهم صفقة يترك لفرنسا بمقتضاها حرية التصرف في تافيلالت وتوات، في مقابل الاعتراف الفرنسي بالسيطرة البريطانية على زنجبار، وقد أبدى السلطان اهتماما كبيرا بهذه الإشاعة التي وصلته من عدد من الممثلين الأجانب"(229) وليس هذا فحسب، بل الفرنسيين كذلك كانوا قد كتبوا إلى السلطان يطالبونه بعدم التدخل في العقاب الذي يريدون إنزاله بأهل توات الذين اتهموا بقتل الكولونيل فلاتزر، وقد أشرنا إلى أنهم غير مسؤولين عن قتله، بل جماعة الشيخ محمد العربي الدرقاوي بقيادة على وحدا العطاوي كما أورد "كور" في دائرة

(229) تاريخ العلاقات 284ـ85. ولعل ذلك التشويه للخبر كان من الممثلين الأجانب، وقد زاده الغنجاوي بهارا، ولذلك سنراه يتعرض للاستغناء عن خدماته بسبب نفور السلطان منه، رغم رأى سميت الفطير وأن الفرنسيين هم الذين أوحوا بذلك إلى السلطان، راجع تاريخ العلاقات ص : 286.

المعارف الإسلامية جـ 9/203. وبذلك كتب محمد العربي الطريس يخبر هوايت الملكف بأعمال القنصلية بتاريخ 15 ربيع الثاني عام 1309هـ/18ـ11ـ1891م، وكان المقصود أخذ الرأي إن لم نقل النصيحة التي تعودها الأنجليز من السلطان، الذي أجيب بأمر سميت، أن يطالب السلطان الفرنسيين بتبرير ادعاءاتهم على كل من توات وتديكلت(230) كل ذلك وجده سميث أمامه ولما يتصل بعد بالسلطان الذي كان يجتاز مرحلة جد صعبة في تاريخ حياته السياسية والصحية، بل وعندما قدم سميت إلى المغرب كانت فرنسا قد أعدت برنامجا بلا شك للقضاء على مكانة الأنجليزيين في المغرب ولدى السلطان، وذلك بالشائعات التي لم يكن مستوى الوعي قد ارتقى بعد إلى تأويلها أولا، ثم بخلق المشاكل للمغرب قصد التخريب على الحدود الشرقية ثانية، وبدفع ضباطها في الجيش والبلاط إلى الصراع مع الأنجليزيين هاري ماكلين وشقيقه ألان ماكلين أيضا، كما وأنه كان لابريطانيا وقتها ما يشغلها في الشمال الشرقي من افريقيا عن غربها، خصوصا وأن العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر عرفت مشكلة خط الاستواء، وثورة السودان، ومؤامرة غوردون، وعرض عضلات كاتشنر، والخطوط الأولي لتاريخ حرب النهر، كما كتبه وَسنتون تشيرشيل الذي حضر معركة فاشودة(231) التي كادت تشعل الحرب بين الفرنسيين والأنجليز لكن لم يحصل واستقل الأنجليز بالمشرق كما ترك المجال للفرنسيين بالمغرب الذين نرى وقتها الصراع قد احتد بينهم وبين المغاربة في واجهات مختلفة، وفي مقدمتها الناحية الشرقية، توات التي رأينا كيف وأن الفرنسيين انتهوا إلى مكاتبة السلطان، من أجلها بعدم التدخل إن هم أقدموا على ضرب أهلها بما لديهم من سلاح متطور، ومن أجل ذلك قدم على السلطان إلى فاس شيخ تمّي القائد حسون بن

(230) المصدر السابق 285.

(231) فاشودة قرية من قرى السودان تبعد عن الخرطوم بنحو 459 ميل كان قد استولى عليها الفرنسيون اعتداء سنة 1898م حين هاجمها الجنرال مارشال بجنود كونغوليين. فلم يكن من الأنجليز إلا أنهم أرسلوا إليها كتشنر بقوات كادت تدخل بها مع مارشال في حرب لكن القضية تحولت إلى تفاوض بين الدولتين بريطانيا استقلت بمصر وفرنسا تنفرد بالمغرب الذي كانت تضع حوله الشباك، كما سنرى بعد، راجع مجلة لو لستراسيون عدد 1743 بتاريخ 27 يناير1934 ص : 102ـ4. بل وفي هذه المرحلة أي في العقد العاشر من القرن 19 اشتدت رغبة فرنسا في الإستيلاء على فجيج وما جاورها حيث فكرت في مد الخط الحديدي. وأكثر سفيرها من الإلحاح على السلطان من أجل قبول مده بعد ما تم لهم ذلك بين جنين بورزك والعين الصفرا عام 1893م.

الحاج محمد، فسلمه السلطان رسالة تتضمن تعليماته للمواطنين مؤرخة بفاتح جمادى الثانية 1309هـ/يناير 1892م وكانت الرسالة المذكورة تشتمل على برنامج وضعه السلطان للإقليم بعدما تجمعت لديه المعلومات الكافية عن أحواله وتحركات الفرنسيين الذين إغتروا بترهات عبد السلام الوزاني الذي أصبح يلعن كالشيطان في كل مكان، حتى جماعة زاوية كرزاز التي ظنوا أنها معه كتب أهلها إلى السلطان يتبرؤن بعدما تعرضوا لأنواع المضايقات من بقية القبائل إلى غير ذلك من العوامل والأسباب التي جعلت مقدم القنصل الأنجليزي الجديد غير مناسب، والطريقة التي سيباشر بها أعماله غير مناسبة كذلك.

توجه اسميث من طنجة إلى مدينة فاس حيث السلطان، وليقدم أوراق اعتماده يوم 14ـ4ـ1892م وقد وصلها في يوم 12 منه حيث استقبل في احتفال حكومي وشعبي كالعادة مع القناصل قبل أن يستقبلهم السلطان، وفي يوم 14 منه استقبله السلطان المولى الحسن وقد علمنا الظروف الصحية والمتاعب السياسية التي يعاني منها السلطان، والتي بلا شك كان سميث على علم بها، كما يجب قبل أن يقدم إلى المغرب، أو علم بها بواسطة هوايت حين حل بطنجة، ورغم ما يقال عن دهاء قناصل الأنجليز فإن هذا كان في منتهى الغباء والوقاحة وقلة الأدب كما سجل التاريخ في حقه، وسبب ذلك حسابه الخاطئ، لأنه قدم وفي جعبته من القضايا كل ما تجمع قبل، وما تخلف عن السابقين، وكذاما يريد أن يكتب في سجل خدماته "ويلحقه" بالخالدين، إذ حسب اسميث وبعقلية استعمارية أن ظروف السلطان وما يعانيه شخصيا وتعانيه بلاده سيحتمان عليه المبادرة لقبول مطالب سميث وكل ما في جعبته، وبذلك في إمكانه أن يوجه أول رسالة منه إلى اللورد سالسبوري وزير الخارجية بالنجاح في مهمته كما ألح على ذلك، لكن العكس هو الذي سيحصل لأن سميث حسب أنه ما نقل من شرق افريقيا الذي حقق فيه لبلاده مكاسب في زنجبار وكينيا إلا ليحقق مثل ذلك في المغرب.

كانت المطالب التي حملها تشارلز إيوان سميث عبارة عن برنامج استعماري يريد تحقيقه بدون حملات عسكرية، ولا جيوش نظامية، كما هي طريقة الأنجليز في كل بلد استعمروه، وهذه المطالب هي ما يلي عدا وقد بلغت الستة عشر(232).

(232) لم يتعرض إليها صاحب تاريخ العلاقات وكان من حقه أن يفعل حتى يتبين القارئ أسباب ودوافع الأزمة التي حصلت والتي انتهت بالسلطان القوى الأعصاب إلى قطع العلاقات مع بريطانيا بطريق مؤدب وبدون إعلان إلى أن حصل الاعتذار من الذي حل مكان سميث، راجع المصدر المذكور 86ـ87ـ88ـ89ـ90.

1) تخليص تعريفة تصدير القمح والشعير.

2) حرية تصدير حيوانات الركوب والنقل كالجمال والخيول والبغال والحمير.

3) دخول السفن التجارية جميع مراسي المغرب وحرية نقل التجار لمحصولات المغرب.

4) إنشاء المحاكم المختلطة.

5) إبطال الاسترقاق(233).

6) تحوير إتفاق مدريد وتعديل المادة 11 المتعلقة بالتصريح للأجانب بشراء الأراضي الزراعية.

7) إنشاء وكالة قنصلية بمدينة فاس، ورفع العلم البريطاني عليها.

8) إعطاء امتياز إنشاء خط تلغرافي بين طنجة وأجادير يتصل بالمدن الواقعة على ساحل البحر.

9) أن يخول لشركة أنجليزية الحق في إنشاء بنك باسم الحكومة المغربية.؟؟

10) إنشاء فرق من البوليس بمدينة طنجة يرأسها الضابط الأنجليزي ألان ماكلين"شقيق هاري ماكلين" (وفي هذا وغيره ما يستدل على المهمة التي كان يقوم بها الضابط ماكلين داخل البلاط في المغرب).

11) إعطاء امتياز بمياه طنجة.

12) إنشاء سوق عامة ومذابح عامة بمدينة طنجة.

13) إعطاء الحق للأنجليز بتشييد الحصون الحربية، على هضبة جبل مرشان.

14) إعطاء امتياز شجر الفلين بتطوان والعرائش لأحد رعايا جلاله الملكة.

15) التنازل للدولة الأنجليزية عن عدة أراض تشيد فوقها بناء للبريد الأنجليزي ومكانا لسفارة هذه الدولة بطنجة.

---

(233) قدمت هذا المطلب قبل زمن هاي ووزارة روزبري كمظهر من مظاهر التحرر الأنجليزي أمام ما كان يحدث من مزاد علني في طنجة، لكن جواب هاي على رسالة الوزير المذكور المؤرخة بـ 30/4/ 1886م بناء على طلب جمعية مكافحة الرق للوزارة بتاريخ 13. وقد جاء جواب للقنصل هاي كأحسن ما تلطم به وجوه الذين تركوا ما حولهم من مظاهر الرق المزرية بالأخلاق وكرامة الإنسان، وماكن عليه بنات الأنجليز والمتاجرين فيهن وفي أعراضهن ثم ذهبوا إلى المغرب، راجع تاريخ العلاقات 268، ثم راجع كتاب د. فيسجر بير على عتبة المغرب الجديد ص : 33 ط الرباط1947.

16) اعتراف السلطان بسيادة دولة الأنجليز على رأس جوبي الذي هو من التراب المغربي.

تلك كانت مطالب القنصل تشارلز إيوان سميث التي قدمهادفعة واحدة ثم أراد الجواب عنها دفعة واحدة(234) بعد مقابلة يوم 14ـ4ـ1892م /1310هـ. وتقول المصادر التاريخية أن القنصل أغلظ القول للسلطان ظنا منه أن ذلك يوصله إلى مراده، مما يستدل به على جهله بالمغرب والمغاربة، حتى إن التسعة أسابيع التي قضاها بفاس، وعلى مقربة منها حصل أثناءها على أربع جلسات مع السلطان، زاد كل منها على ساعتين ونصف، أفاد منها السلطان حقيقة وطبع القنصل الخفيف النزق بل البليد، أو كما وصفه قومه :نافذ الصبر" الذي انتصرت عليه رصانة السلطان وتحكمه في أعصابه رغم إصابته بالمرض الذي يعاكس ذلك، وهو مرض الكبد والكلي، بل إن السلطان كان يعلم أنه انتصر على القنصل القليل الأدب حين دفعه ليكتب إلى وزير خارجية بلاده اللورد سالسبوري، معربا عن فشله، وذلك بتاريخ 31ـ5ـ1892م حيث قال أنه قد عقد مع السلطان أربع جلسات زاد كل منها على ساعتين، ولم يحرز على تقدم يذكر(235)، بل زاده فشلا تعيينه نائبا للقنصل بفاس وهو شخص اسكوتلاندي قبل العمل بدون راتب، وكانت ترجمته معروفة بخزي، ذلكم هو"ماكيفر ماكلويد" الذي صدر تعينه قبل أي استئذان من السلطان بتاريخ 7 يوليوز 1892م، وما كاد الخبر يصل إلى السلطان حتى رفضه رغم نص معاهدة 1856م متعللا بعدم ضمان الأمن للقنصل المذكور بفاس، لأنه اشتهر كنصاب أولا، وبخلق غير محمود «أي مأبون» ثانيا(236) وبذلك كتب وزير الخارجية المغربي إلى

(234) وبعض هذه المطالب تقدم بها بعض ذوي الحماية الفرنسية راجع الإتحاف 2/319ـ323. وعن مطالب اسميت راجع موسوعة وجدي8/717 ووثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي ملف المولى الحسن وعلاقات المغرب الخارجية، ثم سجل قضايا الحدود الموقع بين المغرب وفرنسا غلاف أسود وبه 450 قضية وعليه توقيع الطريس عن المغرب وحاكم مشريه بالجزائر.

(235) تاريخ العلاقات 286ـ87ـ88. بل تعددت كتابات اسميث بذلك إلى درجة أنه ضاقت به الأرض بمارحبت.

(236) لقد كان للكومندار الفرنسي طبيب البعثة الفرنسية"لينارس" تدخل في الموضوع عند السلطان، عرف بكل تفاصيله، ولولا الإنتخابات التي أبعدت حزب المحافظين ومعه سالسبوري لكان الموقف قد تحرج أكثر، لكن جلادستون الذي حل مكان زميله في وزارة الخارجية أبعد سميث، ومع ذلك هبط ميزان الحرارة التي كان يحافظ عليها هاي. راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية أو مديرية الوثائق الملكية ومراسلة السلطان مع الأنجليز في الموضوع.

السفير بعد أربعة أيام على التعيين، وبعدها بأسبوع كتب السلطان رسالة إلى ملكة بريطانيا حول تصرفات سميث الغير اللائقة ثم سلم الكتاب إلى سفير فرنسافي لندن "راد نجتون" الذي استلمه بواسطة حكومة بلاده ثم سلمه إلى وزارة الخارجية الأنجليزية، بتاريخ 10ـ8ـ1892م ولربما كان ذلك قصدا رغم أن راد نجتون زميل لخصم وعدو قديم هو "أورديجا" الذي مارس اللعبة مع عبد السلام الوزاني الذي سيقبر في هذه السنة نفسها، بل إن السلطان لم يقف عند ذلك الحد في إظهار غضبه، بل زاد فأهمل كل ما يرد من وزارة الخارجية الأنجليزية من مراسلات لم يجب عليها، وبذلك عرف كيف يؤدب الأنجليزيين الذين ضاقوا ولم تتحسن العلاقات إلا عندما اضطرت وزارة الخارجية إلى استشارة هاي الذي أوحى إليها بإرسال مبعوث خاص إلى السلطان، فوقع الاختيار على المستر "دي فيم دي بونتيية" الذي حمل معه رسالة من المستر ليوت تضمنت الرغبة في استعادة العلاقات الودية، كما صرح فيه بأن الملكة لا تقبل من ممثلها استعمال لهجة قاسية أو جافة، ووقتها رد وزير الخارجية على رسالة اللورد روزبري بتاريخ 14 جمادى الأولى 1310 هـ/دجنبر 1892م ومع ذلك بقي فتور في العلاقات طالما أفصح عنه ممثلوا بريطانيا، وطرب له الفرنسيون، وتضرر في الأخير منه المغرب والمغاربة، لأن بريطانيا لم تجد بدا من التنازل لفرنسا بطريقة قيل عنها إتفاق سري 1904م بيد أنه مكشوف ومفضوح، كما سنرى، لكن المغاربة سلطانا وشعبا كانوا قد أصبحوا مستهدفين للشر من جماعة من المرابين والخونة المفلسين، أولئك هم الذين باعوا أنفسهم للشيطان بعد موت أحماد بن موسى 1900م/1318هـ يتقدمهم العباس الفاسي وعبد الكريم بن سليمان ومحمد كاباص (الجباص) والمهدي لمنبهي كما سنرى.

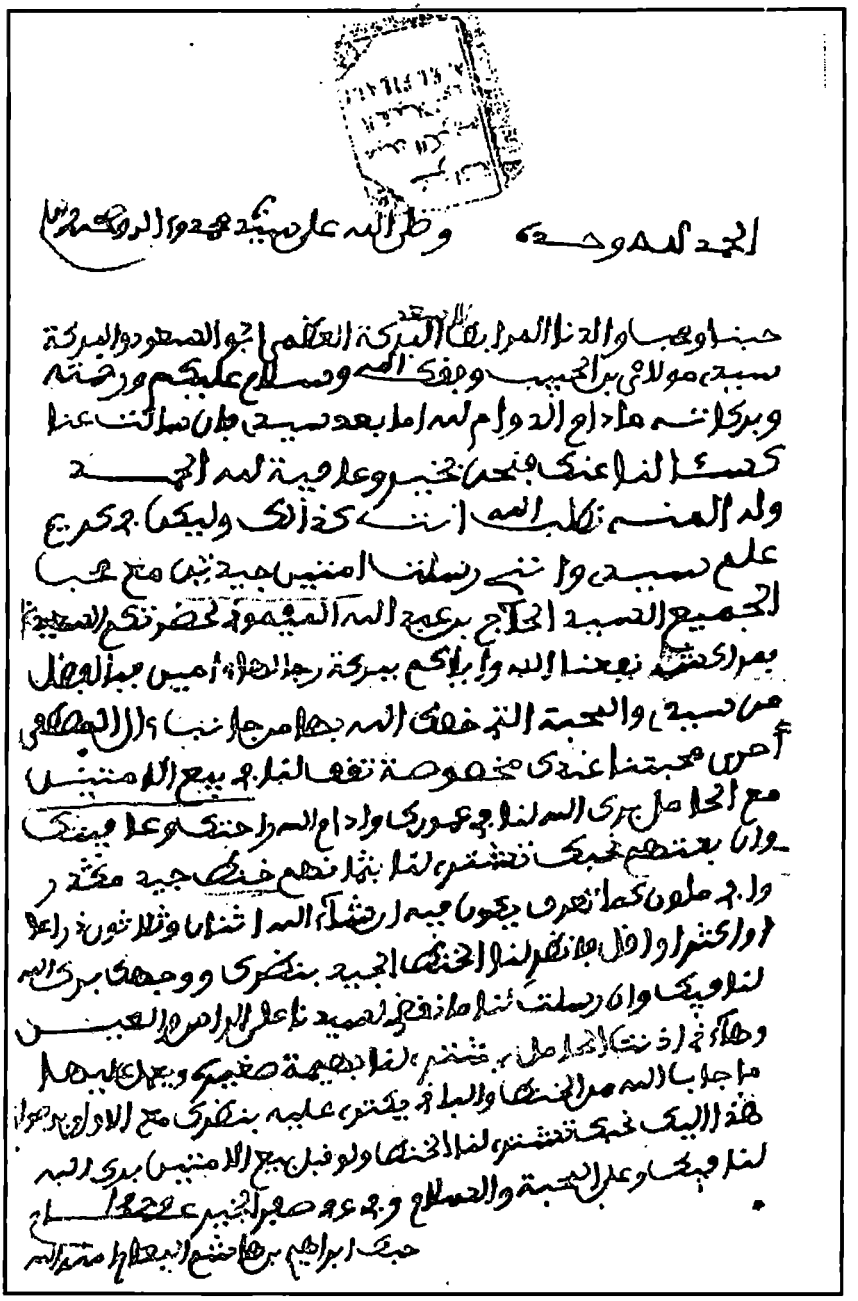

سوق النخاسة بين تافيلالت ومدينة مراكش آخر القرن 19

الفيلاليون والتجارة مع السودان والمستوى الذي كانت عليه عام 1280هـ/1863م

الفصل التاسع والستون بعد المائة

العاهل الذي صارع الموت على ظهر جواده

كان الفرنسيون كما رأينا قد ركزوا على الأقاليم الشرقية الجنوبية، حيث وضعوا لها مخططا أخذوا يطبقون منه ما تيسر تطبيقه، سواء بإستعمال القوة أو بتهديد العزل، لكنهم أخيرا صمموا على إستعمال القوة ضد أهل توات الذين قيل إنهم قتلوا الضابط فلا تزر وجماعته، بيد أنهم لم يكونوا، وقد أشرنا إلى الذين قاموا بذلك، وهم أيضا الذين سيقومون حتى يقتل دوفوكو بآيت العباس، كما سنرى وإذا ما صمم الفرنسيون على ما أعلنوه فإن على السلطان وهو المسؤول الأعلى أن يبرهن لهم أنه غير مستعد للتنازل عن أحد من أبناء شعبه وهو نفس الموقف الذي سبق لوالده بجانب أهل أنجرة مع الاسبان، وحتى يبرهن على ذلك كان عليه أن يقوم برحلة إلى الجنوب، وأقرب مكان يتردد فيه صداه ويعتز به أهل توات هو تافيلالت التي أصبح عاملها وخليفته بها صنوه الرشيد بن محمد بن عبد الرحمان، هو المسؤول عنهم، ورغم أن حالة السلطان الصحية لا تسمح له بالقيام بمثل ما إعتاد من رحلات، والتي لو إستشار وقتها حكيما لمنعه منعا، إلا أنه رغم ذلك تحامل على نفسه بدافع أن لا شيء ولا أحد يقوم مقامه في المهمة التي أزمع القيام بها، وإذا هو صمم العزم فإن الذي راج وانتشر أنه من أجل ما عرفت المنطقة من أعمال أظهرت الدولة بمظهر الضعف، وكلها في الواقع كانت كرد فعل من الذين جرحوا معنويا من أثر موقف السلطان من منشور الجهاد الذي أصدره الشيخ محمد العربي الدرقاوي، وقد أشرنا إلى الذين عرفوا بأعمالهم تلك في كل من آيت شخمان وغيرها، وهؤلاء الذين هم في طريق رحلة السلطان وهم قبيلة آيت ازدگ وما حصل لمحمد والطالب اليوسي بأيديهم وماحولهم من قتل وإحراق، وهناك قضية المتمرد علي بن يحيى المرغادي، وتمرد بعض آيت حديدو، ثم يتأتى الإتصال بقبائل الناحية الشرقية وأهل قصور توات.

وإذا كانت الرحلة ستبتدئ من فاس يوم الخميس 14 ذي الحجة عام 1310هـ/1893م فإنه قبل ذلك أرسل السلطان الى ولده الأمير محمد الذي كان وليا للعهد والخليفة بمراكش كي ينهض ويتوجه صوب إقليم تافيلالت، وإذا ما خرج السلطان متجها نحو طريق صفرو فإن جيشه النظامي المكون من خمسة عشر ألف معززا بما لديه من سلاح خفيف وثقيل سيلتقي بجيش المستنفرين المكون من قبائل حوز مراكش والسوس بقيادة الأمير محمد في المكان المعروف قصر السوق يوم 19 ربيع الثاني من نفس السنة، وفي السابع والعشرين منه، يحل السلطان بضريح جده المولى علي الشريف بتافيلالت حيث أسرته التي يوزع على أفرادها مبلغ عشرين ألف ريال حملها الأمير عبد العزيز وصنوه أبو الغيث(237) ولعل ما قام به في هذه الرحلة قد كتب كالعادة في رسائل الإعلام التي كان يوجهها حسب المناسبات إلى الولاة(238) وقبل أن يغادر تافيلالت إتصل برجالات قبائل الناحية الشرقية وإقليم توات وكرر تعليماته السابقة باليقظة وعدم التصادم مع الفرنسيين الذين عرفوا كيف يتصرفون وقتها حيث لم يظهر منهم ما يزعج إلى أن مر السلطان، وقد كانوا يعرفون أن الذين يخيفونهم إنما هم أولئك الذين كانوا يستجيبون لنداء الجهاد وتحملهم لمتاعب حرب العصابات، وهم أتباع الشيخ محمد العربي الدرقاوي، وكذا أبو عمامة وأخوه القائد المهدي ورجالهما، وهؤلاء تعرضوا لجرح لم يندمل بعد فأبو عمامة كتب السلطان قبل في حقه إلى أهل الناحية الشرقية بما فيهم أهل فجيج، وهو حتى يحولوا بينه وبين قصور هو وهم العدو اللدود للفرنسيين الذين أذاقهم الحنظل كما يشهد تاريخ المنطقة وتاريخ الفرنسيين الذين لا يلقبونه بغير العدو(239)، أما

---

(237) الأمير أبو الغيث هذا فقد الذاكرة من يوم وفاة والده حيث أصيب بصدمة من أثر تصرف أحماد بن موسى معه في موضوع طويل كما رويت من أحاديث مربيته الخادمة حبيقة الفيلالية لوالدتي زمن طفولتي وقد كان من أحب الناس إلى نفسه والدي، حيث كان يجد منه العناية اللائقة ومن والدتي طيلة أربعين سنة، إلى أن توفوا جميعا بالقصر الملكي من مدينة فاس في ظروف متقاربة لم تتجاوز السبعينات رحم الله الجميع.

(238) راجع الإتحاف 2/267-273-276 وقد تناول كثير من المغاربة هذه الرحلة، راجع الخزانة العامة بالرباط 633د. ووثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية ملف تافيلالت ولسوف نتناول حوادث هذه الرحلة بعد في ترجمة الشيخ محمد العربي الدرقاوي رحمه الله.

(239) راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية، ودائرة المعارف الإسلامية جـ 9/202 وما بعدها وكتاب: على عتبة المغرب الجديد للدكتور فيسجرمر/128 ط الرباط 1947. وفيه سماه ب "الخصم العنيد لفرنسا".

أنصار الشيخ محمد العربي فقد أصبحوا بمعزل عن توجيهاته يكنون للدولة العداء يقول أكور في دائرة المعارف الإسلامية(240) وكما سنرى بعد حين كلامنا عن الشيخ محمد العربي الهاشمي وأصول المقاومة في المغرب الكبير.

لقد رحل السلطان من تافيلالت يوم 15 جمادى الأولى مدفوعا للعودة وباستعجال الى مدينة مراكش التي كان قد استقبل بها المارشال مارتينيز سفير إسبانيا الذي وقع مع المغرب الاتفاقية حول مليلية وبمقتضاها يدفع المغرب تعويضا لاسبانيا يبلغ 2300000 ريال، ومن مراكش قرر العودة الى فاس بعدما يكون قد صام رمضان وقبل أن يغادرها عقد لنجله الأمير الصغير عبد العزيز يوم الخميس 12 ذي القعدة كرمز على جيش لا يستهان به ثم وجهه أمامه إلى الرباط، يقول صاحب الاتحاف ليكون خليفة لوالده بها، وإثره بثلاثة أيام رحل السلطان من مراكش لكن توفي رحمه الله بدار ولد زيدوح من قبيلة بني موسى بتادلة، في الساعة الحادية عشرة من ليلة يوم الخميس 2 حجة متم 1311هـ(241) يونيو عام 1894م متأثرا بوباء الكبد والكلي وهو في محفته أثناء رحلته 19.

ولم يعلم به أحد غير أم ولده عبد العزيز رقية الشركسية، التي رفعت الخبر عن

---

(240) هاجمه الجاسوس المشهور التلمساني المتفرس الذي هرب من القتل بخيانته عبد الوهاب بن منصور في أعلامه، فقد وصفه بالخيانة التي وصف بها الشيخ محمد العربي، راجع جـ2/77 ط 1979، بل إن الجاسوس المشهور عبد الوهاب بن منصور غلام إبراهيم الوزاني الذي سنتعرف على ترجمته كاملة بعد في الأربعينات هو عميل إدراة الشؤون السياسية الفرنسية بالرباط، وتلمسان في عهد الاستعمار، والذي فر متنكرا من رصاص المجاهدين أيام الثورة الجزائرية: وضع كلا من: أبو عمامة البوشيخي ومحمد العربي الهاشمي، وعبد الملك بن الأمير عبد القادر الجزائري في صف الجيلالي بن إدريس اليوسفي الزرهوني المعروف بأبي حمارة، راجع أعلامه 2/72-93 ط الملكية الرباط 1979م، ولذلك حق لإخواننا الجزائريين أن يحسبوا أبو عمامة، من المناضلين لصالح الشعب ضد المخزن لا ضد الفرنسيين بل منهم مقابل ذلك من أساء إلى المولى عبد الرحمن أكبر إساءة وربما ذلك منهم كرد فعل، بل نلاحظ من روح الخيانة المتأصلة في إبن منصور وتعاطفه مع الخونة المشهود لهم بالسبق أمثال عبد الكريم بن سليمان المحروق بعد موته من طرف الشعب في فاس، وكذا العميل الذي تطوع لخدمة الاستعمار كاباص المدعو محمد الجباص، والذين سنتعرف على خيانتهم السافرة بشهاد الفرنسيين أنفسهم، إن الكاتب مر على ما قام به إبن سليمان الذي اشتراه وزير خارجية فرنسا ديلكاسيه بثمن بخس، مر على ذكره همسا إلا ما كان من الإشارة الخفيفة للدلالة على خيانته والتي خاف أن يصرح بها حتى لا يستهدف من قومه العملاء الذين هم اليوم أصحاب الحول والطول في مغرب الاستقلال، وتلك شيمة من شيم مسلمة اليهود وأعلاج النصارى التي شب عليها يهاجم الكريم ويشيد بالغادر اللئيم.

(241) الاتحاف 2/549 وتاريخ العلاقات 295.

طريق بعض الأغوات الى الحاجب أحماد بن موسى بن أحماد، الذي أصدر أمره كذلك إلى الحريم حتى يلزموا الصمت خوفا من الفضيحة التي لا شك ستحل بهم إن علمت ذلك قبيلة بني موسى تادلا، ذلك أن هذه القبيلة وما حولها منذ عهد المولى عبد الرحمن الذي كان 1269هـ/1852–53 قد إقتص منها بطريقة جد قاسية، ومن بني موسى بالأخص، لأنها قتلت واليها إبن زيدوح، وفي عام 1289هـ 1872–73 وجه السلطان أيضا وهو محمد بن عبد الرحمن، حملة على قبائل تادلة كذلك وبني موسى العربية وهم السماعلة، وبنو زمور، وبنو اعمير، لقيامهم ضد العامل بن داود كما سبق، ونفس الطريقة سلكها معهم المولى الحسن الذي قام بالإغارة على بني اعمير وبني موسى كي يستتب الأمن في البلاد، واقتصر في العام التالي عن آيت اعتاب، وهاهو اليوم وقد أدركته المنية بين ظهرانهم فمن الحزم أن يتصرف أحماد بن موسى كما فعل، ولم يعلن الخبر إلى أن حل بالبروج من بلاد بني مسكين، البربرية الوهرانية وفيها أعلن ولاية العهد لأصغر أبناء السلطان من بين ستة وعشرين من الابناء(242) ضمنهم الخليفتان بمراكش وفاس محمد وعمر، والمعلن عن ولايته لم يكن بعد قد جاوز الثالثة عشر من عمره إذ هو من مواليد 1298هـ/1880م، وأمه رقية الشركسية، وبعدما غسل السلطان وكفن وضع في تابوت ثم حمل ليدفن في الرباط جوار جده محمدبن عبد الله الذي رأينا قبل كيف توفي هو الأخر وهو في الطريق من مراكش الى الرباط بغصة كان السبب فيها ولده اليزيد، الذي شق عليه العصى إستعجالا لشهواته التي لم يرتوي منها رغم ما جرت عليه من ويلات إلى درجة البراءة منه التي جابت وثيقتها المشرق والمغرب إلى أن علقت على أستار الكعبة، يقول الزياني كما سبق، وإذا كان موت السلطان محمد بن عبد الله قد جر على المغرب من الويلات والفتن ما عاشه المغاربة ردحا من الدهر، فإن موت المولى الحسن كذلك جر على المغرب والمغاربة الكثير من المحن التي وإن لم تظهر شدتها زمن أحماد بن موسى بن أحماد الذي مسك الزمام بحزم مدة سبع سنوات، 1311–1318هـ/1893–1900م. فإنها بعد موته كانت أشد وأعنف، ذلك هو بعض الصراع الذي عاشه المولى الحسن مع الفرنسيين والأنجليز. والذي عاش المغرب مرارته بعد موت أحماد بن موسى.

---

(242) ومثلهم زائد واحدة من الإناث، راجع الاتحاف 2/546–49.

وحول بني مسكين راجع كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لكاتب مجهول في القرن 6هـ 12م تحقيق د سعد زغلول عبد الحميد ط 133–134 ط البيضاء 1985 و ت3 ص 133.

الفصل السبعون بعد المائة

إفتعال تدويل الصراع على المغرب بين الفرنسيين والألمان والاسبان

هناك عنصران آخران كان لهما شبه وجود في الصراع الدولي الذي عاشه المغرب، وهما الألمان والاسبان، ولقد أخرت الكلام عنهما لأنهما في الواقع كانا على الهامش وقد إنتهى وجودهما عندما أمكن لفرنسا أن تضع له الحد كما سنرى، الأولى بإرسالها الى الكونغو، والثانية بإشراكها في شمال المغرب.

عرف الرحالة الألمان جولات إستكشافية في المغرب منذ 1873م حيث ظهر أمثال "وولفس ولنز" و"وباخ" وغيرهما من الذين كانت لهم تقارير عن المغرب إهتمت بها حكومة بلادهم، لكن بيسمارك وقتها كان مشغولا بمشاريعه الوحدوية والأوربية التي أخذت كل إهتماماته، خصوصا التفوق القاري حتى إنه في سبيل أن يبعد فرنسا عن إهتماماته، كان يؤيد إتجاه سياستها نحو شمال إفريقيا لكن بعد عزل بسمارك 1890م عادت ألمانيا بتوجيهه من عصبة البان جرمانيين للقيام بعمل إقتصادي قصد تحقيق مقاصدها في المغرب الذي كانت تطمح أن يكون لها فيه حظ يزاحم الوجود الفرنسي في كل من الجزائر وتونس، وذلك حلم لم يتحقق منه شيء.

لقد أخذ ظهور الالمان يشتد ويتقوى في المغرب سنة 1303هـ/1885م وذلك عندما عينت ألمانيا لها سفيرا بالمغرب هو المستشرق "تستا" الذي كان قبل بالقسطنطينية عند آل عثمان، وقد عين بالمغرب في الوقت الذي أخذ فيه بسمارك يتجه نحو السياسة الأوروبية ويهتم بالشرق ممثلا في دولتي المشرق والمغرب وقتها تركيا والمغرب، ولقد إستطاعت ألمانيا هي الأخرى أن تصل إلى تحقيق إرسال بعثة من الضباط الى المغرب مهدوا لها طريق العمل في مجالات مختلفة، تلك التي رسمها "تستا" عن الاقتصاد

والسياسة، وذلك في الوقت الذي كان فيه أورديجا سفير فرنسا قد إنتهى إلى مقت من طرف السلطان الذي كان يتلقى أخباره عن طريق الأنجليز، ووقتها وجد تستا فرصة التعاون مع قنصل الأنجليز الجديد كذلك وهو "كيربي گرين" الذي حل مكان السير "درماند هاي" ضد سياسة فرنسا وسفيرها، خصوصا. وأن ألمانيا كانت تخطط للدور الذي سيقوم به غليوم2 عندما يرحل إلى القسطنطينية مع زوجته أوجيستا سنة 1898م في عهد عبد الحميد الذي سيصنع لهما سريرا من الفضة وتكلفه زيارتهما للسلطان "الغبي الأبله" كما وصفوه الكثير من الملايين، ووقتها كانت بريطانيا تريد بدفع "تستا" ضد فرنسا في المغرب، توزيع نشاط الألمان وتشتيت جهودهم، وهي تعلم أنهم لم ولن يطول نفسهم في ذلك.

كانت فكرة الجامعة الإسلامية قد ظهرت عند الأتراك، وكان الألمان قد حسبوا أنهم حين يعملون على تشجيعها ستكون السبب في الإقبال عليهم من طرف المسلمين والعرب، وكان الذي يهم بريطانيا في المغرب هو التقليل من نشاط الفرنسيين ومصداقيتهم، وظهور الألمان زائد الأتراك في الميدان، فلا أقل إن لم يحقق شيئا يحدث التصادم أكثر بين العدوين التقليديين، وفعلا كان ظهور الألمان ومعهم بعض الأتراك على الساحة في السياسة بالمغرب عندما إقتنع المولى الحسن بوجودهم، وسمح بذلك لأنه كان عنده أقرب الى الاستحسان مما كان للفرنسيين الذين بالغ سفيرهم أورديجا، حتى إنتهى به الأمر إلى محاربة السلطان علنا ومعه العميل المقوت عبد السلام الوزاني بلا أدنى تحفظ، ولذلك وكرد فعل من السلطان وهو يعلم عداوة الألمان للفرنسيين، أرسل سفارة الطيب بن هيمة عامل آسفي يرافقه عبد السلام بن الرشيد، إلى الألمان، ثم سفارة أحمد ولد النائب محمد باركاش 1302هـ/1884م وإثر موت فريدريك كتب غليوم إلى السلطان، فكان الجواب يعزز دوام الإتصال، بل حتى لما مرض السفير "تستا" كتب السلطان مواسيا بتاريخ رجب 1304هـ/1886م ومثل ذلك لما عين مكانه طراورس بتاريخ 7 ربيع الأول 1305هـ/1887م(243) حتى إن ألمانيا وفي ظرف وجيز حققت الكثير مما لم يكن ينتظر لها مع السلطان.

---

(243) راجع الإتحاف 357/2.

لكن فرنسا التي خبرت النفوس وعرفت أسرار القوم، ودخلت البيوت المفتوحة من الأبواب، وكشفت العورات، عرفت كيف تدس لذلك الاتجاه وتضع الحواجز في طريق تلك التحركات دون أن يكلفها ذلك كثيرا، فقد أشاعت ما عرف لآل عثمان من إعتزاز بالخلافة وتطلع إلى ابتلاع المغرب، ولو عن طريق الفكرة الإسلامية وذلك في الوقت الذي عينت فيه تركيا قنصلا لها بطنجة، كما مر، وقتها قدم مبعوث هو عبد الله السنوسي(244) على السلطان من طرف محمد ظافر الإمام الخاص للسلطان عبد الحميد، لكنه أستقبل بفتور تشم منه رائحة كيد الفرنسيين، بل إستطاع الفرنسيون إشعال نار التنافر بين السلطان وآل عثمان، لكن الألمان لم تكن هذه وسيلتهم الوحيدة ضد الفرنسيين في المنطقة، فقد كانوا مع الأيام يزدادون خبرة ومهارة، وسرعان ما أدركوا أن الترويج لفكرة الجامعة الإسلامية وقتها فكرة غير مقبولة، خصوصا وأن موقف السلطان من جماعة محمد العربي الدرقاوي الذي دعى إلى الجهاد والمنشور الذي وزعه السلطان(245) على نطاق واسع عام 1304هـ والخاص بشرح أركان الإسلام وبعث روح المحبة والتوادد بين المسلمين، وذلك بعدما طبعه بطابعه الكبير، ثم أمر العمال بتوزيعه على أكثر ما يمكن، خصوصا في الناحية الشرقية التي ربما يتطلع الأتراك وأنصارهم بتونس وليبيا إلى الربط بين المجاهدين في جغبوب ورجال محمد العربي بالمغرب، وقد طلب السلطان نفسه من عامل وجدة وقته الاهتمام بالموضوع والكتابة حوله من حين لآخر، وبذلك كتب العامل المذكور الى مختلف رجالات الناحية الشرقية وكبار القبائل فيها، وإذا كان الألمانيون قد حاولوا التوصل لاستغلال منجم الحديد والصلب في الشمال، فإن المعارضة ضدهم كانت قوية.

وهكذا إشتد الصراع بين فرنسا وألمانيا إلى درجة أصبحت معها صحافة فرنسا واهتمام ساستها وكأن لا شيء يهدد وجود فرنسا بالمغرب غير الألمان، وازداد ذلك شدة

---

(244) عبد الله السنوسي هذا مغربي، فهو إبن إدريس بن محمد أحمد السنوسي الفاسي نزيل طنجة، وبها توفي 1328هـ/1910م وهو حسني، راجع ترجمته في معجم الشيوخ ج2/81-85. ط فاس .

(245) المنشور بخط مجوهر في 15 ص عليه الطابع السلطاني الكبير قدم له ب: هذه وصية مؤسسة على قواعد شرعية، ونصيحة دينية للولاة والرعية، صدرت من عبد الله.. الخ تاريخه حسب رسالة التوجيه من عامل وجدة عبد الملك السعيدي إلى الشريف أحمد أمعلي الودغيري بفجيج 14 ج2 عام 1304هـ/1886م.م.خ.ن.

النشرة التي وزعت على القبائل ضد الفتنة عليها ختم المولى الحسن؟؟
وهذا المنشور تكرر نشره بين المواطنين منذ عهد السلطان محمد بن عبد الله، وفي عهد المولى الحسن ثم المولى عبد العزيز وفي الصفحة التاسعة منه التنبيه على المحافظة على أهل الذمة والدفاع عنهم.

الباخرة المعروفة "الحسني" 1893 في عرض البحر وعليها البحارة المغاربة

السلطان مولاي الحسن أمام باب
المحنشة بمدينة مكناس وخلفه احمد بن
موسى وإبراهيم لمراني

من خطب الجمعة حين شاع النقد ضد السلطان بسبب الاحجام عن الجهاد

الحمد لله الذي امتن بطاعته الأولياء المتقين، ومنّ وبيّن
جزاء، وجعل طاعته مغرونة بطاعته من آمنه سبحانه عليه
وكبراء فمن حمد ينبغي لله طاعته وطاعته، ونشكره شكرا
يجزي قائله من محبته ومحبته، ونشهد أن لا إله إلا الله
خالق العوالم، ونشهد أن محمدا رسول الله، سيد الأعاجم
والأعاجم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه السادات الأعيان، وسلم
وسلم تسليما من فتنة النفس وحلول النيران ويجمعنا الله أجمعين
عباد الله اعلموا رحمكم الله أن أخاكم والدين إخوان الغرباء
آخر بعضهم الآخر بالدين آنس، والخليط مارس، وما يكره لنفسه أشر
مجهوم، وما يكره لمارس بضارع، ولا تصلح الناس فوضى
لا سراة لهم، ولا سراة لهم إذا سادوا جهلة، وقد جاء عن
النبي صلى الله عليه وسلم أن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع
بالقرآن، ولا يتمنى زوال السلطان إلا جاهل مغرور، أو واهم
يتمنى كل عزيز من عباده من صالح أعماله، وما أنكر عليه
من سوء أفعاله، وكما كنتم يولى عليكم، وليس ينبغي لمن يحمل المعصية
أن ينكر العقوبة، فإن تغيروا وتزلزلوا بعض الشيء فاصبروا بالكبير
فاصبروا أيها الكرام عن زلاته واجب وتفويضه بما أرضى مغفر
جاء وإذا سلطانه أذن الله فبإذن الله تموت، وفي خالقه ومالكه
بإذنه الذي أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم

وعليكم بالجد والاجتهاد، والحزم والاستعداد، وسلوك
سبيل الرشاد، بهذا الشهر الذي أكرم الله بالجهاد، فتزودوا
فيه بأحسن الزاد، فليس له في الشهور عوض، ولا بعوضه مقترض
فالفضيلة فيه تعول الجريمة، والأجر والثواب، والمضاعفة فيه
تعدل عتق الرقاب، وأخرج الحاكم عنه صلى الله عليه وسلم قال
رأيت صاحبيه ليلة كما أعتق رقبة، وروى إسماعيل قال: سمعت
أكثر فيه ما يفعل به الرجل فقال: فضل الصدقة في الفضل قليل، بل قد
عمل له أجر جزيل، وروى فيه صائما سقاه الله من حوض
لا يظمأ بعده أبدا حتى يدخل الجنة، وأنزل الملائكة تستغفر له
حتى ينفض صومه فليكثر فيه المسلمون من اغتنام أوقاته، الله

وعنفا عندما علم الفرنسيون أن الألمان يحاولون الحصول على إمتياز يضمن لهم إحداث ميناء تجاري في خليج عجرود(246) سنة 1304هـ/1886م، واستمر هذا الصراع الذي جر إليه خليط العسكريين داخل الجيش والبلاط المغربي، كما عمل الفرنسيون على جر الاسبان وتحذيرهم من خطر الألمان الذي تجرد لمفاومته المحميون من المغاربة بالحماية الفرنسية، وكان ذلك في صالح الألمان، الذين أمكنهم أن يقاوموا الفرنسيين بسلاح أقدر على الفتك وضعه الفرنسيون أنفسهم في أيدي الألمان ولم يستطيعوا إنكار أنهم وجهوه لصدر الدولة المغربية، ذلك هو نشاط أورديجا أولا ضد الشعب المغربي ممثلا في السلطان، وثانيا عمل السلطات العسكرية في الجزائر ضد المغاربة في الناحية الشرقية، توات وتيديكلت وما تهدف اليه من جر الطريق الحديدي الواصل بين شمال إفريقيا وغربها، رغما عن السلطان واعتراضه وتمسكه بأرضه، وفعلا كان جانب الألمان هنا أقوى من الفرنسيين حتى إنتهى الأمر الى تبديل أورديجا بسفير غيره هو المشتشرق "فيرو" الذي تكون في المدرسة التجانية، وكان فيرو هذا عاقلا رزينا رغم إستغلاله أتباع الطريقة التجانية، فإنه لم يفعل أي شيء يمس بسمعة السلطان، كما كان أورديجا، بل عمل على إيجاد علاقة ودمع حاشية السلطان وكل الذين أخذوا يسمعون عنه وما يتمتع به من معرفة للإسلام "وتعلق بالتصوف والمتصوفين" ورغم ما كان يحققه وإن ببطء فإن الجانب الآخر من الفرنسيين خصوصا الذين ألفوا طريقة أورديجا وتجاوب المسيطرين بوهران ورؤس الأموال في فرنسا نفسها، مما أدى إلى توجيه حملات ضد فيرو، إنتقلت إلى الصحافة ومجلس النواب خصوصا وأن عبد السلام الوزاني الذي كان عمود سياسة أورديجا تحول إلى إهمال وتحقير لا من خصوم الإتجاه الفرنسي فحسب، بل حتى من قومه الذين إنقلب الوضع والتيار ضدهم، بل حتى التخطيط الذي عانق فيه اليهودي بن عيشو زميله عبد السلام الوزاني الذي أراد السطو على اراضي الزاوية الطيبية لآل وازان، نصب لها الأنجليز كمينا فجره السلطان في وجه فرنسا فكانت النتيجة فشل

(246) راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية مجموعة المحتسب عبد الخالق فرج، والتي صورها عن خزانتنا حفيده عبد الخالق القباج عام 1965 وعددها ستون وثيقة من مجموع وثائق خزانتنا حول الرباط البالغ عددها في الملف حوالي 512 وثيقة.

"شركة المغرب وشركة سوند وتوسان" الفرنسية الوزانية. أما بالنسبة للألمان فإن المجال وقتها وبسبب تلك التحركات الفرنسية أصبح أوسع وأكثر قابلية لتحقيق المصالح التي لها علاقة بغير الإقتصاد، فقد كانت ألمانيا من المتحمسين لإعادة النظر في معاهدة مدريد التي كان المغرب قد بح صوته من النداء بذلك، معلنا تظلمه منها، إلى درجة أننا رأينا موقف السلطان منها وما لاقاه الحاج محمد باركاش من أجلها، وبتلك الطريقة عرف الألمان كيف يحصلون على إتفاقية مع المغرب سنة 1308هـ/1890م حققت لهم ما كانوا يرجون من علاقة مع المغرب في مجال التجارة والاقتصاد، وإذا هي جاءت متأخرة عن الاتفاقيات التي حققت لكل من بريطانيا، وفرنسا، وإسبانيا، ما لم يكن لألمانيا في المغرب، فما على هؤلاء إلا أن يسابقوا الزمن، في الوقت الذي هبطت حرارة التوادد مع الأنجليز نوعا، وأخذت العداوة تشتد مع الفرنسيين كذلك، وساعد الألمان ما كانوا عليه وقتها من إقبال على الصناعة وازدهار فتح رؤوس الأموال في كل من هامبورغ وبريمن وغيرها على المغرب المستهدف للفرنسيين، كما أقبل المغاربة وبشكل كبير على البضاعة الألمانية المتنوعة، والتي ظهرت بعد دراسة للسوق وللوضع في جودة أحسن وثمن أقل ومواصلات أسرع، وإذا ما بدأت الجولة الأولى للألمان ولو بخسارة لا تضر من أجل الإكتساح، فإنها لقيت قبولا وتدعيما من البنوك والشركات الألمانيين، مما مكن لتجارتهم بطريقة أحدثت الرعب والقلق في الدوائر الفرنسية، فبالإضافة الى مادة السكر التجارة المربحة في المغرب، أغرق الألمان أسواق المغرب بمختلف السلع بما في ذلك الأسلحة والذخيرة من إنتاج مصانع رونتبرغ، ومن جملتها المدافع الثقيلة التي جهزت بها السواحل، ومدافع الميدان التي استوردها السلطان ويكفي أنه إستورد منها بطريق رسمي سنة 1307هـ/1889م ما قدر بأكثر من عشرين ألف بندقية وأضعاف ذلك عن طريق التهريب، وهكذا أصبحت التجارة الألمانية في المغرب وقد هددت التجارة الأنجليزية التي كان مخططها أخذ يتجه صوب الشرق أكثر، ولكن ببطء لأن جوار فرنسا للمغرب لا محالة سيكون له مفعول أكثر وهو ما لم يدركه الألمان أو أنهم أدركوه ولكن عداوتهم للفرنسيين حالت دون العمل الصحيح الذي لم يستمر رغم تعدد بيوتات المغاربة في هامبورغ وبريمن، كما فعلوا في لندن، وليفربول، ولذلك سنرى تراجع الألمان وعدم

إستمرارهم رغم مكابرة غليوم 2 وسعيه لمؤتمر الجزيرة 1906 كما سنرى بعد موت أحماد بن موسى وتمزق المغرب بكيد من الفرنسيين وتطوع أذنابهم من مسلمة اليهود وأعلاج النصارى الدخلاء.

وهكذا إذا كنا قد عرفنا ولو بإيجاز موقف الألمان إلى جانب الأنجليز والفرنسيين وغيرهم فلا أقل نعرف ولو في سطور موقف الاسبان ومجهودهم السلمي لتحقيق التوسع بعدما إنتهوا الى فشل عن طريق الحرب التي لم تحقق لهم أكثر مما فرضوه على المغرب ظلما من غرامة حققت لهم الوجود في موانئ المغرب الشمالية من أجل تحصيلها والتدليس للسرقة والزيادة فيها.

لم يكن الاسبان يمتازون عن المغرب بغير السلاح الذي مكنهم من الانتصار في حرب تطوان ولذلك فإن أية محاولة سياسية أو إقتصادية كانت من الإسبان لم تكن تقابل من الشعب بغير الرفض والعداء السافر، بل النفور ورد الفعل السيء من المغاربة، والتشهير والتشويه من فرنسا أكثر من غيرها من الدول، والتي كانت بالمرصاد لكل تحرك اسباني ذلك بالنسبة للجانب السياسي، أما الجانب الإقتصادي إذا ما درسنا أحوال الاسبان وقتها في بلادهم لا نجدهم في غير بعض المدن يختلفون كثيرا عن المغرب، فلم يكونوا ذوي صناعات قابلة للتصدير، ولا بنوك ولا شركات قادرة على الإنتاج والتحويل، وكل ما كانت تروجه بضاعة هزيلة، لا تمثل 5٪ مما كان للألمان مثلا، ومع ذلك حاولت أن تثير إنتباه الآخرين بتأسيسها غرفة تجارية بطنجة عام 1302هـ/1884م دعت للمشاركة فيها مختلف الدول التي كان لها تمثيل بالمدينة، أو بالأحرى تلك التي شاركت في مؤتمر مدريد، بل إن بعض التجار الاسبان حاولوا تكوين فروع مشابهة لتلك الغرفة في مختلف موانئ شمال المغرب بل إنهم إعتباطا وتوهما ظنوا أنهم بتوسيعهم ميناء سبتة سيضايقون ميناء جبل طارق، خصوصا عندما حولوا المدينة الى مستعمرة للتاج عام 1307هـ/1889م لكنهم لم يحققوا أي أثر يذكر بمرارة من طرف الفرنسيين، كما حصل بالنسبة للألمان، لأن الفرنسيين كانوا لهم بالمرصاد، بل في تلك الظروف بدأ ظهور الألمان يتمكن ويتقوى.

بل إن الاسبان حاولوا التقرب من المغاربة بطريقة جد باهتة ومفضوحة التصنع،

حين أنشأوا لهم مركزا ثقافيا في سبتة، كان الأول من نوعه، وذلك منهم قصد نشر اللغة العربية، وذلك في الوقت الذي عملوا على نشر لغتهم بواسطة كثرة المراكز، لكنهم لم ينجحوا أمام أساليب الفرنسيين، لأن نشاط الإسبان كله كان عن طريق رجال التبشير الفرنسيسكان وإذا كانوا قد إعتمدوا أساسا في تكوين تلك المراكز على اليهود الذين نزحوا الى المغرب فإن تقاليدهم تحول دون تقبل أي شيء مهما كان من يد الفرنسيسكان، ولذلك باءت تلك المراكز بالفشل الكبير حتى المعهد الثانوي الذي أنشئ بطنجة ليضمن إستمرار إنتاج تلك المراكز سنة 1889م، بل لم يتجاوز قط تلك المنطقة التي عاش أهلها يحقدون على الإسبان أكثر من غيرهم، لأنهم كانوا دائما يتخذون من أعمالهم حتى الزراعية وسيلة لجر مواطنيهم إلى المغرب وتوطينهم في تلك المناطق بالشمال ليضايقوا أهلها، في الوقت الذي لم يكن لهم أي إمتياز حضاري تفيد منه البلاد، وإنما بؤس وتشرد وإفساد وتشويش، وبذلك عرف النازحون من الاسبان أنى وجدوا وحيثما كانوا في المغرب.

حقا إن الاسبان إستطاعوا أكثر من غيرهم من الأجناس الأخرى(247) الإنتشار بين مختلف طبقات الشعب والعمل في مختلف الحرف حتى الوضيعة منها بدافع ظروفهم الإقتصادية وهذا لم يحقق لأسبانيا ما كانت تقصد من التوسع، بل إن إسبانيا نشطت في مجال المواصلات الداخلية بين موانئ المغرب، أجادير السويرة، آسفي الجديدة، الرباط، سلا، العرائش، طنجة، سبتة، مليلية، وبالعكس، وحتى إذا ما تكاثروا واستطاعت إسبانيا أن تجد لها طريقا لإرسال بعثة عسكرية إلى المغرب هي الأخرى سنة 1889م، كما كونت لها شبه مستوصفات طبية للإتصال بالشعب قوامها أطباء يعالجون المرضى، وحتى إذا ما حاول المبشرون إستغلالها فقدت كل إعتبار ولو إنساني عند الذين كانوا يترددون عليها، وهكذا كانت كل هذه المشاريع الثقافية والغرف والمستوصفات، والقناصل، والمبشرون، والمهاجرون، يرهقون الدولة الإسبانية ماليا دون أن يحققوا شيئا من مقاصدها، ولذلك كانت تلجأ أحيانا في تمويل بعض تلك المشاريع إلى التهريب،

(247) قيل إن عددهم سنة 1893م بلغ ثمانية آلاف من بين تسعة آلاف مجموع الأوربيين الذين كانوا بالمغرب وقتها.

وخصوصا الأسلحة التي كان الإسبان السبب في كثرة إنتشارها بين قبائل الشمال والجبل، وأخيرا ولما أعياها ما سبق، حاولت التوسع عن طريق دفع المغرب كي يتنازل لها في كبدانة من منطقة الريف، على ما يساوي سانتاكروز بمنطقة إيفني، لكنها تعرضت لصلابة السلطان الذي أثرت في نفسه وبلا شك وقتها ذكريات المرارة التي عاشها والده معهم في حرب تطوان، حتى كاد يدخل معهم في حرب سنة 1311هـ/1893م لولا أنه علم أنهم مؤيدون من الفرنسيين والأنجليز، ولذلك قبل مبدأ التعويض الذي أختصر بعد بسبب حادث عبد الكريم بريشة في سفارته التي صفع فيها بيد جنرال معتوه متقاعد، زمن أحماد بن موسى الذي نصب المولى عبد العزيز(248) السلطان وتولى هو منصب الوصي عليه.

عرفنا أن الاسبان منذ عهد بعيد إستولوا على مدن متعددة في الساحل الشمالي للمغرب، سبتة التي ورثوها عن البرتغال، ومليلية، ثم جزيرة النكور، ثم مجموعة جزائر الزعفران، ثم منطقة إيفني وسانت كروز، دي لاماربيكينيا "التي تطاول الدوق ديجيودي هريرا ملك البرتغال فباعها للعرش الاسباني عام 1477م/882هـ وذلك في عهد الوطاسيين حيث صودق على البيع 1508م بحيث أن الاسبان في استيلائهم على منطقة إيفني لم يكن له ما يبرره مما دفع المواطنين إلى تدمير ما أسسه الاسبانيون من بناية زالت معالمها عام 1524م ومنذ ذلك التاريخ لم يعرف للأسبانيين وجود في تلك المنطقة الى ما بعد حرب تطوان في عهد المولى الحسن، حيث تكونت لجنة مشتركة 1871 من أجل حل المشكل لأن إسبانيا عادت وقتها الى المطالبة، لكنها لم تحقق شيئا، وفي سنة 1289هـ/1882م قام المولى الحسن برحلته المعروفة الى إقليم سوس من أجل التحقيق، ووقتها تكونت لجنة أخرى لكنها لم تتعرف حتى على المكان، بل ولم تتمكن من إيجاد حل، وحسما للمشكل إقترح السلطان أن يسلم للإسبان منطقة البويضة بدلا من المكان الذي لم يستطيعوا

---

(248) ولد عبد العزيز بمراكش 1296هـ/ 24 فبراير 1878م ونصب يوم 6 يونيو 1894م ورزق بمولود سماه الحسن في يوليو 1899م راجع تقويم المؤيد السنة 8 لعام 1322هـ ص133 ط الجمهور بالقاهرة لسنة 1323هـ تأليف محمد مسعود وسمو الأمير الحسن هو ساكن حي مرسة من مدينة الرباط في المنزل الذي اشتراه من شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي ولسموه من الأبناء رفيقا صبانا إدريس ثم شقيقه العقيد العباس، ثم إخوتهما للأب علي وأحمد وعبد الهادي. وقد مد الله له العمر فقد مضى من عمره مائة سنة ولم تزل ذاكرته نيرة، وقد حصلت منه على بعض مذكراته، توفي رحمه الله عن مائة سنة رمضان 1417هـ/1997م.

الاهتداء اليه وتقع جنوب إيفني، فرفض الاسبان ذلك لعدم وجود مياه فيها، وبذلك بقي الموضوع عبارة عن ادعاء الاسبان تملك مكان مجهول الى أن إعترفت لهم فرنسا بعد فرضها للحماية على المغرب، لكن الاسبانيين ظلوا عاجزين عن إحتلاله حتى سنة 1934 م كما سنرى بعد حين كلامنا عن المقاومة بقيادة البطل القائد الناجم الباعمراني رحمة الله عليه وتبلغ مساحة إيفني حوالي 285.200 كيلومتر كان عدد سكانها وقتها نحو الثلاثين ألفا، وفي سنة 1947م أصدرت إسبانيا قرارا بضمها الى الممتلكات الاسبانية وتجريد أهلها من الجنسية المغربية، فكان ذلك أكبر عامل من عوامل المقاومة التي إستمرت إلى عهد الاستقلال.

وعلى كل فقد إنتهى التنافس الدولي بمقدماته الأولى في المغرب إلى تحقيق أنه أصبح لكل ناحية ما يميزها من الجنس الذي تكاثر فيها، فمثلا في الشمال بصفة عامة وفي مختلف مدنه كثر الاسبان بمعدل أكثر من 80٪ من مجموع الأوربيين بالمغرب، كما كثر في مدينة طنجة وجود طبقة بورجوازية من الأنجليز، وفي الدار البيضاء يوجد الفرنسيون أكثر من غيرهم، كما كانوا في كل جهة علموا أن الأذى لم يصلهم فيها، حتى إنتهى بعضهم الى السكن بمدينة فاس المدينة بين الأهالي، ثم بمراكش أيضا حيث سيقتل الدكتور موشان، قيل بتحريض من ألماني 1325هـ/1907م، كما كان هناك من الأمريكيين والبرتغاليين والإيطاليين والألمان والبلجيك، لكنهم بأعداد أقل كثيرا من الأجناس الثلاثة، وبالتالي فإن كل بلد كان به تمثيل سياسي لم يعدم وجود مواطنيه في المغرب، وإذا علمنا أن هذا التمثيل كان يوم بويع المولى الحسن عام 1291هـ/1874م لا يتجاوز عدد القناصل ثلاثة إسباني، وفرنسي، وأنجليزي، أصبحوا مدة حكم السلطان المذكور، وقد بلغوا العشرة سفراء، وأ كثر منهم نواب في مختلف المدن، بل عرفت البلاد حملات من المبشرين والعسكريين والأطباء والصحفيين، وكلهم جميعا لم يكن لهم من هم غير التنافس من أجل تحقيق إمتياز أحسن في المغرب وطريق أقصر لفائدة الدولة التي ينتمي إليها، وكان عملهم يعتمد الدس والكيد، بعضهم لبعض عدو، وهم جميعا ضد مصلحة المغرب الذي لم يعرف بعد موت المولى الحسن وخادمه أحمد بن موسى غير زيادة تكالب الطامعين وتفاهم المتنافسين من أجل القضاء على إستقلاله وتمزيق وحدة أهله وترابه، وذلك ما سيعرفه عهد ما بعد أحماد بن موسى الذي كانت سياسته على النهج الذي تركها عليه المولى الحسن مع صرامة أشد، ومعرفة بطبائع القبائل أكثر.

الفصل الواحد والسبعون بعد المائة

أحماد بن موسى و آل الجامعي

ودوامة المؤامرات بين خدم القصور وأرباب القصور

الرجل الذي مكن للدولة وأرعب الاستعمار بوطنية صادقة ووفاء أصدق. لكنه للأسف لم يقابل ما قدمه للدولة بما يليق من العرفان، وذلك طبع تميز به المفلسون من حاشية السلطان في مختلف الأزمان منهم الذين يندفعون وراء الانانية وروح الاستغلال الشبيهة بدخان مساخن الشتاء والرجل العظيم الذي تعرض لذلك في المرحلة التي نؤرخ لها هو أحمد بن موسى بن أحمد أصله من سوس ولد بمدينة مراكش 1257هـ/1841م وتوفي بها أيضا عام 1318هـ/1900 بعد دراسته بفاس على الشيخ السلفي المعروف الحاج محمد جنون وفضول السوسي وغيرهما بالقرويين، تولى الحجابة مع الخليفة السلطاني بها المولى إسماعيل بن محمد بن عبد الرحمن، ثم مع السلطان المولى الحسن الذي وقت موته كان أحماد مهيئا للإستيلاء على السلطة بطريقة جد فيها دهاء، حيث حجر عبد العزيز بعدما حقق له البيعة وهو طفل مضى من عمره 13 سنة، ثم أسند أهم مناصب الدولة لإخوته، الدفاع للسعيد، والحجابة لإدريس، كما أسند وزارة الحرب إلى أخيه البشير، وأسند وزارة الخارجية إلى الضعيف الشخصية محمد بن المفضل غريط، والمظالم للعالم على المسفيوي، والمالية لصديقه عبد السلام التازي، لكنه قبل أن يتفرغ لشؤون الدولة حتى يسيرها بطريقته الخاصة عمل على تصفية الحساب أولا مع آل الجامعي أصهار السلطان محمد بن عبد الرحمن وأخوال المولى الحسن، والواقع أن ما فعله بهم إنما كان دفاعا عن النفس وقد كان بهم رحيما ما دام لم يقتلهم حين أرادوا قتله غدرا كما سنرى.

تعتبر السبع سنوات التي تولى فيها أحماد بن موسى حكم المغرب إستمرارا لعهد

المولى الحسن، لم يتبدل شيء أثناءها ولم يتغير، سواء في التسيير الداخلي أو العلاقات الخارجية، وفي ذلك دلالة على أن الذي كان يسير الدولة بصدق وأمانة منذ عام 1304هـ/1886م إنما هو أحماد بن موسى الذي كان يتلقى التعليمات من السلطان ثم يضفي عليها ما يليق بها حتى تكون النتيجة حسنة. ومن البرهان على ذلك أيضا أننا سنرى كيف يقضي على خصومه آل الجامعي دون أن تتناطح عليهم معزتان كما قيل، بل وسوف يولي ويعزل ويقرب ويبعد، ولا أحد يلاحظ عليه، وسواء رضي الذين لهم رأي غير هذا أم لم يرضوا، لأن أحماد بن موسى بن أحماد بن إمبارك، كان بحق رجل دولة، وقد دخل التاريخ من أوسع أبوابه، ويكفيه عظمة أنه لم يشغل نفسه ولا أجهزة الدولة التي كانت رهن أوامره بغير العمل المجدي من أجل سلامة الدولة، وحفظ البلاد، ورعاية الأمن، ولذلك عاش والده موسى إلى أن توفي، وجده أحماد بن مبارك الذي عاش وزيرا صالحا تقيا طيلة حياة المولى سليمان السلطان التقي العادل الذي ما تألم كما قال على شيء في حياته كما تألم على فقده لوزيره أحماد بن مبارك، حتى قيل إنه كان كلما حصل ما يكدر الصفو كان يقول لو بقي أحماد ما حصل كذا.

ولا شيء يؤاخذ على حفيده أحماد غير إندفاعه المكره عليه للانتقام من آل الجامعي لقد إندفع أحماد بن موسى للنقمة من آل الجامعي أخوال السلطان بطريقة لا تتفق وما عرف به من سلوك وتدين، لكنه لم يفعل وبلا شك إلا من حرارة ما عاش وما لاقى من مرارة كدرت عليه كل صفو حتى كاد يفقد الأمل، لولا قولة ماء العينين التي قيل حملها إليه محمد فاضل، وبحكم تربيته الدينية أعادت له الثقة ودفعت به إلى اليقين بنهاية الشر وزواله، ودوام الصدق واستمراره، بل تقول الرواية إن آل الجامعي وإن كان السلطان هو الذي كان يدفعهم لذلك فإنهم بالغوا.

قيل إن الذي دفع آل الجامعي المعطى الذي أصبح صدرا يوم موت موسى والد أحماد في المحرم 1296 ومحمد الصغير الذي أصبح "علافا" أي وزيرا للحرب وهو الذي إندفع أكثر إلى عداوة أحماد الذي نصب معهما في نفس اليوم حاجبا(249) وإن الذي

(249) كان أول من رشحه لمكان والده عندما تقدم للسلطان بذلك يوم دفن الوالد موسى، هو الأمير سليمان بن عبد الرحمن عم السلطان، راجع الاتحاف 186/2، وعن ترجمة موسى بن أحماد راجع الاتحاف 370/4 وفواصل الجمان لمحمد غريط 75 والأعلام للمراكشي 443/2-48.

أراد ذلك هو السلطان نفسه الذي قيل له إن أحماد بن موسى قال عن السلطان يوم أسند الصدارة الى الحاج المعطى، وبالحرف "هذا الرجل فقد عقله" ولما نقلت إلى السلطان أمرهما بمعاكسته والتضييق عليه، إلى درجة المكر، على أن أحماد ما قال ذلك إن صح بناء على معرفته لمحمد العربي 1250–1333هـ/1834–1914م بن المختار الجامعي، وأنه الرجل الذي لا يستحق ما أسند إليه السلطان من مهمة لا قدرة له على القيام بها، ولقد كان وقتها هذا هو رأي كل ذي عقل وإدراك في الجامعي الذي قال عنه السفير الانجليزي هاي في تقرير رفعه الى وزارة الخارجية لبريطانية إثر زيارة قام بها للسلطان وهو بفاس في تاريخ 17 إبريل 1880م وكان الذي إستقبله هو محمد بن العربي بن المختار الجامعي "إنه رجل تافه وجاهل وغير صالح بالمرة للقيام بدور المستشار للسلطان الشاب(250). وعكس هذا ما وصفه به العباس بن إبراهيم وهو غير ثقة في أعلامه(251) بخلاف أحماد بن موسى بن أحماد، فإن الذي عرف به في سلوكه وثقافته العالية هو الدين والنزاهة والخلق والاستقامة، فكيف يصدر عنه قول كهذا الذي يزكيه قول هاي حول الجامعي وهو يعلم علما صحيحا أن المولى الحسن ولي نعمته وصاحب الفضل بعد الله عليه، لأنه ترك والده موسى يتصرف كما شاء ما دام قد كان كذلك في عهد والده، ولم يغير عليه شيئا من حياته إلى أن توفي، وإن كان بعضهم قال عن السلطان لما سئل لم تركه يتصرف وهو الحاجب في اختصاصات الصدارة، أجاب بما أشرنا إليه رعيا لحرمة والده، وما كان لموسى في حياته، فهل كان أحماد يطمح لنفس المنصب الذي كان يشغله والده، وحتى لو كان فإن كلمة "فقد عقله عن السلطان لا تصدر ممن أصبح حاجبا له" والحاجب وقتها أقرب الناس الى السلطان، وعن طريقه الأخذ والعطاء، وبه ومعه السر والتوجيه. ولعل هذا ما دفع الى الدس والكيد، وتلك عادة صغار النفوس أصحاب أرباب القصور وخدم القصور وأهل القصور منذ عهد كسرى إلى يوم النشور، ولا يسلم منهم إلا من له قدرة على التفريق بين الفضيلة والرذيلة، وأن لتلك السلامة والأمان والدوام،

---

(250) راجع تاريخ العلاقات مصدر سابق ص249 ط البيضاء 1981. ثم راجع رحلة اسكوت كنور وما نقله عن هاريس صاحب كتاب "المغرب الذي كان" ترجمة الاخ عبد المجيد بن جلون رحمه الله ص32 ط 1975.

(251) 214/7 ط الرباط 1977. ثم مراسلان أكنسوس مخطوط خاص بخزانة المؤلف.

وللأخرى الهلاك والزوال والإعدام، وأحماد بن موسى بن أحماد وكما يعرف السلطان نفسه كان من أصحاب الفضيلة، بل والسلطان صاحب القول الفصل، إن هو سمع ما لا يرضيه في حق أحماد، من أكرهه على تركه يعمل بجانبه في أخطر منصب، ثم يدفع الصدر ووزير الحرب الى معاكسته والتكدير عليه كما قالوا، حقا إن حياة أحماد من يوم ولد عام 1257هـ/1841م لم يعرف غير أنه من تلك الأسرة وإليها، ويوم كان يدرس بفاس ومكناس على كبار العلماء أمثال فضول السوسي، والحاج محمد گنيون وغيرهما، كان يعلم أن مكانه لا محالة إن كبيرا أو صغيرا سيكون بالقرب من السلطان وأسرة السلطان وآل السلطان، وحتى يكون أهلا لذلك وضمن أصحاب الفضيلة كوالده، إنتمى لجانب العلم والعلماء، ولم يجالس غير الذين عرفوا بالحلم والعلم والخير والفلاح، وبذلك شهد له القريب والبعيد، ومن ذلك ما سجله في حقه صاحب الإتحاف إذ يقول نقلا عن آخرين طبعا:

"كان شعلة ذكاء ونباهة، فقيها حازما ضابطا عفيف الإزار، طاهر الذيل، سياسيا آية في الدهاء وحسن التدبير، كثير الصمت محافظا على الطهارة والصلاة في أوقاتها مع الجماعة، صلبا في دينه كثير الأذكار، حريصا على التعرف بالأخيار طلق الوجه، كثير البشر متواضعا بشوشا ذا مكايد وحيل، مستبدا بالأمور لا يشاور إلا فيما تتوقف الأنظار فيه على الأخذ برأي غيره، ذا حزم وعزم وثبات، مجالسه لاتخلو من العلماء ومذاكرتهم"(252)، رجل كهذا ربط حياته ومصيره بالسلطان وأسرة السلطان بأي دافع يقول في حقه "فقد عقله" فلو أنه قالها إعتقادا وجب عليه أن يخلع طاعته شرعا، لأن من شروط الإمامة سلامة العقل، وإن قالها غيرة أو غيظا ويزول، فالذي نقلها غتبا دساس لم يمتثل أمر الله في صيغة النهي، ولذلك عليه لعنة الله، وإن هي مختلقة فإن الدائرة لاشك دارت على من إختلقها، وما أظن أن أحدا كان يجرأ على الكيد لأحمد النظيف غير آل الجامعي اللذين كانا دون مستوى التلمذة عليه بكثير، وفيما ترك كل منهم من أثر دليل

(252) الإتحاف لابن زيدان 372/1 وفواصل الجمان 82 هذا مع العلم أنه كان لآل الجامعي مودة مع عبد الله بن أحمد عم أحمد بن موسى بن أحمد راجع وثائق 300/3-301 ضمن وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية أو مديرية الوثائق .

المستوى خصوصا واننا نملك من وثائقهم التي هي بخطوطهم الكثير واكثر منها تلك التي لأحمد بن موسى.

حقا إن كبير آل الجامعي، لم يكن أهلا للصدارة وأن الذي رفعه إليها إنما هو المصاهرة والخؤلة وتدخلات ربما لم يكن في إمكان السلطان أن يغضبها، وإذا ما إستحق ذلك نقدا من أحماد بن موسى فهو لا محالة كان بغير ما قيل ووجه للسلطان، لكنه دس من كان يعلم أن لاشيء يؤثر في مكانة أمثال الرجل الموصوف بما سبق، ويكدر صفو صدقه وأمانته غير أن ينسب له الحط من قدر السلطان(253)، لقد أورد بعضهم وصفا لنفسية المولى الحسن، الذي صوره لنا بما لا يستبعد أن يكون قد قيل ما قيل له في حق أحماد، ثم دفع آل الجامعي الذين سيعترفون بذلك إلى ما قاموا به ضد أحماد بن موسى، لقد كان أحماد المثقف يوم نصب حاجبا في التاسعة والثلاثين من عمره الذي قضاه داخل الحمى عاملا بها، راضيا بكل تقلبات الجو فيها، من صحو جميل وهو في رعاية والده، إلى غائم مدلهم داكن ومزعج، يوم إنتقل من العمل مع الخليفة السلطاني الأمير إسماعيل بن محمد بن عبد الرحمن بفاس وهو جد الأمير الحسن بن المهدي رحمه الله إلى جانب السلطان كحاجب مكان أبيه، لم يعرف غير الخبث من آل الجامعي الذين قال كبيرهم إنهم إنما يطبقون رغبة السلطان. فيما يقومون به ضد أحماد، لكنهما بالغا إلى درجة الأذى، خصوصا من محمد الصغير الذي كان يختلق من وسائل المكر ما يرضي به مركب النقص الذي كان يشعر به أخاه إزاء ثقافة وكفاءة أحماد، حتى إنه أراد أن يلقي القبض على أحماد بعدما علم بموت السلطان، والركب في طريقه الى الرباط، لولا أن أخاه قال له وبالحرف "إنه لا شيء بيننا وبين هذا الرجل وأن السلطان الذي كان يأمرنا بمضادته وعدم إعتباره قد لبي داعي مولاه"(254) وإذا كانت أخبار القوم وما

---

(253) راجع تاريخ العلاقات 292-293. ولعل الذي وصف به ريدجوان السلطان مبالغ فيه لان فيه أشياء لا يمكن للفريب الوقوف عليها مهما كانت اتصالاته بحاشية السلطان والمقربيين إليه، ناهيك وأنها متناقضة.

(254) الاتحاف 373/1 بل قيل إن أهل الجامعي دبروا مؤامرة قتل ضد أحماد بن موسى وسيده، دفعا لتنفيذها عبد السلام بن الراضي الحسناوي، المعضاضي، ولولا يقظة عبد الدار الأغا الساهل الذي أيقظ أحماد بن موسى ثم بلغه إلحاح ابن الراضي وأنه يلح في الاتصال به ولما التقى به أفضى إليه أن آل الجامعي دفعوا مالا كثيراً لفلان وفلان، وله نفسه قصد الفتك به وسيده - يعني عبد العزيز - يوم صلاة الجمعة، الخ وكان هذا هو السبب=

يدبرون ويرددون تصل الى سمع أحماد من المتطوعين وما أكثرهم في كل زمان، فإنه بالمثل كان يعرف ما يليق بالقوم وما عليه أن يدبر لهم كجزاء، وكان قبل هذا وذاك عليه أن يحيط نفسه بحب من حول السلطان الطفل، إبتداء من "عبيد" الدار الأغوات وخادماتها إلى "الشويردات" وهم الخدم من العبيد الصغار دون البلوغ الذين لا يحجب عنهم ما في القصر من حريم، كما إستعمل ما يحسن من الوسائل مع بقية أفراد الحاشية وكأنه بذلك إنما يحبب لهم السلطان الطفل وقد قيل إن جل رجال «الحناطي» فرق خدم السلطان وهم «المخازنية» من «أصحاب السجادة» «وأصحاب الوضوء»، «وأصحاب الفراش» و«الفرايگية»، "ولمشاورية» وغيرهم، أصبحوا نافرين من الحاج المعطي وصنوه محمد الصغير، منذ ما بعد موت السلطان، وقبل حلول ركاب عبد العزيز بمكناس، وقد كان ذلك بتدبير محكم ودعاية جد كان لها كل الأثر، لأنها ركزت بالقول وبالمال، كان على أحماد بن موسى وقد صدر من الصدر وصنوه أنهما غير موافقين على بيعة الأمير الطفل عبد العزيز، وهناك من إخوته الكبار من هو أحق منه، بل أنهما وقد لاحظا الميل داخليا إلى جانب الرغبة التي أعلنها الحاجب، بالغا في نقد ذلك الاتجاه. بطريقة أمكن لأحماد أن يوجه أمثال الطاهر البلغيثي(255) وأحمد الصويري(256) حتى يذيعان ذلك بطريقة جد واسعة، وقد تطوع الطاهر البلغيثي(257) بالمهمة الجديدة رغم ما قيل أنه كان من ذوي الاتصال القوي والمكين مع الحاج المعطي وصنوه محمد الصغير، وبواسطة البلغيثي والصويري سرعان ما إنتشرت الدعاية ضد الرجلين أنهما ضد بيعة

= في قسوة أحماد بتلك الشدة والعنف العنيف، على آل الجامعي الذين هم أصلا من غرب الجزائر والذين إستقدم آباءهم المولى الرشيد هم والشراقة كما سبق، والذين عاشوا دوما منفصلين ومنعزلين بشعورهم، بل بتصرفاتهم عن المجتمع المغربي وحتى عن بقية عناصر الجيش، حتى إنهم إرتكبوا في عهد المولى عبد الرحمن ومن معهم من الشراردة أقبح تصرف دفع إلى فرضهم عليه جد آل الجامعي مما أدى بالسلطان المذكور الى المصاهرة معه بابنته فاطمة لولده وولي عهده محمد بن عبد الرحمن قصد التمكين للاستقرار في صفوف الجيش؟؟

(255) راجع فواصل الجمان 203 وفيها أنه توفي فجأة وهو في نزهة بباب أغمات عام 1317هـ وهو إبن أحمد بن المامون البلغيثي، المترجم له في المصدر السابق 202 وفي أعلام الزوكلي 191/1 وشجرة النور 437 وإيضاح المكنون 9/1.

(256) أحد قواد الجيش في العهد العزيزي وقد كان على جانب مهم من الثقافة وله خط جميل.

(257) راجع الاعلام للمراكشي 256/2.

السلطان الذي تمت بيعته، بحيث عمت قواد الجيش ورجال الدولة ومعها أن اسللطان قبل موته «أوصى» لإبنه عبد العزيز وأنه إستخلص اليمين من أحماد أن يخلص لذلك؟ وإلى جانب ذلك أطلق يد السلطان التي كانت تحركها يد أحماد بالعطاء، حيث أغدق على الكبير والصغير من العطاء الذي كان هو عادة المبايع، وكان النصيب الأوفى لأولئك الذين سيستعملهم الحاجب في أحرج المواقف أمثال ادريس بن العلام وحمو بن الجيلالي عامل مكناس، وحتى يركز الحاجب عمله ويعطيه المشروعية اللازمة، إستفتى علماء فاس في شأن من يشق العصا على السلطان، ونسب ذلك إلى الصدر وصنوه، وأنهما يعتزمان ذلك بما لهما من جموع الشراقة وأولاد جامع، وكأن الحاجب هنا وبلا شك لما إستشعر أنه في طريق الحصول على مايريد إسترخى لغريزة حب الانتقام. الذي إندفع إليه بعد ذلك بعنف عنيف، أعماه حتى عن رحمة المستضعفين من أسرة آل الجامعي وعيالهم الذين لم يكن لهم حول ولاقوة، ولم يلتفت إلى ما يمكن أن يكون وسيلة للتخفيف في حقهم لأنهم لم يعرفوا الحاجب كما أنه لم يعرفهم، وهذا مما يؤاخذ عليه، كانت المدة بعد موت السلطان ومامر منها من مدينة الرباط من أيام المأتم كافية ليدبر الحاجب كل شؤونه، ويدخل في الاعتبار كل الاحتمالات، ويهيء كل الظروف، ومن ذلك إعلانه بإسم السلطان الرحيل إلى مدينة مكناس التي لم تكن عادة الرحلات السلطانية، وفي مثل هذه المناسبة الإقامة بها طويلا، وحتى إذا حصل فمن العادة إعلام الصدر والعلاف الكبير، وبما حصل كان الحاجب يقصد دفعهما للملاحظة ضد ما أبداه السلطان من رغبة الإقامة بمكناس، وذلك ما حصل، لكن السلطان أجاب وبوحي من الحاجب طبعاً، أنه يريد زيارة المولى إدريس الاكبر بزرهون، ولربما حين صدر منه هذا الجواب رجع بذاكرته إلى ما صدر من الحاج المعطي ضد الحاجب من تصرف مثير في الرباط يوم دفن المولى الحسن، ولم يتمالك السلطان الطفل نفسه من البكاء فاقترب منه الحاجب ثم أخذ يواسيه، كما إقترب منه أكثر لما أخذ رجال الدولة يعزون وينصرفون، فما كان من الصدر الحاج المعطي الجامعي إلا أن جذب الحاجب من ردائه «برنوسه» وبطريقة غير مهذبة، ثم قال له والسلطان يسمع «لم نبايع إثنين» وما كان له أن يفعل لو كان يقدر التركيب الهرمي للدولة، ما بين جيش، وإدارة، وحاشية، واعوان وأن الكل كان مطعم أهل سوس

وتافيلالت، حتى داخل القصر وبين الحريم، وأحماد بن موسى ورث حباً قديماً، خلفه له جده أحمد ووالده موسى، بنزاهتما وخلقهما، وذلك ما إعتمد عليه أحمد وسيصرفه في أول مرحلة قادمة.

ولما حل الركب بمدينة مكناس ولأول مرة بعد تعطيل الأعمال، كان على السلطان أن «يعمر المخزنية» أي يجلس رسميا لحل المشاكل وإصدار الأوامر بعد الاستقبالات التي يخصص لعمال الناحية، وإذا كانت العادة تقضي في السفر والحضر أن يكون الحاجب في مكان أقرب للسلطان من أي كان، سواء الصدر أو غيره، فإن ذلك مما مكن الحاجب من إعطاء الدروس الكافية للسلطان الصغير الذي ينتظره إستقبال الوزراء، ثم استقبال بعض القناصل المفوضين بطنجة، الذين إختاروا التعزية بمدينة مكناس، ولذلك أرسلوا يخبرون مقدما أنهم في الطريق، وإذا كانت العادة أن يخبر الصدر، فإن شيئا من ذلك لم يحصل أيضا، بل وجدها الحاجب فرصة كي يزيد في مدة الإنتظار إلى أن ينتهي السلطان من إستقبال القناصل والعمال ثم يتوجه للزيارة بزرهون، وكان كل ذلك على حساب أعصاب الصدر وصنوه اللذين نفذ صبرهما وضاقت عليهما الأرض بما رحبت، حتى إن الحاج المعطي في آخر موقف للسلطان من أيام استقباله للعمال والقناصل، وقد كان الحاجب بالقرب منه يصدر الأوامر لقائد المشور «التشريفاتي» إبن العلام من يقدم ومن يؤخر، تقدم إليه الصدر ثم جره ثانية من «برنوسه» قائلا: «لم نبايع إثنين» بل واحداً، يعني لماذا يقف أحماد بجانب السلطان(258) وقيل إن مثل ذلك حصل قبل بالمحلة(259)، يوم كان الركب ب لبروج، ولعله إثر الملاحظة القاسية من الحاج المعطي الجامعي، تقدم هذا الأخير للسلطان بما لديه من أوراق تستوجب التوقيع وقضايا

(258) ذكر صاحب الأعلام أن ذلك حصل في الرباط، والواقع حسب الرواية (الأصح، ثانية بمكناس.

(259) كان ركب السلطان في السفر يعرف ب «المحلة» وهذه لها نظام في الوضع، حيث كانت تنصب على شكل دائرة تتكون من الجيش، داخلها على شكل مستطيل، مكتب للحاجب، وآخر للكتاب، وغيره للوزراء، يعرف بـ لبنيقة، ثم الصيوان، ثم المشور، وداخله كذلك أفراك، والمربط الخاص بخيل السلطان والسجن والمدفعية، الطبجية، وللعلاف الكبير ميزة بينهم، كما يوجد بالمحلة كذلك سوق لايختلف عن الحاضرة... الخ راجع الاتحاف 534/2– 535- 534 541 وفي مجلة لوليستراسيون صور أفراك عدد 2677 ص/493 بتاريخ 16 جوان 1894م، وفي كتاب «على عتبة المغرب الجديد" للجاسوس الفرنسي الدكتور ويسجربر» صفحة 48 ط الرباط 1947 صورة رسم لمحلة أفراك المعطشة.

تستوجب النظر والرأي كذلك، وما كاد يفعل حتى بادره السلطان قائلا وقد وجه إليه نظرة غاضبة. «أعط الأوراق للحاجب» وإذا كان السلطان قد لقن دوره في المسرحية ثم حفظه عن ظهر قلب، فإنه كان كذلك كلما نطق بكلمة إلا ويتبعها بنظرة إلى الحاجب حتى يلاحظ أمصيب هو أم مخطئ، كما أن الحاجب وهو الرجل البدين والمصاب بضيق في التنفس واعياء في القلب، كان يقف بالقرب من السلطان وإلى جانبه إدريس بن العلام قائد المشور، ثم على المسفيوي وزير العدل، الذي كان قد سبق له أن علم ما شاع وذاع في حق آل الجامعي ضد السلطان الصغير، ومن أجل ذلك إستفتى أحماد علماء فاس فأفتوه بما يستوجب عقاب المفترين...

لم يتحمل الحاج المعطي وهو صدر الوزراء أن يخاطب من السلطان الطفل بما سمع أمام من حضر، ولذلك رد وبصوت فيه إنفعال «راجيا» أن يعامل بمثل ما كان عليه في عهد السلطان الراحل، وإذا السلطان الطفل لم يعرف المعنى البعيد للطلب والرجاء وهو الوفاء لعهد الراحل واحترام الدم وقرابة المصاهرة، فإنه زاد قائلا وبعنف وغلظة «اسمع آش قلت لك» إفعل ما آمرك، وماكاد السلطان يردد كلمته حتى أردفها قائد المشور إدريس بن العلام وكان صاحب صوت جهوري ومزعج «إسمع كلام سيدي» ثم جر الصدر من برنوسه بطريقة أعنف مما فعل الصدر نفسه قبل مع أحماد بوموسى، بل بطريقة فيها إهانة وعدم اعتبار مما أفقد الرجل صوابه.

وهكذا سقط في يد الرجل القليل المعرفة، وربما العديم الخبرة كذلك، ولو تاريخيا بنفسية السلاطين «وحواشي» السلاطين، بل والذي يصدق في حقه ما نسب قوله لأحماد بن موسى يوم ولاه المولى الحسن منصب الصدارة، ذلك أنه ما كاد الجامعي، يفاجأ بما سمع، حتى قام مغضبا ثم ترك مابيده من أوراق ثم خرج وقد ظهر عليه الغضب وهو يردد كلمات مبهمة أولها عقل السلطان الصغير، ثم أولت له بما يتفق ورغبة الحاجب الذي مال نحوه الجميع بالعواطف المريضة، لا بالعقول العريضة، لأنه مهما كان فإن للقوم في الدار وبين أهلها صلة رحم، لكن القوم بسذاجة وداخل التأثر بدوامة المؤامرات التي تعود القوم عليها في القصور ومع أصحاب القصور ضيعت منهم ومن غيرهم كل شعور بالجميل وما تحفظه الصدور.

كان في المقدمة كما رأينا قائد المشور إدريس بن العلام البخاري الذي له السلطة

على كل ما بالمشور من «مخازنية» جمع مخزني وهم «تنابلة» السلطان، كما عند آل عثمان او رجال التشريفات حسب اصطلاح العصر، والذين كانوا في ذلك اليوم باعداد كثيرة نظرا لاستقبال عمال الناحية وقناصل الدول، بل وكان الحاجب بذلك يريد إظهار السلطان في أعين الآخرين أنه رغم الطفولة، إستمرارا للرمزية التي لا تتأثر بالشكل، بقدر ما لها من إعتبار بالمضمون، وأن المولى عبد العزيز إنما هو إبن المولى الحسن ولافرق بين الأصل والفرع وإن كان صغيراً إذ السلطان منذ 1304هـ 1886م حين بدأه وباء الكبد وداء الكليتين. لم يكن له من التسيير إلا الاستشارة العابرة، بل الكل كان يعتمد فيه على رجل المعرفة احماد بن موسى. تلك هي المعاني التي كانت تروج في مخيلة أحماد بن موسى منذ أعلن ولاية عبد العزيز، وفي ذلك اليوم الذي إعتزم فيه الفتك بآل الجامعي بمدينة مكناس، وبذلك أصدر الأمر إلى إدريس بن العلام الذي إمتلأ بطنه في تلك الأيام حتى فار بخاره على عقله، الذي لم يتذكر أن بالامس القريب فقط كان الحاج المعطى الجامعي خال السلطان المولى الحسن وصدر وزارته، وأنه لم يصبه منه أذى، بيد أنه ما كاد يلاحظ إشارة من الحاجب، حتى تقدم نحوه مسرعا ليتلقى أوامر السلطان المفترى عليه بعزل الحاج المعطي الجامعي وصنوه محمد الصغير، من جميع الوظائف، ثم يبلغهما الأسباب، وفي نفس الوقت صدرت الأوامر إلى عامل المدينة حم بن الجلالي بالقبض عليهما ونقلهما سجينين إلى تطوان، وبذلك كانت نهابة الخسران المبين للرجلين يصدق عليهما القول المأثور «بقدر مايقرب الجاهل الغر من السلطان يزداد بعدا من الرحمان» ذلك لانه يطلق العنان لغروره وشهواته..

كان ادريس بن العلام البخاري وهو عبد أسود يتمتع ببنية قوية وضخامة جسم، طويل القامة له نظرات ترعب، وشكل يخيف، إن هو صاح بصوته وأجحظ عينيه، ولا أحب له من فعل ذلك أمام أمثال الصدر وصنوه وزير الحرب، وفي مثل ذلك الموقف الذي وضعهما فيه الحاجب أحماد بن موسى الذي حسبما يظن أن بن العلام تلقى وعداً بإضافته لحكم مدينة فاس، حتى تكون له مورداً يرتزق منه، ولذلك توجه خلف الحاج المعطي الذي أغلظ له القول وأسمعه التوبيخ والتعنيف، بطريقة عبيد القصور الذين لايجدون وسيلة للتنفيس عن الكبت الذي تعاني منه نفوسهم إلا في مثل تلك المواقف، وبعدما جمع إبن العلام بين الأخوين ثم أسمعهما من عنده ما كان في جعبته من عبارات

التأنيب والتحقير تشفيا وإشفاء لغل الحاجب الكبير، أضاف إلى ذلك «وعلى لسان السلطان» قوله «لقد طغيتم في البلاد» وكفرتم بالنعم وما أسداه لكم مولانا المقدس من الجميل، وارتكبتم بدل المجازات بالإحسان العقوق، وقد بلغ سيدنا أيده الله ما صممتم عليه من شق عصا الطاعة، وإيقاد نار الفتن، ولولا رعاية محبة سيدنا المقدس فيكم، وقرابتكم منه، لاذاقكم شديد النكال وأليم العذاب، قوما إذ هبا لحال سبيلكما، فلم يسعهما إلا الإنصراف ولزوم محلهما بمكناس، ويقول صاحب الاتحاف. إن ذلك كان يوم الثلاثاء، وفي يوم الجمعة أمر باشا مكناس حم بن الجيلالي بن حم البخاري، بإلقاء القبض عليهما، ثم على صهرهما العربي الزبدي الرباطي، واستئصال أموالهما وأثاثهما وبيعث تركتهما في العواصم المغربية،... وبعدها بذل أحماد العطاء للوفود وأسدى للضعفاء والمساكين، بكل ناحية، ولاسيما مكناس وفاس، ووجه المقبوضين مقيدين لسجن تطاوين، إلا الأخير – وهو العربي الزيدي – نقل سجينا لآسفي، وفي سجن تطاوين مات الحاج المعطي، وكانت مدة إعتقاله ثلاثة وثلاثين شهرا،... وبقي أخوه إلى أن سرح أواخر الدولة العزيزية، ونقل لطنجة، وبقي في حكم الثقاف بها في أتعس عيش إلى أن إخترمته المنية... »(260).

وهكذا وبسبب الحزازات التي تكونت بين الرجلين وأحماد بن موسى بن أحماد ثم تطورت إلى حقد أدكاه السلطان نفسه حسب إعتراف الحاج المعطي، ورواية صاحب الإتحاف، إنتهى آل الجامعي بعدما عرفوا زمنا صولات عابرة وموقتة، منذ عهد المولى عبد الرحمن إلى عهد حفيده المولى الحسن(261).

إنتهوا وزال أثرهم بسرعة خاطفة إلا ما كان من ذكر خاطف بلا رثاء، بل وصفهم صاحب الفواصل بما تشم منه رائحة كريهة، حيث قال في الصدر المذكور، كانت فيه رحمه الله غلظة على العمال وجفوة، وحدة لاتستر هفوة، طالما كلمهم بما يحفظ وكلفهم بها يبهظ، وربما نفذت شرته، وسرت مضرته. لحملة الأقلام، ورؤس الخدام، فلذلك تباروا في هد أركانه، وتداعوا لتعجيل إمتحانه لما تسهم له وجه زمانه»(262).

---

(260) راجع الاتحاف 375/1.

(261) راجع فواصل الجمان 60–61–80.

(262) كان أولهم المختار أحد قواد جيش الشراردة الذي فرض عنوة على السلطان من قومه الذين دخلوا في صراع مع المولى عبد الرحمن. توفي المختار الجامعي في محرم سنة 1251هـ/1835م.

الفصل الثاني والسبعون بعد المائة
تجربة أحماد في التمكين للدولة بسحق الثورات وطرد الاستعمار

وهكذا فإن أحماد بن موسى لما تخلص من آل الجامعي الذين كان ميلهم للأمير محمد بن الحسن، كان عليه كذلك أن يتخلص من هذا الأمير الذي فعل به مثل ما فعل بآل الجامعي، والذي كان سجنه أولا بالقصر الملكي بمراكش، ثم نقل إلى القصر الملكي بفاس، وقد بقي به إلى عهد المولى عبد الحفيظ الذي أطلق سراحه قصد الخلاص من ابي حمارة الذي ادعى أنه الامير محمد بن السلطان مولاى الحسن كما سنرى بعد ، كما تخلص أحماد كذلك من الأمير عمر صنو السلطان عبد العزيز، والذي كان خليفة لوالده بفاس عزله تم وجهه إلى مكناس وكان هذا الامير على جانب من العلم والمعرفة، وبذلك أصبح الحاجب الذي نصب نفسه وصياً على السلطان الطفل، مطلق السلطة غير منازع، وحتى يتحرك أني شاء وكيف يريد، أعاد تأليف الحكومة بطريقة تؤمن كل خطواته التي كانت بحق لصالح العرش والوطن، فقد نصب أخاه سعيد بن موسى(263) علافاً كبيراً أي وزيرا للحرب، وأخاه إدريس(264) حاجباً، وأخاه البشير(265) قائداً من قواد الجيش الكبار، ولم يترك من أعضاء الحكومة السابقين غير علي المسفيوي الذي بقي في منصبه كوزير للعدل، ومحمد التازي الرباطي، كوزير للمالية، ثم محمد بن المفضل غريط، في وزارة الخارجية، وإن كان هو الآخر أستبدل بعد، بعبد الكريم بن سليمان لأنه كان مخمراً، لكن هذا الأخير أصبح بعد خائنا لصالح الاستعمار الفرنسي كما سنرى

(263) توفي ليلة 17 رمضان 1317هـ 1899م وفواصل الجمان 879.
(264) توفي 17 حجة من نفس السنة، فواصل الجمان 89.
(265) توفي 1315هـ 1897.

خصوصا عندما أصبح مكلفا بشؤون الأجانب ولذلك سيخرج من قبره ويحرق بالنار. كما سنرى بعد.

كانت الظروف التي استولى فيها أحماد على السلطة في المغرب من أحسن الظروف التي عرفت في تاريخ مرحلة آخر القرن التاسع عشر، سواء من حيث الأمن العام، أو من ناحية الإقتصاد وجودة المحصول، مما ساعد على انشغال المغاربة وعدم إهتمامهم بكواليس الحكومة، الأمر الذي مكن أحماد بن موسى من القيام سنتين بفاس وعلى بعد خطوات من قبيل آل الجامعي وقومه الشراردة الذين فرضوا المختار قبل على المولى عبد الرحمن، دون أن يحركوا ساكناً، لكن ناحية مراكش وبالضبط قبيلة الرحامنة التي لم تألف بعد السلطان وانقطاعه عنها تلك الفترة من الزمن التي بلغت سنتين سرعان ما سمع عنها ما يزعج، وعن الأعشاش كذلك، بسبب التطاحن الذي كان بين رياح والمذاكرة، إخوان القائد عبد السلام بن الرشيد، وقبيلة الأعشاش، حيث قام القائد المذكور وقومه بجولة تأديبية ضد الأعشاش في شهر ربيع الأول 1314هـ أخبر عنها أحماد الذي أوغر صدره ابن الرشيد ضد الأعشاش، كما فعل محمد أحمو مع المولى الحسن ضد ايت امجيلد! ابن الرشيد هو الذي كتب إلى أحماد. بن موسى في مراسلة له نتوفر عليها أنه قتل من رجال الأعشاش وجرح عدد لايحصى واستولى على مالهم من الخيل كذلك، ولم تبق لهم شوكة، حتى إن خيل إبن الرشيد كما يقول، تجوس خلال ديارهم ولم تجد من يقابلها من الفساد، مع تحريض جماعة مع بوعزة بن عامر، وكان الأعشاش وربما غيرهم أيضا ينضافوا إليهم، وانتهوا إلى دار ابن أحمد – المدينة اليوم – وحوانيت التجار المحميين من الأجانب بها، حيث نهبوا وأحرقوا مماجر على الدولة مشاكل لم تكن مستعدة ولامنتظرة لها، خصوصا وأن الأجانب من ناشرى الحمايات بعد لما ينتهي البحث من احصائياتهم واداعاءاتهم، وقيل إن ما ضاع لهم بلغ مائتي ألف ريال ولما ينتهي حصر المنهوبين، كما هدموا السد الذي كان الفاصل بينهم وبين الأعشاش وإخوان بن الرشيد المذكورين مما حصل معه شك أن يدا خفية تدبر سوءا.

وإذا كانت قبيلة الأعشاش قد انتهت إلى هذا الوضع بسبب ظلم ابن الرشيد فإنها انتهت إلى حقد دفع رجالها إلى التفكير في الانفجار ضد الأجانب الذين انتهوا إلى

ماسبق، مما دفع الرحامنة إلى القيام مثلهم بعمل مزعج للدولة بماجر من إشعال نار الفتن في المنطقة، ثم على مراكش وآسفي، وما حولهما خصوصا وقد قام بينهم شيطانهم الثائر مبارك بن الطاهر بن سليمان 1313، وكان قبل عاملا على قومه، ثم حصل ما أبعده إلى درعة، وقد عاد وقتها ليحدث الروعة في قومه بطريقة دفعت الحاجب إلى أن يرسل إلى قومه الذين انتقل أذاهم إلى مراكش ودمنات، حيث ظهر بها المقتدي به وهو الغوات الذي قام هو الاخر بثورته يريد الخراب والتخريب ضد الوضع، وقد حاول معهم أحماد بن موسى حتى لايعرضوا الأهل والبلاد للخراب الأخطر عليهم جميعا، لكنهم ردوا عليه بما كان السبب في تلقينهم أكبر درس عرفته قبيلة من قبائل المغرب، حيث كون جيشاً جراراً بقيادة محمد لمراني، ومثله جيوش أخرى عمت المعسكر النظامي والمستنفرين، كما شارك في القيادة أعمام السلطان الثلاثة وهم الأمراء الأمين، وعبد القادر، وعبد الملك، وسرعان ما كانت الدائرة على الرحامنة وزعيمها امبارك ابن سليمان الذي جيئ به مقيدا ومن معه في رمضان من سنة 1313هـ 1893م(266) كما فعل بأولاد «سيدي مخلوف»(267) الرحامنة وغيرهم مابقي عبرة لمن يعتبر، لكن بعدما يقرب من السنة ونصف، قامت ثورة أخرى بالأعشاش ناحية الشاوية أوائل عام 1315هـ/1897م، فكان على أحماد بن موسى أن يرحل إليها بنفسه ومعه السلطان الذي لم يكن بعد قد عرف تقديره للمسؤولية حتى إنه وقتها وقع في خطأ كبير عالجه أحماد بطريقته الخاصة، كما إندفع وربما تحت تأثير الغضب ضد قبيلة الأعشاش ليمزقها شر تمزيق، حيث نزل بالمكان المعروف «صخرة الدجاجة» ولعل ما فعل بهذه القبيل لم يعرف قبل ولا بعد، إذ قطع ثلاثمائة رأس من رؤوس رجالها صبروا بالملح بواسطة اليهود الذين كانوا يقومون بهذه المهمة، وبطريقة خاصة لايحسنها سواهم، وقد كانوا يتقاضون الأجرة على كل رأس حتى يعلق أطول مدة على أسوار مدينة من المدن الكبرى مراكش، والرباط، وسلا، ومكناس، وفاس، ووجدة،

(266) كان الثائر قد التجأ إلى زاوية علي بن ابراهيم بتادلة، ومنها أخرج، ووضع في قفص من حديد ثم طوف به في مراكش،

(267) يعرف أولاد مخلوف بن خلف الله بفجيج وهم فرع من الأشراف الوادغيريين نسبة إلى وادي گير ولست أدري إن كان لهؤلاء علاقة بهم، راجع من هذا الكتاب فصل «الأدارسة بعد انهيار دولتهم» ج 1.

وتطوان، وطنجة، والعرائش، حيث كانت شرافات أسوارها قليلا ما تخلو من الرؤوس المعلقة على مر العصور وتلك عادة استمدها المغرب من آل عثمان كما قبض على ألف وخمسمائة من رجال القبيلة المذكورة سيقوا في أغلالهم إلى سجن مصباح بمراكش ثم «سجون الرباط» والدكاكين بفاس ثم تطوان، أما الذين التجأوا إلى الكهوف فقد حوصروا حتى الموت، ومنهم أولاد محمد فتحا، وبذلك قضى أحماد بن موسى على كل أثر للفتنة التي يمكن لمتهور ان تحدثه بها نفسه، كما أعطى صورة للأجانب أن المغرب إن هو وجد الحاكم الصالح فإنه لايعرف التمزق أبداً، ولذلك أيضا سنرى كيف سيستخلص منهم أحماد بن موسى أي من الأنجليز والاسبان كلا من رأس جوبى وسانتاكروز، كما سيلتفت إلى أصحاب الحمايات فيعاملهم بما يليق بهم من شدة دون أن ينتج عن ذلك ما يزعج، وهذه خطة الغزو كما وضعها أحماد بن موسى، ومن خلالها نتبين شخصية الرجل وقدرته وكفاءته في تسيير الدولة والمحافظة على دوامها وقوة سلطانها، والخطة مأخوذة من مسودة وثيقة خاصة فيها الامر الصادر وقتها وفيها ورد مايلي:

الحمد لله تقييد كيفية سير المحلة السعيدة وبيان مراحلها والأغراض الموجهة لأجلها.

تخييم المحلة السعيدة، أولا بحانوت البقال، ومنها لزاوية ابن ساسي، ومنها لرأس العين، و منها لتملالت، ومنها للقلعة، ومنها لدار علال الشرقاوي ومنها لابن خلو، ومنها لولط، فتخيم على بني مسكين* بولط، وقد أمر عمال السراغنة بالتخييم عليهم من إبن خلو إلى حمرى، ومعهم مولاي المامون، وعبد الله بن عمر البخاري وأمر أولاد بوزيري والداودي بالتخييم عليهم بعولي «إسم مكان» ومع الأولين القائد حافظ الدليمي، ومع الأخير أكمدر وأمر باقي عمال الشاوية وهم المذكورون فيما يلي، بالتخييم عليهم من عولى إلى وادي كروط وهم:

1-القائد العياشي السعيدي 2-والقائد المعطي المزميزي 3-القائد عبد السلام

---

* بني مسكين قبائل من البربر كان سكناهم بوهران ولما تعرضوا لحرب طاحنة بسبب ثأر فلما ضيقوا عليهم يقول صاحب الاستبصار هرب بنومسكين في الليل راجع الاستبصار في عجائب الديار مصدر سابق والبكري 70-71 مصدر سابق والإدريسي 84 والدمشقي 235 وابن حوقل 52 وأبو الفداج 172/2 ومراصد الاصلاح 299/3.

بن رشيد 4- القائد أحمد المديوني 5- القائد العايدي الزياني 6- القائد بوشعيب الزناتي 7- القائد محمد بن المعطي الزيادي 8- القائد محمد بن بوشتى الزيادي 9- القائد عبد الله الزيادي 10- القائد الشرفي الأوراوى 11- القائد أحمد الفارسي 12- القائد أحمد بن البهلول 13- القائد بن العباس البرهمي 14- القائد الجيلالي الشباني 15- القائد محمد بن خمليش 16- القائد عبد القادر الخلفي 17- القائد الجيلالي الحمدوي 18- القائد عمر بن توزرت 19-القائد محمد الخزاري.

وأمر بإلقاء القبض على خليفة القائد محمد بن الشرادي السفياني ومحاصرة داره وإحصاء ما بها على يد الأمناء وفقهائهم، وأمر بنو عمير بالتخييم كذلك على بني مسكين، بدار ولد الدامية إلى بوداهية ومعهم مولاي اليزيد بن عمر، وقائد رحى. وأمر بني موسى بالتخييم عليهم بتارماست، ومعهم مولاي إدريس بن عمر، وقائد رحى والتضييق بهم من كل جانب من غير مد يد في متاعهم حتى ينقادوا للجادة ويؤدوا الذعيرة الموظفة عليهم، وقدرها ثلاثمائة ألف ريال، وثلاثمائة من الخيل، أما الخيل فبعينها فوراً، وأما المال فبعضه ناضاً وبعضه عروضاً، من خيل وبغال وإبل، فحين يرد عليه قواد بني مسكين لولط، بقصد المفاوضة معه في أمر إخوانهم طبق ما أمروا به يقبض على محمد بن بوعبيد، وعلى الشيخ بن الشرقي وعلى من يظفر به من فساد إخوانهم حسبما في الكتاب الشريف لهم بذلك، ثم بعد القبض عليهم يدفع كتاب الولاية على بني مسكين كافة للقائد أحمد بن الشافعي، ويأمره بإحضار أعيان بني مسكين، وبعد حضورهم يقرأ عليهم الكتاب الشريف المتضمن لبيان الذعيرة، وكيفية قبضها، ويشرع في استيفاء ذلك منهم، الناض «يحوزه» الأمين حتى يوجه مع الخيل والدفع لشريف الحضرة.

ثم بعد قضاء الغرض ببني مسكين، تنهض المحلة السعيدة لدار ابن الشافعي فيتعرض لها بها عمال الشاوية كافة، ومنها تنهض المحلة ويتوجهون صحبتها حتى تخيم بدار بن خمليش الأمراحي، ويخيم معها سائر عمال الشاوية على قبيلة الأحلاف من أمزاب وسائر الأعشاش ثم يدفع لكل واحد من عمال الأحلاف والأعشاش كتابه وفيه بيان ما وجب عليهم من غرم مانهب للتجار من دار ابن احمد الامزابي مالا ناضاً بعينه، «بحوزة» الامين المعين له وقدر مجموعه مائتا ألف ريال حسبما بنسخة من المكاتيب

الشريفة الصادرة لهم، بهذا ستصلك مع نسخة من كتاب شريف كبير صدر لعمال الأحلاف وعمال الأعشاش بيان ذلك مع المكاتيب الشريفة لتدفعها لهم.

تلك هي أولى جولات أحماد بن موسى من أجل التمكين للدولة وتركيز سلطانها بعدما أخذت تتعرض للتمزيق الذي أوقفه إلى حين، والذي سيستأنف بكل حدة إثر موته مباشرة.

لقد كان أحماد بن موسى بفضل نشأته وثقافته وماعرفناه به من سلوك، مرتب الذهن عارفا بشؤن الدولة مايقدم منها ومايؤخر، ولذلك ما كاد ينهي مشكل آل الجامعي ويزيل من الطريق أي أثر لتطلعات الأمراء من أبناء المولى الحسن، مثل محمد، وعمر، ثم يسحق ثورتي الرحامنة والأعشاش حتى التفت للاهتمام بالمشاكل المتعلقة بقضايا الأماكن المحتلة من الجنوب الغربي بواسطة الاسبان والانجليز كرأس جوبى وسانتا كروز ثم قضية توات والحدود الشرقية.

وبدأ تحركاته في هذا المجال بإرسال سفارة يرأسها صنوه محمد إلى فرنسا(268) 1315هـ/ 1897م وأخرى. برئاسة عبد الكريم بريشة إلى ملكة الاسبان، ولقد نجحت هذه السفارة بسبب ما حدث للسفير الذي تعرض لهجمة من جنرال متقاعد ومعتوه صفعه على قفاه وهو في موكبه الرسمي متوجها إلى وزارة الخارجية بمدريد، لكن بريشة عرف كيف يحول الحادث إلى أزمة دبلوماسية لم يقبل فيها أحماد بن موسى غير اعتذار الملكة كتابة إلى السلطان، وبذلك كتب إلى محمد العربي الطريسي بدار النيابة(269) وفعلا حصل ذلك وانتهت الأزمة بترضية السفير الذي حقق لبلاده كسبا هو استخلاص المركز وخصم نصف المبلغ الذي كان مقررا كتعويض، وبذلك استحق ابريشة من الحاجب أحماد بن موسى مبلغ خمسين ألف ريال كمكافأة، كما حل مشكل الطرفاية أي رأس جوبى مع الانجليز هو الآخر بدفع مبلغ خمسين ألف جنيه بعد وضع إتفاق بذلك مكون من خمسة بنود ثم أرسل إليها وفدا مكونا من مهندس وبعض الضباط والجنود وأرباب

---

(268) راجع لولستراسيون مصدر سابق.

(269) راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية ومديرية الوثائق الملكية بالرباط. والاتحاف 1/379-80.

الحرف(270)، ذكرهم بأسمائهم ابن زيدان، وذلك حتى يكونوا نواة لعمران المركز، كما إلتفت إلى قضية العنانمة والفرنسيين في كل من توات والحدود الشرقية، خصوصا وأن الغنانمة لما سمعوا بموت المولى الحسن بالغوا في تمردهم لفائدة الفرنسيين الذين كانوا قد انجروا لهم كما انجر بعض أهل زاوية كرزان إلى الفرنسيين بواسطة الخائن الفاسق عبد السلام ابن العربي الوزاني، فكان رد أحماد أن دعى تلك النواحي إلى الجهاد إحياء لفكرة الشيخ محمد العربي الذي كان لردع مقاومته رد فعل سيء ضد السلطان عاشه أحماد مع السلطان في رحلته لتافيلالت كما سنرى حين تعرضنا للمقاومة، وأن كل ما حصل من تذمر أدى في بعض المناطق إلى شرور كثيرة ضد الإدارة مصدره أنصار الشيخ محمد العربي الذين كانت لهم جولات ضد الفرنسيين في المنطقة، وحتى يجلب ودهم أحماد بن موسى إستنفر أهل قصور توات الذين وضع على قيادتهم محمد بن عبد الرحمن أخ وخليفة القائد حسون، وقد شارك التوارگ في هذا الجيش الذي اتجه نحو الساورة، حيث أبادوا قصور لغنانمة، وذلك قبل أن يلتحق العامل الذي عين على إقليم توات بمقر عمله، وهو القائد احمد بن رزوق البخاري الذي اتخذ مقره بـ«تيميمون» والذي عرف كيف يعالج مشاكل المواطنين هناك، حتى إذا ماعادت الألفة والوئام كان عليهم أن يلتفتوا إلى الفرنسيين، وبذلك بدأت الحملات تتوجه ضدهم من زاوية بوسامة البوشيخي تلميذ محمد العربي في العرق، وإذا كان الفرنسيون قد أخذوا يحفرون الآبار في طريق گورارة فإنه كان على العامل بن رزوق أن يستفز عسكر گورارة ليقاوموا ذلك، مما دفع سفير فرنسا بطنجة إلى الاحتجاج على موقف العامل إلا أن دار النيابة أجابت بالحجج القوية والملموسة على أن فرنسا هي المعتدية لكن هذه وقد كانت عازمة على السير في مخططها الاستعماري تعللت بمعاهدة مابعد حرب إيسلي 1262هـ/ 1845م، والتي نص

(270) راجع فصل سابق الاتحاف 1/382-84 وكان الذي رد الأنجليز إلى التفاهم هو الخطة التي خططوا لها مع الفرنسيين والاتفاق الذي تم قبل بين الطرفين في فاشودة من أرض مصر حيث حصلت المواجهة أوكادت بين الكابتن مارشان الفرنسي وكتشنر قائد الجيش المصري، وبعد أخذ ورد تم الاتفاق الذي وقع يوم 1899/3/21م على أن ينسحب الفرنسيون بعد إنزال رايتهم التي كانوا رفعوها فوق القرية المذكورة يوم 10 يوليوز 1898م كما رفع الانجليز إلى جانبها راية مصر يوم 19 سبتمبر بحيث تم الاتفاق على أن تترك مصر للأنجليز مقابل التنازل عن المغرب لفرنساوهو الاتفاق الذي سيتوج بآخر قيل عنه «سري» بعد خمس سنوات أي 1904م.

فيها على أن منطقة جنوب فجيج تعتبر صحراء، ولقد نجح ابن رزوق في مهمته ولم يعاكسه ويقف إلى جانب الفرنسيين ضده غير قائد كرزاز وأهل زاويتها الذين فرنسهم عبد السلام الوزاني، لكن أحماد استبدله بآخر هو محمد بن عمر المراكشي المعروف ب «السي امو» والذي كان قائدا على فجيج عينه على قبيلة سفيان، كما عين القائد ادريس بن الكورى الشرادي على آل أحامد، مما دفع الفرنسيين وقد رأوا جدية الموقف لا أن يحتجوا فقط، وإنما أرسلوا فرقة عسكرية في الوقت الذي كان أحماد قد إنشغل بحرب الأعشاش، ولما ينتهي منها بعد سنة 1315هـ /1897م حيث توجهت الفرقة نحو گورارة وتيديكت ثم حاولت الاستيلاء على عين صالح (271) لكنهم لم يتخلوا عنها إلا بعد سنتين، وذلك يوم 16 شعبان 1317هـ 1899/12/30م، ذلك أنهم وقتها ردوا على أعقابهم وبعث قواده وجماعات هذه المنطقة إحتجاجهم ضد الفرنسيين الذين استقروا في «فورميربيل» ورفع القائد إدريس بن الكورى كتابا إلى السلطان حمله إلى فاس الجيلالي بن رحمون، واتجه العامل بنفسه إلى تيديكلت للوقوف على جلية الأمر، لكن الفرنسيين إغتنموا شهر رمضان الذي كان أحماد بن موسى يعتكف فيه ويشغل أيامه بالعبادة، فتقدموا لاحتلال عين صالح في التاريخ المشار إليه انفا، والتي قتلوا من أهلها ستة وتسعين رجلا، من بينهم القائد الحاج المهدي وأخوه بوعمامة وعدد من الأعيان والمرابطين، وذلك بعد أن دخلوا إلى توات يوم 26 شعبان وفي سادس شوال 1900/2/7م إجتمع أهل توات وأحامد، وسفيان، في تيمي.

وقرروا جمع مبلغ إثنان وستون ألف مثقال أي مايساوي 124000 فرنك لإرساله إلى السلطان، وكان أحماد وقتها يلتقط أنفاسه، مما دفع الفرنسيين إلى السير في تحقيق مخططهم، يقينا أنهم سوف لايجدون في طريقهم القوة التي كان وراءها أحماد بن موسى، ولم يجدوا غير الاحتجاج الذي لم يكن للحاج محمد الطريس غيره، لكن ما يجدى الكلام أمام فوهات البنادق والمدافع، حيث إستمر الفرنسيون في مواصلة إحتلالهم وتقوية زحفهم رغم حركة الاستنفار التي لم يكن وراءها مثل أحماد بن موسى، الذي ما

---

(271) راجع مجلة لوليسترايسون المشار إليها قبل ومافيها من صور لعين المكان، ووثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية، والموسوعة المغربية معلمة الصحراء لعبد العزيز بن عبد الله ص 60 ط 1976م.

إن توفي حتى إنشغل خونة ذلك العهد باستعمال كل الحيل لإقتسام مخلفاته وما حافظ عليه من أموال الدولة، في الوقت الذي كان الفرنسيون يعملون بخطى واسعة لإتمام إحتلال الصحراء وضمها لحكمهم بالجزائر بعدما قسموها إلى ولايات ثلاث طوعوها تباعا وهي:

أ- گورارة ومركزها بتميمون.

ب- تيديكلت ومركزها عين صالح

ج- توات ومركزه أدراربتيمي.

وبذلك طويت صفحة ما كان لها أن تطوى على ذلك الشكل لو بقي روح الجهاد الذي كان يتزعمه محمد العربي الهاشمي العلوي الدرقاوي لو لم يطعن من الخلف، لبقي الفرنسيون يحيون تحت رعب الخوف من الجهاد وحرب العصابات التي دامت اكثر من عشرين سنة والتي كانت قوية تمون من الشعب الذي كان يعتبرها واجبا مقدسا وعملا يستوجب الإستشهاد، حتى إن الفرنسيين حاروا أمام قوافل المجاهدين بطريقة لم تكن لهم أمام جيوش السلطان.

وقبل أن تختم صفحة أحماد بن موسى الذي لم يعرفه إلا من عاش تلك المرحلة من خلال الوثائق التي عرفت خزانتي منها الآلاف، وما حوته من صراع الرجل في شتى الواجهات من أجل الوفاء وسط الذين لم يعرفوا معنى للوفاء، لكنه مع ذلك ختم حياته وهو راض مطمئن ومستبشر، لأنه أولا خدم دينه ووطنه ثم حرر ما كان مغتصبا منه، وبالتالي حافظ على العرش ثم جنبه من الهزات التي كانت تنتظره بعد موت السلطان المولى الحسن، والتي لو لم تكن صرامة ونزاهة وخلق أحماد بن موسى وإيمان الجميع بذلك، لما واجه آل الجامعي بحزازاتهم أو أي كان غيرهم، كثورات الرحامنة ودمنات والأعشاش ولما كانت النتيجة كما تركها "أحماد" بن الوزير موسى بن الوزير "أحماد"، الذي مات ولم يخلف من متاع الدنيا غير ستمائة مثقال دفعت في ما كان عليه من ديون، كانت هي نفس المبلغ حسبما وجد في دفتر معاملاته يقول المولى سليمان الذي لولاه لما وجد من مخلفات وزيره طيلة ثلاثين سنة ما يكفن به.

حقا إن حفيده العظيم بدينه ووطنيته لم يكن كذلك، فهو لم ينسى نصيبه من الدنيا في حدود الشريعة، ويكفي أن الجميع قال في حقه، أنه لم يترك الصلاة مع الجماعة قط، والمتدين لم ولن يرضى لنفسه ما يغضب الله ويضر بالناس، وذلكم هو أحماد بن موسى

الذي من تأثر بعض كتاب المغاربة لفقده أنهم نسبوا قتله للفرنسيين والإسبان معا أي لطبيب السفير الفرنسي وطبيب السفير الإسباني، حيث قال بعضهم رواية عن الذين لم يكن في مقدورهم قول الحقيقة، وقد أصبح المغرب والمغاربة بعد تحت حكم الفرنسيين والاسبان وقهرهم، قال الذي عاش ورأى أحماد وهو على فراش المرض: "أفصده طبيب سفير إسبانيا بين كتفيه قرب عنقه، وأعاد الفصد له طبيب سفير فرنسا فوجد خفة في مزاجه واعتراه النوم؟؟"(272) فلما أريد إيقاظه(273) وجد ميتا بعد صلاة الصبح يوم 17 محرم 1318هـ/13 ماي 1900م ودفن جوار جده بجانب قبري السلطان العادل المولى سليمان، والسلطان المجاهد محمد بن عبد الرحمن بضريح المولى علي الشريف بباب هيلانة بمراكش(274) رحم الله الجميع.

وإذا كان بعضهم لم يزد على ما أخبره به عن الطبيبين الاسباني والفرنسي، فإن الدكتور فسجربر(1879) وهو أول طبيب فرنسي إستعمل مهنة الطب وسيلة للتجسس في المغرب، فهو الذي قال عن نفسه أنه عالج أحماد بن موسى يوم كان يشرف بنفسه على عمليات التطهير ضد الثورة في قبيلة الأعشاش وقد زاره في صخرة الدجاجة بالشاوية ثم أدخل عليه وهو يباشر أعمال الدولة بواسطة مساعدين إثنين، يملي على كل منهما الحلول فيما يختص بجانب عمله، وقد وجده مرهقا ولما إقترح عليه أن يستريح رفض، وهو الذي أخبرنا بما لم يخبرنا به المغاربة، وأن أحماد كان يحتاط في طعامه، وأن الذي كان يعد له الطعام ويشرف عليه هو صنوه البشير المتوفى 1315هـ، وليس 17 كما عند المراكشي، وأن البشير كان يأكل من نفس الطعام قبل أن يأكل منه صنوه الحاجب بساعة، وعندما يوجه إليه يكون مختوما عليه، وتحت الحراسة، والدكتور يصف لنا من أخبار جاسوسيته ما حققه عن الحاجب في الحالة التي عرفه عليها أثناء حملته بالأعشاش، وأما في حالة الإقامة وبين أهله فذلك شيء وبحكم المحافظة التي عرف بها لم يعرف عنه ولا عن أسرته قليل ولا كثير، إلا ما كان مما سنعترض لبعضه من خلال الوثائق بعد موته وما سيحل ببعض أفراد أسرته.

---

(272) الأعلام للمراكشي ابن العباس السوسي الشتوكي 260/2 وهذا غير متفق مع رواية ابن زيدان في الاتحاف 392/1.

(273) تاريخ العلاقات 304.

(274) راجع تراجمهم في فواصل الجمان 82-87-89.

الفصل الثالث والسبعون بعد المائة

أحمد بن موسى والعبر الخالدة

لم نجد في التاريخ السياسي لهذه المرحلة مرحلة ما بعد موت المولى الحسن وعن حياة رجل الدولة أحماد بن موسى، سواء المنشور منها أو الذي لم ينشر، وهو أضعاف أضعاف ما عرف الناس لو ضمت إليه الجوانب الأخرى التي منها علاقاته البشرية، وثقافته الأدبية، ومجالسه العلمية، وأعماله العمرانية، والزراعية، ومراسلاته السياسية إلى العمال والولاة، باسم السلطان، ولصالحه، في الوقت الذي لم يكن للسلطان بها ولا بمضمونها قليل ولا كثير من العلم بل لو جمعت لكونت مجلدا يضاف الى مجلدات التاريخ السياسي للمغرب كما أننا لم نجد، في كل ما ذكر ما يخدش أو يمس بمروءة أحماد بن موسى الذي خلفت لنا سبع سنوات من حكمه للمغرب سيلا كبيرا من الوثائق جلها بقي ثم زاغ عن مساخن الحمامات بالقصور الملكية في مراكش وفاس ومكناس.

بل لم أجد ولن يجد غيري ملاحظة تحط من قدر أحماد بن موسى السوسي وكل ما لا حظه بعضهم، بناؤه لقصري "الباهية" بمراكش، "والزاهية" بفاس(276) في حين أن

---

(276) فواصل الجمان 84 ط فاس 1929م، وفيه شبهه غريط بالمنصور بن أبي عامر في سياسته واستعداده لتوطيد رياسته واستبداده، وما ذلك من محمد غريط إلا لأن أحماد بن موسى أبعد محمد بن المفضل غريط والد صاحب الفواصل عن وزارة الخارجية لأسباب أشرنا الى بعضها قبل، ومنها الخمر وصاحب فواصل الجمان الذي هو محمد بن محمد المفضل غريط الذي انتهى كاتبا بإدارة الخليفة السلطاني بفاس المولى المأمون ابن المولى الحسن كان من أحسن شعراء المغرب في عصره، إلى درجة أن الذي تمرس على قراءة قصائده يجدها منشورة باسم غيره، وقد كان يفعل ذلك مع مرضى النفوس الذي يريدون المشاركة في المناسبات مدحا ولا قدرة لهم في مجال الأدب راجع "ديوان اليمن الوافر الوفي، في امتداح الجناب اليوسفي" الذي جمع قصائده ابن زيدان لمختلف شعراء المغرب ط1924م بفاس. ومع ذلك فقد توفي غريط عام 1945م، بعد ما عاش حياة البؤس والفقر والشقاء، بل توفي وهو يعمل في وظيفة مع حماد المقرى في ركاب الخليفة المذكور حيث كان الكل يرثى لحاله ويتألم من أجله كما عشت ورأيت زمن الطفولة بالقصر المذكور. وإنه من شدة الفقر كان وهو الكاتب مع الخليفة السلطاني لا يرتدي ما يناسب من الثياب.

ذلك كان منه قصد إيجاد الشغل لذوي الحرف والعملة الذين تفشت البطالة بينهم في مراكش إثر الثورة الرحمانية وقبلها، وثمة ملاحظة أخرى هي ما قاله صاحب الملاحظة السابقة، وهي "نقله مال الجباية لداره بدعوى حفظه وإدخاره، مع أن للأموال المخزنية بيوتا تحرسها وخدمة تحوطها ممن يختلسها لأنها قوام الملك وروح سطوته، وعمدة أبهته وسياج قوته.."(277) على أن صاحب الملاحظة لو أدرك أن الحاجب لم ينقل الأموال إلى قصره فحسب، والذي كان داخل القصر الملكي بل نقل حتى الذخائر التي بقيت من عهود السابقين، ثم وضعها في الخزائن والصناديق التي وثقت بأقفال، ولم فعل ذلك يا ترى؟ هل لإشباع شهوة وغريزة التملك، أم لأنه كان يطمح فوق ما وصل، أم أنه كان يفعل ذلك لصالح أخ أو ولد؟ الاخوة جميعا ماتوا قبله، وليس له من الولد، ولا أولاد الإخوة بشهادته من يستحق الذكر، وأبوه وجده لم يسجل التاريخ في حقهما غير الصدق والأمانة والوفاء، فمن أجل من كان يفعل ما فعل؟ لعل في جواب التاريخ والواقع كفاية، لقد أجاب على ذلك من روى عنه إبن زيدان في الإتحاف، وأن الرجل في حياته التي إستقل فيها بالحكم، وقبل أن يستقل لم يحرك ساكنا، ولم يرسل قولا ولا خبرا بصيغة الصادر عن أحماد بن موسى، بل بإسم السلطان وأمر السلطان الطفل الذي لم يتغير في حقه شيء كما كان قبل في عهد والده حتى في مراسلات أحماد لإخوته سعيد، والبشير، وإدريس، ومحمد لم يتغير أي لفظ من ألفاظ الإكبار والتعظيم والإجلال التي عرفت للسلطان في عهد المولى الحسن، بل حتى إذا حصل خطأ ولو بسيط من كاتب يريد أن يتملق أحماد بن موسى، كان يعيده إلى صاحبه، وعليه ملاحظة تعديله حتي لا يعود الكاتب لمثل ما حصل(278) وكل ذلك في عرف القصور وسكان القصور ذهب مع الريح وضاع، حتى كأن الرجل لم

---

(277) نفس المصدر السابق.

(278) على ذلك أمثلة جد كثيرة، راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية، وخصوصا ما بين 1311–18 وهي الفترة التي ارتفعت فيها شخصية أحماد وأصبحت موضع تملق النفعيين وضعاف النفوس الذين كان بعضهم يخاطبه بما لايستهويه من الألقاب فيردها عليه باحتقار. إلا إذا كان من سكان البادية الذين كان الكاتب منهم يضع اللفظ في غير مكانه، فيتجاوز عنه بملاحظة لطيفة توجه اليه بواسطة القواد الذين كانوا يقومون بدوريات الأمن بين القبائل أمثال عبد السلام لمراني ومحمد لمراني وغيرهما.

يصنع جميلا ولم يفعل إلا ما يستحق النقمة والانتقام كما سنرى، وويل لمن كان رأس ماله علاقة بالقصور وتعلق بما في القصور فذلك هو أحط درجات ضعف النفس وسلب الإرادة ونهاية الدرك الاسفل من القصور ولعل في التاريخ أقوى العبر منذ أقدم الدهور الى يوم النشور.

بل إن من أوضح الأدلة على وفاء الرجل وسلامة قصده وحسن طويته وأمانته، أنه ما فعل ذلك إلا من أجل أن يحول بين تلك الأموال والمدخرات وأيدي بعض اللصوص الكبار المتدثرين بأثوبة الأمناء وليسوا بالأمناء، ومن خلال الوثائق كذلك يكتشف المرء الصراع الذي كان يعاني منه أحماد بن موسى في الحفاظ على الدولة وامكاناتها، والذي لم يكن ثمة غيره من يراجع المداخيل، والمصاريف الصادر عنها والوارد في المراسي وجبايات العمال وغيرها، حتى إننا لا نفقد ملاحظته بقلم الرصاص على ما يرد من حسابات وتصحيحه أو الإشارة بعدم موافقته لما سبق، ثم هو لم ينقل كل الأموال لقصره وإنما الفائض المرتفع الذي كان يغري بعدم الأمانة، وإلا كيف كانت الإدارة تسير والجيوش على كثرتها تمون وتسلح بدون توقف؟ وشيء آخر لم يفصح عنه، كان الدافع لنقله الأموال الى قصره ثم وضعها في صناديق عليها الأختام التي لا يمكن تغييرها.

لقد كان أحماد بن موسى يقدر مسؤوليته بقدر ما كان يعرف حقيقة ونفسية السلطان الذي وفاء نصب نفسه وصيا عليه، وأنه تحول أكثر من كل سلفه، وتأثر بالحضارة الأوربية التي لم يصله منها غير ما قربه إليه الضباط الأجانب وفي مقدمتهم ذاك الذي استهواه بشتى الحيل وهو "هاري ماكلين" وشقيقه" ألن ماكلين(279) اللذين أغدقا عليه من آلات التصوير، والحاكي، والدراجات، ومضارب كرة المضرب "التنس" الذي أصبح له ملعب خاص يطلق عليه "باب طينس" بين باب البوجات، وباب رياض قبة العبيد من القصر الملكي بفاس.

وفي سبيل ذلك أن المولى عبد العزيز كما عرفت كل أوربا التي كان وكلاء الشركات بها يتهافتون على معرفته والتعرف على خدمه- ينفق الأموال التي لا تقدر، وبيوت المال

---

(279) كان غيرهما أمثال الطبيب "فيردان" و"هارولد نيكلسون" لكن مهمتها كانت تختلف عن الإثنين اللذين إنتهى بهما إلى تهريب العملة الذهبية بالصناديق ولا رقيب ولا من كان يعلم سوى العميل المهدي بن العربي لمنبهي.

كانت داخل القصور، ففي فاس مكانه أمام قبة النصر(280) شرقا وجنوبه "قوس" الأمناء الذي كان يمون الخزينة العامة بدار عديل قبل أن يوقفه أحماد بن موسى، وإذا نحن علمنا أن المولى عبد العزيز الذي كان يقضي كل أوقاته في الفراغ وليس معه غير الأوربيين والخدم، كانت طلباته لا تتوقف حتى إذا هو رأى صورة لآلة أو دراجة أو عربة أو سيارة يأمر أحد الأوربيين الذين تركهم والده بالجيش والذين لم يكونوا ينتظرون غير مثل تلك الفرص، باستقدامها، وقد كان بعضهم يمتثل دون مراجعة أو إستشارة، وكان ذلك يحرج الأمناء إن هم أمروا من السلطان الطفل بصرف أي مبلغ مهما إرتفع، وكان ذلك أيضا يوقع أحماد بن موسى، إن هو لم يوافق في موقف ليس من صالحه ولا من صالح الدولة أن يتكرر رفض أمر السلطان الذي كان بعد لم يقدر مضاعفات تلك الأوامر بل وعواقبها، ولذلك ومن أجل مصلحة السلطان أولا، والدولة ثانيا، فعل أحماد ما فعل من خزن المال في داره داخل القصر، ولذلك لما شعر أنه على وشك أن يودع الحياة، وأنه لم يعد المسؤول عن أموال الدولة ولا عن الذخائر التي صانها لم يختر لمهمته تلك غير صاحبها ومن هو أحق بها شرعا وعادة، والذي وضعه أمام مسؤلياته، وكان قد شب وترعرع، ذلك هو السلطان المولى عبد العزيز الذي يخبرنا إبن زيدان رواية عمن سمع ورأى وأخبره، وهو الطالب حمان بن عبد العزيز المكناسي أحد خدام الفراش(281) السلطاني وصاحب الحاجب الصدر أحماد بن موسى "الخصوصي والملازم لبابه، والمطلع على حركاته وسكناته البيتية العالم بتفاصيل خزائنه وذخائره، وأنه لما حانت وفاته أمر أن يحمل بعد موته جميع ما بداره من الأموال السلطانية والدخائر الى القصور الملكية ويحضر معه الوصيف ابن يدر أحد أصحاب الوضوء، إذ كان هو الواسطة في نقل تلك الأموال والدخائر من القصور السلطانية إلى القصور الوزيرية "التي هي نفسها داخل

(280) تحول إلى خزين لبعض حاجيات السلطان في عهد المولى عبد العزيز ثم إلى كتاب لتعلم القرآن عام 1938 فيه تم تعليمنا بواسطة الطيب بن أحمد العلوي رحمه الله.

(281) فرقة من الخدم يعرفون بهذا النعت، كما يعرف غيرهم ب "أصحاب السجادة – للصلاة و"أصحاب الوضوء – الذين يهيؤون الماء قصد الوضوء للصلاة ومثلهم "أصحاب المكحلة" و"أصحاب الروسى" مربط الخيول.. الخ. وهؤلاء يباشرون مهمتهم أثناء الرحلات بين القبائل.

القصور الملكية. كانت ولا تزال" وأن مفاتيح تلك الصناديق الحاوية لتلك الذخائر النفيسة الغالية كان المترجم قد سلمها للسلطان مولاي عبد العزيز..."(282).

ذلك قول إبن زيدان وما روى، ونحن نقول إذا كان ذلك بالنسبة لقصر الباهية بمراكش الذي يبعد عن القصر السلطاني، فإنه بالنسبة لفاس التي كانت أموالها أكثر ودخائرها أكبر، فإن دار أحماد التي تعرف بهذا الإسم حتى اليوم، كانت ولا تزال داخل القصر الملكي بمسجدها الخاص المعروف بـ"جامع سيدي المخفي" وجميع مرافقها وقد كان لها باب خارجي ناحية جامع الأزهار بحارة "سيد الصواف" بفاس الجديد، لا يزال قوسه الذي أغلق بالآجر ظاهرا حتى اليوم أغلق قبل الموت بأمر صاحبه وبقي الباب الداخلي المواجه ل "بوطويل" المؤدي إلى باب "البوجات". وبذلك لم تكن الأموال والدخائر في حاجة إلى أن تنقل أو تحول بل أصبحت كل تلك الأموال والدخائر بيد السلطان وأمنائه الذين وجدوا فيها ضالتهم حتى ان الدولة ستعرف الإفلاس بعد سنتين على موت أحماد.

لكن ما فعله الزمان بتلك الأموال التي أخبر حمان المذكور أنها كانت محصية بدقة، ومختوم عليها في سجل بخط أحماد بن موسى نفسه "لقد تفرقت شذر مذر، ولم ينفع فيها حذر من قدر، إنتهبها الخائنون وبذرو في شهواتهم، وحرم منها المستحقون وهو يعني الشعب حسب أسلوب عصره- وكان ما كان مما لست أذكره، وما مكث السلطان بفاس حتى أصيبت المالية بالإفلاس، وقضت الظروف بالإقتراض من الدول للوازم المصروف(283) لكن من الذي توجه للمجيء بالقرض الذي تطوع به الأنجليز حالا وبلا تردد، إنه هارى ما كلين والعميل الحقير المهدي بن العربي لمنهي كما سنرى، ومن الذي توجه لفرنسا إنه العميل الذي أوتمن وخان وهو الإسلامي الذي - نشا وشب على الرذيلة عبد الكريم بن سليمان، الذي كانت نهايته نتيجة خيانته السافرة، ولو أن إبن زيدان تخلى عن التلميح، واستعمل التصريح، وقد كان من المعاصرين لكان قد أفاد نفسه وتاريخ المغرب بدلا من قوله "وكان ما كان مما لست أذكره" بل لو ذكره لكان قد أسدى جميلا

(282) راجع الاتحاف 392/1، ثم راجع حول مائدة الغداء للمرحوم محمد المختار السوسي وهو عبارة عن مذكرات إدريس ولد منو رفيق السلطان المولى عبد الحفيظ، وحاكم مدينة مراكش وقت دخول جيوش الحماية ط. الساحل بالرباط بدون تاريخ.

(283) الإتحاف 394/1.

الى تاريخ الدولة العلوية الذي كان همه الإعلاء من شأنها رغم الأخطاء التي وقع فيها، لكنه لم يكن وحده الذي أقبر الحقيقة تورعًا وخجلا بل مثله كبير الأدباء، وأمير الشعراء، محمد غريط، في "فواصل الجمان" فقد قال هو الآخر وإن كان ما قاله لا يحتاج إلا إلى قليل من التفكير، للتمييز بين مجرمي تلك الفترة وخونتها، حتى يعرف القصد من قوله عن أموال الجبايات التي نقلت من بيت المال الى قصور أحماد، ولما توفي وزعت وضاعت وليس هي فحسب، بل حتى أموال القروض نفسها "فنشأ عن ذلك إضطرار المخزن الى القرض، وعجزه عن نقل الجباية والفرض، ولما تفرقت تلك الأموال أيادي سبا، وقال لها أهلا ومرحبا من نهب وسبا".

فألقت عصاها واستقربها النوى كما قرعينا بالإياب المسافر

وكانت قسمتها بين ستة كانوا من الفقراء، فأصبحوا من أهل الثراء، وصار رئيسهم من الكبراء الأعيان، فصدق عليه قول صاحب الحكمة والبيان(285)..الخ" فالستة من هم يا ترى. إثنان عرفناهما قبل محمد بن العربي المنبهي الذي كان مخزني "شاوش" وأصبح وزيرا بعد موت أحماد، وعبد الكريم بن سليمان، وثالثهما محمد گاباص المعروف بالجباص التلمساني الإصباني(286) الذي سنتعرف على فضائحه بعد أكثر، ثم رابعهم الحاج محمد إبن مقهجي العطارين بفاس(287) عبد السلام المقري التلمساني كذلك، والذي صدق فيه قول رسول الله(ص) لما سئل عن شر الناس فقال: من طال عمره وقبح عمله" أما بقية الستة العباس الفاسي، وعبد الله بن عبد السلام الفاسي، فسنتعرف عليهما بعد، ومهما طال الزمن فسوف يفضحهم الله جميعا أكثر بأقلام أجيال المغرب

---

(284) سنرى ذلك، في مكانه بعد حين كلامنا عن السلطان عبد العزيز المفترى عليه.

(285) فواصل الجمان 84 مصدر سابق.

(286) راجع ترجمة الجباص بأقلام الذين سخروه ضد المغرب عند "كايي-مذكرات سانت أولير، وفي جريدة السعادة ص1 بتاريخ 1917/9/7م، وسنتعرف عليه وعلى خياناته وخيانات خلفه من بعده.

(287) عبد السلام المقرئ هذا بدأ حياته مقهجي بالعطارين من مدينة فاس ثم أصبح وقافا على موردي الآجر والجير إلى البنايات التي أحدثها المولى الحسن زيادة في القصر بفاس 1303هـ ولما حل ولده محمد مكانه عين عبد السلام أمينا على بعض أسواق المدينة ثم أخذ ولده يتمكن بطرق جد، مفضوحة إلى عهد المولى عبد الحفيظ الذي تزوج إبنة المقري ومع ذلك عمل ضده وضد المغرب والمغاربة... الخ كما سنرى فيما سجله الفرنسيون أنفسهم كخدمات قام بها لصالحهم وضد المغرب والمغاربة.

الصاعدة، التي نراهااليوم تعمل على كشف الحقائق التي طالما عمل الاستعمار على طمسها حتى يبقى المجال مفتوحا لأذنابه في كل زمان، وكما نعيش ونرى من العبر في العهد الذي نحياه، والذي أصبح فيه مجاهدوا الأمس القريب تحت رحمة مجرمي وخونة الأمس القريب كذلك، وكأن لا وفاء ولا عبرة للوفاء، بل ذلك هو مقياس الشرف والاخلاق في شرعة القوم، وما ذلك إلا ترضية لدهاقنة الاستعمار، ووفاء للعهد الذي تبادلوه مع عملائهم قبل أن يغادروا هذه الديار كرها وهم حاقدون.

مهما يكن فإن أحماد بن موسى ماتوفي إلا بعد ما ترك للتاريخ من الوثائق ما يشهد أنه قام بواجبه من كل الوجوه وإن هو تعرض بعد موته لعدم العرفان، فما ذلك إلا نقمة من الذين حقدوا على السابقين جميعا لكنهم جميعا تلقوا الجزاء من عدالة السماء. وصدق الله العظيم "فمن يعمل مثقال ذرة خير يراه ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره".

إن الذين لهم تعلق بهذا الوطن وبأبطال الماضي الذين حفظوا كيان هذا الوطن، هم الذين ينصفون أحماد بن موسى بن أحماد كما ينصفون كل مخلص وفي، مهما كان وأين كان وما أكثرهم في كل جهة وفي كل قبيلة ومدينة وقرية من هذا الوطن، أما ثروة أحماد الخاصة وأسرته، فقد تعرضت للنهب والسلب بطريقة جد مفضوحة، لكن الذين تقدموا الصفوف في ذلك وقتها وهم إدريس بن العلام البخاري محمد بن بوعزة الفشار لاقوا نفس المصير وأمر عاجلا، وأما الذين فتكوا بالجميع على الطريقة الجلاوية(288) وفي مقدمتهم محمد بن عبد السلام المقرئ فقد كان جزاؤه من جنس عمله السيء ولو بعد

---

(288) كان التهامي الجلاوي الذي بدأ حياته حمارا، لما أسندت إليه السلطة في مدينة مراكش وناحيتها قد إختار طريقة عجيبة للإثراء، ذلك أنه الى جانب الدعارة التي كشفها المستشرق ماسنيون وحسبها عدا المهدي بن نونة الإسلامي ب 5000 بغي وذلك فيما نشر في ما كتب مما سماه "سنواته الحرجة" 212–213 ، نشر الشركة السعودية للأبحاث ط1989 ومهما يكن فقد كان الجلاوي يسند الحكم في المنطقة التي يريد المكر بأهلها الى لص عديم الأصل ينصبه لتسيير قبيلة ما، حتى إذا ما تمكن وأثرى بواسطة السلب والنهب، تسلط عليه وفعل به وبماله وأهله وولده ما فعل هو بغيره، حتى عرف ضحاياه من هذه الطريقة بالعشرات، وأما في مدينة مراكش، فقد كان يستعمل الدعارة التي كان إسم "الحاج" إيدار والبياز يشرفان على مواخيرها في كل من عرصت موسى وعرصت الحوت حيث يجمع منهما ما كان يحصل كل مساء، وكان يمول بيوت الدعارة بما يجمعه المسمى إبن الجيلالي الذي ترك له في مدينة مراكش تاريخا لو أن أحدهم جمعه لكون لنا صورة مكشوفة حقيقية أوضح من تلك التي وضع غوستاف بابان على التهامي الجلاوي من هو ودعارته وما قدمه من خدمات للاستعمار الفرنسي وما جره من ماسي على المغرب والمغاربة، وإذا لم يفعل السابقون الذي عاشوا تحت سلطان القهر والظلم والاستبداد فلسوف يفعل اللاحقون إن شاء الله ولقد كانت هذه مهمة الوطنيين والمثقفين من أبناء مدينة مراكش حتي يقطعوا الطريق على الذين يريدون الاقتداء =

حين، بل المغاربة في عهد الاستقلال عرضوا حريمه لتشفي ونكاية اليهودي المرابي الدرعي وصاحبه خديم المقري سابقا. الناقم الجاني أحمد البناني الذي سلب من المحجوبة المسكينة إحدى زوجات المقري الأربع أغلى ما كان بيدها من مجوهرات، كما فعل المقري قبل بشقيقة أحماد بن موسى غنيمة التي كان باب منزلها تتعفر على عتبته وجوه الكبار الساقطين من أهل فاس وهي لا تعلم حتى يشفع لهم ذلك عند أخيها الذي كان لا يزيدهم إلا مقتا، وبعد ذلك ورغم كل وسائل الانتقام، بقي أحماد وأسرة أحماد وعمل أسرة أحمد محفوظا بأقلام الصادقين من الكتاب، وذلك جزاء الأوفياء في كل زمان ومكان، بل سنرى ما جره موت أحماد على المغرب الذي إفتقده في أحرج الظروف وأضيقها، وذلك في الفصل بعد هذا، وهو فصل "بداية النهاية وتحقيق أغراض الحماية" على أن التاريخ لا يبرئ محمد بن المفضل غريط من أخطائه التي تحسب عليه(289).

لكن قبل أن ندخل في تاريخ المآسي وما سيعرف المغرب من ويلات العملاء والدخلاء من مكايد الاستعمار، وجب أن نتعرف على الرسالة التي أداها المغاربة للحضارة الإسلامية العربية خارج حدودهم وفي القارة الإفريقية، ما دمنا قد تعرفنا قبل على ما قاموا به بالنسبة للأندلس والمغرب الكبير بما فهيه مصر القاهرة.

خصوصا وأن المغرب سوف يرى من تصرفات الفرنسيين الهمج وعملهم المزري، من أجل تمزيقه وإذلاله، ما لم يكن أحد قط يتصور أن المغرب سيعرفه. ذلك أن المغاربة رغم ما آل إليه أمرهم في النصف الأخير من القرن التاسع عشر فقد كانت لهم رسالة حضارية في افريقيا.

= بالجلاوي في عهد الاستقلال باسم السياحة أولئك الذين سوف نتعرف على تهافتهم وتسابقهم في ميدان الدعارة من أجل تحقيق الثروة على حساب سمعة الشعب وأخلاقه التي يعملون على هدمها بالقسوة القاسية والعنف العنيف يتقدمهم الشيطان الأعور الذي لا محالة سوف يدفع الثمن غاليا بعقاب الله له، في هذه الحياة، ولعذاب الآخرة أشد. لأنه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الخلق عيالُ الله من آذى لله عياله آذاه الله"وأي أذى ضد الإسلام والمسلمين أكثر من نشر الخمور والفجور. إلى درجة القول بلا خجل ولا وجل "اللي ابغى يحكم لمغاربة يطلق لهم اشراب ألقحاب" أي من يريد حكم المغاربة يبيح لهم الخمر والبغاء، وامغرباه إلى أين المصير؟!.

(289) محمد بن المفضل غريط هذا بدأ حياته كرئيس لنساخي الكتب عند السلطان محمد بن عبد الرحمن أيام خلافته بفاس التي تولاها سنة 1255هـ، وكانت عادته إذا وجد والده بمراكش انتقل هو الى فاس ثم العكس. راجع الاتحاف 3/367-370 وكان محمد بن المفضل غريط يتوفر على خط جميل نقف على نماذج منه في هذا الكتاب. وأوضح أن الأخطاء التي وقع فيها محمد بن المفضل غريط هي اخلاقية وليست سياسية. كما يريد بعضهم أن يلصق به لأن الرجل انتهى الى ادمان. وهذا النوع الذي أصبح اليوم من وسائل الاستعمار الجديد لم يكن صالحا لشئ في ذلك العهد.

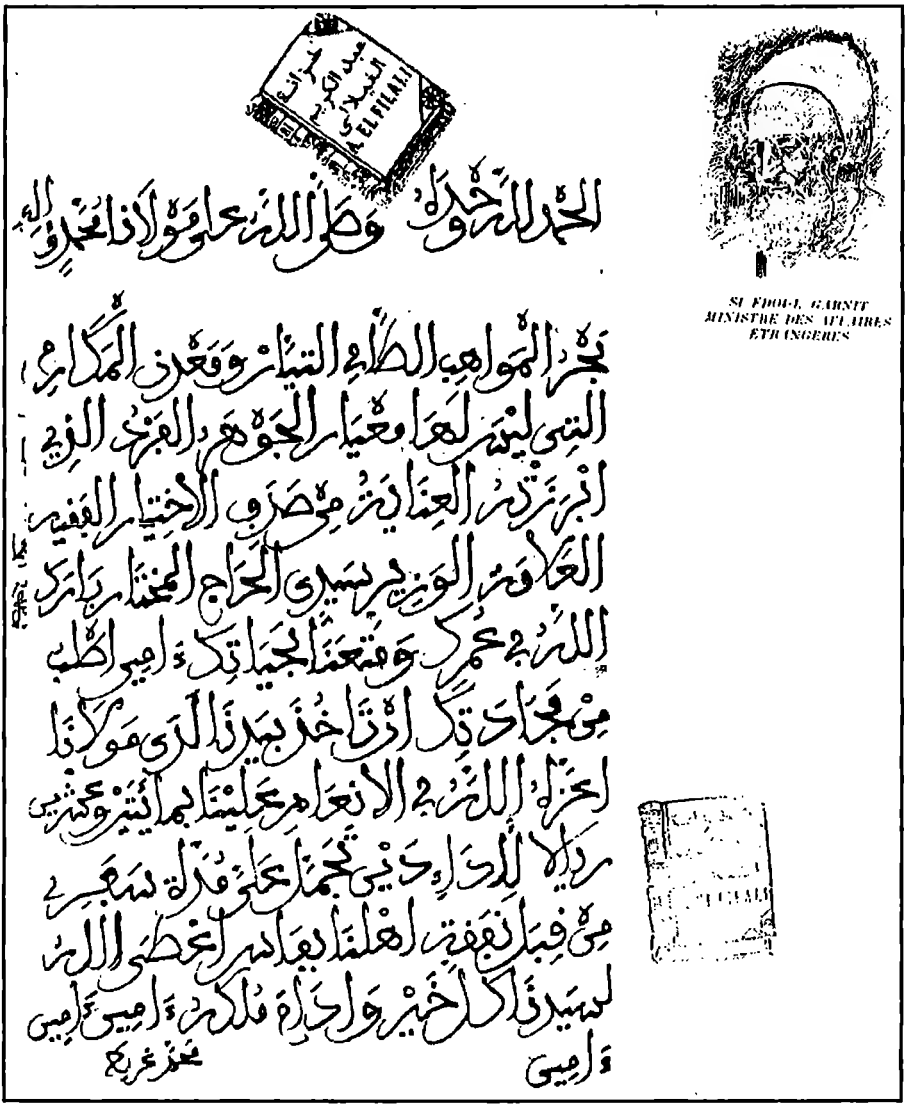

SI FDOUL GARNIT
MINISTRE DES AFFAIRES
ETRANGERES

محمد بن المفضل غريط بالأمس يتذلل ويستجدي من الحاج المختار بن عبد الله الجامعي الذي دارت عليه الدائرة بعد موت السلطان المولى الحسن

إنه التاريخ وما ينطوي عليه من عبر بعد الخروج من السجن بعد موت احمد بن موسى وقد نزل آل الجامعي من القمة إلى قعر الهاوية. وصدق الله العظيم "وتلك الايام نداولها بين الناس..."

وهذه المطالب التي قدمها لغريط حتى يرفعها الى السلطان

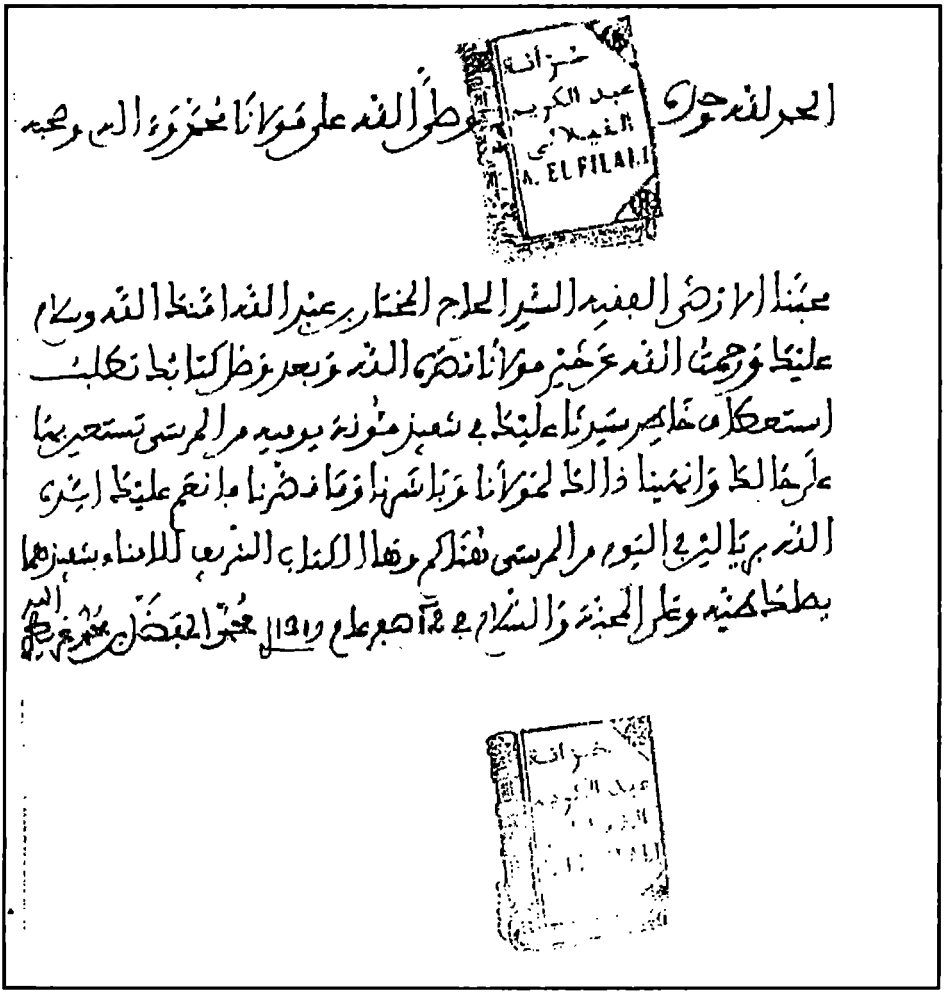

صاحب اعلى سلطة بالأمس يطلب الاحسان اليوم ممن كان بطلبه منه إنه التاريخ منذ عهد الأكاسرة كان ولا يزال وسيبقى مصداقاً لقوله تعالى: "وتلك الأيام نداولها بين الناس" الآية

الباب التاسع عشر
الإسلام وأوروبا
بداية النهايات وتحقيق أغراض الحمايات

الفصل الرابع والسبعون بعد المائة

أوروبا ودولة الأتراك المسلمين

ظهرت الثورة الصناعية أول ما ظهرت قوية بأوروبا في بريطانيا، ففي هذه البلاد ظهرت الطائفة الأولى من رؤوس الأموال ورجالاته الذين ضخموا الإنتاج ثم فكروا في الأسواق من أجل تصريفه بعدما ضاقت عليه الأسواق الداخلية وأصبح في حاجة الى أعداد أكثر وجموع أوسع، من أجل الاستهلاك ثم من أجل البحث عن المواد الخام لتمويل المعامل وتشغيل العمال الذين أصبحت تحركهم نظرية ماركس، ودعاتها من بين صفوفهم كلما حصل ما يخل بنظام السير ويدفع نحو التعطيل أو الاستغلال غير المشروع، وبالتالي فمنذ ما بعد معركة واترلو 1815م والتي إتفقت فيها دول مؤتمر فينا ضد نابليون الذي أقلق راحة أوربا حتى إنتهى إلى النفي في ألبا، ومنها فرثانية إلى فرنسا حيث نظم جيوشه من جديد، ثم دخل الحرب مع ست دول هي: النمسا، واسبانيا، وانجلترا، والبرتغال، وروسيا، وأسوج، والذين كان عدد جنودهم بقيادة بلوفر 83.417 وبقيادة ولنجتن 60.000 أما نابليون الذي قسم جنوده إلى خمس فيالق بقيادة الكونت دارلان والكونت رايل، والكونت فاندام والكونت جيرارد، فقد كان عددهم أكثر من: 106 آلاف لكن النهاية كانت قضاء ولنجتن على نابليون الذي فر منهزما بعد قتال عنيف إلى باريز يوم 10/22 وفي 29 منه أراد السفر إلى أمريكا، لكن كل المرافق والمنافذ كانت مراقبة مما دفعه إلى تسليم نفسه للأنجليز الذين أرسلوه إلى "سانت هيلانة" وبعد هذه الحرب التي قال في حقها: خسرنا كل شيء إلا الشرف إنتهت متاعب جل دول أوروبا إلا فرنسا وألمانيا كما سنرى، وبعد هذه المعركة الفاصلة ثم إرجاع لويس 18(290) إلى عرشه كما رأينا، كما

---

(290) مات عام 1824م، وحل مكانه شارل العاشر كما سبق. ثم راجع التاريخ العام لفيليب فان نس مير الأمريكي 403–415 ط بيروت 1912

إعترف الباب العالي بإستقلال الصرب الإداري 1817م، ثم بدأت الثورة اليونانية 1821م واستدرج الأتراك الى مذابح جزيرة خيوس "صاقس" كما ظهرت معارك إبراهيم باشا المصري على أشدها في إكريث واليونان سنة 1825م وفي يوم 22 أكتوبر من عام 1827م حصلت المعركة التي ظلت أوروبا تنتظرها ضد الدولة العثمانية وبحريتها التي تحكمت في البحار منذ عهد سليمان القانوني ورجالاته، بيالة، وأولوج علي، وطرغود، وسيد علي رئيس، وحكمت كمال رئيس، وبيري رئيس، وغيرهم من الجيل الذي جاء بعد بربروس وإخوته وقبلهم حيث كانت جل البحار خصوصا الأبيض والأحمر والمحيط الهندي، لا تعرف سلطانا غير سلطان المسلمين الأتراك الذين هددوا سلطان البابا بعد اللوثرية بالانقراض، يوم كان لا سلطان بأوربا غير سلطانه، الأمر الذي دفع وبإيعاز منه إلى أن أصبحت كل أوروبا ولا هم لها أفرادا وجماعات غير التفكير في القضاء على قوة الأتراك التي كانت تمثل قوة الإسلام وقتها، فتكون الحلف المقدس بين ڤينيسيا(291) وإسبانيا(292) والبابا عام 1571م وتطوع أشراف أوروبا وأمراؤها من كل بلد ضد الأتراك، وذلك من أجل ما قيل عنه "إقصاء الطورانيين وإنقاذ الملكوت" على حد تعبير بعض المؤرخين الأوربيين الذي قال أيضا: إنه لم تكن أسرة من أشراف أوروبا ونبلائها لم يكن لها من يمثلها في تلك الحملة التي لا ينكر أنها نالت من الدولة العثمانية، وإن كانت لم تحقق الغاية مما كانت تطمح له أوروبا، وما تحقق لها ما أرادت إلا سنة 1827م. وهي السنة نفسها التي هاجمت فيها فرنسا الجزائر قلب المغرب العربي.

لقد بلغت الدولة العثمانية نهاية مجدها في القرون الثلاثة، من الخامس عشر إلى نهاية السابع عشر، حيث وقفت جيوشها على أبواب فينا سنة 1095هـ/1683م بل كادت تفتحها لولا إنجاد ملك بولاندا إياها كما سجل التاريخ أن أعلام دولة آل عثمان إرتفعت خفاقة عبر ربوع الشمال الإفريقي من العريش شرقا إلى تلمسان غربا، وفي غرب آسيا من خليج العجم الى جبال القوقاز، وفي جنوب أوروبا من دلماسيا إلى بحر قزوين وقبل أن يتعرض الأتراك للتمزيق من قبل أوروبا، فقد عرفه آل عثمان من الداخل كما حصل

(291) كانت تعرف وقتها عند الأتراك وغيرهم ب"البندقية" وكان لها قبرص، وكورفو، وكريت.
(292) كانت إسبانيا وقتها تملك جنوبي إيطاليا.

في المغرب من جيش البخاري بعد موت السلطان اسماعيل 1139هـ/1726م، فقد ثار جند الانكشارية أوائل القرن التاسع عشر، وذبحوا ضباطهم ثم خلعوا السلطان سليم وخنقوه، بعدما نصبوا مكانه إبن أخيه مصطفى الرابع، فجاء مصطفى الباشا البيرقدار، وخلع هذا وولى مكانه السلطان محمود والد عبد المجيد، وفي بيت عبد المجيد إنحلت الإمبراطورية وانتهت "الخلافة"، وانقرضت السلالة العثمانية بعدما تعاقب على العرش أربعة إخوة هم: مراد، وعبد الحميد، ورشاد، ووحيد الدين، فلما ظهرت أعراض الانحلال في جسم الامبراطورية العثمانية، رفعت الممالك التابعة راية العصيان، وأولهما مملكة الصرب التي ثارت 1227هـ/1812م بزعامة ميلوس دابر نوفتش، تبعتها اليونان 1237هـ/1821م بزعامة أبسلانتي، وكان قيصر الروس إسكندر الأول ضد اليونان جريا على سياسة ميترنيخ الشهير، واحتفاظا بالقسطنطينية لتكون حصة الروس من التركة العثمانية، لكن ما حصل في صاقس من مذابح ومقتل البطريرك غيريغوريوس اليوناني، في القسطنطينية صباح عيد الفصح، أثارت أوروبا على الأتراك فاعترفت إنجلترا باستقلال اليونان عام 1239هـ/1823م فتبعتها روسيا حفاظا على نفوذها في البلقان، وانضمت إليها فرنسا، فعقدت هذه الدول الثلاث مؤتمرا في لندن عام 1242هـ/1826م قررت فيه إستقلال اليونان الإداري ثم أرسلت مذكرة بذلك الى الباب العالي بواسطة الأنجليز، فرفضها السلطان محمود بإشمئزاز، وأنكر على دول أوروبا التعرض للدولة العثمانية وشؤونها الداخلية، فأرسلت الدول المذكورة أساطيلها إلى الشرق من أجل فرض قرارها وحماية اليونان مما حل بها من مذابح، كانت السبب فيها تحرشات تلك الدول التي إتخذت منها ومن غيرها مطية للإجهاز على الرجل المريض، حيث توجه الأسطول الأنجليزي بالأبيض المتوسط بقيادة الأميرال "كارد نجتن" وحسب أوامر البحرية إلى نابوليا في اليونان، بعدما كان في مياه أزمير، حيث أصبح يتلقى الأوامر من السفير الأنجليزي في القسطنطينية وقتها، وهو: اللوردسترافورد دي ركيلف، كما لحق الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال "ريني" الأنجليزي، كما إنضم إليها الأسطول الروسي، أما الأسطول التركي بالميدان فقد أخذ يوجه ضرباته إلى اليونان بقيادة إبراهيم باشا المصري، ولما تلقى رجاء بالتوقف من الأميرال كاردنجتن، أجاب أنه لن

يفعل إلا إذا تلقى الأوامر بذلك من الباب العالي، الأمر الذي دفع أسطول الحلفاء إلى الدخول لمياه نافارينو حيث حال بين البوارج التركية والمصرية، وكان عدد التركية منها ثمانون بارجة، وبوارج الحلفاء أقل من ذلك، لكنها أقوى، مما جعلها تتفوق وتقضي على العثمانية التي لم تشرق شمس يوم 22 أكتوبر من عام 1827م/1244هـ حتى كان أسطول آل عثمان الذي دوخ الدول وساد في البحار في خبر كان، وتقول مختلف مصادر التاريخ الأوروبي المعاصر، إن معركة نافارينو تعتبر من معارك الدنيا الفاصلة، وبذلك استنفدت المحالفة المقدسة التي بدأت بتاريخ 1571م 979هـ أغراضها فأصبحت دولة آل عثمان التي كانت الحصن للإسلام والمسلمين، وقد خسرت أعنف معركة بحرية في النصف الأول من القرن 19 خسرت بعدها كل شيء، إذ دخلت الجيوش الفرنسية وقتها أرض اليونان، ثم توجهت لغزو الجزائر كما عرفت في السنة بعدها 1828م/1244هـ حرب الروس، والترك واستقلال رومانيا، وفي 1830م قامت الثورة في فرنسا، فخلع شارل ونصب لويس فيليب وفي 1831م كانت الحملة المصرية بقيادة إبراهيم باشا على سورية التي لم يخرج منها إلا سنة 1840م حين هاجمته القوات الأنجليزية والروسية، وفي سنة 1842م/1258هـ كانت حرب الأفيون، وفتح خمس موانئ في الصين للتجارة الأجنبية، وامتلك الأنجليز هونج كونج في الصين، وفي سنة 1848م 1265هـ كانت الثورة الثالثة في فرنسا، حيث سقط لويس فيليب وتألفت الجمهورية الثانية التي حولها نابليون الثالث إلى إمبراطورية عام 1853م/ 1270هـ كما فعل عمه قبل، وفي سنة 1854م/ 1271هـ كانت معاهدة بوكرهاما، وفتح اليابانيون موانئهم للتجارة الأجنبية، كما كانت حرب القرم بين الروس والترك، وكان إلى جانبهم الأنجليز والفرنسيون والإيطاليون.

لقد عرف لهذه الحرب مثل شهير قاله القيصر نقولا الثاني، لسفير الأنجليز في محادثة دارت بينهما في بطرسبورغ، حيث قال "إن بقربنا تركيا، فمن نكد الطالع أن تبقى ونحن على غير أهبة" فقد عرض بذلك على إنجلترا أن يقتسما تركيا، وكان المقصود أن تأخذ إنجلترا مصر، وكريت، ويأخذ القيصر تحت حمايته الولايات التركية في أوروبا، ومعنى ذلك بلا ريب أن روسيا تبتلع يوما ما الجنوب الشرقي من أوروبا، وهكذا لم يمض كثير من الزمن حتى وجدت الحجة الداعية لذلك، حيث تخاصم اليونان واللاتين في

القدس، فاعتمد نقولا ذلك في طلبه من السلطان أن يعترف بحق روسيا في حماية التابعين للكنيسة اليونانية في الممالك العثمانية، ولما رفض الطلب أخذ نقولا يستعد للحرب، مما دفع بالسلطان الى أن يستصرخ الدول الغربية فكانت سقستبول في القرم، مدار الحرب، وهي المركز البحري الحربي العظيم لروسيا على البحر الأسود، وقد دام حصاره أحد عشر شهرا، وهو من أشهر ما كان من حوادث الحصار في التاريخ، واضطر الروس الى إخلاء معقلهم، وبذلك إنتهت الحرب بمعاهدة باريز في 30 مارس 1856م، وكان أساس هذه المعاهدة بقاء المملكة التركية حاجزا للتعدي الروسي، وأرجعت سقستبول إلى الروس، بشرط هو العدول عن طلب حماية أحد من رعايا الباب العالي، وأن توافق على أن لا تقيم حصونا على البحر الأسود، ولا أن يكون لها فيه مدرعات حربية.

وفي سنة 1856م/1273هـ كانت معاهدة فينا، وبها غلت أيدي الروس عن الفتك بالأتراك، وفي سنة 1857م/1274هـ قامت الثورة الهندية فأخمدتها بريطانيا بالحديد والنار، وفي سنة 1860م/1277هـ كانت مذابح سوريا واستقلال لبنان الإداري، وفي عام 1864م/1281هـ كانت الحرب بين روسيا والدانمارك، حيث إنتزعت منها شلسويج وهولشتين.

وفي عام 1866م/1283هـ كانت الحرب أيضا بين بروسيا وإستريا وفي سنة 1870م/1287هـ كانت الحرب بين روسيا وفرنسا، وبالضبط يوم 19 يونيو، حيث عرفت في التاريخ بمعركة "سيدان"(293) تلك المعركة التي بدأت صباح أول يوم في شهر سبتمبر، بهجوم الباڤاريين على قرية بازييه حيث كان الفيلق الفرنسي 12 بقيادة الجنرال بيرون، بيد أن الألمان دخلوا بعدما عبروا النهر عند دونشيري إلى الغرب، مما جعل الجنرال"مكماهون" يسرع بالانسحاب الى الغرب، وقبل أن يفعل عقد مؤتمرا حربيا قرر الإحتفاظ بمواقع الجيش، وذلك ضد جهود دوكر، وتلك غلطة، مما هون الرابعة في هذه

(293) راجع تاريخ البلدة في موسوعة البستاني 10/304-5.

وتاريخ الدولة العلية مصدر سابق. والتحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية مصدر سابق كذلك. ومحاسن السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك 267-283 ط القاهرة 1938م ومعالم تاريخ الإنسانية لولز ج 4/1269-1289 ط القاهرة 1965.

الحرب، والتي إستغلها الألمان حين وقف الإمبراطور على هضبة قرب دونشيري تطل على مواقع الجيش، وكان معه الرجال الثلاث الذين صنعوا الإمبراطورية، وهم: مولنك وبسمارك، ورون، وإذا ما إشتدت المعارك في بازييه ونجح الفرنسيون نجاحا عظيما، فإن "مكماهون" صعد الى قمة بازييه ليرقب الحالة فأصابته شظية طرحته جريحا، مما دفع به الى أن يرسل الى الجنرال دوكريوليه القيادة بدله، وكان دوكر معارضا لمكماهون في خطته، ونحن هنا لا تعنينا مراحل التاريخ وما حصل بين الجنرال بيرون المصيب، والجنرال وتكفن المخطئ الذي أصبح القائد المسؤول حسب أوامر وزارة الدفاع، ورغم بسالة الفرنسيين فإنهم واجهوا قوات الألمان ومدفعيتهم التي كانت بقيادة ولي العهد، والتي نصبها فوق تلال فلورين التي نصب عليها 500 مدفع تصب نيرانها على الفرنسيين، فكانت تحصدهم حصدا بعدما تمكنوا من إسكات صفين من مدافع الفرنسيين، قرب فلورنغ فتقهقر مشاتهم، لكنهم تمكنوا من وضع صف مدافع في طرف الغابة صبت نيرانها على الفيلق الألماني الثالث فتقهقر عن الأكمة إلى الحضيض حيث أنجد، وكانت المعارك بين كروفر من الجانبين، لكن التقدم كان للالمان في غالب المواقف، وكدست جثث القتلى أشلاء من الجانبين، كما كان الرصاص ينهال كالمطر، والقنابر تنفجر بين جنبات الميدان، حيث الجنود يتساقطون بلا طائل مما دفع نابليون 3 "الإمبراطور" وقد رأى النار تقترب منه، وأن الهلاك محقق لا محالة، فجمع قواده وقال لهم يجب وقف النيران عن الجيش، وإنهاء هذه المجزرة، وأمر برفع العلم الأبيض فرفعه، لكن الألمان لم يتمكنوا من رؤيته بسبب تكاثف الدخان، فأرسل العلم بيد الجنرال ليبرون، إلى حيث يراه الألمان، لكن لما وصل الى الجنرال "وتكفن" في الجبهة مزقه قائلا: "لا نسلم" فسأله الجنرال بيرون كتابة للإمبراطور، فقال إنه قد أرسل له كتابه، وسأل وتكفن بيرون مساعدته في الهجوم على "بالان"، فطاوعه هذا وطلب فدائيين فقدم ألفان أنفسهم على أنهم لم يتقدموا كثيرا حتى سقطوا جميعا، وظل القائدان وحدهما، عند ذلك لانت شكيمة و"تكفن" ورأى أنه قد حم القضاء ولا مناص، وفيما هما عائدان رأيا الأعلام البيضاء مرفوعة من الجانبين(294).

(294) المعارك الفاصلة في التاريخ ص196 ط1927.

وجاء الكولونيل برشارت الألماني يطلب التسليم فقادوه الى الامبراطور، فلما علم أن الإمبراطور في سيدان دهش وأية دهشة، وعاد يحمل كتابا من الإمبراطور الى ملك بروسيا، وهذا نصه "بما أني لم أتمكن من الموت مع جنودي أضع سيفي على أعتاب جلالتكم" نابليون "وأسروا مع الإمبراطور 82000 جندي و558 مدفعا، وقتل من الفرنسيين في المعركة 17000، ودخل البلجيك منهم 7000، والباقون إنسحبوا قبل إنقطاع الطريق الى الغرب، وانتهت معركة سيدان، كما إنتهت معركة وترلو، وخابت أحلام نابليون الثالث هنا كما خابت آمال نابليون الأول هناك، وسقطت الإمبراطورية، وتكشفت الجمهورية الفرنسية الثالثة التي إستمرت كذلك إلى أن حطمها الألمان أيضا في الحرب العالمية الثانية عام 1940م. ولم يرفع الضيم عن الفرنسيين الا ابناء المغرب العربي.

لقد كانت الحرب بعد معركة سيدان لمقاصد أخرى لم يحلم بها نابليون، وكانت الجيوش الألمانية التي تطوق سيدان 150.000 مشاة و20.000 فارس، وبعد ذلك دخل الألمانيون باريز وتوجوا غليوم الأول ملك بروسيا إمبراطورا على ألمانيا في قصر فرساي، يوم 18 يناير من عام 1871م، وهكذا أسدل الستار على الإمبراطورية الثانية، وهي ممثلة في رجل ظلم وطغى على الشعب الفرنسي يوم حل مجلس نوابه وألقى القبض على كل المعارضين ليلا ثم صنع التصويت على إمبراطوريته التي قيل إنها قازت بـ"216. 481. 7 مقابل 684.419"(295)، ولم يكن يقصد غير العودة الى ما كانت عليه الأحوال زمن نابليون، بحيث كانت الإمبراطورية الثانية بعثا للأولى، سواء في الشكل أو المضمون، فكما سجل التاريخ عن الأولى ما عرف لها من حروب طاغية، كذلك سجله للثانية التي عرفت ثلاث حروب: حرب القرم 1853 والحرب النمسوية السردينية 1859م والحرب الفرنسية البروسية "1870–71" وإذا علمنا أنه كان لنابليون، أو بالأحرى للفرنسيين ضلع في الحيلولة دون إتحاد الجرمان الذين كانت رغبتهم أكيدة فيه، بل كراهية نابليون لبيت هبسبورغ تحول كذلك إلى بيت "هوهنزلرن" الذي إتهمه نابليون في قضية فراغ عرش الاسبان الخ.

إذا تعرفنا على كل تلك المواقف نعرف مدى الحقد الذي أصبح الألمان يكنونه

---

(295) راجع التاريخ العام لفيليب فان نس مير الأمريكي ص419 ط بيروت سوريا 1912.

للفرنسيين، وعلى رأسهم الإمبراطور الأسير الذي بعدما أخذ تقدمت الجيوش الجرمانية إلى باريز، وبدأت حصار المدينة في 19 سبتمبر 1870م حيث تحطمت آمال الفرنسيين في الدفاع عن باريز وسلم المارشال بازين للجرماني متر يوم 23 أكتوبر من نفس السنة، وبذلك كان عدد الأسرى من الفرنسيين 170.000 من الجنود، وستة آلاف من الضباط، وهو أكبر جيش أسر في التاريخ، أما باريز فقد بقي أهلها يدافعون ولم يستسلموا الا يوم 30 يونيه 1871م، وهكذا أسدل الستار على مآسى فرنسا وقد ذلت بالمعاهدة التي فرضت عليها أن تعطي للألمان ولاية الألزاس على الرين، ونصف ولاية لورين، وتؤدي غرامة قدرها خمس مليارات فرنك، وهي غرامة لم تعرف لأمة قط من الأمم فيما مضى من التاريخ، الأمر الذي دفع بالجمهوريين الحمر، وهم الإشتراكيون في باريز، إلى رفض المعاهدة ومقاومة شروطها، فأنشأوا جمعية لذلك شبيهة بالتي عرفتها باريز عام 1793م ودعوا أهل العاصمة الى التسلح، لكنهم تعرضوا لمتابعة الحكومة التي قضت عليهم بعدما دمروا وأشعلوا النار في الكثير من المباني العامة، وبعد ملاحم عرفتها شوارع باريز وميادينها، أما الجمهورية الثانية التي دامت كما رأينا، فقد حلت مكانها الجمهورية الثالثة التي تولى رئاستها كأول رئيس، المؤرخ الفرنسي "تير" أما الإمبراطورية والملكية فإن مصير آل بوربون، وآل بونابرت، مثل آل ستيوارت، قد إنتهوا إلى المنفى، ولم يعودوا منه، أما قضية الألزاس واللوريين فقد بقيت الشغل الشاغل لفرنسا والفرنسيين.

وإذا ما إنهارت فرنسا، وانشغلت بريطانيا بالعمل للإنقضاض على مصر، وفرنسا على تونس، فإن الفتن أثيرت في بلغاريا، وحصلت حربا بين الترك والروس، إنتهت بهؤلاء الى أبواب الآستانة عام 1877م، الأمر الذي أدى الى مؤتمر برلين الشهير عام 1878م والذي اتفقت فيه أوروبا بكاملها على الحيلولة بين الروس والأتراك وفي سنة 1881م/1299هـ تم للفرنسيين إحتلال تونس بإسم الحماية، وفي السنة التالية 1882م/1300هـ إحتل الأنجليز مصر بإسم الحماية كذلك، وفي سنة 1884م/1302هـ كان مؤتمر الكونغو لتقسيم القارة الإفريقية، وفي سنة 1894–95 دبرت مذابح الأرمن في أرمينيا والأناضوليا والقسطنطينية، ومحاربة الصين واليابان، وفوز هذه على تلك، ثم في سنة 1896م دبرت حرب الأتراك واليونان ورغم إنتصار الأتراك، قضت أوروبا باستقلال

جزيرة كريت(296) وولت عليها الأمير جورج، وكان في هذا دليل على نوايا أوروبا إزاء دولة الأتراك التي إلى عهد قريب كانت تمثل قوة الإسلام ومناعة المسلمين، وتحولت منذ مطلع القرن 19 إلى ما سيعرف عند الغربيين باسم "الرجل المريض" وذلك بسبب ما دب في أوصالها من علل وأمراض نشأت عن تصرفات بعض سلاطينها الأواخر حتى تناثرت من عقدهم الكثير من الولايات التي تعرضت للإهمال واستهدفت لمؤامرة الدول الأوربية شرقا وغربا.

سلطان تركيا ولد 1823 خلف والده السلطان عبد المجيد خان على تركيا 1839-61 تعرض لعصيان محمد علي بمصر في معركة 1839 حيث سلم الاسطول التركي لمحمد علي فتدخلت انجلترا وروسيا والنمسا وأجبرت ابراهيم باشا على وقف زحفه نحو القسطنطينة وارغمت محمد على معادة لندن 1841. كان للسفير الانجليزي سترانفوردي راد كليف نفوذ كبير على عبد المجيد. وفي عهده نشبت حرب 1853-1856 وأيدت كل من انجلترا وفرنسا تركيا ضد روسيا التي عارضت في فرض حمايتها على رعايا الاشراك

(قوانين ونظاماتك مندرج اولديغى مجموعه يه ضم دال ايله)

دستور

(دينلور)

مجلس والاى احكام عدليه ده مقدما ترتيب اولنوب بيك ايكيوز التمش يدى سنه سى ربيع الآخرنده طبع اولنان مجموعه ده حكمى مرعى الاجرا بولنان ومؤخرا مجلس عالى تنظيمات ودائرهٔ قوانين و نظامات قرارلريله تنظيم قلنان قوانين ونظامات جمع وترتيب قلنه رق برنجى دفعه اولمق اوزره بيك ايكيوز يتمش طقوز سنه سى شعباتى اواخرى تاريخنده دستور ناميله برقطعه مجموعه طبع ونشر اولنمشيدى تاريخ مذكور دنصكره تنظيم قلنان قوانين ونظاماتك علاوه سى ايله دفعهٔ ثانيه اولمق اوزره اشبو دستور طبع وتمثيل قلندى

انه الدستور الذي اقتبس منه المغرب عام 1908 زمن المولى عبد الحفيظ الذي وجده مهيأ زمن صنوه المولى عبد العزيز بواسطة الضباط الأحرار الذين فروا من ظلم آل عثمان

(296) راجع الموسوعة العربية 1458 ط 1965.

كلخانه ده قرائت اولنان خط همايونك صورتيدر

جمله يه معلوم اولديغي اوزره دولت عليه مزك بدايت ظهورندنبرو
احكام جليلهٔ قرآنيه وقوانين شرعيه يه كماليله رعايت اولنديغندن سلطنت
سنيه مزك قوت ومكنت وبالجمله تبعه سنك رفاه ومعموريتي رتبهٔ غايته واصل
اولمشيكن بو زاللي سنه واردركه غوائل متعاقبه واسباب متنوعه يه مبني
نه شرع شريفه ونه قوانين منيفه يه انقياد وامتثال اولنمامق حسبيله اولكي
قوت ومعموريت بالعكس ضعف وفقره مبدل اولمش وحالبوكه قوانين شرعيه
تحتنده اداره اولنميان ممالكك پايدار اوله ميه جغي واضحاتدن بولنمش اولوب
جلوس همايونمز روز فيروزندنبرو افكار خيريت اثار ملوكانه مز دخي مجرد
اعمار ممالك وانحا وترفيه اهالي وفقرا قضيهٔ نافعه سنه منحصر وممالك دولت
عليه مزك موقع جغرافيسنه واراضئ منبته سنه وخلقك قابليت واستعدادلرينه
نظرا اسباب لازمه سنه تشبث اولنديغي حالده بش اون سنه ظرفنده
بتوفيقه تعالى صور مطلوبه حاصل اوله جغي ظاهر اولمغله عون وعنايت
حضرت باري يه اعتماد وامداد روحانيت جناب پيغمبري يه توسل
واستناد برله بوندنبويله دولت عليه وممالك محروسه مزك حسن اداره سي

تقديم الدستور الذي أصدره السلطان عبد الحميد آل عثمان والذي وضعه الزعيم المصلح مدحت ومنه اقتبس
الضباط الأحرار الذين التحقوا بالمغرب أيام المولى عبد العزيز

السلطان عبد العزيز

هو عثمان نوري باشا المولود 1827 وتوفي 1900 حارب في القرم ولبنان واكْريت وبلاد العرب ورقي إلى رتبة مشير لانتصاراته في بلاد العرب 1876 دافع ببسالة عن بلاڤنا ببلغاريا في الحرب الروسية التركية 1877-78 ضد هجمات الجيش الروسي

سليمان باشا زعيم الضباط الأحرار ومدير المدرسة العسكرية ساهم ضباطها في الثورة ضد عبد العزيز خان، يوم 1876/5/28 وهو الذي تقدم الصفوف بعد التصديق على الفتوى التي قدمت لشيخ السالم خير الله بطريقة ملتوية ضد السلطان عبد العزيز فاجاب عنها: يقوله "يصح" بل هو الذي دبر الاحاطة بقصر ضولة بعجة في نفس الليلة بعد اليوم المذكور.

أبو الدستور العثماني وهو ما كان يعرف به مدحت باشا زعيم حزب الاصلاح الذي خلع السلطان عبد العزيز العثماني1876م ولقد عرف باصلاحاته الهائلة لما كان حاكما لبلغاريا 1864-69 عين الصدر الأعظم 1872 قاد الثورة 1876 ثم بعد شهور تمكن مدحت باشا من ان يجلس عبد الحميد على العرش ثم حمله على منح أول دستور تركي ولكن عبد الحميد تنكر له حينما تمكن وأقاله ثم سجنه بتهمة قتله السلطان عبد العزيز ومات مدحت في منفاه بالحجاز 1884. وأنصاره هم الذين لجأوا الى المغرب في عهد المولى عبد العزيز الذي تأثر بهم وحاول الإصلاح بوضع الدستور.

فؤاد باشا من رجالات تركيا الذين آمنوا بالإصلاح فابعدوا زمن عبد العزيز خان.

عبد الحميد الثاني ولد بتاريخ1842/9/22م وتولى مكان مراد الذي اختل عقله يوم 1876-1809م. قبل دستور مدحت 1908 ثم تراجع عنه بطريقة مفضوحة ثار عليه الضباط الأحرار 1908م ثم أجبروه على منح الدستور ثم خلعوه 1909م.

عمر باشا حضر مؤتمر باريز وكان
المفاوض باسم الباب العالي فكشف
الستارعن الرجل المريض

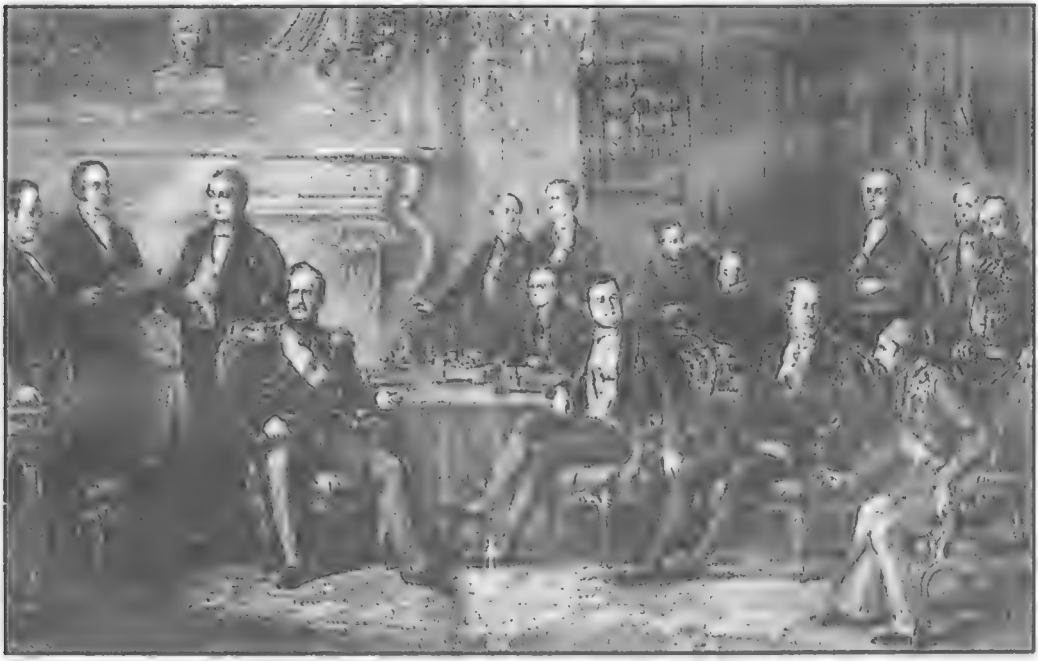

معاهدة الصلح بعد حرب القرم المعروفة بمعاهدة باريز 1856

الفهرس

الجزء الخامس

*** تتمة الباب الخامس عشر:**

الفصل الثامن والأربعون بعد المائة: درقاوة ومقاومة فساد الولاة الأتراك بالجزائر — 7

الفصل التاسع والأربعون بعد المائة: المولى سليمان يساعد الأتراك ويرفض بيعة أهل تلمسان — 17

الفصل الخمسون بعد المائة : نابليون والجزائر وأوروبا — 35

الفصل الواحد والخمسون بعد المائة: الجزائر بين الإهمال التركي والغزو الفرنسي وعمالة محمد علي والي مصر للفرنسيين ضد الجزائر — 45

الفصل الثاني والخمسون بعد المائة: الشعب والمقاومة في الجزائر — 53

*** الباب السادس عشر:**

دولة ناصر الدين الأمير عبد القادر بن محيى الدين بن المصطفى المختاري الإدريسي

الفصل الثالث والخمسون بعد المائة: أمير وحكومة وجهاد — 69

الفصل الرابع والخمسون بعد المائة: معركة وهران ومعاهدة تافنة — 79

الفصل الخامس والخمسون بعد المائة: الأمير عبد القادر وصراع عشر سنوات ضد الخونة وأبو حمار والفرنسيين — 85

*** الباب السابع عشر:**

أخطر المواقف في تاريخ المغرب السياسي ومأسيه أو المغرب ومقدمات الاستعمار

الفصل السادس والخمسون بعد المائة: المأساة الأولى: موقعة إسلي بين نجدة الاندفاع وانقلاب التاريخ — 111

الفصل السابع والخمسون بعد المائة: المأساة الثانية: المغرب والاختيار الرهيب ـــ 131
الفصل الثامن والخمسون بعد المائة: المأساة الثالثة: محنة الشعب الجزائري
بعد أميره وأثرها في مستقبل المغرب الكبير ـــ 149
الفصل التاسع والخمسون بعد المائة: المأساة الرابعة: حظ المغرب من
سياسة الانجليز ـــ 161
الفصل الستون بعد المائة: المأساة الخامسة: المعاهدة الانجليزية المغربية ـــ 171
الفصل الواحد والستون بعد المائة: المأساة السادسة: دور الإسبان
في هدم المغرب واستعماره ـــ 179
الفصل الثاني والستون بعد المائة: المأساة السابعة: تحديد مواقف
المغاربة والإسبان والانجليز قبل غزو تطوان ـــ 195
الفصل الثالث والستون بعد المائة: المأساة الثامنة: من معركة إيسلي إلى
معركة تطوان ـــ 205
الفصل الرابع والستون بعد المائة: محاولة الصحو في المغرب المريض
وحماية تونس السليبة ـــ 233
الفصل الخامس والستون بعد المائة: فظائع المحميين وحكومات القناصل
واليهود السرية بالمغرب ـــ 261
* الباب الثامن عشر:
**متاعب المغرب العربي الكبير وإرهاقه من أثر التنافس الدولي آخر القرن 19
ومطلع القرن 20**
الفصل السادس والستون بعد المائة: مؤتمر مدريد وأبعاده الاستعمارية ـــ 305
الفصل السابع والستون بعد المائة: فرنسا وسياسة التوسع ضد المغرب ـــ 327
الفصل الثامن والستون بعد المائة: المغرب بين فساد الوضع وغدر
الانجليز وتحرش الفرنسيين ـــ 341
الفصل التاسع والستون بعد المائة: العاهل الذي صارع الموت على
ظهر جواده ـــ 359

الفصل السبعون بعد المائة: افتعال تدويل الصراع على المغرب بين الفرنسيين والألمان ـــــ 263
الفصل الواحد والسبعون بعد المائة: أحماد بن موسى وال الجامعي ودوامة المؤامرات بين خدم القصور وأرباب القصور ـــــ 275
الفصل الثاني والسبعون بعد المائة: تجربة أحماد في التمكين للدولة بسحق الثورات وطرد الاستعماريين ـــــ 387
الفصل الثالث والسبعون بعد المائة: أحمد بن موسى العالم الوطني المصلح والعبرة الخالدة ـــــ 397

*** الباب التاسع عشر**

الإسلام وأوروبا بداية النهايات وتحقيق أغراض الحمايات

الفصل الرابع والسبعون بعد المائة: أوروبا ودولة الأتراك المسلمين ـــــ 411